البؤساء

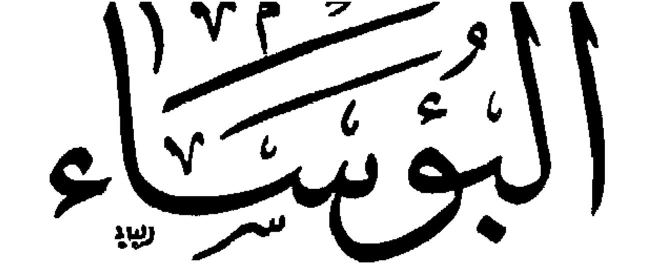


٣

دار العلم للملايين



البؤساء



لشاعر فرنسة العظيم

فيكتور هيجو

المجلد الثالث

نقله إلى العربية

منير البعلبكي

دار العلم للملايين

بيروت

LES MISÉRABLES

Par

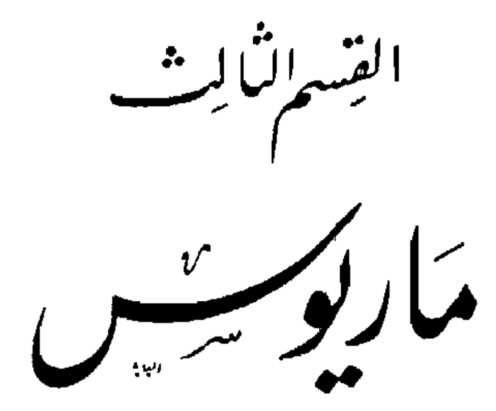
Victor Hugo

الطبعة الأولى

١٩٥٥

الطبعة الثانية

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩


القسم الثالث
ماريوس

الكتاب الأول

باريس مدروسة من خلال ذريتها

١
في نضارة الصبا

لباريس طفل ، والغابة طائر . أما الطائر فيدعى الدوري ، وأما الطفل فيدعى المتشرّد .

زاوِجْ ما بين هاتين الفكرتين ، التي تنطوي احداهما على جميع حرارة الفرن ، والاخرى على جميع ضياء الفجر . إقدح هاتين الشرارتين معاً : باريس والطفولة ؛ وعندئذ يثب منهما كائن صغير ، كان يجدر بـ « بلوتوس » * أن يدعوه Homuncio **

* Plautus شاعر لاتيني هزلي (حوالى ٢٥٠ — ١٨٤ ق . م .)
** في اللاتينية ، ومعناها الطرح ، او الجهيض .

هذا الكائن الصغير مفعم بالبهجة . إنـه لا يأكل الطعام كل يوم ، ومع ذلك فهو يمضي الى المسرح كل ليلة ، اذا رأى ذلك مناسباً . إنه مخلوق لا قميص على ظهره ، ولا حذاء في رجله ، ولا سقف فـوق رأسه . إنه مثل ذباب السماء الذي لا يملك شيئاً من هذه جميعاً . أما سنه فتتراوح ما بين السابعة والثالثة عشرة ؛ وهو يحيا مع العصابة التي ينتمي اليها ، ويضرب في الشوارع ، وينام في الهواء الطلق ، ويرتـدي سروالاً عتيقاً من سراويـل أبيه ينتهي الى عقبَيْه ، وقبعة عتيقة من قبعات أبٍ آخر تهبط الى أبعد من أذنيه ، وحِمالة بنطلون مفردة ذات حاشية صفراء . إنه يعدو ، ويتتبّع الأثر ، ويقتـل الوقت ، ويسوّد الغليون بالاستعمال ، ويُقسم مثل رجل من اهـل الجحيم ، ويختلف الى الحانات ، ويعرف اللصوص ، ويخاطب الفتيات بضمير المفرد ، ويهـذر بلغة السوقة ، ويغني اغانيَ داعرة ، وليس في فؤاده شيء رديء على الاطلاق . ذلك بأن في نفسه جوهرة ، هي البـراءة . والجواهر لا تنحلّ في الوحل . وما دام المرء طفلاً فأن ارادة الله تقضي بأن يكون بريئاً .

ولو قد سألنا هذه المدينة الهائلة : مَن ذلك المخلوق ؟ اذن لاجابت : إنه ولدي الصغير .

٢
بعض أماراته الخصوصية

إن « متشرد » باريس هو قزم العملاقة .

ولن نبالغ . فعند مَلاك الساقية هـذا قميص في بعض الاحيان ؛ ولكنه في هذه الحالة قميصٌ مفرد ليس غير . وعنده حـذاء في بعض

الاحيان ؛ ولكنه في هذه الحالة حذاء من غير نعل . وإن له في بعض الاحيان مأوى ، وهو يحبه ، لأنه يجـــد فيه أمه ؛ ولكنه يفضّل الشارع ، لانه يجد هناك حريته . إن له أَلعابـــاً خاصة به ، وحِيَلاً خاصة به قائمة على اساس من بغضه للبورجوازيين . وإن له استعاراتـه الخاصة . فهو يكنّي عن موت الشخص بـ « أَكْلِ الهندباء البرية من جـذورها » . وإن له مِهَنَهُ الخاصة ، مثلَ إحضار عجلات الكراء ، وخَفض مـواطىء العربات ، وقَبْض مكوس المرور من ضفة الشارع الى الأخرى حين تهطل الامطار الغزيرة ، وهو ما يدعوه « إقامة جسور الفنون » ، ويذيع الخطب التي تُكثِر السلطات من إلقائها لمصلحة الشعب الفرنسي ، ويكشط العروق التي تتصل ما بين بلاط الشوارع . وإن له عملته الخاصة ، وهي تتـــألف من مختلف ضروب القِطَع النحاسية الصغيرة المطرّقة التي يجدها المرء على الطريق العام . ولهذه العملة الغريبة ، التي يُطلق عليها اسم الـ « رِزَق » ، دورة نظامية لا تعرف التغيّر في دنيا الاطفال الغجرية الصغيرة هذه .

و « المتشرد » مجموعة حيواناته الخاصة التي يدرسها في الزوايا بعناية : بقّة الرب الرحـــيم ، الدودة ذات الرأس الميت ، عنكبوت الحقل ، « الشيطان » ، وهي حشرة سوداء تهددك بأمالة ذيلها المسلّح بقرنين . وان له غوله الخرافيّ ذا الحراشف تحت البطن ومع ذلـــك فهو ليس بجرذون ، وذا البثور على الظهر ومع ذلـك فهو ليس بمُلجوم * — غوله الذي يعيش في ثقوب الاتاتين العتيقة ، والبواليع الجافة : مخلوق أسود ، مخملي ، دبق ، زحّاف ، بطيء في بعض الاحيان ، سريع في بعض الاحيان ، لا يصرخ البتة ولكنه يحدّق ، وهو فظيع جـداً الى حدّ أن احداً من الناس لم يره من قبل . وهو يدعو هـــذا الغول « الشيء الاصمّ » . والبحث عن « الاشياء الصمّ » بـين الحجارة متعة

* الملجوم : ضفدع الجبل .

خطرة الى حدّ مثير . ومتعة اخرى من مُتعهِ ، ان يرفع بلاط الشارع فجأةً ويرى قمل الخشب . وكل منطقة في باريس مشهورة باللُّقى التي يجدها المرء فيها . هناك حُرُش * في مستودعات الخشب والفحم بال «أورسولين » ؛ وهناك « كثيرات الارجل » في ال « بانتيون » ، وهناك أشراغ ** في خنادق ال « شان دو مارس » .

وهذا الطفل مشهور بأجوبته المفحمة مثل تاليران : إنه لا يقلّ عنه شكاً وسخرية ، ولكنه اكثر اخلاصاً . ولقد فُطِرَ على ضرب غريب من المزاج الطروب غير متوقع . إنه يُذهل صاحب الدكان بضحكه المرح الذي لا سبيل الى وقفه . إن سُلّمه الموسيقية لتنزلق من الكوميديا الرفيعة الى المهزلة الرخيصة .

وتمرّ جنازة . ويتفق ان يكون في الموكب طبيب . فيصيح « متشرد » :

— « غريب ! من أيّ عهد بدأ الاطباء يشيّعون ضحاياهم ؟ »

ويضمّ حشد من الناس « متشرداً » آخر . ويلتفت اليه رجل مقطب الوجه زيّن نفسه بنظارة وحليٍّ ويقول في اشمئزاز :

— « انت ايها الوغد ، لقد كنت تخاصر امرأتي ! »

فيجيبه « المتشرد » :

— « انا يا سيدي ! تعال وفتّشني ! »

---

* جمع حريش ، وهي دويبة تعرف أيضاً بأبي مقص ، وثاقب الاذن .

** جمع شرغ ، وهو ولد الضفدع .

٣
إنه قريب إلى النفس

وفي المساء، وبفضل بضع دريهمات يعرف دائماً كيف يحصل عليها، يدخل «الطرح» الى احد المسارح. فما ان يجتاز تلك العتبة السحرية حتى ينتقل من حال الى حال. كان «المتشرد» *Gamin*، فأمسى «متشرد باريس» *Titi* والمسارح أشبه شيء بضرب من المراكب مقلوبة رأساً على عقب، وقد جعل قعرها في اعلاها. وإنما يحتشد «متشردو باريس» في هذا القعر. و «متشردو باريس» بالنسبة الى «المتشرد» بمثابة الفراشة بالنسبة الى اليرقانة *. إنها هي هي، ولكنها مزودة بجناحين يمكنانها من الطيران في الجو. وبحسبه ان يكون هناك، بأشراق سعادته، وبقوة حماسته وبهجته، وتصفيق يديه الشبيه بتصفيق الاجنحة حتى يجعل من ذلك القعر الضيق، الآسن، المظلم، القذر، غير الصحي، البشع، المقيت قطعة من الجنة نفسها.

أعط الكائن البشري ما لا غناء فيه، واحرمه مما هو ضروري، تخلق «المتشرد».

و «المتشرد» ليس خلواً من كل ميل الى الادب. ولكن نزعته هذه — ونحن نقول هذا بالقدر الملائم من الاسف — ليست نحو الآثار الكلاسيكية. فهو بطبيعته قليل الحظ من الروح الاكاديمية. وهكذا نقول، على سبيل المثال، ان شعبية مادموزيل مارس ** بين هذا الجمهور الصغير المؤلف من اطفال زنجين كانت متبلة بشيء من التهكم. كان «المتشرد» يدعوها مادموزيل «موش» *Muche* ***.

---

* اليرقانة: الدودة التي تتحول الى حشرة.

** Mars كاتبة مسرحية فرنسية شهيرة (١٧٧٩ - ١٨٤٧)

*** اصطلاح عامي يؤدي معنى الشاب المجهول.

وهذا المخلوق يصرخ ، ويهزأ ، ويسخَر ، ويبارك . إن له خرَقاً مثل طفل من الاطفال ، واسمـــالاً مثل فيلسوف من الفلاسفة . وهو يتصيد السمك في البالوعـــات ، ويصطاد الطير في المستنقعات ، ويعتصر البهجة من القذارة ، ويقـــذف مفارق الطرق بثمرات قريحته الوقادة . يتهكم ويلسع ، يصفر ويغني ، يهال ويوسِع سبّاً ، يلطّف هلّلويا * بـ « ماتانتور لوريت » ، ويرتّل من غير تغيير في لهجة الصوت جميعَ الاوزان من مزمور de Profundis ** حتى Chi - en Lit *** ، ويجد من غير ان يبحث ، ويعرف ما يجهله . اسبارطيّ حتى المَكـْر ؛ مجنونٌ حتى الحكمة ؛ غنائي حتى الاقذاع ، يجـــلس القرفصاء على الاولمب ، ويتمرّغ في المزابل ، ويخرج منها مغطّىً بالنجوم . ان « منشرّد » باريس هو « رابليه » **** صغيراً .

إنه لا يرضى عن بنطلونه إلا اذا كان ذا جيبٍ خاص بالساعة .

وهو لا يدهش الا نادراً ، ولا يروَّع إلا في أحوال اكثر ندرةً ؛ وهو يحوّل الخرافات الى أبياتٍ من الشعر غير الموزون ويغنيهـــا ، ويحطم المبالغات ، ويسخر من الغوامض والاسرار ، ويخرج لسانـه في وجه الاشباح ، وينزع مسحة الشّعر عن التمدح والفخر ، ويُدخـــل الـكاريكاتور على كل تضخم ملحميّ . وليس مردّ ذلك الى انه ذو نزعة نثرية . لا ، فالمسألة بعيدة عن ان تكون كذلك . ولكنـه يستعيض عن الاحلام الفخمة باختلاط الصور على نحوٍ هزليّ ضاحك . فـاذا برز

---

* تعبير كنسي . والكلمة عبرانية معناها « سبحوا الرب . »

** هو المزمور المئة والثلاثون ، ومعناة الحرفي « من الاعماق » .

*** اسم أغنية . ومعناها الحرفي « قناع الكارنافال » .

**** الاديب الفرنسي الشهير ، وقد سبق التعريف به .

له آداماستر * صاح :

– « مرحباً بك ، ايها الغول ! »

٤

إنه قد يكون ذا غناء

تبدأ باريس بالمتبطّل المضيّع وقته في التحديق الى كل شيء والاصغاء لكل شيء وتنتهي بالمتشرد – كائنان ليس ثمة مدينة اخرى جديرة بها . الرضا المنفعل الذي يكتفي بمجرد النظر ، والمبادرة التي لا تنضب . « برودوم » و « فويُو » . إن باريس وحدها تحتنق هذين في تاريخها الطبيعي . إن الملكية كلها لمنطويةٌ في المتبطّل المضيّع وقتَه . وإن الفوضوية كلها لمنطوية في المتشرد .

إن طفل الضواحي الباريسية الشاحب هذا ليعيش ، وينمو ، ويقتحم المآزق ويخرج منها ، في غمرة من الآلام ، شاهداً مروِّياً على واقعنا الاجتماعي ومشكلاتنا الانسانية . إنه يحسب نفسه مُهمِلاً ، ولكنه ليس كذلك . وهو ينظر ، مستعداً لان يضحك ، مستعداً لشيء آخر ايضاً . ألا فليسع التحامل ، وسوء الاستعمال ، والخزي ، والاضطهاد ، والجور ، والاستبداد ، والبغي ، والتعصب ، والطغيان . ولتحذرْ « المتشرد » الفاغر فاه .

إن هذا الصبيّ سوف يكبر .

* Adamastor أو « عملاق العواصف » شخصية روائية ابتدعها كاموئين اكبر الشعراء البرتغاليين في قصيدته Lusiades حيث يروي مغامرات فاسكا داغاما ، فما إن يعتزم المكتشف البرتغالي الشهير اجتياز « رأس العواصف » الذي دعي في ما بعد « رأس الرجاء الصالح » حتى يبرز له هذا العملاق ويمنعه من الذهاب إلى ابعد .

من أيّ طين ُجبل ؟ من حمأة الشارع الاولى . حفنةٌ من وحل ، ونفخةٌ ، فاذا آدم بين يديك ! يكفي ان يمرّ ربٌ من هناك . ولقد مرّ بالمتشرد رب ما ، دائماً . فلحظّ أثره في هذا الكائن الصغير . وانما نعني بكلمة الحظ هذه ، المصادفة بعضَ الشيء . والان ، أيقدّر لهذا القزم المجبول بالتراب العامّ الغليظ ، هذا الجاهل ، الأميّ ، المروّع ، السوقيّ ، الغوغائي ، ان يصبح أيونياً * أم بيوتياً ** ؟ إنتظِرْ فأن *curris rota* روح باريس ، هذا الشيطان الذي يخلق أولاد المصادفة ورجال القدر ، عاكساً عمل الخزّاف اللاتيني ، يصنع من الجرة زهريةً نفيسة .

٥

حدوده

إن « المتشرد » يحب المدينة ، ويحبُّ العزلة ايضاً ، إذ كان فيه شيء من الحكيم . انه *urbis amator* * مثل فوسكوس و *ruris amator* ** مثل فلاكوس .

إن التسكع المتفكر ، يعني التبطّل ، هو عند الفيلسوف وسيلة حسنة من وسائل قتل الوقت ، وبخاصة في ذلك الضرب من الريف النغل ، البشع ولكن الغريب ، والمكوّن من طبيعتين ، الذي يحيط ببعض

---

* éonien نسبة الى « أيونيا » في آسيا الصغرى القديمة . وكانت لهجة الايونيين اليونانية معروفة بالعذوبة والرقة .

** béotien نسبة الى « بيوتيا » وهي من مقاطعات بلاد الاغريق القديمة ، ويعرف اهلها بالجلافة وعدم المبالاة بالجمال الفني .

*** في اللاتينية ، وتعني : « هاوي المدينة . »

**** في اللاتينية ، وتعني : « هاوي الريف . »

المدن الكبرى ، وبباريس على وجه الخصوص . إن دراسةَ ضاحيةٍ ما لا تعدو ان تكون دراسةً لمزدوج الطبيعة . نهاية الاشجار ، وبداية المنازل ؛ نهاية الاعشاب ، وبداية الطرق المعبّدة ؛ نهاية الاثلام ، وبداية الدكاكين ؛ نهاية آثار العجلات العميقة ، وبداية الآلام ؛ نهاية الخرير الالـهي ، وبداية الضوضاء البشرية . ومن هنا كان الاهتمام بها فائقاً العادة .

من هنا كانت هذه المواطن غير المغرية ، الموصوفة دائماً بأنها كئيبة هي المواطن التي يختارها الحالم لنزهاته التي تبدو وكأن ليس لها هدف ما .

ومدبج هذه السطور تسكع دهراً طويلاً حول « باب باريس » ، ولقد أفاده ذلك مَعيناً من الذكريات البعيدة الغور . فهذا العشب الخليق ، وهذه الازقة الكثيرة الحجارة ، وهذه الطباشير ، وهذا التراب الكلسي الممزوج بالصلصال ، وذلك الجنبين ، وتلك الرتابة الفظة التي تتكشف عنها الارض المَوات والاراضي التي لم تُزرع ، وطلائع نباتات البساتين وقد نُمت فجأةً في ارض غائرة ، وذلك المزيج المؤلف من بريّ ومَدنيّ ، وهذه الرُقع الواسعة المقفرة حيث يقيم طبّالو الحامية مدرستهم الصاخبة ويقلدون دمدمة المعركة ، وهذه العزلة التامة نهاراً ، وتلك المهالك ليلاً ، والطاحون العجوز المتقلقلة التي تدور مع الريح ، والدواليب الرافعة للاثقال في مقالع الحجارة ، والحانات القائمة عند زوايا المقابر ، والسحر الخفي الذي لتلك الجدران الكالحة العالية التي تقطّع على نحو مربّع اراضيَ مترامية الاطراف لا تكاد تُرى في المدى البعيد إلا رؤية ضبابيةً ولكنها مغرّقة بأشعة الشمس ، حافلة بالفراشات — كل اولئك كان يجذبه ويأخذ بمجامعِ قلبه .

ولعله لا يوجد فوق ظهر الارض احد لا يعرف هذه المواطن الفريدة : « لا غلاسيير » ، و « لا كونيت » ، وجدار غرونيل

المائل المرقّش بقذائف المدافع ؛ والـ « مون بارناس » ؛ و « لا فوسّ أو لو » ؛ وشجرات البندق البيضاء على ضفاف المارن العالية ؛ والـ « مون سوري » ؛ و « لا تومب إيسوار » ؛ و « لا بيير بلات دو شاتيون » ، حيث يوجد مقلع حجارة مستنفَد لم بعد يصلح لغير إنبات الفُطر ، فهو موصد على مستوى الارض بباب يُرفع ويوضع باليد ذي ألواح متهرئة . و « ريف رومة » فكرة . و « ضاحية باريس » فكرة ثانية . وليس إلا سطحياً ذلك النظرُ الذي لا يري في كل ما يشكّل أفقنا غيرَ حقول ، وبيوت ، واشجار . إن مظاهر الاشياء هي أفكار الـهية . والمكان الذي يتصل عنده السهلُ بالمدينة يحمل دائماً طابعاً لا سبيل الى وصفه من الكآبة العميقة . هناك تخاطبك الطبيعة وتخاطبك الانسانية في آنٍ معاً . هناك تبرز الأصالات المحلية .

وكل من هام على وجهه ، مثلنا ، في تلك البقاع المنعزلة المحاذية لضواحينا التي نستطيع ان ندعوها « يَمْبوس » * باريس ، قد لمح هنا وهناك ، في البقعة الاكثر إقفاراً ، ولحظةَ كان على غاية من عدم التوقع ، خلف سياج مهزول من الاشجار الشائكة ، او عند زاوية جدار كئيب ، أطفالاً مجتمعين على نحو مشوش صاخب ، اطفالاً شاحبي الوجوه ، موحَلين مغبّرين ، ممزقي الثياب ، متنفشي الشعر ، يلعبون لعبة المُدْية والوتد متوّجةً بالبنفسج ، انهم جميعاً أطفالٌ آبقون من الأسر الفقيرة . إن الجادة الخارجية هي مَدامهم التنفّسي ، وان الضاحية ملكهم . هناك كان من دأبهم ابداً ان يتنزهوا بدلاً من الذهاب الى المدرسة . هناك يغنون ، في براءة ، مجموعة اغانيهم القذرة . إنهم هناك ، او

---

* أليَمْبوس ، في العقيدة الكاثوليكية ، موطن بين الجنة والجحيم تستقرّ فيه ارواح الرجال الصالحين الذين توفوا قبل مجيء المسيح كما تستقرّ فيه ارواح الاطفال الذين ماتوا قبل أن يعمدوا . وهذا يذكّر بالأعراف في العقيدة الاسلامية ، وهو سور بين الجنة والنار .

على الاصح ، انهم يعيشون هناك ، بعيدين عن كل عين ، وسط اشعة نوار او حزيران الرقيقة ، راكعين حول حفرة في الارض ، لاعبين بالكُرّات ، متنازعين على ارباع الـ « سو » ، متحرّرين من المسؤولية ، مرسَلي الاجنحة ، مطلَقي السراح ، سعداء . فما إن يروا اليك ، حتى يتذكروا أن لهم صناعة ، وان عليهم ان يكسبوا رزقهم ، فاذا بهم يعرضون عليك ان تشتري جورباً صوفياً عتيقاً مليئاً بالخنافس او باقة من الزنابق . وهذه الاجتماعات بالاطفال الغريبين هي احدى المِنَن الفاتنة ، المحزنة في الوقت نفسه ، التي يقع عليها المرء في ضواحي باريس .

وقد يكون بين هذا الحشد من الغلمان ، في بعض الاحيان ، بضع فتيات صغيرات — أهنّ أخواتهم ؟ — يكدن ان يكنّ شابات ، مهزولات ، محمومات ، خلعت عليهن الرياح السافعة ضروباً من القفافيز ، وعلا النمشُ وجوههن ، واتخذن قبعاتٍ من سنابل الجاودار والخشخاش البري ، مبتهجاتٍ ، شاردات الأبصار ، حافيات الأقدام . إننا لنرى بعضهن يأكلنَ حبات الكرز وسط القمح الناهض على سُوقه . واننا لنسمعهن في الماء يضحكن . والواقع ان هذه الجماعات ، التي تجلوها أشعة الظهيرة القوية جلاء دافئاً ، او التي تلمح في الغسق ، لتشغَل المتأمل فترة طويلة ، فتختلط هذه الرؤى بأحلامه .

باريس نقطة الدائرة ؛ والضاحية محيط هذه الدائرة . — ذلك هو العالم كله عند هؤلاء الاطفال . انهم لا يغامرون في الذهاب الى ما وراءه ابداً . وليس في استطاعتهم بعدُ ان يعيشوا خارج الجو الباريسي اكثر مما يستطيع السمك ان يحيا خارج الماء . فعلى بُعد فرسخين من باب المدينة ، لا يوجد في نظرهم شيء . إن « إيفري » ، و « جانتي » ، و « آركوْيْ » ، و « بيلفيل » ، و « اوبرفيلييه » ، و « مينيلمونتان » ، و « سوازي لو روا » ، و « بيلانكور » ، و « مودون » ، و « إيسي » ، و « فانف » ، و « سيفر » ، و « بوتو » ، و « نوْيي » ، و « جينفيلييه » ، و « كولومب » ، و « رومانفيل » ، و « شاتو » ، و « آسنيير » ،

و « بوجيفال » ، و « نانتير » ، و « آنغيان » ، و « نوازي لو سيك » ، و « نوجان » ، و « غورناي » ، و « دوانسي » ، و « غونيس » – عند هذه المواطن ينتهي الكون .

٦
قليل من التاريخ

في تلك الفترة – برغم انها تكاد تكون معاصرة – الجارية فيها أحداثُ هذه القصة ، لم يكن ثمة ، كما هي الحال اليوم ، ضابط بوليس عند كل زاوية من زوايا الشوارع (وهي حسنة ليس لدينا متسعٌ من الوقت للاسهاب فيها) ؛ كانت باريس تغص بالاطفال المتسكعين . وتشير الاحصاءات الى ان نحواً من مئتين وستين طفلاً لا مأوى لهم – في المتوسط – يقبض عليهم البوليس سنوياً ، في الاراضي غير المسيّجة ، وفي البيوت التي لمّا يتمّ تشييدها ، وتحت قناطر الجسور . ولقد أنتج احدُ هذه الاعشاش ، ولا يزال شهيراً الى اليوم ، « سنونو جسر آركولا » . والى ذلك ، فهذا هو أشد أعراضنا الاجتماعية أذىً وتخريباً . إن جميع جرائم الانسان لتبدأ بتشرد الاطفال .

ومع ذلك فيتعين علينا ان نرتضي باريس . وهذا الارتضاء حق ، الى درجة نسبية ، وبرغم الذكرى التي استرجعناها منذ لحظة . فبينا نجد في كل مدينة كبيرة اخرى ان الطفل المتسكع هو الرجل الهالك ؛ وبينا نجد في جميع المواطن تقريباً أن الطفل المستغرق في بطالته قد نذر نفسه واستسلم ، بمعنى من المعاني ، لضرب من الانغماس المشؤوم في الرذائل العمومية التي تفترس فيه الحشمةَ والضمير ، نرى ان متشرّد باريس – ونحن نصرّ على ذلك – برغم خشونته البالغة ، وانثلام شرفه

في الظاهر – يكاد يكون سلبياً لم يمسّ ، باطنياً . وانه لشيء رائع جدير بالتأمل ، شيء يلتمع في الطهارة الجيدة التي تكشّفت عنها ثوراتنا الشعبية : أن نزاهةً ما ، تنشأ عن الفكرة التي تملأ هواء باريس كما يملأ الملح ماء المحيط . إن استنشاق المرء هواء باريس يحفظ عليه نفسه .

وما نقوله هنا لا يُزيل ، بحال من الاحوال ، انقباض الصدر الذي نستشعره كلما التقينا واحداً من هؤلاء الاطفال الذين يتراءى لنا وكأن روابط الاسرة المتهدمة تطفو من حولهم . ففي حضارتنا الحالية ، التي ما تزال بعيدة جداً عن الكمال ، ليس من غير السويّ ان نرى كسرات الأُسَر هذه تُفرغ نفسَها في الظلام ، غير عاوفة ، الا نادراً ، ما الذي حلّ بأولادها ، طارحة فلذاتٍ من حياتها على الطريق العام . ومن هنا تنشأ المقادير المظلمة . وهذا ما يُعرف – ذلك ان الشيء الحزن قد صاغ مصطَلَحهُ – بـ« إلقاء الطفل على حصباء الطريق في باريس » .

ولنقل بالمناسبة ان هذا التخلي عن الاطفال شيء لم تعمل الملكيات القديمة قطّ على إخماده . إن قليـلاً من مصر ومن بوهيميا في الطبقات الدنيا قد لاءم الطبقات العليا ولبّى مصالح الاقوياء . ان كراهية تعليم اطفال الشعب كانت عقيدة جوهرية . أيّ فائدة ترتجى من « الانوار الجزئية » ؟ ذلك كان شعارهم . ومن هنا كان الطفل المتسكع حصيلة الطفل الجاهل .

وفوق هذا فقد كانت الملكية في حاجـة الى الاولاد ؛ وهكذا ألقت على الشوارع نظرة خاطفة .

ففي عهد لويس الرابع عشر – لكي لا نذهب الى ابعد – رغب الملك بحق ، في ان ينشيء اسطولاً . كانت الفكرة جيدة . ولكن لننظر الى الوسيلة . إن بلداً ما ، لا يستطيع ان يملك اسطولاً اذا لم يكن ثمة ، الى جانب السفينة الشراعية ، دمية الرياح ، مركب آخر قادرٌ على ان يجري بالجذاف او بالبخار الى حيث يريد لكي يقطرها عند الحاجة .

وآنذاك كان سجن الاشغال الشاقـــة بالنسبة الى الاسطول بمثابة السفن البخارية اليوم . ومن هنا ، كان ينبغي ان تكون ثمة سجون خاصة بالاشغال الشاقـــة . ولكن سجون الاشغال الشاقـــة لا تتحرك الا بالأشغاليين . واذن ، فيجب ان يكون ثمة اشغاليون . ومن طريق البرلمانات ومدراء المقاطعات صنع كولبير * اكبر عـــدد ممكن من رقيق الاشغال الشاقة . ونهض القضاء بالمهمة في حماسة . لقد أبقى رجلٌ قبعته على رأسه أمام موكب دينيّ ، وهي عادة هوغونوتية ، فأرسل الى سجن الاشغال الشاقة . وكان الشرطة اذا ما وجـــدوا في الشارع غلاماً قد بلغ الخامسة عشرة ولم يكن له مكان يبيت فيه ، ساقوه الى سجن الاشغال الشاقة . عهدٌ عظيم وعصرٌ عظيم .

وفي ظل لويس الخامس عشر اختفى الاطفال من باريس . لقـــد ساقهم البوليس لغرض خفيّ لم يدرِ احـــدٌ ما هو . وتهامس الناس باحداثٍ رهيبة مروّعة عن حمّامات الملك الارجوانية . وانما يتحـــدث باربييه ** ، في سذاجة ، عن هـــذه الاشياء . ولقد اتفق في بعض الاحيان ان الضباط ، وقد اعوزهم الاطفال ، اخذوا بعض من كان لهم آباء . وهجم الآباء ، يائسين ، على الضباط . وفي مثل هذه الاحوال كان البرلمان يتدخل ويشنق ـ مَن ؟ الضباط ؟ لا . الآباء !

* Colbert رجل الدولة الفرنسي المشهور (١٦١٩ – ١٦٨٣)

** Barbier مؤرخ فرنسي معروف (١٦٨٩ - ١٧٧١) أرخ للحقبة الممتدة ما بين عام ١٧١٨ وعام ١٧٦٣ .

٧

سوف يحتل المتشرد مكانه

بين طبقات الهند

إن أخوية المتشردين الباريسية تكاد ان تكون طبقة من طبقات الهند الاجتماعية المغلقة . وفي استطاعة المرء ان يقول : إن احداً لا يريد ان تكون له علاقة بهم .

وكلمة « المتشرد » هذه طُبعت أول ما طُبعت ، وانتقلت من اللغة العامية الى لغة الادب ، عام ١٨٣٤ . وانما كان ظهورها للمرة الاولى في كتيّب اسمه « كلود غو » *Claude Gueux* . ولقد احدث ذلك هزة عنيفة . وسرت الكلمة وحازت القبول

والعناصر التي هي قوام الأجلال بين المتشردين مختلفة جداً . فقد عرفنا وجرّبنا واحداً كان يتمتع باعظم الاحترام ويحظى باكبر الاعجاب لانه رأى رجلاً يسقط من ابراج نوتر دام ؛ وآخر لانه وُفق الى ان يشق طريقه الى الفناء الخلفي حيث وضعت مؤقتاً تماثيل قبة الانفاليد وسرق بعض الرّصاص ؛ وثالثاً لانه بَصُرَ بعربة مسافرين منقلبة رأساً على عقب ؛ ورابعاً لانه عرف جندياً كاد يفقأ عَين رجلٍ من البورجوازيين .

وهذا يفسّر ذلك التعجب الذي أرسله متشردٌ باريسي ، وانها لزفرة عميقة يسخر منها الدهماء من غير ان يفهموا : « اوه ، يا الّهي ! يا الّه الآلهة ! الستُ سيء الحظ ؟ فكر أني لم أرَ الى الآن شخصاً يسقط من الطابق الخامس ! » ، ناطقاً بهذه الكلمات بغُنّة خاصة لا سبيل الى التعبير عنها .

وما أجلها كلمةً تصدر عن فلاّح ! يقول احدهم : « يا أبا فلان ، إن الداء قد أمات زوجتك ؛ فلمَ لم تستدعِ طبيباً ؟ » فيجيبه الاخر : « ولماذا يا سيدي ؟ اننا نحن الفقراء يجب ان نموت بأنفسنا ! » ولكن اذا كانت انفعالية الفلاح كلها منطوية في هذه الكلمة فان جميع الفوضوية المتحررة التي تسِمُ طفلَ الضواحي منطوية في هذه الكلمة الاخرى : كان احد المحكوم عليهم بالموت يصغي الى الكاهن المرّف الجالس أمامه في العربة التي تُقلّه الى المشنقة . فصاح أحد غلمان باريس : « **إنه يتحدث الى كاهنه . أوه ، يا له من جبان !** »

إن قدراً من الجرأة في الامور الدينية ليرفعُ من شأن « المتشرد » . فلأن يكون المرء متزندقاً شيءٌ ليس بالقليل .

وهم يرون ان من واجبهم ان يشهدوا إعدام المحكوم عليهم بالموت . إنهم يشيرون الى المقصلة ويضحكون . وهم يخلعون عليها مختلف الالقاب : « **نهاية الحساء** » - و « **العاوية** » - و « **الامّ السماويـــة** » - و « **القمة الاخيرة** » الخ . ولكي لا يفقدوا شيئاً من المشهد ، تراهم يتسوّرون الجدران ، ويتسلقون الشرفات ، ويصعدون الى رؤوس الاشجـــار ، ويتعلقون بالقضبان الحديدية ، ويتشبثون بالمداخن . « المتشرد » يولد بنّاء سطوح كما يولد ملاّحاً . والسطح لا يوقع في نفسه من الخوف اكثر مما يوقعه الصاري . وليس من عيد يَعْدِلُ ساحة الاعدام : « لا غريف » . وشمشون والأب مونتيز هما الاسمان الشعبيان حقاً . إنهم ينادون المحكوم عليه بالموت لكي يشجعوه . وهم يُعلنون ، في بعض الاحيان ، عن إعجابهم به . ولقد لفظ المتشرد ، لاسينير ، عندما رأى « دوتان » الرهيب يموت بشجاعة ، هذه الكلمة المفعمـــة بالمستقبل : « **لقد حسَدْتُهُ** ! » . وفولتير غير معروف عند أخوية المتشردين ، ولكنهم يعرفون « بابافوان » جيداً . إنهم يمزجون رجال السياسة بالمجرمين ، في الخبر الواحد . وهم يروون الاحاديث عن آخر

الملابس التي ارتداها كلٌّ منهم . إنهم يعرفون ان « توليرون » اعتمر بقلنسوة وقّاد ؛ وأن « آفريل » اعتمر بقبعة ذات حافة ، مصنوعة من جلد كلب الماء ؛ وان « لوفيل » اعتمر بقبعة مستديرة ؛ وان « دولابورت » العجوز كان أصلع حاسر الرأس ؛ وان « كاستينغ » كان متورّد الوجنتين بالغ الجمال ؛ وأن « بوريس » كان ذا لحية صغيرة حلوة ؛ وأن « جان مارتن » احتفظ بحمالة بنطلونه ؛ وأن « لاكوفيه » وأمه تخاصما . ولقد صاح احد المتشردين في وجه هذين الاخيرين : « لا تنتقدا الآن العربة التي تحملكما ! » ولكي يرى متشردٌ آخرُ « ديباكر » يمرّ - وكان ذلك المتشرد قصيراً وسط الحشد - راح يتسلق عموداً من أعمدة المصابيح عند الرصيف . فعبس دركيٌّ كان هناك في وجهه . فقال المتشرد : « دعني اتسلّق ، يا سيدي الدركي . » ولكي يلطّف من نقمة ممثل السلطة أضاف : « أنا لن أقع ! » فأجابه الدركي : « أنا لا أبالي أوقعتَ أم لم تقع . »

والحادثة التي لا تُنسى قيمة كبيرة في أخوية المتشردين . وإنما يبلغ أحدهم قمة المجد اذا ما اتفق أن يَجرح نفسه جَرْحاً بليغاً « حتى العظم » ، كما يقولون .

وقبضة اليد ليست وسيلة هزيلة من وسائل الاحترام . ومن الاشياء التي يولع « المتشرد » بترديدها ولوعاً شديداً قوله : « أنا قويٌّ جداً ، أنا ! » . ولأن تكون أعسَرَ يجعلك عندهم موضع الحسد . والحَوَل ، في نظرهم ، مدعاةٌ الى الاحترام العظيم .

٨

حيث نقرأ كلمة فاتنة للملك السابق

وفي الصيف ، يسبغ نفسه الى ضفدعة . وفي المساء ، حين يهبط الليل تجاه جسريّ أوسترليتز وييتا ، ينبثق من أطواف الفحم ومن مراكب الغسالات ويغطس مخفوض الرأس في الـ « سين » ، وفي مختلف ضروب الخرق لقوانين الحشمة والبوليس . بيد ان شرطة المدينة له بالمرصاد ، ومن هنا كانت تنشأ عن هذا الوضع حالة مسرحية الى حد بعيد ادّت في احدى المناسبات الى ارسال صيحة أخوية لا تنسى . وهذه الصيحة ، التي كانت شهيرة حوالى عام ١٨٣٠ ، هي تنبيه استراتيجي من « متشرد » الى « متشرد » . إنها مُقطّعة مثل بيت من شعر هوميروس ، في اسلوب من الاختزال يكاد يمتنع على التفسير امتناع ألحان عيد * مينيرفا الأيلوسينية ** ، وتذكّر مرةً اخرى بـ « ايفوهيه » *** العتيقة . وهذه هي : « اوهيه ، ايها المتشرد ، اوهيه ! انظر هنـــاك ! إنهم قادمون ليقبضوا عليك ! خذ ثيابك ، واهرب من خلال البالوعة ! »

وفي بعض الاحيان يكون في ميسور هذه الذبابة الصغيرة – وهو اللقب الذي يخلعه هو على نفسه – ان تقرأ . وفي بعض الاحيان يكون في ميسورها ان تكتب ، ولكنها نعرف دائمـــاً كيف « تخربش » . و « المتشرد » يكتسب بتعليم خفيّ متبادل لسنا نعرفه جميع المواهب

* عند قدماء اليونان .

** نسبة الى ايلوسيس ، وهي مدينة في بلاد الاغريق القديمة ، في آتيكا ، حيث كانت تقام الاحتفالات الدينية على شرف الآلاهة سيريس .

*** Evohé أداء نداء وتعجب في اللاتينية ، وكانت ترسلها كاهنـــات باخوس الراقصات وهنّ شعث الشعور ، متوجات الرؤوس باللبلاب ، حاملات العصي ذات الرؤوس الصنوبرية الشكل في ايديهن ، مطلقات صيحات متنافرة .

الممكنة النفع في القضايا العامة . فمن سنة ١٨١٥ الى سنة ١٨٣٠ قلّد صياحَ الديك الرومي ؛ ومن سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٤٨ كان من دأبه أن يرسم إجاصةً على الجدران رسماً متعجلا رديئاً . وذات امسية من امامي الصيف ، فيما كان لويس فيليب عائداً الى قصره ماشياً ، بَصُرَ بواحد منهم ، صغيرٍ جداً ، لا يزيد طوله على هذا المقدار ، يتصبب العرق منه ، ويرفع نفسه على رؤوس اصابعه لكي يرسم بالفحم إجاصةً هائلة على أحد أعمدة باب دو نوِلي . فما كان من الملك ، بتلك السذاجة التي ورثها عن هنري الرابع ، إلا أن ساعد المتشرد وأتمّ رسم الاجاصة ، وأعطى الغلام ليرة ذهبية لويسية قائلًا : « **الاجاصة موسومة على هذه ايضاً !** » والمتشرد يحب الجلبة والصخب . فالعنف والضجة يروقان له . إنه يمقت الكهنة . وذات يوم ، في « شارع الجامعة » ، كان يُخرج لسانه استهزاءً عند باب العربات رقم ٦٩ . فسأله عابر سبيل : « لماذا تفعل ذلك عند هذا الباب ؟ » فأجابه الغلام : « إن هناك كاهناً ! » وكان ذلك ، في الواقع ، مقر السفير البابوي . ومع ذلك ، ومهما تكن نزعات « المتشرد » الفولتيرية قويةً ، فانه ما إن تسنح له الفرصة التي تمكنه من ان يصبح منشداً في الجوقة الكنسية حتى يسارع الى انتهازها ، وفي مثل هذه الحال يخدم القداس في أدب . وثمة شيئان لا سبيل له الى بلوغهما ، فهو يتوق اليهما ابداً ، ولكن على غير طائل : أن يقلب الحكومة ، وان يرقع بنطلونه .

والمتشرد ، في أكمل أحواله ، يعرف جميع رجال الشرطة الباريسية ، فما ان يلتقي واحداً منهم حتى يلصق اسمه على وجهه . إنه يحصيهم على اصابع يديه . إنهُ يدرس اخلاقهم ويضع ملاحظاته الخاصة عن كل منهم . إنه يقرأ نفوسهم وكأنما يقرأ كتاباً مفتوحاً . وهو يقول لك على البديهة ومن غير تردد : « فلان خائن . » — « فلان خبيث جداً » — « فلان عظيم » . « فلان مضحك » (وجميع هذه الكلمات : خائن ، خبيث ،

عظيم ، مضحك ، لها في فمه معنى خاص) « هـذا الشرطي يتوهم ان « الجسر الجديد » ملكه ويمنع العالم من التنزه عـلى الكورنيش خارج الحواجز . وذاك الشرطي عنده هوسٌ بشدّ آذان الناس ! » الخ . الخ .

٩
روح غالة * القديم

كان ثمة شيء من هذا الغلام في بوكولين ** ، ابن السوق . وكان ثمة شيء منه في بومارشيه . *** والواقع ان اسلوب « المتشرد » في الحياة لا يعدو ان يكون ظلاً من ظلال الروح الغاليّ . وهذا الاسلوب ، اذا ما مُزِج في حكمة ، يُعطي المرء في بعض الاحيان قوةً جديدة ، كما تفعل الكحول بالخمر . وهو في بعض الاحيان ناحية ضعف . إن هوميروس يكرّر الكلام على غير طائل . لكن ذلك . وفي استطاعة المرء ان يقول ان فولتير يمثّل دور « المتشرد » . ولقـد كان كاميل ديمولين من ابناء الاحياء الخارجية العتيقة . أمـا شامبيونيه **** الذي جعل المعجزات وحشيةً فكان غلاماً من غلمان الشوارع الباريسية ؛ لقد اجتاح ، وهو بعدُ صغير ، أروقة سان جان دو بوفيه وسان ايتيين دو

---

* غالة او بلاد الغال هي فرنسة القديمة .

** يقصد موليير . وكان والده ، جان بوكولين Poquelin ، صانع سجاد .

*** Beaumarchais كاتب فرنسي (١٧٣٢ – ١٧٩٩) . اشهر آثاره « حلاق إشبيلية » و « زواج فيغارو » .

**** Championnet قائـد فرنسي (١٧٦٢ – ١٨٠٠) نظم الجمهورية التي اقامها الفرنسيون في نابولي عام ١٧٩٩ وكان رجلاً نزيهاً وانسانياً .

مون . وكان قد لفا مع صندوق ذخائر القديسة جانفييف الى حد كاف لابقاع التشنج في قارورة القديس جانفييه المقدسة .

ومتشرد باريس محتشم ، ساخر ، متغطرس . إن اسنانه قبيحة ، لأنه يشكو سوء التغذية ولأن معدته تؤلمه ، وإن عينيه جميلتان لان له نصيباً من العبقرية . وخليق به ان يطفر مرتقياً سلم الجنة في حضرة « يهوه » نفسه . وهو ماهر في الملاكمة باليدين والرجلين معاً . وكل ضروب النمو ممكنة بالنسبة اليه . إنه يلعب في الساقية وينتصب ثانية بالثورة . ووقاحته لا تثنيها القذائف ؛ فقد كان ولداً طائشاً . إنه بطل ! وهو مثل الطيبي * الصغير يهز جلد الاسد . وبارا الطبال كان متشرداً من متشردي باريس . إنه يهتف « الى الامام ! » كما يقول جواد التوراة « ها ! ها ! » ، وينتقل في لحظة من طفل الى عملاق .

وغلام الحمأة هذا هو غلام المثل الأعلى أيضاً . قس مدى انبساط الجناح هذا الممتد من موليير الى بارا .

وعلى الجملة ، ولكي نوجز ذلك كله في كلمة ، نقول إن المتشرد مخلوق يعبث ويلهو لأنه تعس .

١٠

هي ذي باريس ، هوذا الانسان

ولكي نوجز مرة اخرى نقول إن متشرد باريس اليوم اشبه شيء بـ« غريكولوس » ** روما في العصور القديمة . إنه الشعب طفلاً ، وقد تبدت تجاعيد العالم القديم على جبينه .

* نسبة الى طيبة ، عاصمة بيوتيا ، احدى مقاطعات بلاد الاغريق القديمة .
** Graeculus لفظة لاتينية تعني الأغريقي .

المتشرد نعمة من نعم الله على الأمة ، وهو في الوقت نفسه مرض من امراضها . مرضٌ ينبغي ان يعالج . كيف ؟ بالضياء .

الضياء يشفي .

الضياء ينوّر .

إن جميع الاشعاعات الاجتماعية السخية لتنبثق عن العلم ، عن الادب ، عن الفنون ، عن التعليم . إصنعوا رجالاً ؛ إصنعوا رجالاً . امنحوهم الضياء لكي يعطوكم الدفء . وسواء عاجلاً أم آجلاً ، ستحتل مسألة التعليم الشامل الباهرة مكانها بسلطان الحقيقة المطلقة الذي لا سبيل الى مقاومته . وعندئذ سيتعين على اولئك الذين يحكمون تحت اشراف الفكرة الفرنسية ان يختاروا واحداً من أمرين : أطفال فرنسة ، او متشردي باريس ؛ شُعَلٍ في الضياء ، او شُهُبٍ في الظلام .

المتشرد لسان حال باريس ، وباريس لسان حال العالم .

ذلك بأن باريس حاصلُ جمع . باريس ذروةُ الجنس البشري . إن هذه المدينة العجيبة كلها هي مجمل الاخلاق والعادات الميتة والاخلاق والعادات الحية . ومن يرى باريس يُخيَّل اليه أنه يرى التاريخ كله ويرى السماء رابراجها في اثناء ذلك . في باريس كابيتول * ، وهو الـ « اوتيل دو فيل » ** . وفيها بارتينون *** هو نوتردام **** وفيها « مون آفانتين » ***** هي ضاحية سان انطوان . وفيها آسينـاريوم هو

---

* Capitole هيكل جوبيتير القائم على احدى التلال السبع في رومة القديمة .

** Hôtel de Ville مقر بلدية باريس ، وقد بديء ببنائه عام ١٥٣٣ وأتم عام ١٦٢٣ ثم جدد ووسع في عهد الملك لويس فيليب ، ثم اتت عليه النار عام ١٨٧١ فاعيد بناؤه من عام ١٨٧٢ - ١٨٨٢

*** parthénon هيكل اثينا الشهير الذي زخرفه فيدياس .

**** كاتدرائية نوتردام دو باري الشهيرة .

***** Mont —Aventin احدى التلال السبع التي بنيت عليها مدينة رومة .

السوربون . وفيهـا بانتيون * هو البانتيون . وفيهـا « طريق مقدس » ** هو جادة الايطاليين . و « برج رياح » *** هو الرأي العام : وهي تعوّض عن الـ « جيمونيا » **** بالسخرية . إن « ماجو » ***** باريس هو المغناج ؛ وإن الـ « ترانستفيرينو » ****** فيها هو ابن الضواحي القديمة ، وان حمّالها ******* هو رجل السوق القويّ ، و « لازاروئها » ******** هي جماعة اللصوص بوصفها طبقة اجتماعية ؛ والـ « كوكني » ********* فيها هو الشاب المتأنق المضحك . إن كل ما تقع عليه في سائر المدن موجود في باريس . فبائعـة سمك « دومارسيه » ********** تستطيع ان تحافظ على مركزها امـام بائعة اعشـاب يوريبيديس . وفيجانوس قاذف القرص يحيـا من جديد في شخص فوريوسو الراقص على الحبال . وثيرابونتيغونوس ميـل

---

* Panthéon هيكل شهير شيد في وسط ساحة مارس برومة وقد اتم بنـاءه فيباليوس آغريبا . اما بانتيون باريس فأثر باريسي مشيد على « الطراز الاغريقي الجديد » ما بين ١٧٥٤ و ١٧٨٠ .

** Via Sacra طريق رومة من البالاتين الى الـكابيتول مراً بالفوروم ، وكان يسلكه الفاتحون والمتصرون .

*** Tour des Vents وقد شيده آندرونيكوس في اثينا (القرن الاول قبل الميلاد) على شكل مثمن الزوايا وجعل على كل وجه من وجوهه صورة مجسمة تمثل هذه الريح او تلك .

**** Gémonies في رومة القديمة ، سلم تهبط الجانب الشمالي الشرقي من جبل كابيتولين حيث تعرض جثث المحكوم عليهم بالموت وربما يقذف بها الى نهر التيبر .

***** majo لقب يطلق على المتأنقين في اسبانية الجنوبية .

****** Transtévérin لفظ كان يطلق في رومة على سكان ما وراء التيبر .

******* وردت هذه الكلمة هكذا في الاصل الفرنسي مرسومة بالحرف اللاتيني Hammal

******** Lazzarone كلمة يطلقها اهل نابولي على أحط طبقات الشعب .

********* Cockney لفظة انكليزية تعني النذل الجاهل وتطلق بخـاصة على الحي المعروف بالـ *East End*

********** Dumarsais كاتب ونحوي فرنسي (١٦٧٦ – ١٧٥٦)

يستطيع ان يمضي ويده في يد فادبونكير رامي القنابل . وداماسيب المتاجر بالتعف على سبيل الاتفاق خليق به ان يكون سعيداً في الدكاكين التي تبيع السلع الجيدة والرخيصة في وقت معاً . وجدير بفانسان * ان تلقي القبض على سقراط كما تضع الـ « آغورا » ** ديدرو في صندوق حديدي . ولقد اكتشف غريمو دو لا رينيير لحم البقر المحمّر المطبوخ بدُهنه نفسه كما اخترع كورنيلوس القنفذ المشويّ . ونحن نرى من جديد تحت منطاد « قوس النجمة » ذلك المربّع المنحرف الذي تحدّث عنه بلوتوس *** . وآكل الأسياف الذي التقاه آبوليوس **** في الـ « بوسيليوم » ***** هو مبتلع السيوف ذوات الحد الواحد في الـ « بونت نوف » . وابن اخت « رامو » ****** و « كوركيليون » ******* الطفَيليّ يشكلان زوجاً . ويقوم ديغروفوي بتقديم إرغاسيلوس في صالون كامباسيريس********. وفي استطاعة المرء ان يرى شبان رومة الاربعة المعجبين بأنفسهم ، آلسيبيادشوس ، وفودروموس ودياولوس ، وآغريبا ، يهبطون الـ « كورتيّ » ********* في مركبة بريد

---

* Vincennes مدينة فرنسية في شمالي فرنسة ، شرقي باريس ، وفيها قصر اثري وكنيسة بالغة الجمال .

** Agora لفظ يطلق على الساحة الرئيسية في المدن الاغريقية القديمة .

*** Plaute شاعر هزلي لاتيني (٢٥٠ – ١٨٤ ق م)

**** Apulée كاتب لاتيني من اهل القرن الثاني للميلاد .

***** Poecilium رواق في آثينا مزدان بالرسوم الفنية .

****** Rameau مؤلف موسيقي فرنسي (١٦٨٣ – ١٧٦٤)

******* Curculion هو بطل مسرحية هزلية للشاعر اللاتيني بلوتوس تحمل اسمه .

******** Cambacérès سياسي فرنسي (١٧٥٣ – ١٨٢٤) كان رئيساً للمؤتمر الوطني بعد يوم ٩ ترميدور (أو ٢٧ تموز سنة ١٧٩٤ وهو اليوم الذي أسقط فيه روبسبير وانتهى عهد الارهاب)

********* La Courtille حي من احياء باريس القديمة اشتهر بكثرة حاناته .

لابانوت . ولم يقف آلوس جيلوس * أمام كونفريو أطول مما وقف شارل نوديه ** امام بوليشبنيل *** . إن ماروتون ليست نمِرةً ، ولكن باردالسكا لم يكن تنيناً . ونرى بانتولابوس المهرّج يضحك من نومنتانوس المنغمس في الملذات في « المقهى الانكليزي » ، وهيرموجينوس **** صادحاً في الـ « شان زيليزيه » وحوله ثراسيوس الشحاذ في زي بوبيش ***** يجمع الصدقات . والملحاح الذي يتشبث بأزرار ملابسك في التويلري يعيد الى ذاكرتك ، بعد ألفي عام ، كلمة تيزبريون : ****** quis properantem me prehendit pallio إن خمر سورين تقلد خمر آلبا ******* ، و توازن حافة ديبوجييه الحمراء كأس بالاترون الضخمة . وتطلق مقبرة « الاب لاشيز » ******** تحت وابل الامطار الليلية البوارق المتوهجة عينها التي كانت تطلقها الـ « أسكيليز » ********* وقبر الفقير الذي يُشترى لخمس سنوات يساوي نعشَ العبد المستأجَر .

حاولْ أن تسمي شيئاً لا يوجد في باريس . إنّ دنّ

---

* Aulus Gellius نحوي وناقد لاتيني من اهل القرن الثاني للميلاد .

** Nodier اديب وكاتب سير فرنسي (١٧٨٠ — ١٨٤٤)

*** نموذج من نماذج الشخصية الكوميدية ، وهو في فرنسة ذو حدبة خلفية وحدبة امامية وقبعة ذات قرنين الخ . وقد سبق التعريف به .

**** Hermogenus خطيب يوناني من اهل القرن الثاني للميلاد .

***** Bobéche مشعوذ فرنسي كان يلهي الناس باعمال الرشاقة . وقد اشتهر في عهد الامبراطورية وعهد عودة آل بوربون الى العرش .

****** من الذي يمسك بثوبي في إعجال ؟

******* Alba Longa مدينة في لاتيوم القديمة كانت منافسة لروما ، وقد دمرتها المدن المجاورة خلال حكم الملك الروماني طالوس هوستيليوس .

******** Père - Lachaise هي مقبرة باريس الرئيسية ، وقد سبق التعريف بها .

********* Les Esquilies حدائق أنشأها ميسين الفارس الروماني على احدى تلال رومة السبع شرقيّ المدينة واقام وسطها دارة (فيلا) فخمة .

تروفونيـــوس * لا يحتوي عـــلى شـــيء غير موجود في وعـــاء مَـسْمَر ** الخشبيّ الصغير . ويُبعث إرغافيلاس *** حيـاً في شخص كاغليوسترو **** . ويتجسّد قاساقانتا البرهميّ في الكونت دو سان جيرمان ***** . وتجترح جبّانة سان ميداو من العجائب الخيّرة قَدْرَ ما يجترحه المسجد الاموي في دمشق .

إن لباريس « إيزوب » ****** هو مايو *******، وكانيديا هي الآنسة لينومار ******** . إنها تقف مشدوهةً مثل دلف ********* أمام

---

* Trophonius معمار بارع انشأ معبد دلف . وقد أسمى الغار الذي دفن فيـه شهيراً بوالله الالآهية الكاشفة عن الغيب .

** Mesmer طبيب ألماني ، واضع نظرية القوة المغناطيسية الحيوانيـــة المعروفة بـ « المسمرية » . ولقد اقام عـــدة سنوات في باريس حيث تدفق المرضى واهـــل الفضول على « وعائه الخشبيّ » ليشهدوا مسمر يقوم حوله بمختلف الطابه المغناطيسية .

*** Ergaphilas مشعوذ قديم .

**** Cagliostro مشعوذ وطبيب ومشتغل بالسحر والتنجيم (١٧٤٣ - ١٧٩٥) وهو ايطالي لقي نجاحاً كبيراً في قصر لويس السادس عشر وفي المجتمع الباريسي الراقي في ذلك الحين ولعب دوراً كبيراً في الحركة الماسونية .

***** Le comte de Saint Germain مغامر شهير ، ولعله يهودي من اصل برتغالي ، توفي عام ١٧٨٤ ولقد ادهش بلاط لويس الخامس عشر بالثقة التي كان يزعم بها انه عاش في القرن السادس عشر . ثم انه طرد من فرنسا فشخص الى انكلترة فالروسيا فالمانية . وكان كاغليوسترو - الوارد ذكره في الحاشية السابقة - يتباهى بأنه تلميذه .

****** Esope مؤلف أمثال يوناني ، وكان شخصية نصف اسطورية يتلونها قيمـــة تمامة محدودية .

******* Mayeux شخصية ابتكرت بعد ثورة ١٨٣٠ . وكان مايو ، الحرس الوطني برغم حدبته المزدوجة ، يمثل على نحو كاريكاتوري بورجوازية ذلك العهد الذين تتردد على السنتهم دائماً كلمتا الدستور والمواطن وغيرها .

******** Lenomard وكانت تدعي القدرة عـــلى كشف الغيب من خلال اوراق اللعب . (١٧٧٢ - ١٨٤٣)

********* Delphes مدينة اغريقية قديمة على سفح جبل برناس حيث كان لابولون هيكل يرسل النبوءات والهواتف الالهية .

حقائق الرؤيا الساطعة . إنها تُدير الطاولات كما كانت دودون * تُدير الأثافيّ المثلثة القوائم . إنها تتوّج العاملة المفناج كما كانت رومة تتوج البغيّ اللبقة الذكية . وخلاصة القـــول ، اذا كان لويس الخامس عشر اسوأ من كلوديوس ** فقد كانت مـــدام دوبارّي *** خـــيراً من ميسّالين . **** وإنما تجمع باريسُ في طراز واحد رائع كان له وجود حقيقي وقد دَفعَتنا بمرفقِهِ فعلاً ، العُرْيَ الاغريقي ، والقرحة العبرية ، والمزاح الغاسكونيّ ***** المستقبح . إنهـا تمزج ديوجـين ، وأيوب ، وبايّـــاس ****** ، وتُلبس احدَ الاشباح ثوباً من أعـــداد صحيفة « الدستوريّ » ******* القديمة ، وتصنع شودروك دوكلو .

وعلى الرغم من ان بلوتارك ******** يقول « إن الطاغيـة لا يشيخ أبداً » فان رومة في عهد سيلاّ ********* ، وفي عهد دوميتيان

---

* Dodone مدينة قديمة في « ابير » جنوبي مقدونية ، وكان فيها هيكل لجوبيتير قرب غابة من السنديان .

** Claude الأول ، امبراطور روماني حـــكم من عام ٤١ الى عام ٥٤ للميلاد . تزوّج اولاً من ميسالين ثم من آغريبين . وكان ذا عنصر طيب وضع قوانين تنطق بعطفه على العبيد الارقاء ولكنه وقع تحت سلطان زوجته التي ما لبثت ان سمته .

*** Madame du Barry عشيقة لويس الخامس عشر وقـــد سبق التعريف بهـــا (١٧٤٣ – ١٧٩٣)

**** Messaline زوجة الامبراطور كلوديوس الاول وكانت معروفة بفجورها وفسوقها .

***** نسبة الى غاسكونيا ، المقاطعة الفرنسية القديمة .

****** Paillasses احدى شخصيات المسرح الشعبي في نابولي .

******* Le Constitutionnel صحيفة متحررة انشئت عام ١٨١٥ ، وقـــد وجهت حملات عنيفة ضد حكومة شارل العاشر مهدت لثورة ١٨٣٠ .

******** Plutarque المؤرخ اليوناني المعروف (٤٥ أو ٥٠ ـ حوالى ١٢٥ م .)

********* Sylla و Domitien امبراطوران رومانيان .

اذعنت وخفّفت من غلوائها . كان التيبر نهراً اشبه بـ « ليثيه » . *
اذا كان لنا ان نصدّق المرثية النظامية ، بعضَ الشيء ، التي لفظها
فاروس فيبيسكوس : *Contra Gracchos Tiberim habemus . Bibere Tiberim*
id est seditionem oblivisci إن باريس تشرب مليون ليتر ماء كل يوم ولكن
هذا لا يمنعها في بعض المناسبات من ان تدقّ نافوس الخطر .

ومع هذا كله فباريس ولدٌ طيب . انها تتقبل كل شيء في أبهة .
وهي غير شكسة في ما يتصل بفينوس . ان « كاليبيج » ** باريس
هونتوتيّ *** الطابع . إنها تغفر ، شرط ان تضحك . إن
البشاعة لتُبهجها . وإن الدمامة لتوقع السرور في نفسها . وإن الرذيلة
لتلفتُ انتباهها . كن مضحكاً وعندئذ يكون من الجائز ان تصبح
وَغداً . حتى الرياء ، ذلك السفهُ الرفيع ، لا تثور باريس عليه . وهي
أدبية النزعة الى حد يجعلها لا تسد أنفها أمام باسيل **** ولا تجفل من
صلاة تارتوف ***** اكثر مما اجفل هوراس ****** من ُفواق (حازوقة)
بريابوس ******* . والواقع ان صورة باريس الجانبية لا يُعوزها ايّ من

---

* Léthé احد انهار جهنم ، في الميثولوجيا ، ومعنى اسمه « النسيان » . ذلك ان
الاشباح تشرب من مياهه لكي تنسى الماضي نسياناً تاماً .

** Callipyge اسم لاحد تماثيل فينوس موجود في متحف نابولي .

*** نسبة الى الهونتوت Hottentots وهم شعب من شعوب افريقية الجنوبية قصير
القامة ذو بشرة صفراء ضاربة الى الصفرة .

**** هو بطل مسرحية « بومارشيه » الهزلية : « حلاق اشبيلية » . وقد أمسى
رمزاً المرائي الملاطف الطمّاع .

***** Tartuffe بطل مسرحية شهيرة لموليير وهو يمثل شخصية الرجل المرائي ايضاً .
وقد « مصّرت » هذه المسرحية في فجر النهضة الحديثة ومثلت باسم « الشيخ متلوف » .
ولا تزال شخصية الشيخ متلوف الى اليوم تصوّر الورع الكاذب والتقى الخادع .

****** Horace الشاعر الروماني الشهير (٦٥ — ٨ ق . م)

******* Priapus إلٓه الجنائن والمراتش ، ثم الٓه الخصب والتناسل . وكان ابن
اخوس وفينوس .

ملامح الوجـــه الكليّ . إن مَرقــص مابيّ * لا يعرف رقص الجانيكولوم ** البوليهيميّ *** ولكن مؤجرة الملابس هنـاك تلتهـم بعينيها الحسناءَ السهلةَ القياد كما كانت « ستافيلا » القوادة تراقب العذراء « بلانيزيوم » تماماً . والـ « باريير دو كومبا » ليس كولوسيـوم **** ولكنه يتكشّف عن قدر هائل من الوحشية وكأن قيصر نفسه كان يشهد الحفلة . وصاحبة الخان السورية اكثر ملاحةً من الامّ ساغيه ، ولكن اذا كان فيرجيل قد اختلف الى الحانة الرومانية فأن دافيد دانجيه ***** وبالزاك ****** وشارليه ******* يتخذون مجالسهم في الخمارة الباريسية . إن باريس لتقبض على ازمّة السلطان . إن العبقريات لتسطع في سمائها ، وان الغدائر الحمراء المقفة لتزدهر في ربوعها . ويمرّ ادونيس هناك بمركبته البارقة الراعدة ذات الاثنتي عشرة عجلة . ويدخلها سيلينوس ******** على أتانه . ذلك أن سيلينوس قد قرأ رامبونو *********

إن باريس مرادفُ الكون . باريس هي اثينـا ، وروما ،

---

* Mabille مرقص باريسيّ شهير سطع نجمه من عـام ١٨٤٠ الى عام ١٨٧٥

** Janiculum رابية قرب نهر التيبر في رومة .

*** نسبة الى بوليهيمنيا Polyhymnia عروس الترانيم الرفيعة او الاغاني المقدسة .

**** Coliseum مدرج رومة الضخم حيث كان المتقاتلون يصطرعـون ، وحيث كان يقذف بالمسيحيين طعاماً للوحوش .

***** David d'Angers مثال فرنسي شهير (١٧٨٨ - ١٨٥٦)

****** Balzac الكاتب الفرنسي الكبير ، مؤلف « الأب غوريو » و « اوجيي غرانديه » . (١٧٩٩ - ١٨٥٠)

******* Charlet رسام فرنسي برع برسم المشاهد العسكرية (١٧٩٢ - ١٨٤٦)

******** Silenus ابو باخوس بالرضاع وقد جعلته الميثولوجيا الاغريقية مهـرج الاولمب .

********* Ramponneau مؤسس حانة « الطبل الملكي » المشهورة في باريس . (١٧٢٤ - ١٨٠٢)

وسيباريس * ، وبيت المقدس ، وبانتين ** . إن حقب الحضارة كلها ماثلةٌ فيها على نحو موجز ، وكذلك جميع عهود البربرية ايضاً . وخليقٌ بباريس أن يستبدّ بها الغيظ لو لم تعرف المقصلة .

إن قليلًا من ساحة غريف *** لمقبول ، إذ ايّ شيء كان يمكن ان تنتهي اليه تلك الحياة المرحة الصاخبة كلها من غير ذلك التتبيل ؟ لقد احتاطت قوانيننا ، في كثير من الحكمة لذلك . وبفضلها يقطر الدم من ذلك الساطور فوق هذا الكارنافال العام .

١١
سخرية وحُكم

وفي باريس لا حدود ولا قيود . إن اياً من المدن الاخرى لم تعرف هذا السلطان الذي يهزأ في بعض الاحيان بأولئك الذين يُخضعهم لأمرته . « لكي أرضيكم ، ايها الاثينيون ! » كذلك هتف الاسكندر . ولكن باريس تذهب الى ابعد من وضع القوانين . إنها تضع « الموضة » ، بيد انها تذهب الى ابعد من وضع « الموضة » ايضاً . انها تضع « الروتين » . وقد تتباله باريس اذا بدا ذلك حسناً في عينيها . فهي تجيز لنفسها هذا الترف أحياناً . وعندئذ يغدو الكون كله أبله معها . ثم ان باريس تستيقظ ، وتفرك عينيها ، وتقول : « أأنا بلهاء ؟ » وتنفجر ضاحكة في وجه الجنس البشري . ايّ اعجوبة هي هذه المدينة !

---

* Sybaris مدينة ايطالية قديمة أسسها الآخيون سنة ٧٢٠ ق . م وكانت ذات تجارة زاهرة افاءت عليها ثروات هائلة جعلت اهلها ينغمسون في الشهوات .

** Pantin محلة قرب باريس تكثر فيها المصانع .

*** Place de Grève ساحة الاعدام في باريس .

ما أغرب أن تلتقي هذه الاشياء العظيمة كلها وهذه الاشياء المضحكة وتتناغم، وأن لا يُزعَج هذا الجلال كله من هذا التزوير المازيء كله، وأن يكون الفم نفسه قادراً على ان ينفخ اليوم في صُورْ القيامة وينفخ غداً في مزمارٍ ثمنه بضعة دريهات! إن لباريس مزاجاً مرحاً مطلق السلطان. ان ابتهاجها لمن الصاعقة، وان أضاحيكها لتحمل صولجاناً. وقد تنطلق اعاصيرها من تقطيب وجه. ان انفجاراتها، وأيامها الحاسمة، وروائعها، وأعاجيبها، وملاحمها، لتمضي الى اقاصي الكون، وكذلك كلامها المتهافت الذي يُعوزه المنطق والترابط. ان ضحكها هو فوهة بركان يصيب رشاشه الارض كلها. وان مزاحها الماجن شررٌ. انها تفرض كاريكاتورها على الشعوب، كما تفرض مثلها الاعلى. وأسمى آثار الحضارة الانسانية تتقبّل سخرياتها، وتُعير خلودها لاقوالها الداعرة. انها شامخة.. ان لها يوم ١٤ تموز الاعجوبي الذي يحرر الكرة الارضية. وهي تحمل جميع الأمم على ان تُقسم يمين ملعب التنس *. إن ليلها في ٤ آب ليبدّد في ثلاث ساعات ألفَ عامٍ من الاقطاعية. انها تجعل من منطقها عَضَلَ الارادة الأجماعية. إنها تضاعف نفسها تحت مختلف اشكال السموّ. إنها تملأ بإشعاعها واشنطون، وكوسييوسكو ** وبوليفار ***

---

* Serment du Jeu de Paume اليمين التي أقسمها، في ٢٠ حزيران سنة ١٧٨٩ نواب طبقة العوامّ على «ان لا يتفرّقوا قبل ان يعطوا فرنسة دستوراً»، وكان الملك قد حظر عليهم الاجتماع في قاعتهم المألوفة فانتقلوا الى قاعة مجاورة تعرف بقاعة «ملعب التنس» وأقسموا اليمين هناك.

** Kosciuszko جنرال بولوني (١٧٤٦ – ١٨١٧) ناضل طويلاً من اجل تحرير بلاده من سيطرة الروسيا القيصرية.

*** بطل من ابطال الاستقلال وحركات التوحيد في اميركة الجنوبية وقد سبق التعريف به.

وبوتزاريس * وريغو ** وبَمْ *** ومانـــين **** ولوبيز *****
وجون براون ****** وغاريبالدي . إنها في كل مكان يتوهـــج فيه
المستقبل . في بوسطون عام ١٧٧٩ ؛ وفي جزيرة سان ليون عام ١٨٢٠ ؛
وفي بينْث عام ١٨٤٨ ؛ وفي باليرمو عام ١٨٦٠ . إنهـا تهمس بالشعار
الجبار ، **الحرية** ، في آذان دعاة تحريم الاسترقـاق الاميركيين المجتمعين
في المركب في هاربوز فيري ، كما تهمس به في آذان وطنيي آنكونـ
المجتمعين في الظلام في آرشي ، أمام فندق غوزي على شاطىء البحر . إنها
تخلق كاناريس *******. إنها تخلق كيروغا ********. إنها تخلق بيزا كان .
وهي تشعّ العظمة على الارض كلها . واذا كان بايرون قد قضى نحبه في
ميسولونغي *********، واذا كان مازيه قد قضى في برشلونة فلأنهما قد انطلقا

---

* Botzaris احد ابطال حرب الاستقلال اليوناني . (١٧٨٨ – ١٨٢٣)

** Riego جنرال ووطني اسباني (١٧٨٥ — ١٨٢٣) وقـد مات قتلاً بأمر الملك فرديناند السابع .

*** Bem جنرال بولوني (١٧٩٥ — ١٨٥٠) ابلى بلاء حسناً في القتال ضد النمسويين والروس خلال الثورة الهنغارية عام ١٨٤٩ .

**** Manin وطـــني ايطالي (١٨٠٤ — ١٨٥٧) رئيس جمهورية البندقية عام ١٨٤٨ وكان مناوئاً للسيطرة النمسوية .

***** Lopez رجل دولة باراغواني (١٨٢٧ — ١٨٧٠) تولى رئاسة الجمهورية. وقد ناضل ، في عناد ، ضد الارجنتين والبرازيل .

****** John Brown داعية اميركي من دعاة الغاء الرقيق (١٨٠٠ – ١٨٥٩) وقد شنق لأنـــه دعا الزنوج الى امتشاق الحسام ، وكان موته سبباً في انفجار حرب الانفصال .

******* Constantin Canaris ملاح يوناني (١٧٩٠ – ١٨٧٧) استشهد في حرب الاستقلال .

******** Antonio Quiroga جنرال اسباني (١٧٨٤ – ١٨٤١) قـــاد القوات الدستورية ايام ثورة ريغو التي اشير اليها من قبل .

********* Missolonghi مدينة يونانية اشتهرت بصمودها الباسل في وجه الاتراك عام ١٨٢٢ ، و ١٨٢٣ ، و ١٨٢٥ وكان الشاعر الانكليزي بايرون متطوعاً آنذاك في صفوف الثوّار .

الى حيث دفعتها رياحها . إنها منبر تحت قدمي ميرابو ، وفوهة بركان تحت قدمي روبسبيير . إن كتبها ، ومسرحها ، وفنها ، وعلمها ، وأدبها ، وفلسفتها هي الأصول التي ينهل منها الجنس البشري . إن عندها باسكال ، وربنييه ، وكورنيّ ، وديكارت ، وجان جاك ، وفولتير لكل لحظة ، وموليير لكل عصر . إنها تجعل الفم الكونيّ يتكلّم بلغتها ، وتنتهي تلك اللغة الى ان تصبح كلمةَ الله . إنها تنشىء في جميع العقول فكرة التقدم . والعقائد الجوهرية المحرِّرة التي تصوغها ، هي للاجيال سيوفٌ لا تسمو عليها سيوف ؛ وإنما بروح مفكريها وشعرائها صُنع جميع الابطال في جميع الشعوب ، منذ عام ١٧٨٩ ؛ ولكن ذلك لا يحول بينها وبين أن تمثّل دور « المتشرد » . وهذه العبقرية الهائلة التي ندعوها باريس ، حتى وهي تخلق العالم بضيائها خلقاً جديداً ، ترسم بالفحم أنف بوجينيه على جدار هيكل تيزيه * وتكتب كريدوفيل اللصّ على الأهرام .

إن باريس لتُبدي نواجذها دائماً . فهي إما مزمجرة أو ضاحكة .

تلك هي باريس . إن أدخنة سطوحها هي أفكار الكون . ركامٌ من الوحل والحجارة ، اذا شئت ، ولكنها فوق ذلك كائنٌ اخلاقي . إنها اكثر من عظيمة ؛ إنها غير متناهية . لماذا ؟ لأنها تتجرأ .

الجرأة . هذا هو ثمن التقدم .

إن جميع الفتوح الجليلة هي ، كثيراً أو قليلاً ، ثوابُ الجرأة . فلم يكن كافياً — لكي تندلع الثورة — ان يتنبأ بها مونتيسكيو ، ويبشّر بها ديدرو ، ويعلنها بومارشيه ، ويدبّرها كوندورسيه ** ،

---

* Thésée بطل اغريقي ، وهو شخصية نصف اسطورية تتصل اعمالها البطولية بأعمال هرقل البطولية .

** Condorcet فيلسوف ورياضي فرنسي (١٧٤٣ — ١٧٩٤) لعب في الثورة دوراً بارزاً ثم تجرّع السمّ في عهد الارهاب ، اجتناباً للمقصلة .

ويمهّد لها آرْوويه * ويتعمّدها روسو . كان من الضروريّ ان يجرؤ عليها دانتون .

إنّ تلك الصيحة « الجرأة ! » ** هي ضربٌ من الـ *fiat lux* *** . والحق أن تقدّم الجنس البشري الى الأمام يقتضي ان تلتهب القمم التي حوله بدروس في الشجاعة نبيلةٍ دائمة . إن الجراءات لتُذْهل التاريخ ، وهي تشكّل أحد أنوار الانسان المادية . والفجر يتجرأ حين يبزغ . الكفاح ، واقتحام الاخطار ، والمثابرة ، والاصرار ، والاخلاص للذات ، والمصارعة مع القَـــدَر ، وإذهال المزية بالذعر اليسير الذي تنزله بنا ، ومواجهة القوة الغاشمة حيناً ، وتحـــدّي الظّفَر النشوان ، والصمود والمقاومة — تلك هي الأمثولة التي تحتاج اليها الامـــم والنور الذي يكهربها . ان البرق الرهيب نفسه لينطلق من شعلة بروميثيوس ومن بوق كامبرون **** الفخاري .

١٢

المستقبل كامنٌ في الشعب

أما الشعب الباريسي ، حتى حين يبلغ مبلغ الرجال ، فهو « متشرد »

---

* يقصد فولتير .

** يقصد كلمة دانتون الشهيرة : « الجرأة ! ثم الجرأة ! ودائماً الجرأة ! » التي وردت في خطابه الذي ألقاه في ٢ ايلول ١٧٩٢ والذي ألهب الجمعية التشريعية ثم ألهب فرنسة كلها .

*** في اللاتينية ، ومعناها « ليكن نور ! » إشارةً الى ما جاء في سفر التكوين: « وقال الرب ليكن نور ، فكان نور . » فكأن المؤلف يريد ان يقول : إن صيحة دانتون تلك كانت بمثابة مولد النور في فرنسة .

**** راجع الفصل الخاص بكامبرون في الجزء الخامس .

من المتشردين دائماً . إنك إذ تصوّر الطفلَ تصور المدينة . ومن أجل ذلك درسنا هذا النسر من خلال ذلك الدوري الصريح .

إن العِرق الباريسي ، ونحن نصرّ على ذلك ، إنما يوجد في الضواحي قبل كل شيء . هناك نقع على الدم الصافي ؛ هناك نجد السيماء الحقيقية ؛ هناك يعمل هذا الشعب ويتألم ، والألم والكدح هما صورتا الانسان . هناك أعداد هائلة من الكائنات المجهولة تكثرُ فيها أغرب النماذج البشرية ابتداءً من مُنزل البضائع من « لا رابيه » حتى قصّاب مونفوكون . *Fex urbis* * كذلك يصيح شيشرون . فيضيف بورك ** الساخط : الرعاع . — القطيع ، الجمهور ، السّوقة . إن هذه الكلمات تُلفظ لفظاً سريعاً . ولكن اذا كان الأمر كذلك ، فأيّ بأس فيه ؟ وماذا يضيرني اذا كانوا يمشون حفاةً ؟ إنهم لا يعرفون القراءة ؛ يا للخسارة ! أنتخلى عنهم من أجل هذا ؟ انجعل شقاءهم لعنةً عليهم ؟ الا يستطيع النور أن ينفذ الى هذه الجماهير ؟ فلنعُدْ الى تلك الصيحة : النور ! ولنصرّ على ذلك ! النور ! النور ! ومن ذا الذي يستطيع ان يجزم أن هذه الكثافات لن تغدو شفافة ؟ اليست الثورات تحوّلاً في الصورة الى ما هو أسمى ؟ فامضوا ، ايها الفلاسفة ، علّموا ، نوّروا ، ألهبوا ، فكّروا جهاراً ، تكلموا جهاراً ، إهرعوا في جذل الى وضح النهار ، آخوا في الساحات العامة ، بشّروا بالانباء السارة ، انثروا ألفباءاتكم في سخاء ، أعلنوا حقوق الانسان ، أنشدوا المارسييز ، أبذروا الحماسة ، إنزعوا الاغصان الخضراء من شجر السنديان ، إجعلوا الفكر إعصاراً . إن هذه الجماهير يمكن أن يُسْمَى بها . فلنتعلّم كيف نُفيد من اضطرام المبادىء والفضائل الواسع هذا ، الذي يطلق الشرر ، ويفرقع

---

* في اللاتينية ، وتعني حثالة المدينة .

** Burke كاتب وخطيب انكليزي (١٧٢٩ — ١٧٩٧) اشتهر بعدائه الثورة الفرنسية .

ويوقع القشعريرة في بعض الفترات . إن هذه الاقدام الحافية ، هذه الاذرع العارية ، هذه الاسمال البالية ، هذه الجهالات ، هذه الحقارات ، هذه الكلمات ، يمكن ان تصطنع في النضال من اجل تحقيق المثل الأعلى . انظر من خلال الشعب تلمح الحقيقة . إن هذا التراب الخسيس الذي تطأه بقدميك ، اذا ما قذفت به في الأتون ، وتركته يذوب ويفور ، يصبح بلوراً يبهر الأبصار ، وبفضله سوف يلمع غاليليو جديد ، أو نيوتن جديد فيكتشف النجوم .

١٣
غافروش الصغير

بعد حوالى ثماني سنوات او تسع سنوات انقضت على الاحداث التي رويناها في القسم الثاني من هذه القصة شوهد ، على « جادة التامبل » وعلى مقربة من « شاتو دو » فتىً صغير في الحادية عشرة او الثانية عشرة من العمر كان خليقاً به أن يحقق في دقة كبيرة المثلَ الاعلى للمتشرد ، الذي وصفناه آنفاً ، لو لم يكن — وضحكة عمره على شفتيه — ذا فؤاد مظلم فارغ بالكلية كان هذا الطفل يرتدي على نحو غريب بنطلون رجل ، ولكنه لبس بنطلوناً أخذه من أبيه ، وصدرةً نسائية ذات ردنين ، ولكنها لم تكن صدرةً ورثها عن امه . لقد كساه نفر من الفرباء ، بهذه الاسمال صدقةً وإحساناً . ومع ذلك ، فقد كان له أب ، وكانت له ام . ولكن أباه لم يفكر به قط ، وأمه لم تحبه قط . كان واحداً من اولئك الاطفال الجديرين بالشفقة من بين جميع أولئك الذين لهم آباء وامهات والذين هم — برغم ذلك — يتامى .

ولم يكن هذا الطفل ليستشعر فيضاً من السعادة إلا في الشارع . إن

حصباء الطريق كانت عنده اقلّ قسوة من قلب أمه .

كان ابواه قد ألقياه في حضمّ الحياة بوفسة .

وكان قد نشر جناحيه في كثير من البساطة ، وطار .

كان صبياً صاخباً ، شديد الشحوب ، رشيقاً ، نبيهـاً ، ساخراً تبدو عليه سيما من الحيوية والمرض في وقت واحد . كان يروح ويجيء ويغني ، ويلعب لعبة « النقش والطغراء » ، * ويكشط السواقي ، ويسرق قليلاً ، ولكنه كان يفعل ذلك في ابتهاج ، مثل القطط وعصافير الدوري ، ويضحك حين يدعوه الناس صبياً خالع العـذار ، ويغضب حين يدعونه صبياً زقاقياً . لم يكن عنده لا مأوى ، ولا طعام ، ولا نار ، ولا حب ، ولكنه كان مبتهجاً لأنه كان حراً .

وحين يكون هؤلاء المساكين رجالاً تحتكّ بهم رحى نظامنا الاجتماعي دائماً تقريباً ، وتسحقهم ، ولكنْ حين يكونون اطفالاً يفرّون بأنفسهم لأنهم صغار . إن اصغر الثقوب تنجيهم .

بيد أنه كان يتفق لهذا الولد في بعض الاحيان ، ان يقول لنفسه كل شهرين او ثلاثة اشهر ، برغم الاهمال الذي يحيا في غمرته : « إسمع ، سوف أذهب وأرى أمي ! » ثم يغادر الجادة ، و « السيرك » ، و « باب سان مارتان » ، ويهبط أرصفة النهر ، ويعبر الجسور ، وينتهي الى الضواحي ، ويمشي حتى الـ « سالبتريير » ويصل — الى اين ؟ بالضبط الى ذلك الرقم المزدوج ، ٥٠ — ٥٢ ، الذي يعرفه القارىء ، الى بيت غوربو العتيق .

في تلك الحقبة ، كان البيت ذو الرقم ٥٠ — ٥٢ ، الخالي في العادة ، المزدان على نحو سرمدي باللوحة القائلة « غرف للتأجير » — نقول كان ذلك البيت ، وهو وضع نادر ، آهلاً بعدد من الاشخاص الذين لم تكن

* هي اللعبة التي ترمى فيها قطعة نقود في الهواء ثم يقبض عليها باليد ، وعلى الشخص الآخر معرفة وجهها .

لأحد منهم ، من جميع النواحي الاخرى ، كما هي الحال في باريس دائماً ، صلة أو علاقة بالآخر . كانوا كلهم ينتسبون الى تلك الطبقة البلدية التي تبدأ بالبورجوازيّ الصغير المُعْسِر ، وتهبط درجات البؤس في طبقات المجتمع الدنيا ، درجةً درجةً حتى تصل الى هذين المخلوقين اللذين تنتهي بهما اشياء التمدن المادية كلها : البلاليعيّ الذي يكنس الوحل ، والخِرَقيّ الذي يلتقط المِزَق البالية .

كانت « المستأجرة الرئيسية » التي عرفها البيت في عهد جان فالجان قد ماتت ، وكانت قد خلفتها امرأة اخرى مثلها تماماً . ولست اذكر ايّ فيلسوف قال : « نحن لن نفتقر ابداً الى نسوة عجائز . »

وكانت العجوز الجديدة تدعى مدام بورغون . ولم يكن في حياتها ما يلفت النظر غير سلالة من ثلاث ببغاوات تربعت واحدةٌ اثر اخرى على عرش فؤادها .

وكان اشدّ سكان ذلك البيت العتيق بؤساً أسرة مؤلفةٌ من اربعة اشخاص — الاب والام وفتاتين في ميعة الصبا — يقطنون كلهم في علية واحدة من تلك العلالي التي تحدثنا عنها من قبل .

ولم تكن تلك الاسرة لتبدهَ المرء ، للوهلة الاولى ، بشيء فريد غير عَوَزها المتطرف . وكان الاب قد اتخذ ، يوم استأجر الغرفة ، اسم جوندريت . ولم تنقض فترة على انتقاله الى هناك — ذلك الانتقال الذي كان يشبه ، اذا اردنا ان نستعير تعبير المستأجرة الرئيسية الجدير بالذكر ، دخول لا شيء على الاطلاق — حتى قال جوندريت هذا لتلك المرأة التي كانت ، مثل العجوز التي سلفتها ، بوابة تكنس السلّم في الوقت نفسه : « ايتها الأم الفلانية ، اذا ما أقبل أحدٌ بالمصادفة وسأل عن رجل بولوني ، او ايطالي ، أو ربما عن رجل اسباني ، فأعلمي أني انا المقصود . »

كانت هذه الاسرة هي اسرة ذلك الصبيّ المرح الحافي القدمين ، وكان

اذا ما وصل الى هناك وجد الفقر ، والبؤس ، ووجد – وهذا أدعى الى الحزن – عبوساً موصولاً . كان يجد موقداً بارداً ، وقلوباً باردة . فاذا ما دخل سألوه : « من أين أقبلت ؟ » فيجيب : « من الشارع » . حتى اذا فارقهم سألوه : « الى اين انت ذاهب ؟ » فيجيب : « الى الشارع . » فتقول له امه : « ما الذي جاء بك الى هنا ؟ »

لقد عاش ذلك الطفل في انعدام الحنان مثل تلك الاعشاب الشاحبة التي تنبت في الاقبية . ان تلك الحياة لم تورثه المآ ما ، وانه لم يكن ليحقد على احد . كان لا يدري ، على وجه الضبط ، كيف ينبغي ان يكون الأب والام .

ومع ذلك فقد أحب امه وأختيه .

ولقد نسينا ان نقول ان القوم كانوا ، في جادة التامبل ، يدعون هذا الغلام غافروش الصغير . لماذا سمي غافروش ؟ لعل مرد ذلك الى ان أباه كان يدعى جوندريت .

ان قطع الخيوط جميعاً هو ، في ما يبدو ، غريزة عند بعض الأسر البائسة .

لقد كانت الغرفة التي احتلتها اسرة جوندريت في بيت غوربو العتيق هي آخر غرفة في اقصى الرواق ، وكان يحتل الغرفة المحاذية شاب فقير جداً يدعى مسيو ماريوس .

فلنرَ من كان مسيو ماريوس هذا .

الكتاب الثاني

البورجوازي الكبير

١

تسعون عاماً واثنتان وثلاثون سناً

في شارع بوشرا ، وشارع نورماندي ، وشارع سانتونج ، لا يزال بضعة سكان قدماء يحتفظون بذكرى رجل عجوز يدعى مسيو جيلنورمان ويحبّون التحدث عنه . كان ذلك الرجل عجوزاً يوم كانوا في نضارة الشباب . وكانت هذه الصورة المظلّلة عند اولئك الذين ينظرون في كآبة الى هذه الجمهرة الغامضة من الظلال التي ندعوها الماضي ، لمّا تختفِ بعدُ من تيه الشوارع القائمة على مقربة من « التامبل » والتي خُلعت عليها في عهد لويس الرابع عشر اسماء مقاطعات فرنسة كلها ، كما خلعت

في ايامنا هذه اسماء عواصم اوروبة كلها على شوارع حي تيفولي الجديد . تموج — ولنقل ذلك قولاً عابراً — يتجلى فيه التقدم .

وكان مسيو جيلنورمان ، الذي تمتع بالحياة قدْرَ ما تمتع بها أيما رجل آخر ، عام ١٨٣١ ، واحداً من اولئك الرجال الذين أمسوا موضوع فضولٍ لمجرّد أنهم عمّروا دهراً طويلاً ، والذين تكتنفهم الغرابة لانهم كانوا من قبل مثل أيّ انسان آخر ، ثم غدوا الآن لا يشبهون احداً البتة . كان شيخاً غريباً . وكان في الواقع من أهل جيل آخر ، فهو يمثل بورجوازيّ القرن الثامن عشر الحقيقيّ ، الكاملَ المتعجرف بعض الشيء ، اللابس بورجوازيته الطيبة العجوز ، كما يلبس المراكيز * مركيزيتهم . كان قد تجاوز التسعين . وكان يمشي منتصب القامة ، ويتحدث بصوت مرتفع ، ويرى في وضوح ، ويشرب الخمر صرفاً ، ويأكل ، وينام ، ويغطّ في النوم . وكان يحتفظ باسنانه الاثنتين والثلاثين جميعاً . وكان لا يصطنع نظارتيه إلا عند القراءة . كان ذا مزاج غراميّ ، ولكنه قال إنه هجر النساء منذ عشر سنوات هجراً كاملاً لا تردّد فيه . إنه لم يعد يُعجِب ، كذلك قال . وما كان ليضيف : « أنا هرمٌ اكثر مما ينبغي » ، ولكنْ « أنا فقير اكثر مما ينبغي . » كان يقول : « لو لم اكن متهدماً ، هيء ! هيء ! » وكان دخله الباقي لا يتجاوز ، في الواقع ، خمسة عشر الف ليرة تقريباً . وكان يحلم بأن يفوز بأرث ، وان ينعم بدخل مقداره مئة الف فرنك لكي يتخذ بعض الخليلات . إنه لم يكن من ذلك الضرب المريض من ابناء الثمانين الذين كانوا يموتون ، مثل مسيو دو فولتير ، طوالَ حياتهم . إن تعميره ** لم يكن تعميرَ ابنٍ رماه . وهذا العجوز المرح كان دائماً في صحة جيدة . كان سطحياً ، طيّاشاً ، سريع الغضب . وكان

* جمع مركيز .

** اي امتداد الاجل به حتى غدا هرماً عجوزاً .

الخلق يستبدّ به في كل مناسبة ، واكثر ما يكون ذلك حيث لا يقتضي الموقف حنقاً البتة . كان يرفع عصاه كلما اختلف امرؤ معه في الرأي ؛ وكان يضرب خدمه كما كانت الحال في العصر العظيم * ؛ وكانت له ابنة غير متزوجة تبلغ من العمر الخمسين ، وكان يضربها - حين يستبدّ به الغضب - ضرباً مبرحاً ؛ ويتمنى لو يُلهب ظهرها بالسياط . لقد كانت تبدو في عينيه وكأنها في الثامنة من العمر . وكان يصفع خدمه في عنف ويقول : « آه ، ايتها الجيفة ! » وكانت احدى أيمانه : « قسماً بيابوج البابوجية الاكبر ! » وكان في بعض النواحي على سكينة فريدة . فهو يعهد في حلاقة ذقنه ، كل يوم ، الى حلاّق كان قد جنّ ، حلاق كان يكرهه لحسده مسيو جيلنورمان بسبب من زوجته ، وهي امرأة جميلة ، مغناجة . وكان مسيو جيلنورمان يعجب بفطنته الخاصة في جميع الحقول ، ويصرّح بذكائه الشديد . فمن اقواله : « إن عندي شيئاً من نفاذ البصيرة حقاً . انا استطيع ان احزر ، حين يلذعني برغوث ، من اية امرأة قد جاءني ! » وكانت اكثر الكلمات تردداً على لسانه هي التالية : « **الانسان الحساس** » و « **الطبيعة** » . ولم يكن يضفي على هذه الكلمة الاخيرة المعنى الواسع الذي جعلته حقبتنا لها . ولكنه كان يقحمها على طريقته في أهاجيه الصغيرة المرسلة من زاوية الموقد . فيقول : « ان الطبيعة ، لكي يكون للحضارة شيء من كل شيء ، تعطيها حتى بعض النماذج من البربرية المسلية . فعند اوروبة نماذج من آسية وافريقية ، على صورة مصغرة . إن الهرة هي تمساح الصالون ، والجزدون هو تمساح الجيب . إن راقصات الاوبرا متوحشات ورديات اللون . انهن لا يفترسن الرجال ، ولكن يعشَنَ عليهم . أو بالاحرى ، فأن الساحرات يحوّلنهم الى محارات ثم يبتلعنها .

---

* يقصد بالعصر العظيم عهد الملك لويس الرابع عشر .

إن قبائل الكارايبب * لا تدع شيئاً غير العظام ، أما هاتيك الراقصات فلا يبقين شيئاً غير الاصداف . تلك هي عاداتنا . نحن لا نفـــترس ، ولكنْ نقرِض . نحن لا نُبيد ، ولكن نُنشب الاظفار .

٢

سيد كهذا جدير بمسكن كهذا

كان يقطن في ماريه ، شارع « فتيات كالفير » رقم ٦ . وكان البيت ملكه . والواقع ان ذلك البيت كان قد هدم ثم شُيّد من جديد ، ولعل رقمه قد غُير في ثورات الترقيم تلك التي تخضع لها شوارع باريس . ولقد احتل شقة عتيقة واسعةً في الدور الاول ، بين الشارع والحدائق ، مغطاةً حتى السقف بُبسُط « غوبلين » و « بوفيه » تمثل مشاهد من حياة الرعاة . وكانت موضوعات السقوف والجدران تُكرّر في صورة مصغَّرة على الكراسيّ ذوات الاذرع . ولقد طوّق سريره بحجـــاب (بارافان) عريض ذي تسع أوراق مطليـــة بلكّ كوروماندِيل . وكانت ستائر طويلة فضفاضة تتدلى على النوافذ ، فتُحدث طيّاتٍ عريضة متكسرة رائعة . وكانت الحديقة ، الواقعة تحتَ نوافـــذه مباشرةً ، متصلة بالزاوية التي بينها بسلّم ذات اثنتي عشرة درجة او خمس عشرة درجة كان الرجل العجوز يرتقيها ويهبطها في نشاط وجذل . وبالاضافة الى مكتبة ملاصقة لغرفته كان عنده بهوٌ نسائيّ أنيق يحرص عليه كثيراً — خلوة بهيجة مزدانة بالسجاد الرائع التبْنيّ اللون الموّشى بازهار السوسن والمصنوع في سجون لويس الرابع عشر الخاصة بالمحكوم عليهم بالاشغال

* Caraïbes هم السكان الاصليون لجزر الآنيّ الصغرى والشواطيء الاميركية المجاورة ، وقد انقرضوا اليوم أو كادوا .

الشاقة ، وقد امر مسيو دو فيفون * نزلاء تلك السجون بان يصنعوه لحظيته . وانما ورث مسيو جيلنورمان ذلك من اختٍ شرسة لجدّته ماتت وعمرها مئة عام . وكانت له زوجتان اثنتان . وكان سلوكه منزلةً وسطاً بين رجل البلاط الذي لم يكُنْه ، وبين رجل القانون الذي كان يمكن ان يكونه . كان مبتهجاً كريم النفس حين يشاء . وفي شبابه كان واحداً من اولئك الرجال الذين يُخدعون بزوجاتهم دائماً ولا يُخدعون بخليلاتهم ابداً لانهم ابغض الازواج الى النفس واكثر الأحبة فتنةً ، في وقت معاً . كان خبيراً بالرسم . وكانت في غرفته لوحة تمثل رجلاً مجهولاً من عمل جوردين ** ، وقد أُخرجت بضربات فرشاة جليلة وبملايين من التفاصيل ، على نحو مضطرب ، وكأنما كان ذلك محض مصادفة . ولم تكن ملابس مسيو جيلنورمان على غرار ملابس الملك لويس الخامس عشر ، بل لم تكن على غرار ملابس الملك لويس السادس عشر . كان يرتدي ملابس كملابس فتيان عهد القنصلية « الذين لا يصدّقون » *** وكان يحسب نفسه غضّ الاهاب ، حتى ذلك الحين . فهو يتّبع الزيّ أنى اتجه . وكانت سترته من جوخ رقيق ذات ظهر عريض ، وذيل طويل كذيل سمك « مورو » ، وازرار فولاذية ضخام . وكان يرتدي الى هذا بنطلوناً قصيراً وحذاء ذا أبازيم . وكان يضع يديه ، دائماً ، في بعض جيوبه . ويقول في نبرة ذي السلطان : « **الثورة الفرنسية حكومة من اللصوص المسلحين** » .

---

* de Vivonne مارشال فرنسة (١٦٣٦ – ١٦٨٨) ، ونائب الملك في صقلية عام ١٦٧٥ وقد ابلى بلاء حسناً في معركة باليرمو البحرية .

** Jordaens رسام فلمندي (١٥٩٣ – ١٦٧٨)

*** incroyables وهو الاسم الذي اطلق في عهد القنصلية على جماعة من الشبان المكبين المعارضين ، المتكلفين في كلامهم وملابسهم . وكانوا يرتدون ثياباً خضراً مزدانة بازرار ضخام وسترة طويلة مشقوقة تغطي نصف تغطية بنطلوناً ذا ثنيات .

٣
لوقا ـ الروح

ويوم كان في السادسة عشرة شُرّف ذات مســاء ، في الاوبرا ، بتحديق حسناوين اليه في وقت واحد ، وكانت هاتان الحسناوان قد تخطتا آنذاك مرحلة الشباب ، وكانتا شهيرتين تغنّى بهما فولتير : « لا كامارغو » و « لا ساليه » . وإذ وقع بين نارين ، فقد ارتد ارتداداً بطولياً الى راقصة صغيرة – وكانت فتاةً تدعى ناهنري يبلغ عمرها ستة عشر عاماً مثله – خاملة الذكر مثل هرة ، قد شغفته حباً . كان مُفعماً بالذكريات . وكان يهتف : « كم كانت جميلة ، غويمارد غويماردين غويماردينيت تلك ، يوم رأيتها آخرة مرة في لونشان ، وقد غضّنتها العواطف الساميــة ، وازدانت بحليّها الغريبة المصنوعة من الفيروز ، وارتدت ثوباً لونه كلون الاطفال الذين أبصروا النور منذ قريب ، وفي يديها وقــاء من فرو عصف به الاهتياج ! » وكان قد ارتدى في شبابــه سترة من نوع « الاندفي القزم » كان يُكثر من التحدث عنها في طلاقة فيقول : « لقد لبستُ كما يلبس تركيّ من المشرق المشرقيّ ! » ورأته مدام دو بوفلير مصادفةً ، وهو في العشرين من عمره ، فوصفته بقولها : « مجنون فاتن » . وكان يهزأ بجميع الاسماء التي رآها على مسرح السياسة أو في مناصب الدولة الرئيسية ، إذ كان يجدها وضيعة مبتذلة . كان يقرأ الجرائـد ، الصحف ، النشرات الاخبارية ، كما كان يقول ، وهو يكاد يختنق من شدة الضحك ويقول : « من هؤلاء الناس ! كوربيير ! هومانْ ! كازيمير بيريه ! هؤلاء وزراء لكم . أنا اتخيّل اني أرى ما يــلي في احدى الصحف : مسيو جيلنورمــان ، وزيراً . سوف يكون ذلك مضحكاً . حسن ! انهم بلهاء الى حدّ يجعلهم قادرين على الرضا بذلك ! »

وكان يسمي كل شيء باسمه ، في حرية ، سواء أكان ذلك الاسم نظيفاً أم قذراً ؛ ولم يكن ليستشعر الحرج في حضرة النساء . كان يتلفظ بأشياء جلفة ، بذيئة ، فاحشة بسكينة وبرود غريبين أنيقين . كان ذلك ضرباً من « البساطة وعدم التكلف » اللذين عُرف بهما عصره . فمما تجدر ملاحظته ان عصر الكنايات في الشعر كان عصر الفجاجات في النثر . لقد تنبأ جده بأنه سوف يغدو رجلاً عبقرياً ، وكان قد خلع عليه هذين الاسمين ذوَيْ المغزى : لوقا – الروح * .

٤

يرجو أن يعيش مئة عام

وكان قد ربح في شبابه عدة جوائز ، في كلية مولين ، وهي البلدة التي ولد فيها ، وتُوِّج بيدَيْ دوق نيفيرنيه ، وكان يدعوه دوق نيفير . ولم يستطع لا المؤتمر الوطني ، ولا موت لويس السادس عشر ، ولا نابوليون ، ولا عودة آل بوربون ، ان تمحو من ذهنه ذكرى هذا التتويج . كان دوق نيفير ، عنده ، أعظم شخصيات العصر . وكان يقول : « أيّ سيد عظيم ساحر ! وايّ سيما رائعة له بوشاحه الازرق ! » وفي رأي مسيو جيلنورمان ، ان كاترين الثانية كفّرت عن جريمة تجزئة بولونيا بشراء سرّ إكسير الذهب من بيستوشيف مقابل ثلاثة آلاف روبل . وهنا كانت تعروه هزة ، فيصيح : « إكسير الذهب ، صبغة بيستوشيف الصفراء ، قطرات الجنرال لاموت ، كانت الزجاجة الواحدة منها ، المتسعة لنصف أوقية ، تباع في القرن الثامن عشر بليرة ذهبية لويسية – الدواء العظيم لكوارث الحبّ ، العلاج الكلي لجميع الامراض الناشئة عن فينوس .

* احد الانجيليين الاربعة ، ويُعتبر راعي الرسامين .

لقد أرسل لويس الخامس عشر مثني زجاجة منه الى البابا . » وكان الحنق يستبدّ به والسخط يعصف به اذا ما قال له امرؤ إن اكسير الذهب ليس شيئاً غير بركاورور الحديد . وكان مسيو جيلنورمان يقدس آل بوربون ، ويرتعد مشمئزاً من ذكرى عام ١٧٨٩ . كان لا يفتأ يروي كيف نجا بنفسه اثناء عهد الارهاب ، وأيّ مبلغ من المرح والذكاء كان ينبغي ان يتكشّف عنه لكي ينقذ رأسه من المقصلة . واذا ما خطر لاي شاب ان يطري الثورة في حضرته اسودّ وجهه واستبد به الغضب حتى الاغماء . ولقد كان يشير في بعض الاحيان ، من طرف خفي ، الى سنه البالغة تسعين عاماً ، ويقول : « **لشد ما آمل ان لا ارى الثالثة والتسعين مرتين** . » وفي احيان اخرى ، كان يوحي الى الناس أنه يعتزم ان يعيش مئة عام .

٥
باسك ونيقوليت

وكانت له نظرياته . ودونك واحدةً منها : « حين يحب امرؤ النساء حباً عارماً ، وتكون له زوجة لا يُعنى بها الا قليلاً ، زوجة بشعة ، شرسة ، شرعية ، مولعة بتوكيد حقوقها ، جاثمة على القانون ، حسود عند الحاجة ، فليس له غير سبيل واحدة للخلاص من ذلك واقرار السلم ، وهي ان يلقي بأزمّة صرة ماله الى زوجته . ان هـذا التنازل يجعله حراً . عندئذ تشغل نفسها على نحو موصول ، وتقف ذاتها للاهـتمام بالقطع النقدية ، مزنجرة بذلك أصابعها ، وتتولى تربية مستأجري الارض المشاركين في غلاتها ، وتروّض الفلاحين ، وتدعو المحامين الى الاجتماع ، وتشرف على الكتّاب العـدول ، وتلقي الخطب في محرّري العقود ، وتزور المحـامين الصغار ، وتلاحق الدعاوى ، وتحرّر الايجارات ، وتملي العقود ، وتستشعر أنها صاحبة السلطة ،

وتبيع ، وتشتري ، وتنظّم ، وتأمر ، وتَعِدُ ، وتحلّ المشكلات بالتنازل عن بعض الحقوق ، وتعقد وتفسخ ، وتتخلى عن اشياء وتسلّم باشياء كانت موضع خلاف ، وتردّ بعض الحقوق ، وترتب ، وتبعثر ، وتقتصد ، وتبذر . انها ترتكب الوانا من الحماقات - سعادةٌ آمرة وشخصية - وهـــذا ما يعزيها . إنها ، وقد احتقرها زوجها ، تستمد الارتياح من العمل على خراب ذلك الزوج . » وهذه النظرية طبقها مسيو جيلنورمان على نفسه ، فأمست هي تاريخه . فقد دبرت زوجته - الثانية - أمر ثروته على نحو لم يُبق له حين وجد نفسه ، ذات يوم صاحٍ ، رجلًا أرمل ، (اذا حُوّل كل شيء تقريباً الى راتب سنوي) ، غير دخلٍ مقداره خمسة عشر الف فرنك لا بد ان ينفد ثلاثة ارباعها معه . ولم يتردد ، إذ ما كان ليعنى كثيراً بان يخلّف ميراثاً . والى هذا ، فقد رأى الاخطار تحدق بالتركات ، وتصبح مثلًا ممتلكات قومية . كان قد شهد التغييرات الجوهرية التي طرأت على الفوائد التي تدفعها الحكومة للرهون التي لا تُردّ ، وكان قليل الثقة بالدفتر الكبير المعروف بـ « الاستاذ » . وكان يقول : « **سوف يؤول ذلك كـــله الى الى شارع كوينكامبوا .** »* وكان بيته في شارع « فتيات كالفير » ، كما قلنا من قبل ، ملكاً له ؛ وكان عنده خادمان ، « ذكر وانثى » . وكان مسيو جيلنورمان يعيد تعميد الخادم حين يدخل بيته . وكان يخلع على الرجال اسماء مقاطعاتهم : نيموا ، كونتوا ، بواتفين ، بيكارد . وكان خادمه الاخير رجلًا ضخم الجثـــة عاجزاً عن المشي ، مبهوراً ضيق النفَس ، في الخامسة والخمسين من العمر ، غير قادر على ان يركض عشرين خطوة ، ولكن لما كان قد ولد في بايون ، فقد خلع عليه مسيو جيلنورمان اسم «باسك» . أما الخادمات فكنّ كلهنّ يُسَمّين في بيته نيقوليت (حتى مانيون ، التي ستظهر مرة اخرى في ما بعد) . وذات يوم وفدت عليه طاهية مغرورة

---

* rue Quincampoix شارع في باريس حيث كان يقوم مصرف « لو » الذي اغلق ابوابه بعد ان افلس عام ١٧٢٠

ذات وشاح ازرق ، تنتسب الى جلس البوّابين الرفيع . فسألها مسيو جيلنورمان : « كم تطلبين في الشهر ؟ » - « ثلاثين فرنكاً » - « ما اسمك ؟ » - « اوليمبي » - « سوف تأخذين خمسين فرنكاً ، وسيكون اسمك نيقوليت . »

٦
حيث نرى مانيون وصغيريها

كان الاسى يُترجَم ، في منزل مسيو جيلنورمان ، الى غضب . وكان الغيظ يعصف به حين يستشعر اليأس . كانت له اهواؤه المختلفة ، وكان يبيح لنفسه كل شذوذ . وكان من بين الاشياء التي أقام على أساسها رونقه الخارجي وارتياحه الباطني ، كما أشرنا آنفاً ، أنه لا يزال غزلاً ناضر العود ، وأنه يُقبَلُ في قوة على أنه كذلك . وكان يدعو ذلك « تمتّع المرء بشهرة ملكية » . ولكن الشهرة الملكية عادت عليه في بعض الاحيان بهدايا فريدة . فقد حُمل اليه ذات يوم ، في سلة مثل سلال المحار ، صبيّ بدينٌ ابصر النور منذ قريب . وكان هذا الصبيّ يصرخ مثل الشيطان ، وقد لُفّ بالاقمطة على أحسن وجه . وكانت خادمةٌ طُردت قبل ستة أشهر تقول إنه ولدهُ . وكان مسيو جيلنورمان قد اتمّ آنذاك عامه الرابع والثمانين . واستبدّ السخط بالحاشية ، وأطلقت صيحات الاحتجاج . وهل حسبت هذه العاهرة الوقحة ان ثمة مخلوقاً يمكن ان يصدّق هذا ؟ يا لها من جسارة ! يا لها من فرية قبيحة ! اما مسيو جيلنورمان فلم يُظهر شيئاً من الغضب . لقد نظر الى الاقمطة في ابتسامة محبّبة كابتسامة رجل وجد في الفرية إطراء له . وقال وكأنما يخاطب شخصاً وهمياً : « حسناً ، ماذا ؟ ما هذا ؟

ما المسألة ؟ ما الذي عندنا هنا ؟ انتم في حالة لطيفـــة من الدهش ، وتبدون مثل شعب جاهل فعلاً . إن دوق آنغوليم ، وهو ابن سِفاح من صاحب الجلالة شارل التاسع ، تزوّج في الخامسة والثمانين بامرأة بلهاء في الخامسة عشرة من العمر . وان مسيو فيرجينال ، مركيز آلوي ، أخا الكاردينال دو سورديس ، كبير اساقفة بوردو ، رُزق – وهو في الثالثة والثمانين ، ومن خادمة لزوجة الرئيس جاكان – ولداً ، ولداً من اولاد الحب الحقيقيين أصبح في ما بعد فارساً من فرسان مالطة ، ومستشاراً للدولة من اهل الحسام . وأحد كبار الرجال في هذا القرن ، الأب تابارو ، كان ابن رجل في السابعة والثمانين من العمر . ان هذه الاشياء لا تعدو ان تكون عادية جداً . واخيراً ، الكتاب المقدس ! وبناء على ذلك ، أعلن ان هذا السيد الصغير ليس مني . ولكن احيطوه بعنايتكم . إنها ليست غلطته . » وكانت العملية سهلة جداً . فقدّمت اليه المخلوقة ، تلك التي تدعى مانيون ، هدية ثانيـة في السنة التالية . وكان المولود ذكراً ايضاً . وهذه المرة استسلم مسيو جيلنورمان. لقد ردّ الطفلين الى الأم ، واخذ على نفسه أن يدفع ثمانين فرنكاً كل شهر لأعالتهما ، شريطة ان لا تعود تلك الأم الى مثلها مرةً ثانية . وأضاف : « اريد ان تحسن الأم معاملتهما . سوف اذهب لاراهما بين الفينة والفينة . » وهو ما قام به فعلاً . وكان له من قبلُ اخ كاهن ظلّ طوال ثلاثة وثلاثين عاماً رئيساً لاكاديمية بواتيه ، وقد توفي في التاسعة والسبعين من العمر . وكان مسيو جيلنورمان يقول : « لقد فقدته شاباً ». وكان هذا الاخ الذي كاد يُنسى ، رجلاً بخيلاً لين الجانب استشعر بوصفه كاهناً انه مضطر الى ان يمنح الفقراء الذين يلتقيهم بعض الصدقات ، ولكنه ما كان ليعطيهم أبداً غير قطع نحاسية او فلوس فقدت قيمتها الشرعية ، واجداً بذلك وسيلة للذهاب الى جهنم من طريق الجنـــة . اما مسيو جيلنورمان ، الأرشد ، فلم يتخذ من اعطاء الصدقات تجارة ، ولكنه كان

يعطي عن طيب نفس ، وفي نبل . كان عطوفاً ، خفيف اليد ، محباً للاحسان ؛ ولو قد كان غنياً اذن لكان مَيْلُهُ خليقاً بأن يكون سامياً . كان يرغب في ان يكون كل ما يتصل به معمولاً على نطاق واسع ، حتى الغش والخداع . وذات يوم ، بعد ان سرقه احد رجال الاعمال ، في مسألة ميراث ، على نحوٍ صفيق ملحوظ ، أطلق هذه الصيحة المهيبة : « تباً لك ! هذا شيء قذر ! أنا خجلٌ جداً من هذه المخادعات الصغيرة . لقد فسد كل شيء في هذا القرن ، حتى الانذال . وحقِّ الموت ، ليست هذه هي الوسيلة الى سرقة رجل مثلي . لقد سُرِقت وكأنني في غابٍ ، ولكني سُرِقت في خِسّة . *Sylvae sint consule dignae* » . وكانت له في وقتٍ ما ، كما ذكرنا ، زوجتان . وقد رُزق من الاولى فتاةً ظلت غير متزوجة ، ورزق من الثانية فتاةً اخرى توفيت في الثلاثين من عمرها وكانت قد تزوجت ، بحكم الحب او بحكم المصادفة ، جندياً مثرياً كان قد خدم في جيوش الجمهورية والامبراطورية ، وفاز بوسام لحسن بلائه في اوسترليتز ، ورُقي الى رتبة كولونيل في واترلو . وكان البورجوازي العجوز يقول : « هذا هو عارُ أسرتنا . » وكان يتنشّق مقداراً كبيراً من السعوط ، وكانت له براعة فريدة في تفضين مقدَّم قميصه المخرَّم بظاهر يده وكان لا يؤمن بالله إلا قليلاً .

٧
قاعدة : لا تستقبل احداً إلا في المساء

كذلك كان مسيو لوقا – الروح جيلنورمان الذي لم يفقد شعره

البتة ، الرماديّ اكثرَ منه أبيض ، والمسرّح دائماً على طريقـــة اذني الكلب . وعلى الجملة ، ومع ذلك كله ، فقد كان رجلًا جليلًا .

لقد كان يشبه القرن الثامن عشر : طيّاشاً وعظيماً .

وعام ١٨١٤ ، في السنوات الأولى لعودة آل بوربون الى العرش ، كان مسيو جيلنورمان – الذي كان لا يزال شاباً ، فهو لم يتجاوز آنذاك الرابعة والسبعين - يحيا في ضاحية سان جيرمان ، شارع سيرفاندوني قرب سان سولبيس . ولم يكن قد انسحب الى شارع ماريه إلا حين اعتزل المجتمع بعد ان تخطى عامه الثمانين .

وإذ اعتزل المجتمع احاط نفسه بسور من عاداته . وكانت عادتـــه الرئيسية ، التي لم يشذ عنها قطّ ، هي إبقاء باب داره موصداً طوال النهار ، وعدم استقبال احد كائناً من كان ، ولأيا مسألة من المسائل إلا في المساء . كان يتعشى في الساعة الخامسة ، ثم يفتح باب داره . كان ذلك هو الزي الشائع في عصره ، وما كان ليتخلى عنه بحال . وكان يقول : « النهار سافل ؛ وليس يستحق غير المصاريع المغلقة . إن الناس الجديرين بالاحترام لا يضيئون ذكاءهم إلا حين تضيء نقطـــة سَمْتِ الرأس نجومها . » لقد عَترسَ متربصاً بكل انسان ، ولو كان الملك نفسه . تلك هي كياسة عصره القديمة .

٨
واحدة وواحدة لا تساويان زوجاً

أما ابنتا مسيو جيلنورمان فقد سبق منا الكلام عليهما . لقد وُلدت احداهما بعد ولادة الاخرى بعشر سنوات . وفي صباهما ، كان الشبه بينهما ضئيلًا جداً ؛ وكانتا لا توحيان سواء من حيث الشخصية او من

حيث المحيّا ، أنهما شقيقتان . فأما الصغرى فكانت مرحة الروح يجـذبها كل ما هو مشرق ، منهمكةً بالازهار والاشعار والموسيقى ، توّاقـةً الى التحليق في الأجواء المجيدة ، شديدة الحماسة ، لطيفة ، مخطوبة منذ الطفولة ، في الخيال ، لشخصية بطولية غامضـة . وأما الكبرى فكانت لها هي الاخرى اوهامها . ففي الاعماق اللازوردية كانت ترى مقاولاً ، مموّنَ جنودٍ طبّباً ضخماً غنياً جداً ، زوجاً أبله على نحوٍ باهر ، رجلاً مليونيراً ، أو والياً . وكانت الحفلات المقامة في دار الولاية وحاجب غرفـــة الانتظار المطوّق عنقُهُ بسلسلة ، والحفلات الرسمية الراقصة ، والخطب الملقاة في مقرّ العمدة ، وأن تكون « السيدة الوالية » — كان ذلك كله يعصف في خيالهـا عصفاً . وكذلك تاهت الشقيقتان ، كلٌّ في حُلمها ، يومَ كانتا فتاتين صغيرتـــين . كانت لكلتيهما اجنحة ، فأمـا احداهما فكان جناحاها مثل جناحي ملاك ، وأما الاخرى فكان جناحاها مثل جناحي إوزّة .

ولكنّ أياً من الآمال لا يتحقق تحققـاً كاملاً ، هنا في هذه الدنيا على الاقل . إن اياً من الجنان لا تغدو أرضية خلال الفترة التي نحياها. لقد تزوجت الصغرى فتى أحلامها ، ولكنها ماتت . أما الكبرى فلم تتزوج .

وكانت هذه ، عند دخولها القصة التي نرويهـــا ، فضيلةً عجوزاً ، محدّرةً غير قابلة للاحتراق ، أحـد الأنوف الحادة على نحوٍ متطرف ، وأحد العقول التي لا يمكن ان يقـــع المرء على أغلظ منها . وظاهرةً مميّزة : فخارجَ نطاق الأسرة المباشرة ما كان أحدٌ يعرف اسمهـــا . كانت تدعى **الآنسة جيلنورمان الكبرى** .

ومن حيث الرياء كانت الآنسة جيلنورمان الكبرى خليقة بأن تتفوق على أيما آنسة انكليزية . كانت هي الحياء مغالياً في الشرّ ، وكانت لها في حياتها ذكرى رهيبة : لقد رأى رجلٌ ، ذات يوم ، رباط ساقها .

ولم تزد السنّ على ان ضاعفت من هذا الحياء القاسي الفؤاد . فاذا بثوبها المطرز يمعن في الكثافة ، واذا به يمعن في الارتفاع . لقد ضاعفت عدد الأبازيم والدبابيس هناك ، حيث ما كان ليخطر في بال احد أن ينظر . إن وجه الغرابة في خُلق اللواتي يفرطن في الاحتراس في كل ما يتصل بالعفة أنهن يكثرن من عدد الحرس كلما كانت القلعة اقل تعرضاً للخطر .

ومع ذلك – وليفسّر من يستطيع التفسير ألغاز البراءة القديمة هذه – فقد ارتضت ، من غير ما استنكار ، أن يقبّلها ضابط من الرّماحة ، هو ابنُ ابنِ عمها ، ويدعى تيبودول .

وبرغم هذا الرّماح المفضل فان لقب « المخدّرة » الذي خلعناه عليها يلائمها ملاءمة مطلقة . كانت الآنسة جيلنورمان ضرباً من النفس الغسقية . إن المغالاة في التعلق بأهداب العفة هي نصف فضيلة ونصف رذيلة .

ولقد اضافت الى الغلوّ في التعفف التطرفَ في التقوى ، وهي بطانة منسجمة معه . كانت من اخوية العذراء ، فهي تصطنع نقاباً ابيض في بعض الاعياد وتتمتم ببعض الصلوات الخاصة ، وتعظّم « الدم الطاهر » ، وتجلّ « القلب المقدس » ، وتسلخ ساعات من التأمل أمام مذبح يسوعي على الطراز القديم في كنيسة موصدة في وجه العوامّ من المؤمنين ، وتدع روحها تحلق وسط سحائب الرخام الصغيرة ، ومن خلال اشعة الخشب المذهب السابغة .

وكانت لها صديقة من صديقات العبادة ، وهي عانس مثلها تدعى الآنسة فوبوا ، وكانت هذه الصديقة على غاية البلاهة ، فكان فؤاد الآنسة جيلنورمان يطفح ، الى جانبها ، بسعادة ناشئة عن شعورها بأنها نسْر . وفي ما وراء ما كانت تردّده من الـ *Agnus Die* و الـ *Ave Maria* * لم تكن الآنسة فوبوا – لتعرف شيئاً غير الاساليب المختلفة في صنع المربيات . لقد كانت الآنسة فوبوا – الكاملة بين افراد نوعها رمزَ البلاهة الخالي

* صلاتان ، وتعني الاولى « حمَل الرب » والثانية « السلام عليك يا مريم . »

من ايا مسحة من الذكاء .

ويتعيّن علينا ان نقول ان الآنسة جيلنورمان كسبت ببلوغها سنّ الشيخوخة اكثر مما خسرت . وتلك هي الحال مع الطبائع المطواعة المنفعلة . انها لم تكن في يوم من الايام عنيدة ؛ وهي طيبة نسبية . والى هـذا فأن السنين تُبلي الزوايا ، ولقد أدركها عامـل الزمن الملطّف . كانت محزونة حزناً غامضاً لم تكن هي نفسها لتعلم سرّه . كان في كيانها كله خَدَرُ حياة انتهت ولكنها لم تبدأ قط .

لقد دبرت منزل أبيها . فقد كان مسيو جيلنورمان يحيا الى جانب بنته ، كما رأينا مونسينيور بيينفينو يحيا الى جانب اخته . وهذه الأسر المؤلفة من شيخ وعانس ليست شيئاً نادراً ، وانها لتوقع في النفس دائماً تلك الانطباعة المؤثرة التي يوقعها مشهد ضَعْفَيْن يتوكأ احدهما على الآخر .

وكان المنزل يضمّ فوق ذلك ، بين هذه العانس وهذا الشيـخ ، طفلاً ، صبياً صغيراً يرتجف دائماً وينعقد لسانه أمام مسيو جيلنورمان . ولم يكن مسيو جيلنورمان ليكلّم هذا الطفل ابـداً إلا في صوت فظّ ، وبمساعدة عصاً مرفوعة في بعض الاحيان : « هاي ! مسيو ! — ايها الوغد ، ايها الفاجر ، تعال الى هنا ! أجبني أيها الحقير ! دعـني أراك ، يا من لا يصلح لشيء ! » الخ . الخ . كان يحبه حباً جماً كان حفيده . ولسوف نرى هذا الطفل كرةً أخرى .

الكتاب الثالث

الجَدّ والحفيد

١

صالون قديم

كان من دأب مسيو جيلنورمان ، يوم كان مجيماً في شارع سيرفاندوني ، ان يتردد على عدد من الصالونات الفخمة جـداً ، النبيلة جداً . وكان يُستقبل في تلك الصالونات ، برغم انه بورجوازيّ . واذ كان على ذكاء مضاعفٍ ، ذكائه الذاتي والذكاء الذي كان يُعزى اليه ، فقد كان روّاد تلك الصالونات يلتمسونه ويرحبون به ترحيباً بالغاً . وما كان ليذهب الى ايما مكان إلا على شريطة أن يسيطر هو على المجلس . إن هناك رجالاً يرغبون في ان يفرضوا نفوذهم ، بأيّ ثمن ، ويحرصون

على لفت انتباه الناس اليهم . فحيث لا يستطيعون أن يكونوا جهابذة ناطقين بالحكمة ، يجعلون من أنفسهم مهرّجين . إن مسيو جيلنورمان لم يكن من هذا الضرب من الرجال . فسيطرته على الصالونات الملكية التي كان يختلف اليها لم تكلّفه شيئاً من احترام الذات . كان جهبذاً في كل مكان . ولقد قُدّر له أن يقاوم مسيو دو بونالد ، بل ان يقاوم مسيو بنجي - بوي - فاليه نفسه .

وحوالى عام ١٨١٧ جرت عادته بأن يقضي فترة ما بعد الظهر مرتين كل اسبوع في منزل مجاور لمنزله ، بشارع فيرو ، عند البارونة دو ت...... ، وهي سيدة جليلة محترمة كان زوجها سفيراً لفرنسة في برلين في عهد الملك لويس السادس عشر . وتوفي البارون دو ت..... الذي وقف حياته على ضروب النشوة الروحية والرؤى المغناطيسية ، في ديار الهجرة ، مفتقراً حتى الافلاس ، غير مخلفٍ غير عشرة مخطوطات مجلدة بجلد أحمر ، مذهبة الحوافي ، تنتظم ذكرياتهِ الغريبة عن مَسْمر * ووعائه الخشبيّ الصغير . ولم تشأ مدام دو ت..... ان تنشر المذكرات قطّ بدافع من الوقار ، وأعالت نفسها بدخل ضئيل ليس يدري احد كيف ثبت في وجه الطوفان . لقد عاشت مدام دو ت..... بعيدة عن البلاط - **وهو مجتمع يتفاوت افراده تفاوتاً عظيماً في العادات والمركز الاجتماعي** ، كما قالت - في عزلةٍ نبيلة ، مختالةٍ ، فقيرة . وكان نفر قليل من الاصدقاء يجتمعون حول نارها المترملة مرتين في الاسبوع ، وهذا ما شكل صالوناً ملكياً متحصناً . كانوا يشربون الشاي هناك ، ويُطلقون - وفقاً لهبوب الريح نحو الرثاء أو نحو الشعر الغنائي الحامي - أنات الاسى او صيحات الشتيمة في وجه العصر ، وفي وجه الدستور ، وفي وجه البونابرتيين ، وفي وجه تسليم الطاهيات الماهرات الى البورجوازيين ، وفي وجه نزعة لويس الثامن

---

* سبق التعريف به في الفصل العاشر من الكتاب الاول ، من هذا القسم ، فليراجع .

عشر اليعقوبية * . ولقد تلهّوا بالتهامس بالآمال التي كانوا يعلقونها على اخي الملك ، الثاني في تسلسل الاعمار ، وهو الذي تولى العرشَ بعـــدُ فعرف بشارل العاشر .

وكانوا يستقبلون الاغاني السُّوقية التي تدعو نابوليون « نيقولا » بعاصفة من البهجة . وكانت بعض الدوقات ، اكثر نساء العالم رقةً وأشدّهن فتنة ، ينشدنَ بمقاطع مثل هذه موجهةٍ « الى المتحالفين » ** :

« اغرزوا في سراويلكم مرة ثانية ،
اطراف القمصان التي تدلى على اجسامكم ،
لكي لا يقولوا ان الوطنيين
قد رفعوا الراية البيضاء ! »

وتسلَّوا بنكت جناسية اعتقدوا أنها فظيعة ، وبتلاعب لفظي بريء حسبوه سامياً ، وببعض الرباعيات الشعرية ، بل وببعض الثنائيات ، من مثل هذين البيتين اللذين قيلا في وزارة دوسول *** وهي وزارة معتدلة اشترك فيها السيدان « دوكاز » **** و « دوسير » :

« لكي تثبتوا العرش المتزعزع على قاعدته ،
يجب ان تغيروا الارض (de sol) والبرثن (de serre) والكوخ (de case) ***** »

---

* يقصد بالنزعة اليعقوبية النزعة الثورية التحررية نسبة الى جماعة « اليعاقبة » الشهيرة في تاريخ الثورة الفرنسية .

** يقصد بالمتحالفين هنا ، Fédérés ، الحرس الوطني الذي تحالف عام ١٨١٥ لنصرة آل بوربون .

*** Dessolles جنرال فرنسي (١٧٦٧ – ١٨٢٨) وقـــد تولى رئاسة الوزارة عام ١٨١٨ . ولكن « دوكاز » كان هو الرئيس الحقيقي للحكومة .

**** Decazes رجل دولة فرنسي (١٧٨٠ – ١٨٦٠) تولى رئاسة الوزارة ايضاً .

***** لاحظ الجناس بين قوله de sol واسم رئيس الوزارة Dessolles وبين قوله de serre واسم الوزير Deserre ، وبين قوله de case واسم الوزير دوكاز .

وفي بعض الاحيان كانوا يضعون لائحة باعضاء مجلس الاعيان ، « ذلك المجلس اليعقوبي الى حدّ قبيح » ، ويرتبون الاسماء ، في تلك اللائحة ، بحيث تتألف منها مثلًا ، جمل كهذه : * *Damas, Sabran, Gouvion Saint-Cyr* وكانوا يفعلون ذلك كله في مرح وابتهاج .

وفي ذلك العالم الصغير كانوا يقلدون الثورة ساخرين . وكان لديهم ميل غريب الى ان يشحذوا الغضب نفسه بمعنى معكوس . وهكذا أنشدوا أغنية *Ça ira* على هذا النحو :

Ah ! ça ira ! ça ira ! ça ira !
Les buonapartist , à la lanterne ! **

ان الاغاني كالمقصلة . فهي تحتز الرؤوس في غير مبالاة : اليوم هذا الرأس وغداً ذلك الرأس ؛ انه مجرد اختلاف في النسخ .

وفي قضية فويالديس *** التي ترقى الى ذلك العهد ، ١٨١٦ ، تعصبوا لـ « باستيد » و « جوسيون » لأن فويالديس كان « بوونابرتيـــاً » . كانوا يسمون الأحرار « **الاخوة والاصدقاء** » وكانت تلك أعلى درجات التحقير .

ومثل بعض ابراج الكنائس كان لصالون السيدة البارونة دو تـ .... ديكان اثنان . احدهما مسيو جيلنورمان ، والاخر الكونت دو لاموت قالوا

---

* أي : « داما » يطعن بالسيف « غوفيون سان سير . » على اعتبار الجناس بين اسم Sabran عضو ذلك المجلس و Sabrant « اي طاعناً بالسيف » .

** أي أن انصار بونابرت سوف يشنقون على رؤوس اعمدة الفوانيس ... والاغنية في الاصل من اغاني الثورة ، وهي تقول في البيت الثاني :

Les aristocrates à la lanterne

وهكذا يكون رواد الصالون الملكي الذي يتحدث عنه المؤلف قد وضعوا كلمة « البونابرتيين » محل كلمة الارستوقراطيين ، اذ كان الملكيون ـ انصار آل بوربون ـ يرون في البونابرتيين عدوهم الاول .

*** Fualdés حاكم فرنسي قتل في روديز عام ١٨١٧ (هكذا في معجم لاروس) وقد احدثت المحاكمة الجنائية دوياً هائلًا في فرنسة كلها .

الذي كان القوم يتهامسون حوله في ضرب من الاحترام : « اتدري ؟ هذا هو لاموت Lamothe قضية العقد * . إن الحزبيين ليصابون بمثل فقدان الذاكرة هذا .

ولنضف أيضاً : إن رُتب الشرف ، عند البورجوازيين ، تتناقص من طريق الاتصال الميسّر اكثر مما ينبغي . واذن فيتعيّن عليك أن تعرف من تستقبل . وكما يفقد المرء شيئاً من الحرارة في جوار اولئك الذين يَشكون البرد كذلك يُمنى بنقص في الاعتبار اذا اقترب من المحتقرين من الناس . والواقع ان المجتمع الارستوقراطي القديم جعل نفسه فوق هذا القانون كما وضع نفسه في سائر القوانين جميعاً . فقد كان ماريني اخو مدام بومبادور ** يُستقبل في صالون البرنس دو سوبيز *** . على الرغم ؟ لا . لأنه . وكان دو باري ، عرّاب لا فوبرنييه ، يُستقبل احسن استقبال في صالون المارشال دو ريشيليو **** . إن ذلك المجتمع

* قضية العقد فضيحة شغلت الناس في فرنسة في السنوات التي سبقت الثورة الفرنسية (١٧٨٤ - ١٧٨٦) وتفصيل المسألة ان الكاردينال دو روهان كان يحرص على استرضاء الملكة ماري انطوانيت فسمح للكونتيس دو لاموت La Motte بأن تخدعه . ذلك ان هذه المرأة اوهمته ان الملكة ترغب اشد الرغبة في الحصول على عقد تبلغ قيمته مليوناً وستمئة الف فرنك ولكن الملك يرفض ان يشتريه لها . فما كان من الكاردينال الا ان اشتراه لها ، وسلمه الى الكونتيس دو لاموت لكي تحمله الى الملكة . ولكن العقد اختفي . ولم يتمكن الكاردينال من دفع الثمن . واكتشفت المسألة ، فوضع في الباستيل ، ولكن البرلمان برأه فنفي من باريس ... وواضح ان الكونتيس لاموت La Motte بطلة هذه الفضيحة هي غير الكونت دو لاموت Lamothe « ديك » الصالون المشار اليه ... وهذا ما عناه المؤلف بقوله : ان الحزبيين يصابون بمثل فقدان الذاكرة هذا .

** المركيزة دو بومبادور Pompadour عظية لويس الخامس عشر . وكان اخوها ماريني Marigny (١٧٢١ - ١٧٨١) المدير العام لمباني الملك .

*** Prince de Soubise مارشال فرنسة (١٧١٥ - ١٧٨٧) وكان خادماً مطواعاً للمركيزة دو بومبادور .

**** Maréchal de Richelieu مارشال فرنسة (١٦٩٦ - ١٧٨٨) لعب دوراً بارزاً في بلاطي لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر .

اشبه بجبل الاولمب . فيه يستشعر كلٌ من عطارد * والبرنس دو غومينيه أنه في بيته . إن اللص يُسمح له في الدخول الى هناك ، شرط ان يكون إلـهاً .

ولم يكن الكونت دو لاموت ، الذي أوفى عام ١٨١٥ على الخامسة والسبعين ، ليمتاز بشيء غير صمته وإفراطه في إطلاق الحكم والامثال ، ووجهه البارد ذي الزوايا ، وسلوكه الممعن في اللطف ، وسترته المزرّرة حتى ربطةِ عنقه ، وساقيه الطويلتين المتصالبتين ابداً في بنطلون طويل رخوٍ ذي لون كاون تراب « سييناً » ** المحروق . وكان وجهه من لون بنطلونه .

إن مسيو لاموت هذا كان « مبجّلاً » في ذلك الصالون بسبب من « شهرته » ، وبسببٍ من أن اسمه — وهو شيء غريب ، ولكنه صحيح — فالوا . ***

أما مسيو جيلنورمان فكان مديناً بالاحترام الذي أُحيط به لشخصه وحده ليس غير . لقد فاز بالاحترام لأنه جدير بأن يفوز بالاحترام . كانت له — برغم مرحهِ ، ومن غير ان يكلفه ذلك شيئاً من ابتهاجه — طبيعة مهيبة ، وقورٌ ، نزيهة ، متغطرسة على نحو بورجوازيّ ؛ ولقد ظهّرت شيخوخته ذلك وقوّته . إن المرء لا يكون قرناً من الزمان على غير طائل . فالسنون تُلبس الرأس ، آخر الامر ، تاجاً من الوقار .

والى ذلك كله ، كان يطلق بعض تلك الكلمات التي تنطوي من غير

---

* Mercure ابن جوبيتر ورسول الالهة . وكان هو نفسه إله الفصاحة والتجارة واللصوص . وهو يقابل « هرمس » عند الاغريق .

** sienne تراب حديدي يتخذ منه مادة صبغية تكون صفراء ضاربة الى الصفرة في حالته الخام ، فاذا ما أحرق استخرج منه صبغ اسمر ضارب الى الحمرة .

*** Valois على اسم الاسرة الفرنسية المالكة التي تولت عرش فرنسة عام ١٣٢٨ في شخص فليب السادس .

ريب على شرَرِ النسب العريق . وهكذا ، حين اقبل ملك بروسيا – بعد ان اعاد لويسَ الثامن عشر الى عرشه – لزيارته تحت اسم الكونت دو روبين استقبله المتحدرون من لويس الرابع عشر وكأنه مركيز من مراكزة براندبورغ ، تقريباً ، وفي جفاءٍ بالغ الرقة . وأقرّ مسيو جيلنورمان ذلك قائلاً : « **إن جميع الملوك ، الذين لا يتربعون على عرش فرنسة هم ملوك مقاطعات .** » ولقد نُطق بالسؤال والجواب التاليين في حضرته ، ذات يوم : « بم حُكم على محرر الـ « **كوريبه فرنسيه ؟** » – « بان تعطّل جريدته » *à être suspendu* فما كان من مسيو جيلنورمان إلا ان قال : « ان *sus* هذه زائدة . » * إن اقوالاً من هذا النوع لتجعل للمرء مركزاً .

وفي « تسبحة شكر » سنوية لمناسبة عودة آل بوربون الى العرش، قال عند رؤيته مسيو دو تاليران : « هوذا صاحب الفخامة الشرّ . »

وكان يرافق مسيو جيلنورمان ، عادة ، ابنته – هذه الآنسة التي تجاوزت آنذاك الاربعين وبدت وكأنها في الخمسين – وغلامٌ وسيم في السابعة ، أبيضُ ، متورد الوجنتين ، غض ، ذو عينين سعيدتين واثقتين ، كان لا يكاد يظهر في هذا الصالون حتى يسمع من حوله أزيزاً : « ما أجمله ! يا للخسارة ! يا له من طفل مسكين ! » وكان هذا الطفل هو الذي قلنا كلمة عنه منذ لحظة . كانوا يدعونه « الطفل المسكين ! » لأن أباه كان « قاطعاً من قطاع الطرق في اللوار » .

وكان « قاطع طريق اللوار » هذا هو صهر مسيو جيلنورمان ، الذي سبق ان اشرنا اليه ، والذي كان مسيو جيلنورمان يدعوه « عار أسرته » .

---

* يقصد انه كان ينبغي ان يُحكم عليه بالشنق *être pendu* لا بتعطيل الجريدة فحسب *être suspendu* ، لان حذف السابقة *sus* من فعل suspendre ينقل المعنى من « التعطيل » الى « الشنق » .

٢
احد اشباح ذلك العصر الحمراء

إن كل من قُدِّر له ان يمرّ ، في تلك الحقبة ، بمدينة فيرنون الصغيرة وان يسير على ذلك الجسر الجميل الفخم الذي نرجو ان يحل محله في وقت قريب جسر رهيب من اسلاك الحديد ، قد لاحظ من غير ريب ، عندما خفض بصره من أعلى سور الجسر ، رجلاً في نحو الخمسين من العمر يعتمر بقبعة جلدية ذات حافة ناتئة ، ويرتدي بنطلوناً وصدرة من جوخ رمادي غليظ خِيطَ فوقها شيء اصفر كان في وقت ما عصابة حمراء ، وينتعل حذاء خشبياً ؛ رجلاً لوّحته الشمس ، ذا وجه يكاد يكون أسود وشعر يكاد يكون أبيض ، على جبينه نَدَبَةٌ عريضة تمتد فتشغل جزءاً من خده ؛ رجلاً محدودب الظهر ، متقوساً ، ألمّت به الشيخوخة قبل الاوان يتمشّى كل يوم تقريباً ، وفي يده إما مسحاة وإما مدية لتشذيب الاغصان في أحد تلك البيوت المسورة المجاورة للجسر ، والمحيطة بضفة الـ « سين » اليسرى مثل سلسلة من السطائح – أحواش فاتنة ملأى بالرياحين يستطيع المرء ان يقول ، لو كانت اكبر كثيراً : انها حدائق ، ولو كانت اصغر قليلاً : انها باقات . وجميع هذه الاحواش تفضي ، من ناحية ، الى النهر ومن ناحية اخرى ، الى بيت من البيوت . وإنما كان الرجل ذو الصُّدرة والحذاء الخشبي ، الرجل الذي تحدثنا عنه اللحظةَ ، يحيا حوالى عام ١٨١٧ في اصغر هذه الاحواش ، وفي اكثر تلك البيوت تواضعاً . كان يحيا هناك متوحداً منعزلاً ، يكتنفه الصمت والفقر ، مع امرأة ليست بالشابة وليست بالعجوز ، ليست بالجميلة وليست بالقبيحة ، ليست بالريفية وليست بالمدينية كانت تقوم على خدمته . وكان ذلك المربّع من الارض الذي يدعوه

حديقته شهيراً في المدينة بجمال ازهاره التي كان يتعهدها بعنايته . لقـــد كانت الازهار موضوع اهتمامه .

وبالاكثار من العمل ، والمواظبة ، والانتباه ، ودلاء الماء ، وُفـِّق الى ان يخلق بعد الخالق ، وكان قد اخترع بعض الزنابق والزهرات الدهلية التي بدت وكأن الطبيعة قد نسيتها . كان حاذقاً . ولقد سبق سولانج بودين الى تشكيل كتل صغيرة من التربة التي ينبت فيها الخلنج لاستنبات بعض الشجيرات النادرة الثمينة المجلوبة من اميركة والصين . فما إن يرتفع الضحى ، من كل يوم ، في فصل الصيف ، حتى يكون في ممرات حديقته يحفر ، ويشذّب الاغصان ، ويقتلع الاعشاب الطفيلية ، راوياً النباتات ، ماشياً وسط ازهاره في سيا من الطـّيبة ، والحزن ، والرقة ، مستسلماً الى الاحلام في بعض الاحيان ، واقفاً لا يتحرك ساعات بكاملهـــا ، مصغياً الى انشودة طائر على شجرة أو زقزقة طفل في بيت ، او محدّقاً الى قطرة من ندىً على طرف نصـل من نصال العشب كانت الشمس تجعل منها ياقوتةً جَمْرية . كانت مائدته مهزولة جداً ، وكان يشرب اللبن اكثر مما يشرب الخمر . كان جديراً بابا طفل ان يحمله عـــلى الاستسلام ، وكانت خادمته تؤنبه . كان خجولاً الى حد جعـله يبدو نَفُوراً . وكان نادراً ما يغادر بيته ؛ وما كان ليرى احداً غير الفقراء الذين يخفقون زجاج نافذته بأصابعهم ، وغير كاهنه ، الأب مابوف ، وكان رجلاً عجوزاً طيباً . ومع ذلك فقد كان يفتح باب داره في ابتسامة كلما قرعه احدٌ من ابناء المدينة أو من الغرباء ، كائناً من كان ، يحدوه الفضول الى رؤية زنابقه وورروده . ذلك كان « قاطع طريق اللوار » .

وكل من قرأ ، في الوقت نفسه ، المذكرات العسكرية ، وسيَر

الرجال ، و « المونيتور » * ، وبلاغات « الجيش العظيم » ** الرسمية خليقٌ بأن يبدهه اسمٌ كثيراً ما يتردد فيها ، هو اسم جورج بوغيرمي . ففي صدر الشباب ، كان جورج بوغيرمي هـــذا جندياً في كتيبـــة سينتونج . وانفجرت الثورة . وكانت كتيبة سينتونج تؤلف جزءاً من جيش الرين . ذلك ان كتائب النظام الملكي القديمة احتفظت باسمائهـــا المنسوبة الى المقاطعات حتى بعد سقوط الملكية ، ولم توحَّد في ألوية إلا سنة ١٧٩٤ . وقاتل بوغيرمي في « سبير » ، و « وورمز » ، و « نوْيشتات » ، و « توركهايم » ، و « آلزي » ، و « ميانس » حيث كان احـد المئتين الذين شكلوا مؤخرة جيش هوشار *** . لقد صمد هو وأحـد عشر مقاتلاً آخرين في وجه فيلق أمير هيسّ بكامله ، خلف مـــتراس آندرناخ القديم ، ولم يرتدّ الى جمّاع الجيش إلا عندما احدثت مدافع العدو ثغرةً من أعلى السور الى منحدَره . وكان تحـت امرة كليبر في مارشيينّ ، وفي معركة مون باليسيل حيث كسِرت ذراعه بقذيفة من بندقية . ثم انتقل الى الحدود الايطالية ، وكان احد رماة القنابـــل الثلاثين الذين دافعوا عن شِعْب تاند مع جوبير ****. ورُقي جوبير الى رتبة

---

* Le Moniteur Universel الجريدة الرسمية للحكومة الفرنسية من السنة الثانية للجمهورية حتى عام ١٨٦٩ .

** هو الجيش الذي نظمه نابوليون عام ١٨٠٤ ابتغاء غزو بريطانية ، اول الامر ثم وجهه لشن الحملات العسكرية التي قام بها عام ١٨٠٥ وعام ١٨٠٦ . (وبعد عام ١٨٠٦ أُطلق على هذا الجيش اسم جيش الرين .) وقد خُلع هذا الاسم نفسه — الجيش العظيم Grande Armée — على الجيش الذي قاده نابوليون عام ١٩١٢ ، الى الروسيا .

*** Houchard جنرال فرنسي (١٧٣٨ — ١٧٩٣) هزم الانكليز في هوندشوت عام ١٧٩٣ ، ولكنه لم يطارد القوات المهزومة فاتهم بمداراة العدو ، وحكمت عليه المحكمة الثورية بالموت على المقصلة .

**** Joubert جنرال فرنسي (١٧٦٩ — ١٧٩٩) أبلى بلاء حسناً تحت إمرة نابوليون في الحملة الايطالية عام ١٧٩٦ .

جنرال معاون ، ورقي بونغيرسي الى رتبة ملازم ثانٍ . وكان بونغيرسي الى جانب بيرتييه * وسط وابل القذائف الذي انصبّ في معركة لودي ** تلك التي قال نابوليون عنها : « **كان بيرتييه مدفعياً ، وفارساً ، ورامي قنابل** . » لقد رأى جنراله القديم ، جوبير ، يخرّ صريعاً في « نوفي » ، لحظة كان يصيح ، شاهراً سيفه : « الى الامام ! » وإذ ركب هو وسَرِيّته ، بحكم ضرورات الحملة ، زورقاً شراعياً خفيفاً كان متجهاً من جنوا الى مرفأ صغير على الشاطىء ، فقد وقعوا في وكر مؤلف من سبعة مراكب او ثمانية مراكب شراعية انكليزية . وأراد الربان ان يلقي بالمدافع الى البحر ، وان يخبىء الجنود في الطبقة القائمة بين جسري المركب ، وينسلّ تحت جنح الظلام مثل سفينة تجارية . فما كان من بونغيرسي إلا ان ثبّت الراية المثلثة الالوان الى حبال سارية العلم ، ومرّ مختالاً تحت مدافع السفن الحربية البريطانية . حتى اذا اجتاز عشرين فرسخاً من هناك هاجم بزورقه الشراعي واعتَقَلَ — وقد تعاظمت جسارته — ناقلةً انكليزية ضخمة تحمل الجنود الى صقلية ، وكانت مثقلة بالرجال والخيل الى حد جعل كل زاوية فيها ملأى بمن تحمل ، حتى الفجوات المؤدية الى « عنبر » البضائع . وفي سنة ١٨٠٥ كان في فصيل مالمر ذاك ، الذي انتزع غونزبورغ من الآرشيدوق فيرديناند . وفي وتنجن تلقّى بين ذراعيه ، تحت وابل من القذائف ، الكولونيل مَوبيتي الذي اصيب بجراح مميتة على رأس كتيبة الفرسان التاسعة . ولقد أبلى بلاءً حسناً في أوسترليتز ، اثناء ذلك الزحف الرائع الذي انتشر فيه الجنود انتشاراً مُعقياً ، تحت نيران العدو . وحين سحقت خيالة الحرس الامبراطوري الروسي فوجاً من كتيبة المشاة الرابعة التي يحارب جنودها مصطفّين كان بونغيرسي بين اولئك الذين ثأروا لهذا الفوج

* Berthier مارشال فرنسة (١٧٥٣ — ١٨١٥) كان من اعوان نابوليون وقائداً من اكبر قواد « الجيش العظيم » .

** Lodi مدينة ايطالية انتصر فيها نابوليون على النمسويين في ١٠ نوار ١٧٩٦

والذين هزموا ذلك الحرس . ومنحه الامبراطور صليب الحرب . وعلى التعاقب رأى بونميرسي الى وورمسر* يقع أسيراً في مانتو ** ، وميلاس*** يقع اسيراً في الاسكندرية ، وماك يقع أسيراً في أولم . كان يؤلف جزءاً من الفيلق الثامن ، من الجيش العظيم ، الذي قاده مورتييه ****، والذي استولى على هامبورغ . ثم انتقل الى الكتيبة الخامسة والخمسين من كتائب الجند المقاتلين مصطفين ، تلك التي كانت من قبل كتيبة الفلاندر . وفي ايلو ***** كان في المقبرة التي قاوم فيها الرئيس الباسلُ ، لويس هيجو ، عمّ مؤلف هذا الكتاب ، هو وأفراد سريته وحدهم ، وعددهم ثلاثة وثمانون رجلاً ، مجهود الجيش العدوّ كله طوال ساعتين كاملتين . وكان بونميرسي واحداً من اولئك الثلاثة الذين خرجوا من تلك المقبرة على قيد الحياة . ولقد شهد معركة فريدلند ، ثم رأى موسكو ، ثم الـ « بيريزينا » ، ثم لوتزين ، وبوتزين ، ودرسدن ، وفاشاو ، وليبزغ ، وفجاج جيلينهاوزن ، ثم مونميراي ، وشاتو تييري ، وكراون ، وضفاف المارن ، وضفاف الأين ، والوضع الرهيب في لاون . وفي « آرنى لو دوك » ، وكان برتبة رئيس ، طعن عشرة من الجنود القوزاق بسيفه ، وانقذ من الموت عريفه لا جنراله . ولقد جُرح في تلك المناسبة ؛ ولقد استُخرجت سبع وعشرون شظية من ذراعه

---

* Wurmser جنرال نمسوي (١٧٢٤ - ١٧٩٧) هزمه بونابرت في كاستيغليون واكرهه بعد ذلك على الاستسلام في مانتو .

** Mantoue مدينة في ايطالية ، وقد استولى عليها بونابرت ، بعد ان هزم وورمسر عام ١٧٩٧

*** Baron de Mélas جنرال نمسوي (١٧٢٩ - ١٨٠٦) هزمه بونابرت في معركة مارانتو .

**** Mortier مارشال فرنسة (١٧٦٨ - ١٨٣٥) وقد خاض معركة فريدلند ، ولوتزن ، وليبزيغ .

***** Eylau مدينة في بروسية حيث هزم بونابرت (٨ شباط ١٨٠٧) القوات البروسية والروسية .

اليسرى وحدها . وقبل استسلام باريس بثمانية ايام اجرى تبادلاً مع رفيق له ، ودخل سلاح الفرسان . كان له ما يدعى في النظام القديم «اليد المزدوجة» يعني انه كان بارعاً – بوصفه جندياً – في اصطناع السيف او البندقية ، وبارعاً – بوصفه ضابطاً – في قيادة كوكبة من الفرسان او فوج من المشاة . والحق ان هذه البراعة ، التي تنتهي بها الثقافة العسكرية الى حد الكمال ، هي التي تخلق بعض الاسلحة الخاصة ، كسلاح « التنانين » مثلاً الذي يتألف من جنود هم خيالة ورجالة في وقت معاً . لقد رافق نابوليون الى جزيرة ألبا . وفي واترلو ، قاد كوكبة فرسان دارعين في لواء دوبوا . وكان هو الذي انتزع الراية من فوج لونبورغ . لقد طرح الراية على قدمي الامبراطور ، وكان مضرجاً بالدم ، فقد اصيب ، وهو ينتزع الراية ، بضربة سيف عبر وجهه . وصاح الامبراطور يخاطبه ، وقد غلبه السرور : **« أنت كولونيل ، انت بارون ، انت ضابط في جوقة الشرف ! »** واجاب بونميرسي : **« مولاي ، إني اشكرك بالنيابة عن ارملتي »**. وبعد ساعة سقط في وادي أوهين . فمن كان جورج بونميرسي هذا ؟ لقد كان « قاطع طريق اللوار » ذاك نفسه .

لقد روينا ، من قبلُ ، شيئاً من قصته . فبعد واترلو أُخرج بونميرسي ، كما نذكر ، من طريق أوهين الغائرة ووفّق الى اللحاق بالجيش ، فنُقِل من عربة إسعاف الى عربة إسعاف حتى بلغ معسكر الجند الموقت في اللوار .

وخفضت حكومة آل بوربون تعويضاته ، ثم اورسلته الى فيرنون ليقيم فيها إقامة جبرية ، تحت الحراسة . وإذ انكر الملك – لويس الثامن عشر – كل ما تمّ خلال « الأيام المئة » ، فأنه لم يعترف لا بمنزلته كضابط في جوقة الشرف ، ولا برتبته ككولونيل ، ولا بلقبه ك « بارون » . أما هو فلم يغادر فرصة إلا وقّع فيها اسمه هكذا : **الكولونيل البارون بونميرسي** . ولم يكن عنده غير سترة زرقاء عتيقة ،

وما كان ليخرج من بيته البتة من غير ان يعلّق عليها العقـدة الوردية الشكل المؤذنة بأن حاملها ضابط في جوقة الشرف . وأعلمه النائب العام أن النيابة سوف تلاحقه لانه يزين صدره ، « على نحو غــير شرعي » ، بهذا الوسام . فلما حمل اليه احد الوسطاء غير الرسميين هذا الاعلام اجابه بونغيرسي في ابتسامة مريرة : « يخيل اليّ ان ثمة واحداً من امرين : إما ان اكون أنا لم اعد افهم الفرنسية ، وإما ان تكونوا انتم لم تعودوا تتكلمونها . ولكن الامر الذي لا ريب فيه هو اني لا أفهمكم . » ثم راح يخرج من بيته ، يومياً ، طوال اسبوع ، معلقاً تلك العقـدة الوردية . ولكن احداً لم يجرؤ على إزعاجه . ومرتين او ثلاث مرات كتب اليه وزير الحرب أو الجنرال قائد القوات في المقاطعة موجهـاً الخطاب على النحو التالي : « **السيد الكومندان بونغيرسي** » . فكان يعيد الرسائل الى مصدرها من غير ان يفضّها . وفي تلك الآونة نفسها كان نابوليون في سانت هيلانة يقف الموقف ذاته من رسائـل « السير هدسون لو » المعنونة : **الى الجنرال بونابرت** . وأخيراً انتهى بونغيرسي — وليغفر لنا القارىء هذه الكلمة — الى ان يجد في فمه اللُعاب نفسه الذي وجده امبراطوره .

ولقد كان في رومة ، كذلك ، بضعة اسرى من الجنود القرطاجيين رفضوا الانحناء لفلامينيوس * وكانت تعتلج في صدورهم نفحة من روح هنّيبعل .

وذات صباح التقى النائبَ العام في احد شوارع فيرنون ، فمضى اليه وقال : « سيدي النائب العام ، هل يجاز لي ان احمـل نَدَبتي ** ؟ »

---

* Flaminius قائد روماني (٢٣٠ ؟ — ١٧٤ ق . م) وقد تولى منصب (قنصل) في عام ١٩٨ ق . م .

** الندبة : اثر الجرح الباقي على الجلد .

ولم يكن لديه غير نصف راتبه الهزيل جداً والذي كان يقدّم اليه بوصفه قائد كوكبة فرسان ؛ ولقد استأجر اصغر بيت استطاع ان يجده في فيرنون . وهناك عاش وحده على النحو الذي وصفنا منذ لحظة . ففي عهد الامبراطورية ، بين حربين اثنتين ، وجد متسعاً من الوقت لأن يتزوج الآنسة جيلنورمان . ولقد اقر البورجوازيُ العجوز ، الذي استبد به السخط ، ذلك الزواجَ ، وقال وهو يُطلق زفرة : « ان اعظم الاسَر تُكره على ذلك . » وفي عام ١٨١٥ ، توفيت مدام بونميرسي — وكانت امرأة معجِبة من كل ناحية ، مثقفة ونادرة المثـــال ، جديرة بزوجها — مخلفةً وراءها طفلاً ، وكان هذا الطفل خليقاً بأن يكون بهجة الكولونيل في عزلته ، ولكن الجد طالب بحفيـــده في صلف ، معلناً أنه إذا لم يفُز به فسوف يحرمه الميراث . واذعن الأب حرصاً منه على مصلحة الفتى . حتى اذا حُرم ابنَه انشأ يحب الرياحين .

والى ذلك ، فقد هجر كل شيء فهو لا يتحرك ، وهو لا يتآمر مع الآخرين . لقد وزع افكاره بين الاشياء البريئة التي يقوم بهـــا ، والاشياء العظيمة التي قام بها . لقد سلخ وقته آملاً ان يبتدع قرنفلة ، او متذكـّراً اوسترليتز .

ولم يكن لمسيو جيلنورمان ايما اتصال بصهره . كان الكولونيـل ، في نظره ، « قاطع طريق » ، وكان هو ، في نظر الكولونيـــل ، « رجلاً متبلد الذهن » . ولم يتحدث مسيو جيلنورمان الى الكولونيل قط ، إلا لـكي يشير ، في بعض الاحيـــان ، اشاراتٍ ساخرة الى « بارونيّته » . وكان مفهوماً على نحو واضح جداً ان نونميرسي يجب ان لا يحاول رؤية ابنه او التحدث اليه البتة ، والا طُرد الفتى وحرم الميراث . لقد كان بونميرسي عند آل جيلنورمان ، مصاباً بالطاعون . ولقد رغبوا في ان ينشّئوا الطفل كما يحلو لهم . ولعل الكولونيل قد اخطأ في قبول هذه الشروط ، ولكنه اذعن لارادتهم معتقداً أنه يحسن

صنعاً ، وانه يضحّي بنفسه ليس غير . ولم يكن ميراث جيلنورمان الجد شيئاً مذكوراً ، ولكن ميراث الانسة جيلنورمان الكبرى كان ذا شأن . فقد كانت هذه الخالة التي ظلت عذراء ، موسرة جداً من ناحية أمها ، وكان ابن شقيقتها هو وريثها الطبيعيّ .

وعرف الطفل ، الذي يدعى ماريوس ، ان له أباً ولكنه لم يعرف شيئاً اكثر من ذلك . إن احداً لم يقل له كلمة عنه . ومع ذلك ، ففي المجتمع الذي كان جده يصطحبه اليه ، وفّقت الهمسات ، والتلميحات ، والغمزات الى ان تنوّر الفتى الصغير ، آخر الأمر . لقد انتهى الى ان يدرك شيئاً . وإذ تشرّب على نحو طبيعي – بضرب من الترشح والتسرّب البطيء – الافكارَ والآراء التي شكلت ، اذا جاز التعبير ، مداه التنفسي ، فقد أمسى شيئاً فشيئاً ، لا يفكر بأبيه إلا في خجل وفي انقباض صدر .

وفيما كان الفتى يشبّ على هذا النحو ، كان الكولونيل يفرّ – كلّ شهرين او ثلاثة اشهر – ويفِدُ خلسةً على باريس ، وكأنه مجرم قديم يغادر مكان إقامته الاجبارية ، ليمضي الى سان سولبيس ، ساعةَ كانت الخالة جيلنورمان تصطحب ماريوس الى القداس . هناك كان يرى طفله ، وهو يرتجف خشية ان تلتفت الخالة الى الوراء ، ويختفي خلف احد الأعمدة ، جامداً لا يتحرك ، غيرَ واجد في نفسه الجرأة على ان يتنفس . كان المحارب القديم ذو الندبة يخاف هذه العانسَ العجوز .

ومن هنا ، في الواقع ، نشأت صلتهُ بكاهن فيرنون ، الأب مابوف .

وكان هذا الكاهن الفاضل أخاً لوكيل كنيسة سان سولبيس ، الذي لاحظ ذلك الرجلَ ، عدة مرات ، يحدّق الى هذا الغلام كما لاحظ النَدَبة التي على خده ، والعبرات الكبار التي في عينيه . وكان هذا الرجلُ – الذي كانت له سيما رجلٍ حقاً والذي بكى مثل امرأةٍ – قد لفت انتباه وكيل الكنيسة . ولم يبرح ذلك الوجهُ ذاكرته . وذات يوم ، وكان قد شخصَ الى فيرنون ليرى اخاه ، التقى بالكولونيل

بوغيرسي على الجسر فعرف فيه رَجُلَ سان سولبيس . وحدّث وكيل الكنيسة أخاه في ذلك ، فقام كلاهما ، تحت ستار ذريعة من الذرائع ، بزيارةٍ للكولونيل . وأدت هذه الزيارة الى زيارات أخرى . وما لبث الكولونيل ، الذي اعتصم بادىء الامر بتحفظ شديد ، أن باح بمكنون صدره ، فعرف الكاهن روكيل الكنيسة القصة كلها ، وكيف ضحى بوغيرسي بسعادته من أجل مستقبل ولده . وكان من نتيجة ذلك أن استشعر الكاهن إجلالاً له وحنواً عليـــه ، وان استشعر الكولونيل بدَوره مودةً للكاهن . والى هذا ، فحين يتفق أن يكون كلٌ مـن الكاهن القديم والجندي القديم مخلصاً وصالحاً ، فليس ثمة ما يتمازج ويلتغم اكثر مما يتمازجان ويلتغمان . لأنهما ، في الاساس ، ينتسبان الى ضرب واحد من الرجال . لقد وقف احدهما نفسه للوطن الذي عـلى الارض ، ووقف الآخر نفسه للوطن الذي في السماء . ولا فرقَ غير ذلك .

ومرّتين كل عام ، في اليوم الاول من كانون الثـــاني وفي عيد القديس جورج ، كان ماريوس يكتب رسائل بنوية الى ابيه — رسائل كانت خالته تمليها ، وكان في ميسور المرء ان يزعم أنها منقولة عن واحد من تلك الكتب التي تقدم الى الناس نماذج مختلفة من الرسائل الجاهزة. ذلك كان كلّ ما سمح به مسيو جيلنورمان . ولقد كان الوالد يجيب برسائل تفيض حناناً كان الجد يقحمها في جيبه من غير ان يقرأها .

٣
« لقد رقدوا في سلام »

كان صالون مدام دو تـ .... كلّ ما عرفه ماريوس من العـــالم . كان الكوة الوحيدة التي استطاع ان يطلّ منها على الحيـاة . وكانت

هذه الكوة قاتمة ، وكان يخترقها البرد اكثر مما يخترقها الدفء ، وينفذ منها الظلام اكثر مما ينفذ النور . ومـا لبث الطفل — الذي كان عند دخوله هذا العالم الغريب مجرد بهجة وضياء — أن أمسى محزوناً ، وان أمسى — وهو ما يتناقض مع سنه اكثر — وقوراً رصيناً . لقد وجد نفسه محوطاً بجميع هؤلاء الاشخاص المهيبين الغريبين ، فراح ينظر في ما حوله بدهش جدي . وتضافر كل شيء لزيادة هذا الذهول . فقد كان في صالون مــدام دو تـ .... سيدات عجـائز نبيلات موقّرات يُدعَيْن « ماتان » و « نوح » و Lévis التي كانت تلفظ « ليفي » ، و Cambis التي كانت تلفظ كامبيس . وامتزجت هذه الوجوه العتيقة وهذه الاسماء التوراتية في ذهن الطفل بـ « العهد القديم » الذي كان قد شرع يحفظه عن ظهر قلب . وحين كان عقدهن ينتظم في حلقــة حول نار محتضَرة ، وفي ضوء مصباح باهت مظلّل بلون اخضر ، وقد بدت صورهن الجانبية الصارمة وشعورهن الرمادية حيناً ، البيضاء حيناً آخر ، واثوابهن الطويلة التي جُعِلت لعصر آخر ، والتي ما كان في مستطاع المرء ان يتبين منها غير الألوان الحدادية ، وراحت تندّ من افواههن بين الفينة والفينة كلمات فخيمة وكالحة في وقت معـاً ، كان ماريوس الصغير ينظر اليهن بعينين مروّعتين حاسباً انه يرى لا نسوةً ولكنْ آباء ومجوساً ، لا كائنات حقيقية ، ولكن اشباحاً .

وبين هاته الاشباح انتثر عددٌ من الكهنة الذين كان مــن دأبهم أن يختلفوا الى هذا الصالون العتيق ، وعددٌ من الأشراف : المركيز دو ساسني ، سكرتير الاسعاف الخاص بمدام دو برّي ؛ والفيكونت دو فالوري الذي نشر تحت اسم « شارل انطوان » المستعــار بعض القصائد الوحيدة القافية ؛ والبرنس دو بوفرومون الذي كان شعره قـد خالطه الشيب برغم انه ما يزال شاباً والذي كانت له زوجة جميلة ذكية كان ثوبها المخملي القرمزي ذو الحواشي الذهبية الـكاشف عن جزء غـير

يسير من الصدر يُجفّل هذه الظلمات ؛ والمركيز دو كوريوليس ديسبينوز ، خير من فهم ، في فرنسة ، « الكياسة المتعادلة » ؛ والكونت داماندر الرجل الطيب ذو الذقن الخيّرة ؛ والفارس دو بور دو غي الكثير التردّد على مكتبة اللوفر المدعوّة مكتبة الملك . وقد روى مسيو دو بور دو غي ، الأصلع ، الهرم اكثر منه طاعناً في سنّ ، انه أُرسل في عام ١٧٩٣ ، حين كان في السادسة عشرة ، الى سجن الاشغال الشاقة بوصفه « متمرداً » ، وقُيّد بالحديد مع رجل في العقد التاسع من عمر هو الاسقف ميرْبوا ، وكان متمرداً ايضاً ، ولكنْ ككاهن ، على حين كان هو متمرداً كجنديّ . وكان ذلك في طولون . وكانت مهمتهما ان يذهبا الى المقصلة ليلاً ، ويجمعا رؤوس اولئك الذين أُعدموا ذلك النهار وجثثهم . كانا يحملان هذه الابدان القاطرَ منها الدم على ظهريهما ، وكانت قلنسُوَتاهما الأشغاليتان الحمراوان تعلوهما ، من وراء ، طبقةٌ من الدم ، جافةٌ في الصباح ، نديّة في الليل . وكانت هذه الحكايات الفاجعة تغزر في صالون مدام دو ت ... وبحكم الاكثار من لعن مارا * انتهوا الى ان يصفقوا لـ « تريستايون » ** . ولقد لعب بعض النواب الذين هم من نوع يتعذر وجوده لعبة الـ « هويسْت » * هناك : مسيو تيبور دو شالار ، ومسيو لومارشان دو غوميكور ، ومتهكم اليمين الشهير مسيو كورنيه دينكور . وكان قاضي فوريت ، ببنطلونه قصير ورجليه المهزولتين ، يمرّ أحياناً بهذا الصالون في طريقه ، بيت مسيو تاليران . كان رفيقَ اللهو للكونت دارتوا ؛ وعلى نقيض ارسطو الجاثي أمام كامباسب **** حمَلَ « لا غيمار » ***** على ان يزحف على يديها

** ** مارا احد وجوه الثورة الفرنسية البارزين ، وتريستايون احد زعماء العصابات الملكية ، وقد سبق التعريف بها .

*** whist ضرب من لعب الورق .

**** Cambasbe او Pancaste خليلة الاسكندر المقدوني .

*** Marie — Madeleine Guimard راقصة الاوبرا الفرنسية الشهيرة (١٧٤٣-١٨١٦)

ورجليها . وهكذا مكن الاجيال من ان ترى فيلسوفاً يثأر له احد القضاة .

اما جماعة الكهان فكان يمثلها الأب هالما ، وهو الرجل نفسه الذي قال له مساعده في « الصاعقة » ، مسيو لاروز : « **عجباً ! ومن الذي لم يبلغ الخمسين من العمر ؟ بعض الغلمان الاغرار ، ربما !** » ويمثلها ايضاً الأب لوتورنير ، واعظ الملك ؛ والأب فريسّينو الذي لم يكن قد أمسى بعدُ لا كونتاً ، ولا اسقفاً ، ولا وزيراً ، ولا عضواً في مجلس الاعيان ، والذي كان يرتدي ثوباً كهنوتياً عتيقاً يعوزه بعض الازرار ؛ والأب كيرافنان ، كاهن سان جرمان دو بريه . والى جانب هؤلاء كان السفير البابوي ، وكان في ذلك الحين مونسينيور ماتشي ، وكبير اساقفة نيزيبي الذي اصبح بعدُ كاردينالاً ، والمتميز بانفه الطويل المستغرق في التفكير ، وصاحب سيادة آخر يحمل هذه الالقاب : « الآبات باليري ، حبرٌ أهليٌ ، أحد القيّمين السبعة المشاركين في مكتب الوثائق بالكرسي الرسولي ؛ كاهن قانوني في الكنيسة الملكية الليبيرية ، محامي القديسين *Postulatore di Santi* وهي رتبة يناط بها أمر إعلان القداسة وتعني تقريباً مقدّم العرائض الى قسم الجنة . واخيراً كان ثمة كاردينالان : مسيو دو لا لوزيرن ، ومسيو دو كليرمون تونّير . وكان الكاردينال دو لا لوزيرن كاتباً ، ولقد كان له بعد ذلك بسنوات شرف توقيع بعض المقالات في صحيفة « المحافظ » *Conservateur* جنباً الى جنب مع شاتوبريان . وكان مسيو دو كليرمون تونير كبير اساقفة تولوز ، وكثيراً ما كان يفد على باريس لقضاء فصل الصيف فيها عند اخيه المركيز دو تونير ، الذي كان وزيراً للبحرية والحربية . وكان الكاردينال دو كليرمون تونير عجوزاً قميء الجسم مرحاً يكشف عن جوربه الاحمر تحت ثوبه الكهنوتي المرفوع . ومن فرائده كرهه الشديد للأنسيكلوبيديا * ، ولعبه اليائس في

---

* هي دائرة المعارف الشهيرة التي وضعها (١٧٥١ — ١٧٦٦) دالامبير وديدرو بالاشتراك مع فولتير ، وموتنيسكيو ، وروسو وغيرهم . وقد كان لها ابعد الاثر في تنوير العقل الفرنسي والتمهيد للثورة .

البيليارد . وكان الناس الذين مرّوا في ذلك المهد ، في ليـالي الصيف ، بـ « شارع السيدة » حيث كان آنذاك « فندق كليرمون تونير » يقفون ليسمعوا تصادم الكُرات ، وصوت الكاردينال الحاد يصيح مخاطباً مساعده مونسينيور كوتريه ، اسقف كاريستا من غير أبرشية : **« أنظر ، ايهـا الاب ، لقد أصبت الكرتين في وقت واحد . »** وانما اصطحب الكاردينالَ دو كليرمون تونير ، اول مرة ، الى صالون مدام دو تـ .... صديقُـهُ المقدَّم عنده ، مسيو دو روكلور ، اسقف سينليس السابق ؛ وأحد الاربعين الخالدين . وكان مسيو دو روكلور جديراً بالاعتبار لقامته الفارعة ومواظبته على حضور جلسات الاكاديمية . ومن خلال البـاب الزجاجي ، قرب المكتبة ، حيث كانت الاكاديمية تعقد جلساتهـا آنذاك ، كان في ميسور الفضوليين ان يروا ، كل خميس ، اسقف سينليس الـسابق واقفاً ، في الاغلب ، منضوحاً بالذرور منذ قريب ، مرتدياً جورباً بنفسجياً ، موليـاً البابَ ظهرَهُ ، ولعل مراده من ذلك ان يُظهر قَبَّتَهُ الصغيرة احسن ما يكون الأظهار . والواقع ان هؤلاء الاكليركيين جميعاً ، على الرغم من ان اكثرهم كانوا رجال بلاط بقدر ما كانوا رجال كنيسة ، زادوا في رصانة صالون دو تـ .... ، هذه الرصانة التي اكدها خمسة من اعضاء مجلس الاعيان الفرنسي هم المركيز دو فيبراي ، والمركيز دو تالارو ، والمركيز ديربوفيل ، والفيكونت دامبري ، والدوق دو فالانتينوا . وكان الدوق دو فالانتينوا هذا ، برغم انه امير موناكو ، يعني برغم انه امير أجنبي ، يُجِلّ فرنسة وهيئة اعيانها إجلالاً عظيماً الى درجة جعلته يرى كل شيء من خلالها . وكان هو الذي قال : **ان الكرادلة هم « اعيان فرنسة » الرومانيون ، والموردات هم « اعيان فرنسة » الانكليز** . واخيراً ، ولما كان من الواجب ان تُثبت الثورة وجودها في هذا القرن ، في كل مكان ، فقد كان هذا الصالون الاقطاعي يسيطر عليه ، كما قلنا ، رجل بورجوازيّ . لقد تربـع مسيو جيلنورمان على العرش هناك .

كان ثمة جوهرُ المجتمع الباريسي « الشّرعيّ » . فقد كان مُجال بين كثير من الشخصيات الشهيرة ، على الرغم من نزعتها الملكية ، وبين الدخول اليه . ففي الشهرة فوضويةٌ دائماً . ولو قد دخل شاتوبريان الى هناك ، اذن لترك مثل ذلك الاثر الذي يجدر بـ « الأب دوشين » * ان يتركه . ومع ذلك ، فقد تسرّب بعض المنضوين الجدُد تحت لواء الملكية الى ذلك العالم « الصحيح المعتَقَد » بشيء من التسامح . ولقد استُقبِل الكونت بونيو ، هناك ، بمنّةٍ خاصة .

إنّ صالونات اليوم « النبيلة » لا تشبه تلك الصالونات على الاطلاق . فضاحية سان جيرمان الحاضرة تفـــوح منها رائحة الهرطقة . إن ملكيي اليوم هم — ولنقُلْها إعجاباً بهم — ديماغوجيون يتظاهرون بخدمة الشعب لاستمالته اليهم .

وفي صالون مدام دو ت .... ، حيث المجتمع رفيعٌ سامٍ ، كان الذوق مصفّى متشامخاً تحت زخرف عريض من المجاملة . وكانت عادات القـــوم هناك تقتضي مختلف ضروب الرقة ، المبالغ فيها ، على نحو لا إراديّ : هذه الضروب التي كانت هي النظام القـــديم نفسه ، دفيناً ، ولكنه حيّ . وبعض هذه العادات ، في اللغة بخاصة ، كانت تبـــدو مضحكة . ولقد كان خليقاً بالملاحظـين السطحيـين ان يحسبوا كلاماً ريفياً بعضَ ما هو كلامٌ عتيق ليس غـــير . فقد كان قُصّاد ذلك الصالون يدعون امرأةً ما : « السيدة الجنرالة » . ولم تكن « السيدة الكولونيل » خارج نطاق الاستعمال تماماً . وكانت مدام دو ليون الفاتنة ، إحياءً منها لذكرى دوقة لونغفيل ودوقة شيفروز من غـــير شك ، تؤثر هذه التسمية على لقبها بوصفها أميرة . وكانت المركيزة دو كريكوي ، هي الاخرى ، تدعو نفسها « السيدة الكولونيلة » .

* *le Père Duchesne* صحيفة سياسية كان يصدرها « هيبر » اثناء الثورة الفرنسية ، وقد سبق التعريف بها .

كان ذلك المجتمع الصغير السامي هو الذي اخترع في التويلري تلك الدماثة التي تقضي بأن يقال دائماً ، حين يُتحدث الى الملك في ألفة : الملك ، بضمير الغائب ، وليس جلالتكم على الاطلاق ، ذلك لأن هذا اللقب ، جلالتكم ، قد « دنّسه الغاصب » .

كان القوم يحاكمون الحقائق والناس ، هناك . لقد سخروا من العصر ، وهو ما أسقط عنهم واجب فهمه . وكانوا يتعاونون على الدهش . كان كل منهم يُطلع سائر الجماعة على ما عنده من معرفة . كان ميتوشالح * يعلّم أبيمنيد . ** وكان الأصم يزوّد الأعمى بالانباء . ولقد أعلنوا ان الزمن الذي كرّ منذ كوبلنتز *** لم يتصرّم قط . وكما كان لويس الثامن عشر ، بنعمة الله ، في السنة الخامسة والعشرين من سني حكمه ، فكذلك كان « المهاجرون » في السنة الخامسة والعشرين من شبابهم ، قولاً واحداً .

كان كل شيء متناغماً . إن شيئاً ما ، لم يكن حيوياً اكثر مما ينبغي . كان الكلام نفَساً أو يكاد . وكانت الصحيفة ، المتساوقة مع الصالون ، تبدو وكأنها ورقة من اوراق البرديّ . كان ثمة شبان ، ولكنهم كانوا امواتاً بعض الشيء . وفي غرفة الانتظار ، كانت الخادمات عجائز . فقد كانت هذه الشخصيات ، التي ولى زمانها نهائياً ، تُخدَم بايدي أناس من الطراز نفسه . وكان ذلك كله تبدو عليه سيما من عاش منذ

---

* من شخصيات التوراة ، وكان جدّ نوح ، وقد عاش في ما رووا ٩٦٩ سنة . وقد غدا اسمه علماً على كل من عمّر دهراً طويلاً .

** Epiménide فيلسوف كريتي من اهل القرن السابع قبل الميلاد ، وكان شخصية نصف اسطورية ، فقد زعموا انه كان ابن حورية من حوريات الماء ، وانه نام سبعاً وخمسين سنة في احد الكهوف . وكثيراً ما يشار الى نوم أبيمنيد ويقظته وخصوصاً في لغة السياسة .

*** Coblentz مدينة المانية تجمعت فيها ، عام ١٧٩٢ ، حشود النبلاء المهاجرين وشكلت « جيش كونديه » الملكي ، وقد سبق التعريف بها .

دهر بعيد جداً ، فهو يعاند القبر . كانت هذه الالفاظ ، حافظ ، محافظة ، محافظ ، هي القاموس كله تقريباً . وكان تمتّع المرء بالصيت الحسن هو النقطة الجوهرية . والواقع أنه كان ثمة بعض الطيب في آراء هـــذه الجماعات الجليلة ، وكانت أفكارهم تفوح منها رائحة الاعشاب المنـدية . كان عالـماً مومياثياً . كان السادة محنّطين ، وكان الخــدم محشوّين بالتبن .

وكانت مركيزة عجوزٌ فاضلة — احدى المهاجرات اللواتي افتقرن — تواصل القول : « شعبي » وهي التي لم يبق عندها الآن غـــير خادمة واحـدة .

ايّ شيء كانوا يفعلون في صالون مدام دو ت ... ؟ كانوا متطرفين مغالين في التطرف .

والواقع ان كون المرء مغالياً في التطرف — على الرغم من ان ما يمثله هذا التعبير قد يكون قائماً ما يزال — فقد اليوم معناه . فلنوضح ذلك .

إن المغالاة في التطرف هي ان تجاوز المطلوب . إنها ان تهاجم الصولجان باسم العرش ، وتاج الاسقف باسم المذبح . إنها ان تسيء الى من تدعمه . إنها أن ترفس وسط سيور العربة . إنها أن تماحك — أمام ركام الحطب المكدّس لاحراق المجرمين — في درجة اكتواء المراطقة . إنها أن تعيب على الصنم قلة صنميته . إنها ان تُحقر بدافع من الافراط في الاحترام . إنها لا تجد في البابا مقداراً كافياً من البابوية ، وفي الملك مقداراً وافياً من الملكية ، وأن تجد في الليل قدراً من النور اكثر مما ينبغي . إنها أن تستاء من حجر الشطوط * ، من الثلج ، من التّم ** من الزنبق ، باسم البياض . إنها ان تكون مؤيداً للاشياء الى حد ان تصبح عـــدوّاً لها .

---

* ضرب من الرخام الابيض الشفاف . ويعرف في الفرنسية بـ albâtre

** طائر مائي شديد البياض يشبه الاوز ولكنه اطول منه عنقاً . وهو يعرف في اللغات الاجنبية بـ cygne

إنها أن تغلو في الموالاة حتى تنتهي الى المعارضة .

إن روح « التطرف المغالى فيه » خاصةٌ فريدة من خصائص الصدر الاول من عهد عودة آل بوربون الى العرش .

والواقع ان التاريخ لم يعرف شبيهاً لهذه الفترة القصيرة ، التي بدأت عام ١٨١٤ وانتهت حوالى ١٨٢٠ بمجيء مسيو دو فيليل * ، رجل « اليمين » العمليّ ، الى الحكم . لقد كانت هذه السنوات لحظةً خارقة للعادة ، فهي مشرقة ومظلمة في آنٍ معاً ، ضاحكة وعابسة ، مضاءة بمثل اشعة الشمس ، ومغلّفة في الوقت نفسه بظلام الكوارث الكبرى التي كانت ما تزال تملأ الافق على الرغم من أنها كانت تدفن نفسها ، على مهل ، في غياهب الماضي . كان ثمة في ذلك الضوء وفي ذلك الظل عالم صغير نسيجُ وحده ، عالمٌ حديثٌ عتيق ، بهيجٌ محزونٌ ، فتيّ هرم ، يفرك عينيه ، فليس من شيء يشبه الاستيقاظ اكثر من العودة . كانت هناك جماعة تنظر الى فرنسة في سخط ، على حين تنظر فرنسة اليها في سخرية. وكانت الشوارع ملأى بمراكزةٍ كالبُوم صالحين عجائز ، ومهاجرين قد عادوا ومهاجرين في سبيلهم الى العودة ، وبجمهرة من المتعلقين باهداب النظام القديم ذاهلين منشدهين أمام كل شيء . رجال ذوو نبالة وشجاعة يبتسمون لوجودهم في فرنسة ويبكون عليها ايضاً . لقد اسعدهم ان يروا وطنهم كرةً أخرى ، واستبدّ بهم اليأس لأن ابصارهم لم تعد تقع على نظامهم الملكي . كان نبلاء الحروب الصليبية يبصقون على نبلاء الامبراطورية ، يعني على نبلاء السيف ؛ وكانت الأعراق التاريخية تفقد معنى التاريخ ؛ وابناء رفاق شارلمان يحتقرون رفاق نابوليون . لقد

---

* Comte de Villèle سياسي فرنسي (١٧٧٣ — ١٨٥٤) كان زعيماً للفئات الملكية المغالية في التطرف ، بعد عوده آل بوربون الى العرش . وقد تولى رئاسة الوزارة من عام ١٨٢١ الى عام ١٨٢٨ .

تبادلت السيوفُ ، كما ذكرنا ، الشتائمَ والاهانات . كان سيف فونتنوا * مضحكاً ، ولم يكن غير صدأ ؛ وكان سيف مارانغو ** بغيضاً ، ولم يكن غير حسام . لقد أنكرت الايام السالفة يومَ امس . ولم يبقَ ثمة لا احساسٌ بما كان عظيماً ، ولا احساس بما كان مضحكاً . كان هناك من اطلق على بونابرت اسم سكابين *** . لقد انقضى ذلك العالم . إن شيئاً ما – ونكرّر ذلك – لم يَبق منه اليوم . وحين يتفق لنا ان نرسم صورة عنه ، وان نجعلها تعيش كرةً ثانية في أذهاننا ، يبدو غريباً لدينا مثل عالم سابق للطوفان . وفي الحق ، ان طوفاناً قد ابتلعه هو الآخر . لقد اختفى تحت ثورتين . أيّ فيضانات هي الكلمات ! ما أسرع ما تغمر كلَّ ما يُوكَلُ اليها هدْمه ودفنه ، وما اعجل ما تخلق الأعماقَ المروّعة !

تلك كانت سيما الصالونات في تلك العهود النائية الساذجة ، عند ما كان مسيو مارتينفيل **** اشد ذكاء من فولتير .

كان لتلك الصالونات ادبها الخاص وسياستها الخاصة . كانت تؤمن بـ « فييفيه » ***** . وكان مسيو آجيه يضع القوانين لها .

لقد انتقدت مسيو كولنيه ، الصحافي المتاجر بالكتب القديمة في « كي مالاكيه » . ولم يكن نابوليون عندهم غير « غول كورسيكة » . وفي ما

* Fontenoy من اعمال بلجيكة حيث هزم المارشال دو ساكس في حضرة لويس الخامس عشر الانكليز والهولنديين سنة ١٧٤٥ وقد سبق التعريف بها .

** احدى المعارك الشهيرة التي انتصر فيها بونابرت ، وقد سبق التعريف بها .

*** Scapin احدى شخصيات الكوميديا الايطالية وهي تمثل خادماً ذا حيل ومؤامرات . وقد قدم موليير هذه الشخصية في مهزلته المسماة « مخاتلات سكابين » .

**** Martainville صحافي وكاتب مسرحي فرنسي (١٧٧٦ – ١٨٣٠) . كان ملكياً متحمساً ، ولقد اسس عام ١٨١٨ صحيفة « الراية البيضاء » .

***** Fiévée صحافي واديب فرنسي (١٧٦٧ – ١٨٣٩)

بعد كان إدخال المركيز دو بُونابرت ، قائد قوات الملك العام ، الى دنيا التاريخ ، اذعاناً لروح العصر .

ولم تحتفظ هذه الصالونات بصفائها دهراً طويلاً . فمنذ عام ١٨١٨ شرعت بعض العناصر المتحررة في اعتدالٍ تنبت بينها ، مشكّلة نوعاً مزعجاً . وكان اسلوب هؤلاء يقتضيهم ان يكونوا ملكيين وان يلتمسوا العذر بسبب من ذلك . فحيث كان المغالون في التطرف شديدي الزهو ، كانت هذه العناصر المعتدلة في تحررها خجلة بعض الشيء . كانوا ذوي ذكاء ، وكانوا يعتصمون بالصمت ، وكانت عقائدهم السياسية مُنشّاة بالكبرياء على نحو لائق . وكان ينبغي ان يوفقوا الى النجاح . لقد انهمكوا في ما كان ملائماً من نواحٍ اخرى : الافراط في عُقد الرقبة البيضاء وفي السترات المزرورة . والواقع ان غلطة هذا الحزب المتحرر ، أو مصيبته ، كانت خَلَقَ الشباب الهرم . لقد اتخذ رجاله اوضاع الحكماء . ولقد حلُموا بأن يلقّحوا مبدأ السلطة المطلقة المفرطة ليفوزوا منه بسلطة معتدلة . لقد عارضوا التحرر الهدام ، وعارضوه في ذكاء نادر احياناً ، بتحررٍ محافظ . ولقد سمعناهم يقولون : « لا تظلموا الحزب الملكي . لقد ادّى للبلاد اكثر من خدمة . لقد أعاد الينا التقليد ، والعبادة ، والدين ، والاحترام . إنه مخلص ، شجاع ، أبيّ ، محبّ ، متفانٍ . لقد أضاف ، ولو في اسف ، عظمة الملكية القديمة الى عظمة الأمة الجديدة . إنه مخطىء في عدم فهمه الثورة ، والامبراطورية ، والمجد ، والحرية ، والافكار الجديدة ، والاجيال الجديدة ، والقرن الذي نعيش فيه . ولكن هذا الخطأ الذي ارتكبه في حقنا ، ألم نرتكب نحن مثله ، بعضَ الاحيان ، في حقه ؟ إنّ على الثورة ، التي نحن ورثتُها ، ان تفهم كل شيء . ان هجوم العناصر المتحررة على الحزب الملكي ضرب من سوء الفهم . ايّ غلطة ! وأيّ عمى ! إن فرنسة الثورة يُعوزها الاحترامُ لفرنسة التاريخية ، يعني لأمّها ، يعني لنفسها . فبعد الخامس من ايلول يعامَل نبلاء الملكية كما عومل نبلاء الامبراطورية بعد الثامن من

تمرز . لقد كانوا هم ظالمين للنسر * ، وها نحن أولاء نظلم زهرة الزنبق** أينبغي ان يكون عندنا دائماً شيء نأمر بقتله أو بجبسه من غير محاكمة ؟ رأية فائدة ترتجى من تشويه تاج لويس الرابع عشر ، او ترس هنري الرابع الحامل شعار أسرته ؟ نحن نسخر من مسيو دو فوبلان الذي محا حروف N *** التي كان يحملها جسر « يينا » ! ولكن ما الذي فعله مسيو دون فوبلان هذا ؟ ما نفعله نحن اليوم . إن بوفين **** هي ملك لنا مثل مارانغو سواء بسواء . وان زهرات الزنبق هي ملك لنا ايضا مثل حروف N تماماً . إنها ميراثنا . ما الذي نكسبه من إنقاصه ؟ ينبغي أن لا نتبرأ من وطننا في الماضي كما ينبغي ان لا نتبرأ منه في الحاضر . لماذا لا نرغب في تاريخنا كله ؟ لماذا لا نحب فرنسة كلها ؟ »

تلك هي الطريقة التي كانت العناصر المتحررة في اعتدال تنتقد بها الحزب الملكي وتدافع عنه ، فيستاء ذلك الحزب من الانتقاد ، ويعصف به السخط بسبب من الدفاع .

لقد طبع المتحررون المعتدلون الفترة الاولى من العهد الملكي بطابعهم ، في حين ان المجمع ***** طبع الفترة الثانية بطابعه . ان البراعة قد تخلفت النزوة . فلنوجز هذه اللمحة .

لقد وجد مؤلف هذا الكتاب في طريقه ، وهو يروي هذه القصة ،

* شعار نابوليون .

** شعار آل بوربون .

*** الحرف الاول من اسم نابوليون بونابرت .

**** Bouvines هي المعركة التي انتصر فيها فيليب اوغست ، عام ١٢١٤ ، على الامبراطور اوتون وحليفيه ملك انكلترة وكونت الفلاندر .

***** La Congrégation هو « مجمع العذراء المقدسة » الذي أسس عام ١٨٠١ ثم تعاظمت قوته في عهد عودة آل بوربون الى الحكم وتم له في الدولة نفوذ عظيم . ولقد سقط هذا المجمع بسقوط شارل العاشر .

تلك اللحظة الغريبة من التاريخ المعاصر . ولقد كان مضطراً الى ان يلقي عليها نظرةً عابرة ، وان يعيد رسم بعض ملامح ذلك المجتمع الفريدة التي أمست اليوم مجهولة . ولكنه يفعل ذلك على عجل ، ومن غير ما فكرة لاذعة او هازئة . ان ذكرياتٍ ترشح بالحنان والوقار — فهي ذكريات تتصل بأمه — تشدّه الى تلك الحقبة . والى ذلك -- ولنقل هذا — فقد كان لذلك العالَم الصغير عظمته . إننا قد نبسم له ابتسامة ساخرة ، ولكننا لا نستطيع أن نزدريه أو ان نبغضه . كان فرنسةَ الايامِ السالفة .

وخضع ماريوس بونميرسي ، شأنَ سائر الاطفال ، لتعليم ما . فحين فارق يدي الخالة جيلنورمان عَهِدَ جدُّه في تثقيفه الى استاذ وقور يتميز بأصفى البراءة الكلاسيكية . لقد انتقلت تلك النفس الآخذة في التفتح من يدي امرأةٍ مغالية في التمسك بآداب الفضيلة والاحتراس في كل ما يتصل بالعفة الى يديْ متعالم غليظ مضحك . وأتم ماريوس سنوات دراسته في المدرسة الثانوية ثم التحق بمدرسة الحقوق . كان ملكياً ، متعصباً ، صارماً . كان قليلَ الحب لجده الذي كان مرحهُ وعدم احتشامه يجرحانه ، وكان موضع ابيه في نفسه فراغاً قاتماً .

وكان ماريوس ، في ما عدا ذلك ، ولداً هُماماً ولكنه فاتر ، نبيلاً ، كريماً ، فخوراً ، متديّناً ، متهوساً . كان فاضلاً حتى القسوة ، طاهراً حتى التوحش .

٤
نهاية قاطع الطريق

وإنما أنهى ماريوس دراساته الكلاسيكية في تلك الفترة التي اعتزل

فيها مسيو جيلنورمان الحياة الاجتماعية . ولقد ودع الشيخ ضاحية سان جيرمان ، وصالون مدام دو ت ... وانتقل الى الـ « ماريه » ليستقر في منزله بشارع « فتيات كالفير » وكان يخدمه هنـــاك ، الى جانب البوّاب ، « نيقوليت » ، تلك التي خَلفَت مانيون ، وذاك الـ « باسك » المبهور الضيّق النفَس الذي تحدثنا عنه من قبل .

وفي عام ١٨٢٧ بلغ ماريوس سنه السابعـة عشرة . واذ انقلب الى المنزل ذات مساء رأى جده وفي يده رسالة .

وقال مسيو جيلنورمان :

— « ماريوس ، سوف تسافر غداً الى فيرنون .»

فتساءل ماريوس :

— « لماذا ؟ »

— « لكي ترى أباك . »

وارتعد ماريوس . لقد فكر في كل شيء إلا هذا : أن يوماً قد يأتي يُضطر فيه الى ان يرى والده . ان شيئاً ما ، لم يكن أبعد عن التوقّع من هذا ، وأدعى الى الدهش ، وأبغض — ولنقل هذا — الى النفس . كان ذلك هو الجفاء يُكرَه على ان ينقلب مودةً . إنه لم يكن حزناً .. لا . لقد كان عملًا من اعمال السخرة .

كان ماريوس مقتنعاً ، الى جانب الدوافع السياسية التي تنفّره من ابيه ، بأن هذا الأب السياف الجاهـــل فنّ الحرب — كما كان مسيو جيلنورمان يدعوه في لحظاته الدمثة الرقيقة — لم يكن يحبه . وكيف لا يقتنع بذلك وهو الذي هجره وتركه للآخرين . واذ أحس أنـه لم يُحَبّ قط فانه لم يُحِبّ قط . وقال في ذات نفسه : ليس ثمة ما هو طبيعي اكثر من هـذا . وكان من الانشداه بحيث لم يوجه الى مسيو جيلنورمان سؤالاً مـــا . وأردف الجد قائلًا :

— « يبدو أنه مريض . إنه يريد أن يراك » .

وبعد لحظة صمت ، اضاف :

– « إنطلق غداً صباحاً . أحسبُ ان في فِنــاء دو فونتين عربة تنطلق في الساعة السادسة وتصل الى هناك ليلاً . اركب هذه العربة . هو يقول إن الحالة ملحّة . »

ثم إنه دعَك الرسالة ووضعها في جيبه . لقد كان في وسع ماريوس ان يسافر ذلك المساء نفسه فيكون الى جانب ابيه صباح اليوم التالي . كانت ثمة في ذلك العهد عربة عمومية تغادر روان ليلاً وتمر بفيرنون . ولكنْ لا مسيو جيلنورمان ولا ماريوس فكّر في الاستعلام عنها .

وفي اليوم التالي ، وصل ماريوس الى فيرنون مع الغسق . وكانت الشموع قد بدأت تضيء . وسأل اول عابر سبيل التقاه : بيت مسيو بونميرسي ؟ ذلك بأنه كان متفقاً في تفكيره مع وجهة نظر العهد البوربوني الجديد ، فلم يعترف هو ايضاً ببارونية ابيه او برتبته ككولونيل .

وهدَوْه الى المنزل . وقرع الجرس . واقبلت امرأة ففتحت الباب حاملةً بيدها مصباحاً صغيراً .

وقال ماريوس :

– « مسيو بونميرسي ؟ »

وظلت المرأة جامدة لا تتحرك .

وسألها ماريوس :

– « أهو هنا ؟ »

واومأت المرأة برأسها إيماءة ايجابية .

– « هل استطيع ان اتحدث اليه ؟ »

واومأت المرأة ايماءة سلبية .

فأردف ماريوس :

– « ولكني ابنه . إنه ينتظرني . »

فقالت المرأة :

– « إنه ما عاد ينتظرك . »

ولاحظ عندئذ أنها تبكي .

واشارت بأصبعها الى باب غرفة منخفضة . ودخل .

كان في تلك الغرفة ، المضاءة بشمعة من شحم موضوعة على الموقد ، ثلاثة رجال ، احدهم واقف ، والآخر راكع ، والثالث مرتدٍ قميصه ليس غير وقد تمدّد بطوله على الارض . كان ذلك الممدّد على الارض هو الكولونيل .

وكان الرجلان الآخران طبيباً وكاهناً يصلي .

كان الكولونيل قد اصيب منذ ثلاثة إيام بحمّى دماغية . وكان قد كتب عند بدء المرض ، وقد استشعر قرب المنية ، الى مسيو جيلنورمان مطالباً برؤية ابنه . وتفاقم الداء . وليلة وصول ماريوس الى فيرنون كان الكولونيل قد أصيب بنوبة من الهذيان . لقد وثب من سريره على الرغم من الخادمة وهو يصيح : « ابني لم يأتِ حتى الآن ! سوف اذهب للقائه ! » ثم انه خرج من غرفته وسقط على ارض غرفة الانتظار . كان قد لفظ انفاسه منذ لحظة ليس غير .

وكان الطبيب والكاهن قد دعيا الى المنزل ، ولكن الطبيب كان قد وصل بعد فوات الاوان ؛ والكاهن كان قد وصل بعد فوات الاوان ؛ وكذلك كان الابن قد وصل بعد فوات الأوان .

وعلى ضوء الشمعة الباهت ، كان في استطاعتهم ان يتبيّنوا على وجنة الكولونيل الشاحب الصريع دمعة كبيرة كانت قد تحدّرت من عينه الميتة . كانت العين خامدةً ، ولكن الدمعة لم تكن قد جفّت . كان قد سفح هذه الدمعة لتأخر ولده .

وتأمل ماريوس هذا الرجل الذي رآه للمرة الأولى ، وللمرة الاخيرة ؛ هذا المحيّا الجليل الناضح بالرجولة ؛ هاتين العينين المفتوحتين اللتين لا تريان البتة ؛ هذا الشعر الأشيب ؛ هذه الأوصال القوية التي كانت في ميسور

المرء ان يتبين عليها ، ههنـــا وهناك ، بعض الخطوط السمراء التي كانت ضرباتِ سيف ، وضروباً من النجوم الحمر التي كانت حفراً احـــدثتها القذائف . لقد تأمل هذه الندبةَ الماثلة التي طبعت البطولة على ذلك الوجه الذي كان الله قد طبع عليه الطـّيبة . وفكر في ان هذا الرجل كان أباه ، وان هذا الرجل كان ميتاً ؛ وظلّ جامداً لا يتحرك .

كان الحزن الذي استشعره هو الحزن الذي كان خليقاً بأن يستشعره أمام ايّ امرىء تقع عيناه عليه طريحَ الموت .

كان الحداد ، الحداد الممضّ ، يخيم على تلك الغرفة . فالخادمة تنتحب في احدى الزوايا ، والكاهن يصلي ، مسموعَ الزفرات ؛ والطبيب يكفكف العبرات . إن الجثة نفسها قد بكت .

ونظر هذا الطبيب ، وهذا الكاهن ، وهذه المرأة من خلال اشجانهم الى ماريوس ، من غير ان ينطقوا بكلمة . كان هو — لا غيره — الغريب وسط هذه المناحة . وإذ لم يغلب التأثر على ماريوس إلا قليلًا ، فقد احسّ بالخجل واستشعر الارتباك بسبب من وضعه هذا . وكان يُمسك بقبعته في يده ، فتركها تقع على الارض لكي يحملهم على الاعتقاد بان الاسى قد حرمه القدرة على الامساك بها .

وفي الوقت نفسه استشعر شيئـــاً كتبكيت الضمير ، واحتقر نفسه لتصرّفه على هذا النحو . ولكن أهي غلطته ؟ إنه ما كان يحب أباه ، حقاً !

ولم يخلف الكولونيل شيئاً . ان بيع أثاثه لم ينهض بنفقات دفنه إلا بشق النفس . ووجدت الخادمة قصاصة من الورق قـدّمتها الى ماريوس كانت تنطوي على هذه الكلمات مكتوبة بخط الكولونيل :

— « الى ولدي : — إن الامبراطور قد جعلني بارونا في ساحة القتال بواترلو . ولما كان عهد آل بوربون الجديد ينكر عليّ هذا اللقب الذي دفعت دمي ثمناً له فان ولدي سوف يأخذه ويحمله . وليس من ريب في انه سوف يكون جديراً به » .

وعلى قفا تلك القصاصة كان الكولونيل قد أضاف :

- « وفي معركة واترلو تلك نفسها ، انقذ حياتي جندي برتبة رقيب. إن ذلك الرجل يدعى تيناردييه . وأعتقد انه كان يدير ، منذ فترة غير بعيدة ، فندقاً صغيراً في قرية بضواحي باريس ، في « شيل » ، او في مونفيرماي . فاذا ما لقيَه ولدي فلسوف يقدّم الى تيناردييه كل خدمة يقدر عليها . »

وبدافعٍ من الاحترام الغامض للموت ، هذا الاحترام الذي يفرض نفسه دائماً على قلب الانسان ، لا بدافع من واجب الطاعة لأبيه ، اخذ ماريوس تلك الورقة ، وضغط عليها .

ولم يبق من الكولونيل أثرٌ ما . كان مسيو جيلنورمان قد باع سيفه وبذلته العسكرية لأحد المتاجرين بالسلع القديمة . وسطا الجيران على الحديقة ، ونهبوا الرياحين النادرة . أما النباتات الاخرى فأمست عوسجاً وعُلَّيقاً ، أو ماتت .

ولم يُقم ماريوس غير ثماني وأربعين ساعة في فيرنون . وبعد الدفن ، رجع الى باريس ، واستغرق في دروسه الحقوقية من غير أن يفكر في أبيه اكثر مما كان يفعل لو انه لم يعش قط . لم ينقضِ يومان حتى كان الكولونيل قد دُفن ، ولم تمضِ ثلاثة ايام حتى كان قد نُسي .

وطوّق ماريوس قبعته بعصابة حريرية . ذلك كان كلّ شيء .

٥
فائدة الذهاب الى القداس في جعل المرء ثورياً

كان ماريوس قد احتفظ بعادات صباه الدينية . وذات يوم من ايام

الأحد ذهب ليسمع القــداس في « سان سولبيس » ، في « كنيسة العـذراء » نفسها التي كانت خالته تصحبه اليها يوم كان صبياً صغيراً .
واذ كان في ذلك اليوم اكثر ذهولاً وأشد استسلاماً للاحلام مما كان في العادة ، فقد اتخذ مكاناً له خلف أحد الأعمدة وركع ، من غير أن ينتبه لذلك ، أمام كرسي من مخمل أوترخت كُتب على ظهره هذا الاسم : **مسيو مابوف ، وكيل كنيسة** . ولم يكد القداس يبدأ حتى برز رجلٌ عجوز وقال لماريوس :

– « سيدي ، هذا مكاني . »

وسارع ماريوس الى مغادرة المكان ، واتخذ العجوز كرسيه .

وبعد القداس ، ظل ماريوس مستغرقاً في التفكير على بُعـــد بضع خطوات . واقترب العجوز نحوه ، كرة اخرى ، وقال :

– « عفوك يا سيدي لازعاجي اياك منـذ لحظة قصيرة ، ولازعاجي اياك الآن مرة ثانية . ولا شك في انك قد حسبتني شرساً ، ومن اجل ذلك ينبغي أن ابرّر لك موقفي . »

فقال ماريوس :

– « هذا غير ضروري يا سيدي . »

فاستأنف العجوز كلامه قائلاً :

– « أجل ! انا لا اريد ان تكوّن فكرة سيئة عني ، انت ترى اني ألزم ذلك المكان ، والذي يبدو لي ان القداس هو هناك افضل . لماذا ؟ سوف اقول لك . فطوال سنوات عـديدة رأيت اباً صالحاً فقيراً ني الى ذلك المقعد مرة كل شهرين او كل ثلاثة اشهر من غـير انقطاع – أباً لم تكن لديه ايما فرصة اخرى او ايما وسيلة اخرى لرؤية ولده الصغير بعد ان حرمته ذلك بعضُ التسويات العائلية ، كان يُقبل ساعة يعرف انهم قد جاءوا بابنه الى القداس . و يخطر ببال الصغير قط ان أباه كان هناك . بل لعل ذلك الصبيّ البريء ما كان يدري ان له أباً ! وكان

الأب ، من ناحيته ، يلتزم الجلوس خلف هذا العمود لكي لا يكون في ميسور أحد ان يراه . كان ينظر الى ولده ويبــكي . كان ذلك الاب المسكين يعبد هذا الولد الصغير ! لقد رأيتُ ذلك . لقد أمسى هذا الموضع مقدساً عندي ، ومنذ ذلك الحين أخذتُ نفسي بالمجيء الى هنــا لكي اسمع القداس . أنا أؤثره على « مقعد العمل » ، حيث يحقّ لي ان اجلس بوصفي وكيلاً من وكلاء الكنيسة . بل لقد عرفت ذلك السيد المسكين بعض المعرفة . كان له حمٌ * ، وعمة غنية جداً ، وأنسباء ، لم اعد اتذكر تماماً ، وكانوا يهددونه بحرمان الولد من الميراث اذا ما رآه هو ، هــو أبوه ! لقد ضحى بنفسه لكي يصبح ابنه ، ذات يوم ، غنياً وسعيداً . وإنما تفرّق شملهم بسبب من الآراء السياسية . أنا أُقرّ اعتناق الآراء السياسية طبعاً ، ولكن هناك اناساً لا يعرفون اين ينبغي أن يقفوا . يا الـهي ! لأن الرجل الذي شهد واترلو ليس غولاً ؛ إن الاب لا يُفصل عن ابنه من اجل ذلك . لقد كان زعيماً (كولونيل) من زعماء بونابرت . لقد توفي ، على ما أعتقد . كان يسكن في فيرنون ، حيث يعمل أخي كاهناً ، وهو يدعى بونغاري او مونبارسي أو شيئاً مثل ذلك . لقد كان في جسمه ، في الواقع ، اثر من ضربة سيف . »

فقال ماريوس وقد شحب لونه :

— « بونميرسي ? » .

— « تماماً . بونميرسي . أكنت تعرفه ? »

فقال ماريوس :

— « ايها السيد ! لقد كان ابي . »

وشبك وكيل الكنيسة العجوز يديه ، وصاح :

— « آه ! انت ذلك الطفل ! اجل ، هذا صحيح . ينبغي ان يكون قد أصبح رجلاً الآن . حسناً ، ايها الطفل المسكين ، في استطاعتك أن تقول

* ابو الزوجة .

إنه كان لك اب أحبك حباً عظيماً ! »

وبسط ماريوس ذراعه الى الرجل العجوز ومشى معه حتى منزله .

وفي اليوم التالي قال لمسيو جيلنورمان :

– « لقد أعددتُ مع بعض الاصدقاء نزهة صيد . هل تسمح لي بان أغيب ثلاثة أيام ؟ »

فاجابه الجد :

– « وأربعة ! اذهب وروّح عن نفسك . »

وبغمزة من احدى عينيه همس في أذن ابنته :

– « مسألة عشق موقت ! »

٦

معنى الالتقاء بوكيل كنيسة

اما الى اين ذهب ماريوس فذلك ما سنعرفه بعد قليل .

وغاب ماريوس ثلاثة ايام ، ثم انقلب الى باريس ، فقصد تواً الى مكتبة مدرسة الحقوق ، وطلب مجموعة أعداد الـ « مونيتور » .

لقد قرأ الـ « مونيتور » . قرأ تاريخ الجمهورية والامبراطورية . قرأ مذكرات القديسة هيلانة *، وجميع المذكرات ، والصحف ، والبيانات الرسمية ، والاذاعات . لقد التهم كل شيء . ويوم وقع على اسم ابيه ، أول مرة ، في بيانات الجيش العظيم الرسمية عصفت به حمّى تطاولت اسبوعاً بكامله . وسعى الى الاجتماع بالجنرالات الذين

* Mémorial de Sainte Hélène تأليف Las Cases وهو عرض لاعمال نابوليون الاول في مختلف عهوده . وفيه عطف ظاهر على الامبراطور . (١٨٢٣)

حارب جورج بونيرسي تحت امرتهم ، ومن بينهم الكونت » . وقدّم اليه وكيل الكنيسة مابوف ، وكان قد ذهب لزيارته مرة اخرى ، صورة عن حياة فيرنون واعتزال الكولونيل الحياة الاجتماعية ، ورياحينه ، ووحدته . وهكذا انتهى ماريوس الى ان يفهم ، اوضح الفهم ، هذا الرجل النادر ، السامي ، الوديع ، هذا الضرب من الاسد ـ الحَمَل الذي كان اباه .

وفي غضون ذلك لم يعد يرى احداً تقريباً من آل جيلنورمان بعد ان استغرق في هذه الدراسة التي شغلت وقته كله وأفكاره كلها . كان يبرز عند تناول الطعام ، حتى اذا التمسوه بعد ذلك لم يعثروا عليه . كانت الخالة تتذمر ؛ وكان الجد يبتسم قائلاً : « بوه ! بوه ! إنه عهد البُنَيّات ! » وفي بعض الاحيان كان العجوز يضيف : « يا للشيطان ! لقد حسبتُ انها مغازلة . ولكنْ يبدو أنه هيام . »

كان هياماً ، حقاً .

كان ماريوس في سبيله الى الشغف بأبيه .

وفي الوقت نفسه طرأ تغير فوق العادة على أفكاره . وكانت مظاهر هذا التغير متعددة ومتعاقبة . واذ كان هذا التاريخ هو تاريخ كثير من العقول في عصرنا فنحن نعتقد ان من المفيد ان نتتبع هذه المظاهر خطوة خطوة ، وأن نشير اليها جميعاً .

إن ذلك التاريخ الذي وقعت عليه ، الآن ، عيناه ، قد اذهله .

لقد كان الاثر الاول انشداهاً .

ان الجمهورية والامبراطورية لم تكونا عنده ، حتى ذلك الحين ، غير كلمتين مخيفتين . الجمهورية ، مقصلة في غسق ؛ والامبراطورية ، حسامٌ في الليل . كان قد نظر اليهما ، وهناك ، حيث توقّع ان لا يجد غير ظلمات مختلطة ، وجَدَ في ضرب من دهش خارقٍ مشوبٍ بالخوف

وبالبهجة كواكبَ ساطعة : ميرابو ، فيرنيو * ، سان جوست ، روبسبيير ، كاميل ديمولان ، دانتون ، وشمساً مشرقة : نابوليون . ولم يَدْرِ أين هو . لقد ارتدّ وقد أعمتْهُ الانوار . وشيئاً بعد شيء ، زايَلَهُ الدهش ، وتعوّد هذه الاشعاعات . وانشأ يتأمّل الاعمال من غير دُوار ، ويدرس الشخصيات من غير ذعر . لقد برزت الثورةُ والامبراطورية بروزاً مضيئاً أمام عينيه الجاهدتين . لقد رأى كلّاً من مجموعتَيْ الحوادث والرجال هاتين تُلخّص نفسها في حقيقتين ضخمتين : الجمهورية ، في سيادة حق المواطن مُعاداً الى الجماهير ؛ والامبراطورية ، في سيادة الفكرة الفرنسية مفروضةً على اوروبة . لقد رأى صورة الشعب الجليلة تنبثق من الثورة ، وصورة فرنسة العظيمة تنبثق من الامبراطورية . وأعلن في ما بينه وبين نفسه ان ذلك كله كان حسناً .

اما ما أهمله انشداهه في هذا التقدير الأول التركيبيّ اكثر مما ينبغي فلسنا نرى ان من الضروري أن نشير اليه هنا . إنما نصفُ حالة عقلٍ يُغذّ الخطى . والتقدّم لا يتم بوثبة واحدة . وإذ قلنا هذا مرةً والى الأبد ، في ما يتصل بما تقدم وفي ما يتصل بما سوف يلي ، نتابع الكلام .

لقد شعر عندئذ انه لم يفهم وطنه ، حتى تلك اللحظة ، بأكثر مما كان قد فهم أباه . إنه ما كان يعرف لا هذا ، ولا ذاك ، ولقد كان يغشّي عينيه ضرب من الظلمة الارادية . أما الآن فقد أخذ يرى . واستبدّ به الاعجاب من ناحية ؛ وغلب عليه التقديس من الناحية الاخرى .

كان مفعماً بالاسف وتبكيت الضمير . وخطر له ، في يأس ، انه لا يستطيع الآن أن يبثّ كل ما في روحه إلا الى جدث . أوه ! لو ان أباه كان حياً ، لو لم يُخرّمه ، لو ان الرب قد أجاز ، برحمته وخيريّته ، ان يبقى ابوه على

---

* Vergniaud من رجال الثورة البارزين (١٧٥٣ – ١٧٩٣) وقد اعتقل مع الجيروندين ومات على المقصلة .

قيد الحياة، اذن لسارع الى العَدْو ، واذن لطرح نفسه على قدميه ، واذن لصاح مخاطباً اياه : « أبي ! انا هنا ! هذا أنا ! إن لي قلباً مثل قلبك ! انا ولدك ! » ما كان اجدره بان يعانق رأسه الابيض ، ويندّي شعره بالدموع ، ويحدق الى ندبته ، ويضغط على يديه ، ويهيم بثيابه ، ويقبّل قدميه ! اوه ! لماذا توفي والده في مثل هذه السرعة ، قبل الكهولة ، قبل العدالة ، قبل حب ولده ! واعتلجت في فؤاد ماريوس زفرة موصولة كانت تقول في كل لحظة : « واأسفاه ! » وفي الوقت نفسه أمسى اكثر أخذاً بأسباب الجدّ ، وأشدّ إمعاناً في الرصانة ، واعظم ثقة بأيمانه وعقله . لقد اقبلت ومضات من الحقّ ، في كل لحظة ، لكي تتمّ تفكيره . كان ذلك أشبه شيء بنموّ باطني ، فقد استشعر ضرباً من الاتساع الطبيعي الذي حمله اليه هذان الشيئان ، الجديدان عليه : أبوه ووطنه .

وانفتح كل شيء ، وكأن في يده مفتاحاً . لقد شرح لنفسه ما كان قد أبغضه ، واستوعب ما كان قد مقته . لقد رأى في وضوح ، منذ ذلك الحين ، المعنى السماويّ ، الالـهيّ ، البشريّ الذي انطوت عليه الاشياء العظيمة التي عُلـّم أن يكرهها ، والرجال العظام الذين لُقّن أن يسبّهم . وحين فكـّر في آرائه السابقة ، التي كان يعتنقها حتى وقت قريب ، والتي بدت له مع ذلك عتيقة جداً ، اخذه السخط على نفسه ، وابتسم . ومن إعادة اعتبار ابيه ، انتقل على نحو طبيعي الى اعادة اعتبار نابوليون .

بيد أن هذا — وهو ما يتعين علينا ان نقوله — لم يتمّ من غير عناء .

لقد أشرب ، منذ الطفولة ، بآراء حزب سنة ١٨١٤ في بونابرت . والواقع ان تحاملات العهد البوربوني الجديد كلها ، ومصالحه كلها ، وغرائزه كلها كانت تنزع الى تشويه نابوليون . لقد أبغضه ذلك العهدُ اكثر مما ابغض روبسبيير نفسه . ولقد استقل في كثير من البراعة تعب الأمة ، وبغض

الأمهات . وكان بونابرت قد أمسى ضرباً من غول يكاد يكون اسطورياً . ولكي يصور هذا الغول لخيال الشعب ، الذي يشبه كما قلنا من قبل خيال الاطفال ، فقد اظهر حزب سنة ١٨١٤ جميع الاقنعة المروّعة ، واحداً بعد واحد ، ابتداء من تلك التي تتسم بالفظاعة ولكنها تظل عظيمة ، حتى تلك التي تتسم بالفظاعة ولكنها مضحكة ، من تيباريوس * الى كروكوميتين ** . وهكذا كنتَ ، عند الكلام على بونابرت ، حراً في أن تنتحب او في ان تنفجر بالضحك ، شرط ان يكون البغض هو الأساس . ولم يسبق لماريوس ان كانت له عن ذلك الرجل — كما كان يدعى — أية افكار غير هذه الافكار على الاطلاق . لقد نمتْ جنباً الى جنب مع الصلابة التي كانت في طبيعته . لقد كان في برديه رجل صغير عنيد يكره نابوليون .

حتى اذا قرأ تاريخه ، وبخاصة حين درسه في الوثائق وفي العناصر الرئيسية التي يتشكل منها ، اخذ ذلك النقاب الذي كان يحجب نابوليون عن عيني ماريوس يتمزق شيئاً بعد شيء . لقد لمح شيئاً غير متناه ، وتراءى له انه كان يخدع نفسه — حتى تلك اللحظة — في أمر نابوليون كما خدعها في سائر الامور . وكل يوم ، كان نظره يزداد وضوحاً ؛ وشرع يَرْقى في بطء ، خطوة خطوة — في اسفٍ تقريباً باديء الامر وفي نشوة بعد ذلك وكأنما كان مسوقاً بسحر لا يقاوَم — درجات الحماسة المظلمة اولاً ، ثم درجاتها المضاءة على نحو باهت ، واخيراً درجاتها النيّرة الباهرة .

وذات ليلة ، كان وحده في غرفته الصغيرة القائمة تحت السطح . كانت شمعته مضاءة ، وكان يقرأ متكئاً على طاولته الى جانب النافذة

* هو ثاني اباطرة الرومان (٤٢ ق . م — ٣٧ ب . م) كان حاكماً قديراً ولكنه شديد القسوة . وقد سبق التعريف به .

** كائن خرافي يخوّف به الاطفال . وهو اقرب شيء الى « الغول » الذي يخوّف به اطفالنا في بعض البيئات .

المفتوحة . وتقاطرت عليه ، من الفضـــاء الرحب ، ضروب الهواجس وامتزجت بتفكيره . أيُّ مشهد هو الليل ! نحن نسمع اصواتاً مبهمة لسنا ندري من اين تقبل . نحن نرى جوبيتير وهو اكبر من الارض ألفاً ومئتي مرة ، يلتمع مثل جمرة . القبّة السماوية زرقـــاء ؛ النجوم تتلألأ ؛ ذلك شيء مخيف .

وقرأ بيانات الجيش العظيم الرسمية ، تلك الفلذات البطولية التي كتبت في ساحة المعركة . كان اسم ابيه يرد فيها احيانـــاً ، وكان اسم الامبراطور يتردّد خلالها دائماً . وتبدّت له الامبراطورية العظيمة كلها . لقد احسّ وكأن مَدّاً كان ينتفخ في ذات نفسه ويرتفع . لقد بدا له في بعض اللحظات ان اباه يمرّ على مقربة منه مثل نســـمة من النسمات ، ويهمس في أذنه . وشيئاً بعد شيء ، غدا غريباً تائهاً . لقد حسب انه سمع الطبول ، والمدافع ، والابواق ، وخطى الافواج الموزونـــة ، وخبب الفرسان المبهم النائي . وبين الفينة والفينة كانت عيناه ترتفعـــان نحو السماء ، فتريان البروج الهائلة تسطع في الاعماق التي لا قرار لها ، ثم ترتدّان الى الكتاب فتريان هناك اشياء اخرى بالغة الضخامة تضطرب في غير وضوح . كان منقبض الصدر . وكان مهتاجاً ، مرتجفاً ، لاهثاً . وفجأة ، ومن غير ان يدري هو نفسه ايّ شيء يحركه ، أو ايّ شيء كان يطيع ، نهض وبسط ذراعيه خارج النافذة ، وحدّق الى الظلام ، الى الصمت ، الى اللانهاية المظلمة ، الى الرحب الأزلي الذي لا حدّ له ، وصاح : « فليحيَ الامبراطور ! »

ومن ذلك الحين انتهى كل شيء ؛ الغول الكورسيكي – الغاصب – الطاغية – الوحش الذي كان عشيق أخواته – الممثل الذي تتلمذ على تالما * – مسمّم يافا – النمر – بُونابرته – كل هذا قد تلاشى وأخلى

* Talma مسرحي فرنسي (١٧٦٣ – ١٨٢٦) وكان نابوليون يؤثره على الممثلين جميعاً .

مكانه في عقله لأشراق غامض وساطع تألـــق فيه من ارتفاع سامق لا يُدرَك طيفُ قيصر الرخاميّ الشاحب . إن الامبراطور لم يكن عنـد أبيه غير القائد القدير المحبوب ، الذي يُعجب به المرء ، ويقف نفسه لخدمته . أما عند ماريوس فكان شيئاً اكثر من ذلك . كان الرجلَ المختار لأنشاء الفرقة الفرنسية التي خلفت الفرقة الرومانية في السيادة على العالم . كان المهندسَ الأعجوبيّ لسقوطٍ ما ، والمتمّم عملَ شارلمان ، ولويس الحادي عشر ، وهنري الرابع ، وريشيليو ، ولويس الرابـــع عشر ، ولجنة السلامة العامة ؛ وكانت له ، من غير ريب ، عيوبُهُ ، واخطاؤه ، بـــل وجرائمه ، يعني بوصفه بشراً . ولكنه كان جليلًا في أخطائـه ، متألقاً في عيوبه ، جباراً في جرائمه . كان الرجلَ الذي اختارته الاقدار لكي يُكره الامم على ان تقول : الامة العظيمة . بل لقد كان خيراً من ذلك . كان تجسُّدَ فرنسة نفسَه ، فاتحاً اوربةَ بالسيف الذي شهره ، والعالمَ بالضياء الذي سفحه . لقد رأى ماريوس في بونابرت ذلك الطيفَ الباهر الذي سيظهر على الحدود دائماً ، والذي سيحرس المستقبل . طاغية، ولكنه حاكمٌ فوق العادة مُنح جميع الصلاحيات وأُطلقت يداه في العمل . طاغية منبثق من جمهورية ، ومختصِرٌ لثورة . لقد أمسى نابوليون ، في نظره ، الرجلَ الشعب ، كما كان يسوع الرب الانسان .

وشأنَ جميع الداخلين حديثاً في دين من الاديان أسكره دخوله في الدين ، واندفع في تشيّعه اندفاعاً متهوراً ، وذهب الى أبعد مما ينبغي . كانت طبيعته هكذا ؛ فما إن يهبط منحدَراً حتى يتعذر عليه أن يتوقف، أو يكاد . واستبدت بـــه العصبية للسيف ، واختلطت في ذهنه بالحماسة للفكرة . إنه لم يدرك أنه ، الى جانب العبقرية ، ومن غير ما تمييز ، قد أُعجب بالقوة ، يعني أنه أقام في رُكنَيْ صنميّته ما هو الـهيّ من جهة ، وما هو وحشيّ من جهة . ومن نواحٍ كثيرة ، انشأ يخـدع نفسه في شؤون اخرى . لقد أقرّ كل شيء . فثمة وسيلة للوقـوع في

الخطأ فيما يتخذ المرء سبيله الى الحق . وكان له ضرب من سلامة القلب العنيفة الجافية التي ابتلعت كل شيء جملةً . ففي السبيل الجديدة التي سلكها ، اهمل في محاكمته أخطاء العهد القديم كما اهمل في تقديره عظمةَ نابوليون مختلفَ الملابسات والاسباب التخفيفية .

وأياً ما كان فقد خطا تلك الخطوة الكبيرة . فحيث رأى من قبلُ سقوط الملكية ، رأى الآن جلوس الشعب على العرش . لقد تغيرت قِبلته . فما كان غروبَ الشمس ، انتهى الان الى ان يصبح إشراقها . لقد دار الى الوراء .

وتمت هذه الثورات كلها في ذات نفسه من غير ان تشعر أسرته بها على الاطلاق .

وحين اطّرح في هذا الجهد الخفيّ جلده البوربوني القديم المغالي في التطرف اطّراحاً كاملاً ؛ حين تعرّى من كل ما هو ارستوقراطي ، يعقوبي ، وملكي ؛ حين أمسى ثورياً بكل معنى الكلمة ، ديموقراطياً الى الاعماق ، جمهورياً او يكاد ، شخص الى حفّار في الدكي ديزورفيفر ، وأوصى على مئة بطاقة تحمل هذا الاسم : **البارون ماريوس بونميرسي** .

ولم يكن ذلك غير نتيجة منطقية جداً للتغير الذي طرأ عليه ، وهو تغير دار كلُّ شيء فيه ، بمثل القوة الجاذبة ، على محور أبيه . وإذ لم يكن يعرف أحداً ، واذ لم يكن في وسعه ان يترك بطاقته عند باب أحد ، فقد وضع تلك البطاقات في جيبه .

وبسبب من نتيجة طبيعية اخرى كان كلما ازداد قرباً من ابيه ، من ذكراه ، من الاشياء التي قاتل الكولونيل من أجلها طوال خمس وعشرين سنة ، ازداد بعداً عن جده . وقد سبق منا القول إن خصال مسيو جيلنورمان ما كانت لترضيه منذ عهد بعيد . كان يكرهه كرهَ شاب آخذٍ باسباب الجدّ شيخاً عاتياً مستهتراً . ان مرح جيرونت * ليصدم كآبة

* Géronte احدى شخصيات موليير ، وتمثل العجوز القاسي الفؤاد ، الشحيح ، العنيد .

فيرتر * ويغيظها . والواقع انه ما دامت الآراء السياسية نفسها والافكار نفسها مشتركة بين ماريوس ومسيو جيلنورمان فقد التقيا بواسطتها وكأنما يلتقيان على جسر ، حتى اذا سقط هذا الجسر برزت الهوة . وفوق ذلك كله ، فقد عصفت الثورة بماريوس على نحو لا سبيل الى وصفه عندما فكر أن مسيو جيلنورمان قد فصله من غير ما رحمة ، وبدوافع حمقاء ، عن الكولونيل ، وبذلك حرم الأبَ ابنه ، والابنَ أباه .

ومن خلال بِرّه بأبيه كاد ماريوس أن ينتهي الى كره جده .

ومهما يكن من أمر فأن اياً من هذا لم يُعلن ، كما قلنا ، عن نفسه على نحو خارجي . كل في الامر أنه ازداد فتوراً يوماً بعد يوم ، وانه كان قليل الكلام على المائدة ، نادر الاقامة في المنزل . فاذا عنفته خالته من اجل ذلك كان بالغَ الرقة ، وكان يتذرّع بدروسه ، وبالمحاكم ، والامتحانات ، والمحاضرات الخ . وما كان الجد ليغيّر تشخيصه المنزه عن الخطأ : « عاشق ! أنا أفهم ذلك ! »

وكان ماريوس يغيب عن المنزل بين الفينة والفينة .

وكانت الخالة تتساءل :

— « الى اين تراه يذهب ، على هذه الشاكلة ؟ »

وفي احدى هذه الرحلات ، البالغة القصر دائماً ، قصد الى مونفيرماي إنفاذاً للوصية التي تركها له ابوه ، وبحث عن رقيب واترلو السابق ، الفندقي ، تيناردييه . وكان تيناردييه قد أفلس ، وكان الفندق قد أُوصد ، ولم يكن احد ليدري ما الذي حلّ به . واضطرّ ماريوس ، من اجل القيام بهذا البحث ، الى التغيب عن المنزل أربعة أيام .

وقال الجد :

— « لا ريب في انه ضلّ السبيل » .

ولقد خيّل اليهما أنهما لاحظا أنه يحمل على صدره وتحت قميصه شيئاً

---

* Werther بطل قصة الشاعر الألماني غوته الشهيرة الحاملة هذا الاسم .

يتدلى من عنقه بشريطة سوداء .

٧
تنورةٌ ما

لقد تحدثنا عن أحد الرّماحة .

كان ابنَ ابنِ أخي مسيو جيلنورمان ، الذي كان يحيا بعيـــداً عن الاسرة ، وبعيداً عن الحياة العائلية كلها ، في مقر الحامية . وكان الملازم الاول تيبودول جيلنورمان قد حقق جميع الشروط التي يحتاج اليها المرء لكي يكونَ ما يدعى ضابطاً جميلاً . كان له « خصر آنسة » ، وطريقة في جر الحسام المظفّر ، وشاربٌ معقوص . كان نادراً ما يذهب الى باريس ، نادراً الى حد ان ماريوس لم يره قط . والواقع ان ابـني العمومة لم يعرف واحدٌ منهما الآخر إلا بالاسم . وكان تيبودول ، كما نعتقد أنّا ذكرنا ، اثيراً لدى الخالة جيلنورمان تفضله لأنها لم تكن تراه. إن عدم رؤية الناس يساعدنا على ان نتخيل فيهم مختلف ضروب الكمال .

وذات صباح انقلبت الآنسة جيلنورمان الكبرى الى غرفتهـــا وهي مهتاجة الى ابعد ما تسمح لها وداعتها بأن تهتاج . كان ماريوس قـــد سأل جده ، كرة اخرى ، ان يأذن له في القيام برحلة قصيرة ، مضيفاً أنه يعتزم الانطلاق تلك الليلة نفسها . وكان الجدّ قد أجاب : « إذهب ! » ، ثم اضاف ، على انفراد ، رافعاً حاجبيه الى أعلى جبينه : « إنه يعاود جريمة المبيت خارج المنزل . » وكانت الانسة جيلنورمان قد رجعت الى غرفتها في ارتباك شديد ، ملقية على السلم علامة التعجب هذه : « هذا جميل ! » وعلامة الاستفهام هذه : « ولكن الى اين تراه يذهب ؟ » وتخيّلت مغامرة من مغامرات القلب المحظورة قليلاً او كثيراً ، امرأةً

في الظلّ ، موعداً غرامياً ، سراً خفياً ؛ ولم تكن خليقة بأن تغضب لو قُدّر لها ان تُقحم نظّارتيها فيها . إن مذاق سرّ من الاسرار أشبه شيء بباكورة ربة . والنفوس الطاهرة لا تكره ذلك البتة . إن في حُجُرات التطرّف في التقوى بعض الفضول الى الفضيحة .

لقد كانت اذن فريسة رغبة عمياء في معرفة قصة ما .

ولكي تتلهّى عن هذا الفضول الذي كان يُورثها من الاهتياج اكثر مما تعوّدت ، لجأت الى مواهبها وشرعت تنشىء – بخيط من القطن فوق خيط من القطن – قطعة من وَشْي الامبراطورية وعودة آل بوربون الذي كانت تكثر فيه عجلات العربات ذوات الدولابين . عمل عبوس ، وعاملة شرسة . وكانت قد سلخت في كرسيّها عدة ساعات عندما فُتح الباب . ورفعت الآنسة جيلنورمان أنفها . كان الملازم الأول تيبودول أمامها يحييها بتحية المرافق العسكري . وأطلقت صيحة ابتهاج . فقد تكون المرأة عجوزاً ، وقد تكون مسرفة في التعفّف ، وقد تكون ورعة ، وقد تكون عمة أو خالة ، ولكنّ من المستحب دائماً ان ترى رمّاحاً يدخل غرفتها .

وهتفت :

– « انت هنا ، يا تيبودول ! »

– « لقد احببت ان امرّ بكم في طريقي ، ايتها العمة . »

– « عانقني اذن . »

فقال تيبودول :

– « ها أنا ذا افعل ! »

وعانقها . ومضت العمة جيلنورمان الى مكتبها وفتحته .

– « سوف تبقى عندنا طوال الاسبوع على الاقل ، أليس كذلك ؟ »

– « ايتها العمة ، سوف أرحلُ هذا المساء . »

– « مستحيل ! »

– « إني مضطر الى السفر مهما كلف الامر . »

- « إبق ، يا صغيري تيبودول ، ارجوك . »

- « القلب يقول نعم ، ولكن الاوامر تقول لا . القصة بسيطة . لقد غُيّر مقرّ حاميتنا . كنا في ميلون ، وها قد وُجّهنا الآن الى غابون . ولكي نذهب من مقر الحامية القديم الى المقر الجديد يتعين علينا أن نمرّ بباريس . وهكذا قلت : سوف أذهب وأرى عمتي . »

- « دونك هذه جزاء ما لقيتَ من تعب . »

ووضعت في يده عشر ليرات ذهبية .

- « تعنين جزاء ما نعمتُ به من سرور ، ايتها العمة العزيزة . »

وعانقها تيبودول كرةً أخرى ، وسعدتْ بأن خدشت جدائلُ ثوبه العسكري رقبتها خدشاً طفيفاً .

وسألته :

- « اتقوم بهذه الرحلة على صهوة الجواد مع كتيبتك ؟ »

- « لا ، ايتها العمة . لقد اردتُ ان أراكِ . لقد حصلت على اجازة خاصة . ان خادمي يقود جوادي . امـــا انا فاركب العربة العمومية . وبالمناسبة ، هناك سؤال أحب ان أوجهه اليك . »

- « ماذا ؟ »

- « إن ابن عمتي ماريوس بوغيرمي راحلٌ ايضاً ، اليس كذلك ؟ » .

فصاحت العمة وقد استثير فضولها ، فجأة ، الى ابعد حدود الاستثارة :

- « كيف تعرف ذلك ؟ »

- « حين وصولي ، شخصتُ الى مركز العربات العمومية لأحجز محلّا في القسم الامامي من العربة . »

- « ثم ماذا ؟ »

- « كان احد المسافرين قد حجز محلّا في القسم الأعلى من عربة . لقد رأيت اسمه في السجل . »

- « ايّ اسم ؟ »

- « ماريوس بوغيرمي . »

فصاحت العمة :

– « الفتى الشرير ! آه ، إن ابن عمتك ليس غلاماً حسن السلوك مثلك. انا لا أستطيع ان افكر انه سوف يُمضي الليل في عربة عمومية . »

– « مثلي انا . »

– « ولكنك تفعل ذلك بحكم الواجب . أما هو فيفعله بدافع الفسق والفجور . »

فقال تيبودول :

– « ما الفرق ؟ »

وهنا وقعت حادثة في حياة الآنسة جيلنورمان الكبرى . لقد راودتها فكرة . ولو كانت رجلًا ، اذن لصفعت جبينها . وخاطبت تيبودول في لهجة شديدة ، قائلة :

– « اندري ان ابن عمك لا يعرفك ؟ »

– « لا . لقد رأيته أنا . ولكنه لم يتنازل يوماً فينظر اليّ . »

– « وسوف تسافران معاً على هذا الشكل ؟ »

– « هو في القسم الأعلى من العربة العمومية ، وانا في القسم الأمامي منها . »

– « الى أين تذهب هذه العربة العمومية ؟ »

– « الى الآنديلي . »

– « اذن فماريوس ذاهب الى هناك ؟ »

– « إلا اذا غادر العربة ، مثلي ، في بعض الطريق . سوف أنزل في فيرنون لاتخذ الطريق الفرعية الى غايون . انا لا اعرف شيئاً عن طريق ماريوس .. »

– « ماريوس ! يا له من اسم بشع ! ويا لها فكرة صائبة ، تلك التي جعلتهم يسمونه ماريوس . ولكن انت ، على الاقل – انت تدعى تيبودول ! »

فقال الضابط :
- « كنت أوثر ان يكون ألفرد . »
- « إسمع يا تيبودول . »
- « انا سامع ، ايتها العمة . »
- « انتبه . »
- « أنا منتبه . »
- « هل أنت مستعد ؟ »
- « نعم . »
- « حسناً . إن ماريوس يغيب عن البيت في كثير من الاحيان . »
- « إيه ! ايه ! »
- « إنه يسافر . »
- « آه ! آه ! »
- « انه يبيت خارج المنزل . »
- « اوه ! اوه ! »
- « نريد ان نعرف ما وراء ذلك كله . »
وفي هدوء رجل من برونز ، أجاب تيبودرل :
- « تنّورة ما . »
وبتلك الضحكة المكبوحة التي تنمّ عن اليقين أضاف :
- « فتاة صغيرة . »
- « هـــذا واضح » كذلك صاحت العمة التي حسبت أن مسيو جيلنورمان يتكلم ، والتي استشعرت ان اقتناعها بأنه ينبثق على نحـــو لا يقاوَم من هاتين الـكلمتين ، « فتاة صغيرة » ، اللتين انطلقتا بالجرْس نفسه من فم اخي الجدّ وفم ابنِ ابنِ الاخ جميعاً . واستأنفت كلامها :
- « قم بهذا الصنيع من أجلنا . إتبَعْ ماريوس قليلًا . إنـــه لا يعرفك ؛ ولـسوف يكون ذلك سهلًا عليك . فما دام ثمة « فتاة صغيرة »

لتحاول أن ترى « الفتاة الصغيرة » . في استطاعتك ان تبعث الينا بالحكاية . إن ذلك سوف يسلّي جدك . »

ولم يكن تيبودول شديد الرغبة في مثل هذا الضرب من التوصُّد . ولكن الليرات الذهبية العشر وقعت في نفسه موقع الارتياح العظيم ، وخيّل اليه انه يرى تتمةً يمكن ان تتلوها . فقبل المهمة ، وقال :

– « كما تريدين ، ابنتها العمة . »

ثم اضاف بينه وبين نفسه :

– « ها أنا ذا قد أمسيتُ دُوَيْبِنا * . »

وعانقته الآنسة جيلنورمان .

– « إنك لا تقوم بمثل هذه الحيل ، يا تيبودول . أنتَ تطيع الانظمة ؛ انت عبدٌ للاوامر الصادرة اليك ؛ انت رجلُ تدقيق وواجب ، وإنك لا تترك أُسرتك لكي تذهب وترى مخلوقة كهذه . »

وصعّر الرمّاح خــده في ارتياح ، وكأنه كارتوش ** أُطرِيَتْ أمانته .

وفي المساء الذي تلا ذلك الحوار ، ركب ماريوس العربة العمومية من غير أن يخطر في باله أنه مراقَب . أما المراقِب فكان اول ما عمله ان استسلم للرقاد . كان نومه عميقاً يؤذن بضمير مرتاح . لقد غطّ آرغوس *** طوال الليل .

وعند منبلج الصباح صاح سائق العربة العمومية :

---

* Duenna عجوز تُكلّف في اسبانية بمراقبة فتاة صغيرة او امرأة شابة .

** Cartouche زعيم عصابة من اللصوص ، وقد سبق التعريف به .

*** Argus في الميثولوجيا الاغريقية عملاق ذو مئة عين عُهِد اليه في مراقبة « إيو » التي مُسخت بقرة ، فما كان من « عطارد » الا ان اوقع النوم في عينيه بانغام قيثارته واحتز رأسه . ثم زُرعت عيونه في ذنب الطاووس . والمراد بـ « آرغوس » هنا ، تيبودول .

— « فيرنون ! محطة فيرنون ! المسافرون الى فيرنون ! »
وأفاق الملازم الأول تيبودول من سباته ، ودمدم نصف نائم :
— « حسن . في هذا المكان سوف أنزل . »
حتى اذا انجلت ذاكرته شيئاً بعد شيء ، نتيجة اليقظة ، تذكّر عمته والليرات الذهبية العشر ، والتقرير الذي كلف بتقديمه عن سلوك ماريوس. وأغراه ذلك بالضحك .
وفكّر ، فيما كان يزرّر صدرته غير الرسمية : « لعله غادر العربة . جائز ان يكون قد ترجّل في « بواسي » . لعله قد نزل في « تربيل » . إن لم يكن قد نزل في « مولان » فلعله قد ترجل عند « مانت » ، إلا اذا نزل في « روليبواس » وإلا اذا ذهب حتى « باسي » ليس غير ، مع امكان انعطافه الى الشمال نحو « إيفرو » أو الى اليمين نحو « لاروش غوييون » . إتبعهُ ، يا عمتي . يا للشيطان ! ايّ شيء سوف اكتبه اليها ، الى تلك العجوز الطيبة ؟ » .
في تلك اللحظة بدا من زجاج القسم الامامي من العربة بنطلون أسود كان يهبط من قسمها الأعلى .
وقال الملازم الاول :
— « أيكون هذا ماريوس ؟ »
لقد كان هو ماريوس .
وكانت ريفيةٌ صغيرة واقفةٌ الى جانب العربة ، بين الخيل والسائقين ، تعرض الازهار على المسافرين ، صائحة :
— « أزهار لسيداتكم ! »
واقترب ماريوس منها ، واشترى اجمل ما في سلتها من الرياحين .
وقال تيبودول واثباً من العربة :
— « والآن ، هو ذا شيء مثير . الى من تُرى يحمل هذه الرياحين ؟ ينبغي ان تكون امرأةً جميلة الى حد فاتن تلك التي تُحمل اليها باقة كهذه .

إني أودّ أن أراها . »

وشرع يتبع ماريوس ، لا تنفيذاً لمهمة عُهِد بها اليه ، هذه المرة ، ولكنْ بدافع من الفضول الشخصيّ ، مثل تلك الكلاب الـتي تقتنص لحسابها الخاص .

ولم يُلْقِ ماريوس بالاً الى تيبودول . وخرجت من العربة العمومية بعض النسوة الانيقات . لقد بدا وكأنه لم يرَ شيئاً مما حوله .

وفكـّر تيبودول : « ايكون عاشقاً ؟ »

ومشى ماريوس نحو الكنيسة :

وقال ماريوس مخاطباً نفسه :

— « حسن ، الكنيسة ! هذا هو . إن المواعيد الغرامية المتبَّلة بشيء من القدّاس هي المواعيد الفضلى . ليس ثمة ما هو ألذّ من غمزةٍ تمرّ عبرَ الربّ الرحيم ! »

حتى اذا انتهى ماريوس الى الكنيسة لم يدخلها ، بل استدار خلف البناء . ثم اختفى عند زاوية عمود من اعمدة صدر الكنيسة .

وقال تيبودول :

— « اللقاء في الخارج . فلنَرَ الفتاة الصغيرة . »

واقترب على رؤوس اصابعه نحو الزاوية التي استدار ماريوس حولها . حتى إذا بلغها وقف مشدوهاً .

كان ماريوس راكعاً على العشب ، مخفياً وجهه بيديه ، فوق قبر من القبور . كان قد نثر باقته هناك . وفي اقصى القبر ، عند مرتفع يعيّن موضع الرأس ، انتصب صليب من خشب أسود كـُتِبَ عليه هذا الاسم بأحرف بيضاء : **الكولونيل البارون بونمرسي** . لقد سمع ماريوس ينتحب .

كانت « الفتاة الصغيرة » قبراً .

٨

رخام ضد صوان

الى هناك كان ماريوس قد ذهب أولَ مرة غاب فيها عن باريس . والى هناك كان يعود كلما قال مسيو جيلنورمان : « انه يبيت خارج المنزل . »

واضطرب الملازم الاول تيبودول لهذا الالتقاء ، غير المتوقع ، بقبر . لقد اعتراه شعور مقيتٌ غريب لم يكن قادراً على تحليله — شعورٌ مؤلف من احترام لقبرٍ ، ممزوجٌ باحترامٍ لكولونيل . وانكفأ ، تاركاً ماريوس وحده في المقبرة ، وكان في انكفائه ذاك شيء من النظام . لقد بدا له الموت بكِتافتين ضخمتين ، ولقد أدى له التحية العسكرية أو كاد . وإذ لم يدرِ ما ينبغي ان يكتبه الى عمته ، فقد اعتزم ان لا يكتب اليها شيئاً على الاطلاق . ولعل شيئاً ما كان لينتج عن الاكتشاف الذي تمّ لتيبودول في موضوع غراميات ماريوس لو لم يُتبَع مشهدُ فيرنون — بفضل تدبير من تلك التدابير الخفية التي تحفل بها المصادفة — بنوع من الضربة المقابلة في باريس .

لقد رجع ماريوس من فيرنون في ساعة مبكرة من صباح اليوم الثالث وشخص الى بيت جده . واذ استبدّ به التعب بسبب من الليلتين اللتين قضاهما في العربة العمومية ، واستشعر الحاجة الى التعويض عن قلة نومه بساعة يمضيها في مدرسة السباحة ، فقد ارتقى السلم مسرعاً الى غرفته ، فنزع سترة السفر الطويلة والشريطة السوداء المطوّقة عنقه ومضى على جناح السرعة الى الحمام .

وكان مسيو جيلنورمان — وقد أفاق باكراً مثل جميع الشيوخ المتمتعين بصحة جيدة — قد سمعه يعود ، فسارع بأقصى ما تمكّنه رجلاه

العجوزان الى ارتقاء السلم المؤدية الى غرفة ماريوس لكي يعانقه ، ولكي يستجوبه في اثناء العناق ، ويستطلعَ بعض الاستطلاع ِمنْ اين أقبل .

ولكن المراهق اقتضاه النزولُ وقتاً أقصر من ذلك الذي احتاج اليه ابن الثمانين في الطلوع . حتى اذا دخل مسيو جيلنورمان عليّة ماريوس لم يجده هناك .

كان السرير مرتباً لم يُمسّ ، وقد انتشرت فوقه ، في غير ما احتياط أو حذر ، سترة ماريوس الطويلة وشريطته السوداء .

وقال مسيو جيلنورمان :

— « انا أفضّل هذا . . »

وبعد لحظة دخل غرفة الاستقبال حيث كانت الآنسة جيلنورمان الكبرى قد جلست ، وأخذت تطرّز عجلات عربتها .

وكان الدخول مظفّراً .

وأمسك مسيو جيلنورمان السترة في يد ، وشريطة العنق في يد ، وصاح :

— « النصر ! سوف ننفذ الى السرّ ! سوف نعرف نهاية النهايات ! سوف نلمس فجور مُرائينا ! ها نحن مع الرواية كاملة . إن عندي الصورة ! »

والحقّ ان علبة من الجلد الأسود المُبرْغَل ، اشبه ما تكون بحلية بيضيّة الشكل ، كانت تتدلى من الشريطة .

واخذ الشيخ هذه العلبة وتأملها ، فترةً ، من غير ان يفتحها ، وعلى وجهه سيما الشهوة ، والدهش ، والغضب التي ينظر بها شيطان فقير جائع الى مائدة ممتازة تمرّ تحت أنفه وهي غير معدّة له .

— « ذلك ان في جوف هذه العلبة صورة من غير ريب . أنا أعرف كل شيء عن ذلك . ان هذه العلبة تُحمل في رفق ، فوق القلب . يا لهم من مجانين ! إنها عاهرة بغيضةٌ ما ، قد توقع الرعدة في اوصال

المرء ! إن للشبان مثل هذا الذوق الرديء كله ، في هذه الايام ! »
فقالت العانس :
– « فلنْرَ يا أبتِ ! »
وفُتحت العلبة بالضغط على نابضٍ . ولم يجدا فيها غير قصاصة من الورق طُويت في عناية .
وقال مسيو جيلنورمان ، وهو ينفجر بالضحك :
– « من داعرة الى داعر . أنا ادري ما هي . إنها رسالة غرام ! »
فقالت الخالة :
– « آه ! اذن فلنقرأها ! »
ولبستْ نظارتيها . ثم نشرت قصاصة الورق وقرأت ما يلي :
– « الى ولدي : – إن الامبراطور قد جعلني بارونا في ساحة القتال بواترلو . ولما كان عهدُ آل بوربون الجديد ينكر عليّ هذا اللقب الذي دفعت دمي ثمناً له فان ولدي سوف يأخذه ويحمله . وليس من ريب في أنه سوف يكون جديراً به . »
وليس من سبيل الى وصف الشعور الذي اعتلج في صدرَيْ الاب وابنته . لقد أحسّا بالقشعريرة وكأنّ أنفاس رأس الموت قد مسّتهما . ولم يتبادلا كلمة واحدة . بيد ان مسيو جيلنورمان قال في صوت خفيض وكأنما كان يخاطب نفسه :
– « انه خطّ ذلك السياف الجاهل . »
وفحصتِ الخالة الورقة ، وقلبتها ظهراً لبطن ، وبطناً لظهر ، ثم أعادتها الى الصندوق .
وفي تلك اللحظة نفسها سقطت رزمة مستطيلة صغيرة ، ملفوفة بورق أزرق ، من جيب من جيوب السترة . والتقطتها الانسة جيلنورمان ، وفضّت الورقة الزرقاء . كانت بطاقاتِ ماريوس المئة . ودفعت احداها الى مسيو جيلنورمان الذي قرأ : **البارون ماريوس بونمرسي** .

وقرع الشيخ الجرس . واقبلت نيقوليت . وتناول مسيو جيلنورمان الشريطة ، والعلبة ، والسترة الطويلة والقاها على الارض وسطَ غرفة الاستقبال وقال :

— « أعيدي هذه الاشياء الى مكانها . »

وانقضت ساعة كاملة ساد فيها أعمق الصمت . كان الرجل العجوز والعانس العجوز جالسين ، وقد ولّى كل منهما ظهره للآخر ، ولعلهما كانا يفكران — كلٌّ من ناحيته — في الاشياء نفسها . وفي ختام تلك الساعة قالت الخالة جيلنورمان :

— « جميل ! »

وبعد لحظات برز ماريوس . ودخل . وحتى قبل ان يجتاز عتبة غرفة الاستقبال لمح جدَّه الذي كان حاملاً احدى بطاقاته في يده ، والذي لم يكد يراه حتى صاح في نبرة تفوّقٍ بورجوازية ساخرة كان فيها شيء يسحق سحقاً :

— « قف ! قف ! قف ! قف ! قف ! انت « بارون » الآن . انا أقدّم اليك تهنئتي . ما معنى هذا كله ؟ »

وشاع الدم في وجه ماريوس ، بعض الشيء ، واجاب :

— « هذا يعني اني ابنُ ابي . »

وكفّ مسيو جيلنورمان عن الضحك ، وقال في قسوة :

— « أبوك ؟ انا ابوك . »

فأردف ماريوس وقد خفض بصره وغلبت الصرامة على وجهه :

— « لقد كان والدي رجلاً متواضعاً وباسلاً خدم الجمهورية وفرنسة خدمةً ماجدة ؛ رجلاً عظيماً في أعظم تاريخ قُدّر للبشر ان يصنعوه ؛ رجلاً عاش ربع قرن في معسكرات القتال ، في النهار تحت القذائف وتحت القنابل ، وفي الليل وسطَ الثلج ، وفي الوحل ، وتحت المطر ؛ رجلاً انتزع رايتين ، وأصيب بعشرين جرحاً ، ومات منسياً مهجوراً ؛

رجلاً لم يكن يرتكب غير خطأ واحد ، هو انه أحب اكثر مما ينبغي عاقبَيْنِ اثنين : وطنه وأنا ! »

كان ذلك اكثر مما استطاع مسيو جيلنورمان أن يحتمل سماعه . فلم تكد هذه الكلمة ، الجمهورية ، تطرق سمعه حتى نهض ، او على الاصح ، حتى انتصب واقفاً . وكانت كلٌّ من الكلمات التي نطق بها ماريوس قد احدثت ، في وجه الملكيّ العجوز ، مثل ذلك الاثر الذي تحدثه أنفاس الكيرْ في الفحم المشتعل . كان قاتماً فغدا أحمر ، وكان احمر فغدا ارجوانياً ، وكان ارجوانياً فغدا متوهجاً .

وصاح :

— « ماريوس ايها الولد البغيض ! أنا لا أدري ايّ شيء كان أبوك ! انا لا أريد أن اعرف شيئاً عنه ولست اعرفه . ولكن الذي أعرفه انه لم يوجد قط غير جماعة من البؤساء بين اولئك القوم جميعاً . أنهم كانوا كلهم شحاذين ، سفّاحين ، ذوي قلانس حمراء * ، ولصوصاً . أقول كلّهم ! اقول كلهم ! انا لا اعرف أحداً ! اقول كلهم ! إسمع أنت ، ماريوس ! انظر جيداً . ان فيك من البارونية مقدار ما في بابوجي منها ! لقد كانوا كلهم لصوصاً أولئك الذين عملوا تحت إمرة روبسبيير ! وكانوا كلهم قطاع طرق اولئك الذين عملوا تحت امرة بو — وو — نا — برته ! كلهم خونة خذلوا ، خذلوا ، خذلوا ملكهم الشرعي ! كلهم جبناء فرّوا من وجه البروسيين والانكليز في واترلو ! هذا هو الذي أعرفه ، فاذا كان ابوك واحداً منهم فلستُ أعرفه . أنا آسف لذلك ، يا سيدي . » .

وأمسى ماريوس ، بدَوْره ، الفحمَ ، وأمسى مسيو جيلنورمان أنفاس الكير . وسرت الرعدة في اوصال ماريوس كلها . انه لم يدرِ ما يجب ان يفعل ؛ لقد اشتعل رأسه . كان الكاهنَ الذي يرى الى قرابينه

---

* يقصد انهم ثوريون ، لان القلانس الحمراء كان يتميز بها اشد انصار الثورة الفرنسية حماسة .

يُقذف بها كلها في مهب الريح ، و « الفقير » الذي يرى عابرَ سبيل يبصق على صنمه . انه ما كان يستطيع ان يسمح بالتلفظ امامه بمثل هــذه الاشياء من غير أن يردّ عليها . ولكن ايّ شيء كان يستطيع ان يعمله ؟ لقد ديس أبوه وُرفس على مسمع منه ، ولكن من الذي داسه ورفسه ؟ جده . فكيف يثأر لأحدهما من غير أن يهين الآخر ؟ كان متعذراً عليه ان يحقّر جده ، وكان متعذراً عليه أن لا يثأر لأبيه ، على حدّ سواء . كان امامه ، من ناحية ، جدث مقدس ، وكان امامه ، من ناحية اخرى شعر أشيب . وأخذه الدوار ، وترنح من أثر تلك الزوبعة التي عصفت في رأسه . ثم رفع عينيه وحدق الى جده ، وصاح في صوت راعد :

— « فليسقط آل بوربون ، وذلك الخنزير الكبير لويس الثامن عشر ! »

كان لويس الثامن عشر قد توفي منذ اربع سنوات ، ولكن ذلك ما كان ليقدّم عنده أو يؤخر .

وفجأة غــدا لون الشيخ ، برغم قرمزيته الشديدة ، اشدّ بياضاً من شعره . لقد استدار نحو تمثال نصفيّ لدوق دو برّي قائمٍ على الموقد . وانحنى له في احــترام شديد ، وبضرب من العظمة الفريدة . ثم مشى مرتين ، في تؤدة وفي صمت ، من الموقد الى النافذة ، ومن النافذة الى الموقد مجتازاً طوال الغرفة بكامله ، جاعلًا ارض الغرفة تقضقض وكأن صورة من حجر تخطر فوقها . وفي المرة الثانية انحنى نحو ابنته ، التي كانت تتحمل الصدمة في انشداه خروفٍ طاعن في السن ، وقال لها في ابتسامة كادت تكون هادئة :

— « إن باروناً مثل حضرة السيد وبورجوازياً مثلي لا يستطيعـان ان يظلا تحت سقف واحد . »

وتصدّر فجأة ، شديد الشحوب ، مرتعداً ، فظيعاً ، وقـد تعاظم جبينه بأشعاع الغضب المروّع ، وبسط ذراعه نحو ماريوس وصاح به :

— « اغرب من هنا ! » .

وغادر ماريوس البيت .

وفي اليوم التالي قال مسيو جيلنورمان لابنته :

— « سوف ترسلين ستين « بيستولا » * كل ستة اشهر الى شارب الدماء هذا ، ولن تحدثيني عنه بعد اليوم على الاطلاق . »

واذ كان لديه رصيد ضخم من الغيظ ينبغي ان ينفقه ، واذ لم يكن يعرف ما الذي يصنعه به ، فقد تحدث مع ابنته في برود طوال ثلاثة اشهر ونيف .

وانصرف ماريوس ، من ناحيته ، ساخطاً . ويحسن بنا أن ننص هنا على حادثة أذكت غيظه اكثر فاكثر . فثمة دائماً مثل هذه المقادير * الصغيرة التي تعقّد المآسي العائلية . إن المظالم لتتعاظم برغم ان الأخطاء لم تزد ، في الاساس ، اتساعاً . ذلك ان نيقوليت حين سارعت الى نقل « أشياء » ماريوس الى غرفته — تنفيذاً لأمر العجوز — كانت قد اسقطت من غير ان تشعر ، وربما على سلم العلية التي كانت مظلمة ، الحلية الجلدية السوداء المنطوية على الورقة المكتوبة بخط الكولونيل . ولم يُعثر لتلك الورقة او لتلك الحليـــة على أثر . وكان ماريوس مقتنعاً بأن « مسيو جيلنورمان » — فهو لم يسمّه منذ ذلك الحين بغير هذا الاسم — قـــد قذف بـ « وصية أبيه » الى النار . كان يحفظ عن ظهر قلب تلك الاسطر القليلة التي خطها الكولونيل ، ومن هنا لم يضع شيء البتة . ولكن الورقة ، الخط ، ذلك الاثر المقدس ، كل ذلك كان قلبَه نفسه . اي شيء قد صُنع بها ؟

وغادر ماريوس المنزل من غير ان يقول الى اين كان ذاهباً ، ومن غير ان يعرف الى اين كان ذاهباً ، وليس معه غير ثلاثين فرنكاً وساعته وبعض الملابس في قطعة من بساط . واستأجر عربة من عربات الاجرة ، ووثب اليها ، وانطلق كيفما اتفق نحو الحي اللاتيني .

أي شيء سيحلّ بماريوس ؟

---

* عملة فرنسية ذهبية قديمة . (pistole)

* المقادير ، هنا ، جمع مقدور ، وهو الأمر المحتوم .

الكتاب الرابع

أصدقاء الألِفْباء

١

جماعة كادت تصبح تاريخية

في تلك الحقبة ، اللامبالية في الظاهر ، كانت فرنسة تحسّ بقشعريرة ثورية غامضة . كانت بعض الهمسات المنبثقة من اعماق عامي ٨٩ ، و٩٢ حديثَ القوم . وكانت باريس الفتيّة ، وليُغفَر لنا هذا التعبير ، على وشك ان تبدّل جلدها . لقد تحوّل الناس من غير ان يعوا ذلك تقريباً ، بحكم حركة العصر نفسها . إن العقرب الذي يمشي فوق ميناء الساعة يمشي في النفوس ايضاً . لقد خطا كل امرىء تلك الخطوة التي كان يتعين عليه ان يخطوها الى أمام . وهكذا اصبح الملكيون متحررين، واصبح المتحررون

ديموقراطيين .

كان ذلك اشبه بمدّ صاعد يعقّدهُ ألف جزر . ان من خصائص الجزر أن يُحدث مزيجات ؛ ومن هنا تلك المتحَدات الفكرية البالغة الغرابة . فقد قدّس الناس نابوليون وقدّسوا الحرية في آن واحد . اننا نكتب هنا التاريخ . لقد كان ذلك هو سرابَ تلك الفترة . ان الاواء تجتاز اطواراً متباينة . فالملكية الفولتيرية ، وهي ضرب من المذاهب غريب ، كان لها نِدّ لا يقل عنها غرابة ، هو التحررية البونابرتية .

كانت بعض الجماعات العقلية الاخرى اكثر جدّية . لقد سبرت غور المبدأ ؛ لقد كلِفتْ بالحقّ . لقد تاقت الى المطلق ، ولمحت وميضاً من الثمرات اللانهائية . إن المطلق ، بصرامتهِ نفسها ، ليدفع بالعقول نحو الافق البعيد ، ويجعلها تطفو في اللامحدود . فليس شيء كالحُلم خالقاً للمستقبل . اليومَ مدينة فاضلة ، وغداً لحمٌ ودم .

وكان للآراء التقدمية اساس مزدوج . فقد هدّد بروز السرّ الخفيّ « نظامَ الاشياء الموطّد » ، الذي كان مُريباً مرائياً — وهي أمارة ثورية الى أبعد الحدود . إن موأربة السلطان لتلتقي بمواربة الشعب في الخنادق . وحضانة العصيان تقدّم الجواب على تبييت الانقلابات .

وفي ذلك الحين لم تكن قد نشأت بعـــدُ في فرنسة ايٌّ من تلك المنظمات السرية الـــتي تشبه منظمة « توجيندبوند » الالمانية ومنظمـــة الـ « كاربوناري » الايطالية . ولكن بعض « الحفريات » الغامضة كانت قد بدأت تتشعب . كانت جماعة الـ « كوغورد » تتكوّن في إيكس ، وكانت في باريس — الى جانب جماعات اخرى من هذا الضرب — جمعية اصدقاء الالفباء .

من كان اصدقاء الالفباء هؤلاء ؟ كانوا جماعةً هدفها في الظاهر تعليم الاطفال ، وهدفها في الواقع تقويم الرجال .

لقـــد أعلنوا انفسهم اصدقاء الالفباء A. B. C. وكان الـ « *abaissé* »

(المخفوضون) هم أفراد الشعب . * كانوا يريدون ان يرتفعوا بهم . وهو تلاعب لفظيّ ينبغي أن لا نسخر منه . فالتلاعب اللفظي كثيراً ما يكون ذا خطر في عالم السياسة . إعتبِرْ ال *Castratus ad Castra* التي جعلت نارسيس ** قائدَ جيش . واعتبر : *Barbari et Barberini* واعتبر *Fueros y Fuegos* واعتبر *Tu es Petrus et super hanc petram* الخ . الخ . ***

ولم تكن جماعة اصدقاء الالفباء كثيرة الاعضاء . كانت جمعية سرية في المرحلة الجنينيّة . بل لقد كدنا ان نقول « عصبة متآمرين » لو أن عصابات المتآمرين تخلق ابطالاً . وكان افرادها يجتمعون بباريس ، في مكانين ، قرب الـ « هالّ » ، في خمارة تدعى « كورنث » سوف يشار اليها فيما بعد ، وقرب الـ « بانتيون » ، في مقهى صغير في ساحة « سان ميشيل » يدعى مقهى الموزين ، ولم يعد اليوم قائماً . كان اول موطن من موطنَيْ اللقاء هذين قريباً من العمال ، وكان ثانيهما قريباً من الطلاب .

وكانت اجتماعات « اصدقاء الالفباء » العادية تُعقد في غرفة خلفية من مقهى الموزين .

هذه الغرفة ، النائية بعض الشيء عن المقهى والمتصلة به بمجاز طويل جداً ، كان لها نافذتان ومنفذ بواسطة سلم خفيّة الى شارع دو غري الصغير . كانوا يدخنون هناك ، ويحتسون الخمر ، ويقامرون ، ويضحكون . كانوا يتحدثون عن كل شيء تقريباً في صوت مرتفع جداً ، وفي همس عن شيء آخر . وكانت قد عُلّقت على الجدار خريطة قديمة لفرنسة في عهد الجمهورية ، وهي أمارة كافية لان تثير ظنون رجل من رجال الشرطة .

---

* والمجاورة اللفظية واضحة بين *A. B. C.* (الالفباء) والـ *abaissé* (المظلومون أو المخفوضون) .

** احد قواد الامبراطور يوستنيانوس ، واكسرخوس ايطالية (٤٩٢ – ٥٦٨)

*** وكلها من باب الجناس كما هو واضح .

ومعظم « اصدقاء الالفباء » كانوا طلاباً على تحالف وديّ مع بعض العمال . ودونك اسماء المقدّمين فيهم ، وهي ملْكُ التاريخ الى حدّ ما : آنجولراس ؛ كومبوفير ؛ جان بروفير ؛ فويي ؛ كورفيراك ؛ باهوريل ؛ ليسغل او ليغل ؛ جولي ؛ غرانتير .

وكان هؤلاء الشبان يؤلفون في ما بينهم ، بقوة الصداقة ، شبه أسرة . وكانوا كلهم ، ما عدا ليغل ، من أبناء الجنوب .

كانت جماعةً رائعةً . لقد تلاشت في الاعماق غير المنظورة التي وراءنا . وعند هذه النقطة التي بلغناها الآن من المأساة لن يكون من غير المفيد ان نلقي شعاعاً من النور على هذه الرؤوس الشابة قبل ان يراها القارىء غارقة في ظلام مغامرة فاجعة .

فأما آنجولراس الذي قدّمنا اسمه على غيره — وسنرى في ما بعـــد لماذا — فكان وحيد أبويه ، وكان موسراً .

كان آنجولراس شاباً فاتناً ، قادراً على ان يصبح فظيعاً . كان وسيماً على نحو ملائكي . كان اشبه بآنتينوس * شرس . وإن من يرى انعكاس نظرتهِ المتفكرة خليق بان يقول إنه قد اجتاز ، في وجودٍ سابقٍ ما ، بالرؤيا الثورية . كان عالمـاً بحديثها مثل شاهد عيان . وكان يعرف جميـع تفاصيـل الحدث العظيم . طبيعة حبرية ومقاتلة ، مستغربة في مراهق . كان احتفالياً ومناضلاً ، كان من وجهة النظر المباشرة جندياً من جنود الديموقراطية ؛ وكان ، فوق الحركة المعاصرة ، كاهناً من كهان المثل الاعلى . كان ذا حدقة ثاقبة ، وجفن احمر بعض الشيء ، وشفة سفلى غليظة سريعة الى الازدراء ، وجبين عالٍ . ان الجبين المنبسط كثيراً في وجهٍ ، كالسماء المنبسطة كثيراً في أفق . ومثلَ بعض شبان الصدر الاول من هذا القرن ونهاية القرن الماضي ، اولئك الذين تمّت لهم الشهرة في سنّ مبكرة ، كان ذا طلعة بالغة الفتاء ، ناضرة مثل وجوه الكواعب ، برغم أنه كانت له

* Antinoüs فتى من فتيان آسية الوسطى ، وكان عبداً رقيقاً ذا جمال بالغ .

ساعات من الاصفرار والشحوب . كان قد بلغ الان مبلغ الرجـــال ، ولكنه ظهر وكأنه ما يزال طفلاً . لقد بدت أعوامه الاثنان والعشرون سبـع عشرة سنة ليس غير . كان الجدّ أغلب عليه ، ولم يبدُ انه يعرف ان على ظهر الأرض كائناً يدعى المرأة . لم يكن له غير هوى واحد ، هو الحقّ ؛ ولم يكن له غير فكرة واحدة هي ان يذلل العقبات جميعاً. ولو ُقدّر له ان يكون في جبل آفنتين اذن لـكان غراكـّوس * . ولو قدّر له ان يكون في « المؤتمر الوطني » اذن لـكان سان جوست . كان لا يرى الرّياحين إلا في النادر النادر ، وكان ينكر الربيـع ، ولم يكن يسمع الطيور وهي تغرّد . ولقد كان نحر ُ« إيفادنيه » العاري خليقاً بأن لا يحركه اكثر مما يحركه آريستوجيتون ** . ولم يكن للزهور أيما فائدة عنده شأنه في ذلك كشأن هارموديوس *** غير اخفاء السيف . كان زاهداً في الملذات ؛ وكان يغضّ طرفه في عفة أمام كل شيء إلا الجمهورية . كان العاشق الرخاميّ للحرية . وكان حديثه ملهَماً في خشونة ، وكانت فيـــه ارتعاشة ترتيلةٍ من التراتيل . كان يدهشك بتحليقه . والويل للغرام الذي يغامر فيقترب منه ! ولو انّ عاملة مغناجة من عاملات ساحة كامبري او شارع سان جان دو بوفيه رأت هذا الوجه الآبق من الـكلية ، وهذه المشية الشبيهة بمشية غلام نبيل من مرافقي الامراء ، وهـــذه الاهداب الطويلة الشقراء ، وهـــاتين العينين الزرقاوين ، وذلك الشعر الذي شعّثته الريح ، وهاتين الوجنتين الورديتين ، وهاتين الشفتين الطاهرتين ، وهـــذه الاسنان الرائعة — نقول لو ان عاملة مغناجة من اولئك العاملات رأت ذلك ،

---

* Gracchus خطيب روماني شهير دافع عن حقوق الشعب ، وحاول بالقوانين التي اقترحها ان يحد من جشع الارستوقراطية الرومانية . اما جبل آفنتين فاحدى تلال رومة السبع ، وقد سبق التعريف به .

** Aristogiton أثيني تآمر مع صديقه هارموديوس ضد ولدي بيزيسترات ، هيبارك وهيبياس (٥١٤ ق.م.) وقد وفقا الى قتل هيبارك .

*** Harmodius راجع الهامش السابق .

وتشهت هذا الفجر كله ، فحاولت ان تسدد سهام جمالها الى آنجولراس اذن لحدجها هو بنظرة مذهلة رهيبة تريها فجأة ايّ وادٍ سحيق يفصل ما بينه وبينها ، وتعلّمها ان لا تخلط ما بين ملاك بومارشيه الغزِل ، وملاك حزقيال المخيف .

الى جانب آنجولراس الذي مثّل منطق الثورة كان كومبوفير الذي مثّل فلسفتها . وبين منطق الثورة وفلسفتها يقوم هذا الفارق – أنّ منطقها قد يؤدي الى حرب ، على حين ان فلسفتها لا تستطيع ان تنتهي إلا الى السلم . لقد أتمّ « كومبوفير » « آنجولراس » وصحّحه . كان دونه ارتفاعاً ، واكثر منه اتساعاً . وكان يرغب في ان يفرغ في جميع الحقول المباديء العريضة للفكرات العـــامة . كان يقول : « الثورة ، ولكن الحضارة . » وحول الجبل الشديد الانحدار كان ينشر الافقَ الازرق المترامي الاطراف. ومن هنا كان في نظرات كومبوفير كلها شيء قريب التناول ، ميسور الأجزاء . كان هواء الثورة مع كومبوفير صالحاً للتنفس اكثر من هواء الثورة مع آنجولراس . لقد عبّر آنجولراس عن حقها الالـهي ، وعبر كومبوفير عن حقها الطبيعيّ . لقد ذهب الاول بعيداً حتى روبسبيير ، ووقف الآخر عند كوندورسيه . وعاش كومبوفير حياة الناس العـامة اكثر من آنجولراس . ولو ُقدّر لهذين الشابين أن يبلغا التـاريخ اذن لكان أحدهما الرجلَ المستقيم ، وثانيهما الرجل الحكيم . كان آنجولراس اكثر رجولة ، وكان كومبوفير أعظم إنسانية . إن لفظتي *Homo* * و *Vir* ** تفصحان عن الفرق الدقيق بينهما حقاً . كان كومبوفير سهل الخليقة ، كما كان آنجولراس شرساً ، قاسياً ، بالنقاء الطبيعي . وكان يحب كلمـــة « مواطن » ، ولكنه آثر عليها كلمة « انسان » . ولقد كان خليقاً به أن

* في اللاتينية : رجل ، إنسان .

** في اللاتينية : ذكر ، فحل .

يقول مبتهجاً * Hombre مثل الاسبان . كان قد قرأ كل شيء ، وقصد الى المسارح، وشهد المحاكمات العامة ، وتعلم استقطاب الضوء من آراغو** ، وأغرم بمحاضرة كان جيوفروا سان هيلير قد شرح فيها المهمة المزدوجة للشريان الوداجيّ الخارجي والشريان الوداجي الداخلي ، إذ يمدّ احدهما الوجه بالدم ، ويُمدّ الآخرُ الدماغ به . كان على اطلاع بمجريات العصر ، فهو يتتبع العلم خطوةً خطوةً ، ويعارض نظريات سان سيمون بنظريات فورييه ، ويفكّ رموز الاحرف الهيروغليفية ، ويكسر الحصى التي يعثر عليها ويتحدث عن علم طبقات الارض ، ويرسم فراشة القزّ من الذاكرة ، ويشير الى الاخطاء اللغوية التي وقعت في « معجم الاكاديمية » ، ويدرس بُويسيغور *** وديلوز ، ولا يُثبت شيئاً حتى المعجزات ، ولا ينكر شيئاً حتى الاشباح ، ويقلب مجموعة أعداد الـ « مونيتور » ، ويفكر . كان يعلن ان المستقبل في ايدي المدرسين ، فهو شديد الانهماك في مسائل التربية . لقد دعا الى أن يعمل المجتمع من غير انقطاع على رفع المستوى الفكري والاخلاقي ؛ على سكّ العلم ؛ على وضع الفكرات موضع التداول ؛ على إنماء العقل في الشباب ؛ وكان يخشى أن يؤدي فقر الطرائق الشائعة آنذاك وحقارة العالم الادبي المطوّق بقرنين او ثلاثة قرون تدعى كلاسيكية ، واعتقادية المتعالمين الرسميين الاستبدادية ، والافكار السبْقية الكلامية ، والروتين أو النمطية – كان يخشى ان يؤدي هذا كله الى جعل معاهدنا الثانوية وكلياتنا مواطن اصطناعية لتربية المحار أو البطلينوس . كان حسن الثقافة ، مفرطاً في الحرص على صحة اللغة ، دقيقاً ، متعدّد جوانب المعرفة ،

---

* كلمة اسبانية معناها « رجل » او « انسان » .

** Arago احد كبار العلماء في القرن التاسع عشر (١٧٨٦ – ١٨٥٣) وله اكتشافات كثيرة في الفيزياء وعلم الفلك .

*** Puységur مارشال فرنسة (١٦٥٦ – ١٧٤٣) وقد وضع رسالة شهيرة في فن الحرب .

منكباً على الدرس ، مستغرقاً في التأمل ، « حتى التعلق بالأوهام » كما كان اصدقاؤه يقولون . لقد آمن بهذه الاحلام جميعاً : خطوط السكة الحديدية ؛ والقضاء على الألم في العمليات الجراحية ؛ وتركيز الصورة في الخزانة المظلمة ؛ والتلغراف الكهربائي ؛ وقيادة المناطيد . واذ كان الى ذلك قليل الذعر من المعاقل التي بنتها ، في كل مكان ، لمحاربة الجنس البشري ، ضروبُ الخرافات ، والاستبدادات ، والافكار السبقية ، فقد كان واحداً من اولئك الذين اعتقدوا بأن العلم سوف يوفّق آخر الأمر الى ان يقلب الاوضاع . كان آنجولراس زعيماً ؛ امـــا كومبوفير فكان هادياً . وإنه لخليق بالمرء ان يقاتل مع الاول ، وان يمشي مع الثاني . وليس معنى ذلك أن كومبوفير لم يكن قادراً على القتال ، فهو ما كان ليرفض مقارعة العقبات ، ومهاجمتها قسراً وبانفجار ؛ ولكن معناه ان إقامة التناغم التدريجي بين الجنس البشري ومصائره ، بتعليم الحقائق البدهية وإعلان القوانين الوضعية ، كانت أدعى الى سروره . ولو كان له ان يختار واحداً من نورَين ، اذن لآثر ميلَهُ الاضاءة على الالهاب . إن الحريق قادر على ان يحدث فجراً من غير ريب ، ولكن لمَ لا ننتظر ارتفاع الضحى ؟ ان البركان ينير ، ولكن الصباح ينير على نحو افضل . ولعل كومبوفير كان يؤثر وضاءة الجميل ، على سطوع الجليل . كان الضوء الذي يكدّره الدخان ، والتقدّم المشترى بالعنف لا يرضيان هذا العقل الرؤوف والجديّ غير نصف إرضاء . كان القاء شعب ما ، القاءً عمودياً ، في لجة الحقّ ، وكان شيء من مثل عام ٩٣ ، يقذفان الرعب في فؤاده ! ومع ذلك فقد كان الركود أبغض الى نفسه ؛ كان يحسّ فيه تعفناً وموتاً . وعلى الجملة ، فقد أحبّ الرغوة اكثر مما أحبّ الأبخرة الفاسدة ، وآثر السيل على المستنقع ، وشلالات نياغارا على بحيرة مونفوكون . وفي اختصار ، فهو ما كان يحب لا الوقوف ولا العجلة . وبينا كان اصدقاؤه الصاخبون ، الكلِفُون بالمطلق كلفاً فروسياً شهماً ، يهيمون بالمغامرات الثورية الباهرة ويلتمسونها ، كان

كومبوفير ينزع الى ان يدع التقدم يعمل عمله ، التقـدّم الصالح ، الذي قد يكون فاتراً ولكنه محضٌ ، وقد يكون منهجياً ولكنه خلوٌ من كل عيب ، وقد يكون خاملاً ولكنه ثابت الجنان . ولقـد كان خليقـــاً بكومبوفير ان يركع ويشبك يديه متمنياً ان يفِدَ المستقبل بكامل صفائه المشرق ، وان لا يعكر شيء تطور الشعب تطوراً فاضلاً لا يعرف الحدود. كان يكرر في غير انقطاع : **الخير ينبغي ان يكون بريئاً**. وفي الحق ، اذا كانت عظمة الثورة في أنها تحدق تحديقاً موصولاً الى المثل الاعلى الذي يحسر العيون ، وان تطير اليه عبر الصواعق ، والدم والنار في برائنهـــا ، فأن جمال التقدم في انه نقيّ طاهر الذيل . وهناك بين واشنطون الذي يمثل احدهما ، ودانتون الذي يتجسد فيه الآخر ، ذلك الفـــارق الذي يفصل ما بين الملاك ذي الجناحين الشبيهين بجناحي التمّ ، والمـــلاك ذي الجناحين الشبيهين بجناحي النسر .

وكان جان بروفير درجةً اخرى من درجات المعنى نفسه اكثر رقة وألين جانباً . كان يدعو نفسه جيهان * ، بدافع من ذلك الهـــوى المؤقت الذي امتزج بالحركة القوية العميقة التي انبثقت منها دراسةُ القرون الوسطى ، الضرورية جداً . كان جان بروفير عاشقـــاً ، وكان يُعنى بأصيص رياحين ، ويعزف على الفلوت ، وينظم الشعر ، ويحب الشعب ، ويرثي للمرأة ، ويبكي على الطفولة ، ويخلط في الثقة نفسها ما بين المستقبل والله ، ويلوم الثورة لانها احتزّت رأساً ملكياً واحداً هو رأس اندريه شينييه ** . كان صوته رقيقاً ، عادةً ، ولكنه ما يلبث ان تغلب عليه

* Jeban de Paris رواية وضعها في القرن الخامس عشر مؤلف مجهول ، يسخر فيها امير فرنسي شاب من منافسه ملك انكلترة العجوز ، واذ ينثر الذهب في طريقه يستميل اليه قلب بنت من بنات ملك الاسبان .

** André Chénier شاعر فرنسي (١٧٦٢ - ١٧٩٤) شارك بادىء الأمر في الحركة الثورية ، ثم احتج على العنف المفرط الذي لجأ اليه الثوريون في عهد الارهاب فمات على المقصلة .

المحولة ، فجأة . وكان حسن الثقافة حتى الموسوعية ، ومستشرقاً أو يكاد . وكان فوق ذلك كله خيّراً . وفي دنيا الشعر كان يُؤثر الباذخ الجليل ، وهو شيء طبيعي جداً عند من يعرف مقدار التجاور ما بين الطيّبة والعظمة . كان يعرف الايطالية ، واللاتينية ، واليونانية ، والعبرية ، وهذا ما ساعده على ان لا يقرأ غير اربعة شعراء : دانتي ، وجوفينال ، وأشيلوس ، وأشعيا . وفي الفرنسية ، كان يفضّل كورنيّ على راسين ، وآغريبا دوبينييه * على كورنيّ . كان مولعاً بأن يهيم على وجهه في حقول الشوفان البري والـتُرنجان ، وكان يُعنى بمتابعة السحب بقدر ما يُعنى بمتابعة الاحداث تقريباً . وكان لعقله وضعان ، احدهما في جوار الانسان ، والآخر في جوار الله . كان إما دارساً ، وإما متفكراً . وطوالَ النهار كان يتعمّق المسائلَ الاجتماعية : الأجور ، ورأس المال ، والبيع على الحساب ، والزواج ، والدين ، وحرية التفكير ، وحرية الحب ، والتربية ، والعقاب ، والبؤس ،والشركة ، والملكية ، والانتاج ، والتوزيع ، والاحجية الدنيا التي تُلقي ظلّاً على قرية النمل الانسانية . وفي الليل ، كان يحدّق الى النجوم ، تلك الكائنات الهائلة . ومثل آنجولراس ، كان موسراً ، وكان وحيد أبويه . كان يتكلم في رقة ، مطأطئاً رأسه ، غاضّاً من طرفه ، مبتسماً في ارتباك ، وكان سيء الهندام ، أخرق السيماء ، شديد الحياء ، يشيع الدم في وجهه للاشيء . وفي ما عدا ذلك ، كان باسلاً جريئاً .

وكان فويي عامل مراوح ، يتيم الأب والأم ، يكسب بشق النفس ثلاثة فرنكات في اليوم ، وليس في رأسه غير فكرة واحدة ، أن يخلّص العالم . وكانت له رغبة اخرى : أن يثقف نفسه ، وهو ما كان يدعوه تخليص النفس ايضاً . كان قد علمّ نفسه القراءة والكتابة ؛

* Agrippa d'Aubigné شاعر فرنسي(١٥٥٢ — ١٦٣٠) كان هيجّاه بروتستانتياً حارب الى جانب الملك هنري الرابع ، ويمتاز شعره بعنفه وكثرة استعاراته .

وكلُّ ما عرفه إنما تعلمه بنفسه . وكان فوبي قلباً كريماً . كان يعانق الكون . ذلك ان هذا اليتيم تبنّى الشعوبَ جميعاً . لقد أعوزته الأم فأنشأ يفكّر في الوطن . إنه ما كان راغباً في ان يكون ثمة على ظهر الارض إنسانٌ لا وطن له . لقد حضنَ في ذات نفسه ، بالعرافة العميقة التي لرَجُل الشعب ، ما ندعوه اليوم **فكرة القوميات** . كان قد درس التاريخ خصيصاً لكي يقيم سخطه على اساسٍ من معرفته السبب في ذلك السخط . وفي تلك الندوة الحديثة التي ضمّت اولئك المثاليين الواقفين تفكيرَهم على فرنسة ، كان يمثّل الأمم الاجنبية . وكان اختصاصه يدور على محور اليونان ، وبولونيا ، وهنغارية ، ومقاطعات الدانوب ، وايطالية . كان يتلفظ بهذه الاسماء على نحو موصول ، لمناسبة ولغير مناسبة ، في إصرار الحق وعناده . وكان اعتداء تركية على كريت وتسالية ، واعتداء الروسيا على فرصوفيا ، واعتداء النمسا على البندقية - كانت هذه الاعتداءات كلها تثير غيظه . وكانت وسيلةُ العنف العظمى التي اصطُنعت عام ١٧٧٢ * توغر صدره بخاصة . وليس ثمة فصاحة اعظم سلطاناً من فصاحة الحق المفرغة في قالب من السخط . وكان هو مسلحاً بسلاح هذا الضرب من الفصاحة . فهو لا يملّ الحديث عن ذلك التاريخ الشائن ، ١٧٧٢ ، وتلك الامة النبيلة الباسلة التي محتّها الخيانة ، وتلك الجريمة الثلاثية ، وذلك الكمين الماثل ، الذي فُصّلت على مثاله مختلفُ الاعتداءات الفظيعة التي تعرضت لها الدول فأبادت عدداً من الشعوب النبيلة ، ومحت اذا جاز التعبير سجلّ ولادتها . والواقع ان جميع الهجمات التي شُنت على المجتمع ترقى الى ذلك التاريخ الذي قُسّمت فيه بولونيا . إن تقسيم بولونيا مبدأ مقرر ليست الجرائم السياسية الحاضرة كلها غير نتائج له . فطوال قرن بكامله لم يُطلع التاريخ طاغية ولا خائناً إلا

---

* يشير المؤلف الى تقسيم بولونيا الاول ، بين الروسيا وبروسية والنمسا ، الذي تمّ في ذلك العام .

ووَسمَ ، وأيَّدَ ، وأمضى ، ووقَّع بالأحرف الأولى ، تقسيم بولونيا لا نستثني من ذلك احداً من الطغاة أو من الخونة . وحين نبحث في ملّف الخيانات المعاصرة يبدو ذلك التقسيم في الطليعة . وقد استشار مؤتمر فيينا تلك الجريمة قبل ان يُنجز جريمته . لقد نفخ عام ١٧٧٢ في الصُّور محمّساً كلاب القنص ، فكان عام ١٨١٥ هو حصّة الكلاب من الصيد . ذلك كان النصّ الذي لا يملّ فوبي من إعادته كل يوم . لقد جعل ذلك العاملُ الفقير نفسَهُ معلّماً للعدالة ، ولقد كافأته العدالة بأن جعلته عظيماً . ذلك بأن للحق أبديته . ففرصوفيا لا تستطيع ان تصبح تتارية اكثر مما تستطيع البندقية ان تصبح تيوتونية . والملوك يضيعون جهدهم في ذلك ، ويضيعون شرفهم ايضاً . فعاجلاً او آجلاً يطفو البلد المُغرَق على سطح الماء ويعاود الظهور . وهكذا تصبح بلادُ اليونان بلادَ اليونان من جديد ، وتصبح ايطاليةُ ايطاليةَ من جديد . إن احتجاج الحقّ على الواقع يستمر الى الابد . والجريمة المتمثلة في نهب شعب من الشعوب لا تسقط بمرور الزمان . إن هذه الاختلاسات العليا ليس لها مستقبلٌ البتة . فليس في ميسورك ان تمحو رسم امـــة من الامم كما تمحو رسم منديل من المناديل .

وكان لكورفيراك أبٌ يدعى مسيو دو كورفيراك . والواقع ان من أخطاء العهد البوربوني الجديد ، في موضوع الارستوقراطية والنبالة ، إيمانه باداة الاضافة . وأداة الاضافة كما نعلم ليس لها معنىً البتـــة . ولكن بورجوازية عصر الـ « مينيرفا » رفعت هذه الـ « دو » *de* المسكينة مقاماً عليّاً الى حدّ جعل الناس يعتقدون انهم مضطرون الى التخـــلي عنها . وهكذا دعا مسيو دو شوفلين نفسَهُ مسيو شوفلين ؛ ودعا مسيو دو كومارتين نفسَه مسيو كومارتين ؛ ودعا مسيو دو كونستان دو روبيك نفسه بنجامان كونستان ، ودعا مسيو دو لافاييت نفســه مسيو لافاييت . ولم يُرِدْ كورفيراك ان يتخلّف عن الركب فسمّى نفسه ، في اختصار ،

كورفيراك .

ويكاد يكون في استطاعتنا ، ان نقف هنا ونجتزيء بالقول ، في ما يتصل بسائر نواحي شخصية هذا الرجل : كورفيراك : انظر تولوميس .

وكان كورفيراك يتمتع ، في الواقع ، بتوقد الخيال الفتيّ الذي نستطيع ان ندعوه جمال العقل الشيطاني . وهـــذا التوقد يخبو في مراحل العمر القادمة ، كما تخبو ظرافة الهرّة ، وتنتهي كل تلك الملاحة القائمة على قدمين اثنتين ، عند البورجوازي ، وعلى براثن اربعة ، عند الهرّ .

وهذا الطراز من العقل ينتقل من جيل من اجيال التلاميذ الى جيل، ويمرّ من يدٍ الى يدٍ بنموّ الشباب المتعاقب ، من غير ان يطرأ عليـه تغيّر يستحق الذكر ، بحيث أن من قد قدّر له ان يسمع كورفيراك يتحدث كما اسلفنا ، عام ١٨٢٨ ، كان خليقاً بأن يحسب أنه يسمع تولوميس عام ١٨١٧ . كل ما في الأمر أن كورفيراك كان فتى شجاعاً . فوراء المشابـــه الظاهرية في العقل الخارجي كان ثمة فرق كبير بينـــه وبين تولوميس . إن الرجل الكامن في كل منهما غيره في الآخر تماماً . كان في تولوميس محامٍ ، وكان في كورفيراك فارس مغامر .

كان آنجولراس هو الزعيم ، وكان كومبوفير هو الهادي ، وكان كورفيراك هو المركز . كان رفيقاه يرسلان نوراً اقوى من نوره ، على حين كان يرسل هو حرارة اقوى من حرارتهما . والحق انه كان يجمع صفتي المركز كلتيهما : الاستدارة والاشعاع .

وكان باهوريل قـــد شارك في شغَب حزيران ١٨٢٢ الدامي بمناسبة دفن « لالمان » الفتى .

وكان باهوريل مخلوقاً دمث الاخلاق ، رديء العشرة ، شجاعاً ، مبذراً، متلافاً حتى الجود ، ثرثاراً حتى الفصاحة ، جسوراً حتى القحة . كان خير عجينةٍ يمكن أن يكوّن منها شيطان ؛ وكان ذا صدرات مجازفة ، وآراء

قرمزية ؛ وكان صخاباً من النوع الرفيع ، يعني انه لا يحب شيئاً حبه الشجار اذا لم يكن ذلك الشجار شغباً ، ولا يحب شيئاً حبه للشغب اذا لم يكن ذلك الشغب ثورة . كان مستعداً دائماً لان يكسر احدى بلاطات الشارع ، ولأن يجرد الشارع بعد ذلك من بلاطه كله ، ولأن يقوّض الحكومة بعد هذا وذاك ، لكي يرى اثر صنيعه . تلميذ في السنة الحادية عشرة . لقد اتخذ هذا الشعار : **لن اكون عامياً ابداً** . واصطنع هذا الرمز : طاولة للوازم النوم كان المرء يلمح فوقها قلنسوة مربعة . وكان كلما مرّ بمدرسة الحقوق ، وهو امر نادر ، يزرّر سترته الطويلة – فلم يكن المعطف قد اختُرع بعد – ويتخذ احتياطات صحية . وكان يقول عن باب المدرسة الرئيسي : يا له من عجوز جميل ! وعن عميد المدرسة ، مسيو ديلفينكور : يا له من أثر نفيس ! كان يرى في دروسه موضوعات للاغاني ، وفي اساتذته مناسبات لرسم الصور الكاريكاتورية . وكان يستهلك في القيام بلا شيء جعالةً سنوية تبلغ نحواً من ثلاثة آلاف فرنك . وكان أبواه ريفيين وفّق الى ان يوقع في نفسيهما احتراماً لابنهما .

كان يقول عنهما : « انهما فلاحان ، لا بورجوازيان ، وهو ما يفسر ذكاءهما . »

وكان باهوريل - وهو رجل غريب الاطوار - موزعاً في قهوات عدة . كانت لسائر رفاقه عادات ، اما هو فلم يكن له شيء من ذلك . كان يتسكع . ان الهيام على الوجه إنساني . أما التسكع فباريسيّ . وكان في اعماقه عقلاً نافذاً ، وكان مفكراً اكثر مما يبدو لعين الناظر .

كان أشبه بهمزة وصل بين « اصدقاء الالفباء » وجماعات اخرى لمّا يكتمل تشكلها بعد ولكنها كانت في سبيلها الى ذلك .

وفي هذا المجمع من الرؤوس الفضة كان رأسٌ أصلع .

روى المركيز دافاري الذي خلع عليه لويس الثامن عشر لقب دوق لأنه ساعده على ركوب احدى عربات الاجرة يوم هاجر من البلاد ، ان رجلا قدّم عريضة الى الملك ، عام ١٨١٤ ، فيما كان يطأ ارض كاليه

عائداً الى الوطن .

وقال الملك :

– « ماذا تريد ؟ »

– « ادارة بريد ، يا مولاي . »

– « ما اسمك ؟ »

– « ليغل » L'Aigle (النسر) .

وزوى الملك ما بين حاجبيه * ، ونظر الى التوقيع الذي مهرت به العريضة ، فرأى الاسم مرسوماً هكذا : ليسغل Lesgle فسرّ الملك لهذا الرسم غير البونابرتي ، وشرع يبتسم .

واستأنف صاحب العريضة كلامه :

– « مولاي ، لقد كان جدي مدرّب كلاب يُلقب بـ « ليغول » Lesgueules (الاشداق) . ولقد أمسى هذا اللقب اسماً لي . فأنا ادعى ليغول ، أو ليسغل ** *Lesgle* عند الأدغـــام ، وليغل *L'Aigle* عند التحريف . »

وهنا أنهى الملك ابتسامته . وفي ما بعد ، عيّن الرجلَ مديراً للبريد في « مو » ، إما سهواً أو قصداً .

وكان عضو الندوة الأقرع ابن ليسغل هذا ، أو ليغل ؛ وكان يوقع اسمه ليغل (دو مو) . وكان رفاقه يدعونه ، رغبةً في الايجاز ، بوسويه .

كان بوسويه فتىً مرحاً قليل الحظ . وكان اختصاصه هو عـــدم النجاح في أيّ شيء . ومن ناحية ثانية ، كان يسخر من كل شيء . وفي الخامسة والعشرين أمسى أصلع . وكان ابوه قد توفي ، مخلّفاً بيتاً وحقلاً . ولكنه ، هو الابن ، لم يجد ما هو أكثر إلحاحاً من إضاعـة

* لان « النسر » شعار نابوليون بونابرت ورمزه .

** السين هنا تُرسم ولا تلفظ .

هذا الحقل وذلك البيت في مضاربة طائشة . ولم يبقَ لديه شيء . وكان على مقدار صالح من المعرفة والذكاء ، ولكنه كان يخيب دائماً . كان كل شيء يُعوزه ، وكان كل شيء يخدعه . فما إن يقيم بناء حتى ينهار على على رأسه . فاذا ما شقّ قطعة من خشب ، قطع إصبعه . واذا ما كانت له خليلة ، اكتشف وشيكاً ان له صديقاً أيضاً . وكلّ لحظة كان يُلمّ به بلاء ؛ ومن هنا مرحه . وكان يقول : « **أنا أحيا تحت سطح القرميد المتساقط** . » وإذ كان يتوقع دائماً وقوعَ حادث ما ، فلم يكن ليدهش إلا نادراً . وكان يتقبّل الحظ السيء في طمأنينة ، ويبتسم لمناكدات القدر مثل رجل يسمع الدعابات والاضاحيك . كان فقيراً ، ولكن جعبته من البشاشة ودماثة الاخلاق لم تكن تنضب . كان ينتهي سريعاً الى فلسه الأخير ، ولكنه ما كان ينتهي ابداً الى ضحكته الاخيرة . وكان اذا ما وفدتِ المصيبة عليه سلّم في وُدّ على ذلك الصديق القديم . كان يربّت على ظهر الكوارث ، فقد كان يألف القدرَ الى حدٍ جعله يناديه بلقبه ، فهو يقول : « صباح الخير ، ايها العبقري العجوز ! »

وكانت اضطهادات الحظّ هذه قد جعلته ذا موهبة اختراعية . كان كثير الموارد . لم يكن يملك شيئاً من المال ، ولكنه كان يجد الوسيلة ، حين يبدو ذلك صالحاً في نظره ، الى أن يغالي في « الأنفاق الجموح » . وذات ليلة ، ذهب الى حد انفاق مئة فرنك على عشاء مع فتاة بلهاء ثرثارة ، وهو ما أوحى اليه ، في غمرة من الافراط في الأكل والسُّكر ، بهذه الكلمة المأثورة : « يا ابنة الليرات الذهبية الخمس ، إخلعي حذائي من قدميّ ! »

واتخذ بوسوويه سبيله ، في تؤدة ، نحو مهنة المحاماة ؛ فقد كان يدرس القانون على طريقة باهوريل . ولم يكن لبوسوويه بيت ، تقريباً . ولم يكن له في بعض الاحيان بيت البتةَ . كان يُقيم احياناً عند هذا ،

ويقيم احياناً عند ذاك ، وغالباً ما كان يقيم عند جولي . وكان جولي هذا يدرس الطب ، وكان يَصغُر بوسويه بسنتين .

وكان جولي « مريض وهمٍ » * شاباً . لقد أفاد من الطب ما جعله مريضاً اكثر منه طبيباً . وفي الثالثة والعشرين ، حسبَ نفسَهُ مراضاً ، وأنفق أيامه في النظر الى لسانه في المرآة . كان يعلن ان الانسان ممغنط مثل ابرة البوصلة ، وهكذا كان يجعل رأس سريره ، في حجرة نومه ، الى الجنوب وقَدَمَه الى الشمال لكي لا يعترض تيار الكرة الارضية المغناطيسي حركةَ الدم ، عنده ، في اثناء الليل . وفي ايام الجوّ العاصف ، كان يجسّ نبضه . ومع ذلك فقد كان أشدّهم مرحاً . وانما اجتمعت هذه المتنافرات كلها – شاب ؛ أهوَس ؛ معتلّ الصحة ، مراح – وتناغمت ، لتولّد كائناً غريب الأطوار قريباً الى النفس . كان رفاقه المسرفون في اصطناع الحروف الساكنة المجنّحة يدعونه جوللِّي . وكان جان بروفير يقول : « في استطاعتك ان تطير على أربع لامات » ** .

وكان من عادة جولي ان يحك أنفه بطرف عصاه ، وهي أمارة على العقل الحصيف .

وكان لهؤلاء الشبان كلهم الشديدي التباين ، والذين يتعيّن علينا ان لا نتكلم عنهم ، في الجملة ، إلا حديثاً جدياً – نقول كان لهؤلاء الشبان كلهم دين واحد ، هو التقدم

كانوا كلهم أبناء مباشرين للثورة الفرنسية . وكان اكثرهم طيشاً يغلب عليهم الخشوع حين يُلفظ هذا التاريخ : ٨٩ . صحيحٌ أن آباءَهم ، باللحم والدم ، كانوا أو سبق أن كانوا من الدستوريين المعتدلين ، أو

---

* *Malade Imaginaire* ، وهي آخر مسرحيات موليير .

** *Quatre L* . واذا عرفت أن كلمة *aile* الفرنسية التي تلفظ كما يلفظ حرف *L* تماماً معناها « الجناح » ادركتَ التورية في كلام بروفير ذاك .

المكيين ، أو المتحررين المعتدلين ، ولكن ذلك ما كان ليقـدّم او ليؤخر كثيراً . إن هذه الفوضى السابقة لأيامهم لم يكن لها اية صلة بهم ، فقد كانوا شباباً . كان دم المبادىء الصّرف يجري في عروقهم . لقد تعلّقوا ، من غير ما فارق دقيق متوسط ، بالحق الذي لا يبلى ، وبالواجب المطلق .

وإذ انضووا تحت لواء واحد وتثقفوا بثقافة جميتهم الواحدة فقد رسموا مثلهم الأعلى ، مراً ، رسماً خفيفاً .

وبين هذه القلوب السريعة الانفعال كلها ، وهذه العقول المؤمنة كلها ، كان ثمة متشكك واحد . كيف اتفق أن ُوجد هناك ؟ بحكم التجاور . وكان اسم ذلك المتشكك غرانتير ، وكان يوقّع عادةً بهذا الرسم الرمزي R *. وكان غرانتير رجلاً ُيعنى عنايةً شديدة بأن لا يؤمن بأي شيء . والى هذا ، فقد كان من الطلاب الذين أفادتهم فترة الدراسة في باريس علماً غزيراً : لقد تعلّم أن القهوة الفضلى كانت تقدّم في مقهى لامبلين ؛ وأن طاولة البليارد الفضلى كانت في مقهى فولتير ، وانه كان في ميسورك ان تجد الكعك الجيد والفتيات الحسان في « الحلوة » في « جادة مين » ، والدجاج المشويّ في مطعم الأم ساغيه ، والسمك المطبوخ بالسمن وشيء من العجين والخمر في باب لاكونيت ، وضرباً من الصهباء الخفيفة في باب كومبا . كان يعرف المواطن الممتازة ، التي ُيلتمس فيها كل شيء . والى هذا ، فقد كان يعرف الملاكمة ، والتنس ، وبعض الرقصات ، وكان الى هذا يجيد اللعب بالنبوت ، سكيراً ، ضخماً . كان قبيحاً الى حدّ مروّع . والواقع ان ايرما بواسي ، اجمل مضرّبة للاحذية العالية في ذلك العهد ، كانت قد نطقت بهذه الجملة ، وقد ثارت على قبحه : « إن غرانتير شخص ميؤوس منه » ، ولكن

---

* ذلك ان هذا الحرف ، مرسوماً بشكله الكبير ، ُيلفظ بالفرنسية هكذا : *Grand R.* ومن هنا نفهم لماذا كان غرانتير يوقع اسمه بهذا الحرف R ليس غير .

اختيال غرانتير لم يعرف الحيرة والارتباك . كان ينظر ، في حنان وفي تركيز ، الى كل امرأة ، وقد بدا كأنه يقول فيهنّ جميعاً : **لو كنتُ أرضى فقط!** وكأنه يحاول ان يوقع في روع رفاقه انه مهوى أفئدة النساء جميعاً .

هذه الكلمات كلها : حقّ الشعب ، حقوق الانسان ، العقد الاجتماعي ، الثورة الفرنسية ، الجمهورية ، الديموقراطية ، الانسانية ، الحضارة ، الدين ، التقدّم ، كانت عند غرانتير اقرب شيء الى الكلام الفارغ الذي لا يعني شيئاً البتة . كان يسخر منها . ذلك أن التشكك – هذا التسوّس الذي يصيب الفكر – لم يُبْقِ في عقله فكرةً كاملةً واحدة . كان يحيا في سخر . وكانت هذه هي الحقيقة البدهية عنده : ليس هناك غير شيء يقينيّ واحد هو كأسي المترعة . كان يهزأ بالتفاني مهما تكن ظروفه وسواء أكان الباذلُ نفسَه أخاً أم أباً ، روبسبيير الفتى ، أم لوازيرول . كان يصيح : « لقد تعجّلوا موتهم كثيراً . » وكان يقول عن الصليب : « تلك مشنقةٌ اقترنت بنجاح عظيم . » وكان يثير استياء هؤلاء المفكرين الشباب – وهو الفاسق ، المقامر ، الخالع العذار ، الثمِل في معظم الاحيان – بأنشاده على نحو موصول : « **أحب الفتيات ، وأحب الخمر المعتقة .** » على نغم : « فليحيَ هنري الرابع » .

ومع ذلك ، فقد كان لهذا المتشكك عصبية . ولم تكن هذه العصبية لا فكرةً ولا عقيدةً جوهرية ، ولا علماً من العلوم . كانت رجلاً ، هو آنجولراس . لقد اعجب غرانتير بآنجولراس ، وأحبّه ، وكلف به . الى من شد هذا المتشكك الفوضويّ نفسه في هذه الكتيبة من العقول الجازمة ؟ الى اكثرها جزماً . وبأي وسيلة أخضعه آنجولراس ؟ بالافكار ؟ لا . بالشخصية . ظاهرة كثيراً ما تُلاحظ . متشكك يشايع مؤمناً ، ذلك شيء سهل مثل قانون الألوان المتمّمة . إن ما يعوزنا يجذبنا . وليس ثمة من يحبّ النور بقدر ما يحبه الاعمى . والقزم يعبد رئيس الطبالين . إن

ضفدع الجبل يتطلع ابداً الى السماء . لماذا ؟ لـكي يرى العصفور طائراً .
لقد كان غرانتير ، الذي دبّ الشك في ذات نفسه ، يحب ان يرى الايمان يحلق في ذات نفس آنجولراس . ان تلك الطبيعة العفيفة ، السليمة ، الثابتة ، المستقيمة ، القاسية ، الساذجة قد فتنته ، من غير ان يفهم ذلك في وضوح ومن غير أن يحاول شرحها لنفسه . لقد أعجب ، بحكم الغريزة بنقيضه . لقد تعلقت افـكاره الرخوة ، المتذبذبة ، المتفككة ، المريضة ، المشوهة ، بآنجولراس وكأنها تتعلق بعمود فقري . ان سلسلة ظهره الاخلاقية قد اتـكأت على تلك الصلابة الراسخة . وفي جوار آنجولراس ،أمسى غرانتير شخصاً ما ، من جديد . وكان هو نفسه ، الى ذلك ، مؤلفاً من عنصرين متنافرين ظاهرياً . كان ساخراً وودوداً . وكانت لامبالاته مُحبة . لقـــد استغنى عقله عن الايمان ، ولكن قلبه لم يستغنِ عن الصداقة . تنـاقض عميق ، ذلك بأن المحبة يقين . كانت طبيعته هكذا . إن ثمة رجالاً يبدون وكأنهم ولدوا لـكي يكونوا الوجه المقابل ، الظهر ، القفا . انهم بولوكس* وباتروكلوس ** ونيـوس *** وأوداميداس ، وإيفيستيون ، وبيشميجا . إنهم لا يحيون إلا اذا استندوا الى شخص آخر . وهم يُدعون تمات ، ولا يذكر اسم كل منهم إلا مسبوقاً بواو العطف . ان وجودهم ليس ملكاً لهم . انه الجانب الآخر من مصير ليس مصيرهم . لقد كان غرانتير واحداً من هؤلاء الرجال . كان وجه آنجولراس الآخر .

---

* Pollux و Castor بطلان ميثولوجيان ، كانا ولدين توأمين لجوبيتير و « ليـــدا » ويُجمع ما بين هذين الاسمين عادة كرمز للمحبة .

** Patroclua بطل اغريقي ، كان صديقاً لاخيل ، وقد لحق به عند حصار طروادة وحين رفض اخيل القتال ، لاستيائه من اغاممنون حل باتروكليس محله وقاتل الطرواديين حتى قتل ، وعندئذ عاد أخيل فانضم الى صفوف الاغريق لكي يثأر له .

*** Nisus طروادي شاب تبع « اينيه » إلى ايطالية ، وقد خلّد محبته لـ « أوريال » الشاعرُ فيرجيل في الكتاب التاسع من الانيادة . وقد اصبح اسما نيسوس واوريال مثلا في الصداقة المخلصة حتى الموت .

ويكاد يكون في استطاعتنا ان نقول ان القرابات تبـــدأ باحرف الالفباء . ففي تسلسل هذه الاحرف لا تنفصل الـ O عن الـ P البتة . وفي ميـــورك، اذا احببت ، ان تلفـــظ O و P ، أو « أوريست » و « بيلاديس » *.

وعاش غرانتير ، وكان قمراً دائراً في فلك آنجولراس حقاً ، في هذه الحلقة من الفتيان . لقد سكن هناك ، ولم يكن ليجد المتعة إلا هناك . كان يتبع هؤلاء الفتيان حيثما ذهبوا ، وكان قوام بهجته ان يرى هذه الاشكال المظللة تروح وتجيء من خـــلال أثر الخمر في رأسه . وكانوا يحتملونه لبشاشته ودماثة خلقه

واذ كان آنجولراس مؤمناً ، فقد ازدرى هذا المتشكك ، واذ كان زاهداً في الشراب ، فقد احتقر هذا السكير . لقد جاد عليه بشفقة يسيرة متشامخة . كان غرانتير شبه بيلاديس غيرِ مقبول البتة . كان يلقى من آنجولراس معاملة قاسية دائماً ، وكان يُصد في خشونة ، وكان يُبعد ثم لا يلبث ان يعود ، وكان برغم ذلك يقول عن آنجولراس : « يا له من تمثال رائع ! » .

---

* Oreste ابن اغاممنون وكليتمنيستر ، ولا تزال صداقته مع بيلاديس Pylades البطل الفوسيدي (نسبة الى فوسيديا وهي مقاطعة في بلاد اليونان القديمة) مضرب الامثال .

٢

بوسوويه يوّبن بلوندو

وذات أصيل كان له ، كما سنرى ، بعض الموافقة الزمنية للاحداث التي رويناها آنفاً ، أسند ليغل دو مو ، ظهره في تكاسل الى مدخل مقهى الموزين . كانت تبدو عليه سيما « كارياتيد » * في إجازة . إنه ما كان يُقِلّ شيئاً غير هواجسه وأحلامه . كان ينظر الى ساحة سان ميشيل . والواقع أن إسناد الظهر الى باب او جدار ضربٌ من الاضطجاع الواقف لا يكرهه الحالمون البتة . وإنما كان ليغل دو مو يفكر ، في غير كآبة ، بمصيبة صغيرة ألمّت به أمس الأول في مدرسة الحقوق ، وعدّلت خطط مستقبله الشخصية ، وهي خطط كانت ، في الأصل ، غير محدّدة ولا واضحة .

والاستغراق في التفكير لا يمنع عُجَيْلة من المرور ، ولا يحول بين الحالم وبين رؤية العجيلة . وهكذا لاحظ ليغل دو مو التائه العينين في ضربٍ من التسكع المُسْهَب — لاحظ من خلال تلك النَّبْدلة ** — عُجَيْلة ذات دولابين تنعطف نحو الساحة ، وتمضي في مثل سرعة الخطو وكأنها مترددة متحيرة . ما الذي كانت تريده تلك العجيلة ؟ لمَ كانت تمشي في مثل سرعة الخطو ؟ ونظر ليغل اليها . كان في داخلها ، الى جانب السائق ، شابٌ ، وكان أمام الشاب كيس أمتعة ضخم . وكان ذلك الكيس يُبدي لأعين عابري السبيل هذا الاسم : **ماريوس بونغيرمي** مكتوباً بأحرف سوداء على بطاقة مخيطة فوق القماش .

---

* الكارياتيد cariatides تماثيل على هيئة امرأة او رجل كان الاغريق يتخذون منها دعائم للافاريز في مبانيهم وهياكلهم .

** النبدلة : المشي اثناء النوم ، وهو ما يعرف في اللغات الاجنبية بـ Somnambulisme

وغيّر هذا الامر وضعَ ليغل . لقد تصدّر وألقى بهـذا السؤال المفاجيء في وجه الشابّ الذي في العجيلة :

– « مسيو ماريوس بونميرسي ؟ »

ووقفت العجيلة التي وُجّه اليها السؤال .

ورفع الشاب ، الذي بدا مستغرقاً في التفكير أيضاً ، عينيه وقال :

– « نعم ؟ »

– « ألستَ مسيو ماريوس بونميرسي ؟ »

– « من غير شك . »

وأضاف ليغل دو مو :

– « كنتُ ابحث عنك . »

– « كيف هذا ؟ » كذلك تساءل ماريوس ، إذ كان هـو في الواقع قد فارق منزل جده ، وكان أمامه وجه رآه للمـرة الاولى .

« انا لا أعرفك . »

فاجابه ليغل :

– « وانا ايضاً لست أعرفك . »

وحسب ماريوس انه قد التقى بماجن مزّاح ، وان تلك بداءة مخاتلةٍ ساخرة على قارعة الطريق . ولم يكن على مزاجٍ رائق في تلك اللحظة عينها . فزوى ما بين حاجبيه .

وتابع ليغل دو مو رابطَ الجأش :

– « أنت لم تكن في المدرسة امس الأول ؟ »

– « ذلك جائز . »

– « هذا مؤكد . »

فسأله ماريوس :

– « هل أنت تلميذ ؟ »

– « نعم ، ياسيدي . مثلك . امسِ الأول ، اتفق ان ذهبتُ

الى المدرسة . تدري ، إن مثل هـذه الافكار تراود المرء في بعض الاحيان . وكان الاستاذ على وشك ان يدعو كل طالب باسمه . وانت لا تجهل انهم يكونون مضحكين جداً في تلك اللحظة . فاذا لم تلبّ النداء في المرة الثالثة حذفوا اسمك . ستون فرنكاً تذهب مع الريح .»

وبدأ ماريوس يصغي . وتابع ليغل كلامه :

– « كان بلوندو يتلو الاسماء . انت تعرف بلوندو . إن له أنفاً محدّداً جداً ، خبيثاً جداً ؛ وإنه ليبتهج حين يشمّ رائحة الغـائبين من الطلاب . لقد بدأ ، في مداراة ، بالحرف p . ولم أكن أصغي ، لانني مـا كنت لأعنَى بذلك الحرف . وسارت عملية المنـاداة سيراً حسناً . ولم يُمْحَ أيما اسم . كان الكون كله حاضراً ، وكان بلوندو محزوناً ، وقلت في ذات نفسي : بلوندو ، يا حبيبي ، إنك لن توفّق إلى اصدار أصغر حكم من أحكام الاعدام اليوم . وفجأةً ، نادى بلوندو : ماريوس بونغيرسي ؟ ولم يُجب أحد . وغمر الأمل قلب بلوندو فكرر في صوت أقوى : ماريوس بونغيرسي . وأمسك بريشته . سيدي ، إن فؤادي عامر بالحب . وسرعان ما قلت في نفسي : هو ذا فتىً شجاع سوف يُمحى اسمه . إنتبه . انه شاب مرحٌ حقـاً لا يعرف الدقة في المواعيد . إنه ليس غلاماً صالحاً . إنه ليس سوسة كتب ؛ تلميذاً يدرس ؛ مدعياً غرّاً من مدّعي العلم الاغرار ؛ قوياً في العلوم ، والآداب ، واللاهوت ، والحكمة ؛ واحداً من تلك الجماجم البلهاء الشديدة التأنق حتى لكأنها مشدودة بأربعة دبابيس ؛ لكل مقدرة دبوس . كان كسولاً شريفاً يتسكع ؛ يحبّ ان يصطاف ؛ يواظب على معاشرة العاملات ذوات الغنج والدلال ؛ يتزلف إلى الحسان ؛ ولعله ان يكون في هـذه اللحظة ذاتهـا عند خليلتي . فلننقذه . الموت لبلوندو ! وفي تلك اللحظـة غمس بلوندو ريشتـه ، السوداء من أثر المحو ، في الحبر ، وأجال حدقتَهُ الصّهباء في القـاعة ، وكرّر للمرة الثالثة : ماريوس بونغيرسي ! واجبت : حاضر ! وهكذا لم يُمْحَ اسمك . »

فقال ماريوس :

- « سيدي ! ... »

واضاف ليغل دو مو :

- « وُمحِيَ اسمي أنا . »

فقال ماريوس :

- « أنا لا أفهمك . »

واستأنف ليغل كلامه :

- « ليس ما هو اسهل من ذلك . لقد كنتُ قريباً من الكرسي ، لكي أجيب ، وقريباً من الباب لكي أفرّ . كان الاستاذ ينظر الي في شيء من التركيز . وفجأة وثب بلوندو - الذي ينبغي ان يكونَ الأنفَ الماكر الذي تحدث عنه بوالو - الى الحرف L . والحرف L هو حرفي . أنا من « مو » واسمي هو ليغل . »

فقاطعه ماريوس :

- « ليغل ! يا له من اسم جميل ! »

- « سيدي ، لقد وصل بلوندو الى هذا الاسم الجميل وصاح : « ليغل ! » فأجبت : حاضر ! وعندئذ نظر بلوندو اليّ في رقة النمر ، وابتسم ، وقال : « اذا كنتَ بوغيرمي ، فلستَ ليغل . » وهي عبارة قد لا تسرّك ، ولكنها لم تكن مأتمية إلا بالنسبة اليّ . فما إن قال ذلك حتى محا اسمي . »

فهتف ماريوس :

- « سيدي ، لقد أحزنتَني ... »

فقاطعه ليغل :

- « قبل كل شيء ، ألتمس أن احنّط بلوندو ببضع كلمات من الرثاء الصادق القويّ . أنا أحسبه ميتاً . ولن يكون ثمة كثيرٌ مما ينبغي أن يُغيّر في نحوله ، وشحوبه ، وبرودته ، وتوتره ، ورائحته . وأنا

أقول *Erudimini qui judicatis terram* هنا يرقد بلوندو ، بلوندو الأنف ، بلوندو نازيكا * ، ثور النظام ، *bos disciplinae* ، كلب الاوامر الحارس ، ملاك المناداة على اسماء الطلاب ، الذي كان مستقيماً ، مربّعاً ، دقيقاً ، قاسياً ، أميناً ، سمجاً . لقد محاه الله كما محاني . »

وأردف ماريوس :

– « أنا آسف جداً ... »

فقال ليغل دو مو :

– « أيها الفتى ، ليكن ذلك درساً لك . في المستقبل ، كن دقيقاً في مواعيدك . »

– « الحقّ ان عليّ ان أقدّم اليك ألف عذر . »

– « حذار ان تعرّض نفسك لأن تكون سبباً في محو اسم جارك ، مرةً اخرى . »

– « أنا آسف جداً . »

وانفجر ليغل ضاحكاً .

– « وأنا في طربٍ بالغ . لقد كانت قدمي على وشك أن تزلّ في منحدر المحاماة . فجاء هذا الشطب فأنقذني . إني اتخلى عن انتصارات المحاماة . أنا لن ادافع عن الارملة ، ولن اهاجم اليتيم . لا « روب » بعد اليوم ، ولا فترة تدرُّج . ها قد تمّ شطب اسمي . وإني لمدينٌ لك بذلك ، يا مسيو بونمرسي . أنا اعتزم أن ازورك ، في كثير من الوقار ، وارفع اليك آيات شكري . اين تسكن ؟ »

فقال ماريوس :

– « في هذه العُجيلة . »

فأجاب ليغل في هدوء :

– « ذلك دليل سعة وثروة . اهنئك . إن عندك هناك بيتاً تبلغ

---

* من كلمة nasus اللاتينية ، وتعني الأنف .

أجرته تسعة آلاف فرنك سنوياً . »

وفي تلك اللحظة خرج كورفيراك من المقهى .

وابتسم ماريوس في كآبة .

— « كنت في ذلك البيت منذ ساعتين ، وإني لأتمنى ان أغادره . ولكنها القصة المعتادة ، أنا لا أدري الى أين أذهب . »

فقال كورفيراك :

— « ايها السيد ، تعال الى منزلي . »

فلاحظ ليغل :

— « كان ينبغي ان يكون لي حق الاولوية ، ولكني لا منزل لي . »

فأجاب كورفيراك :

— « اسكت ، يا بوسوويه ! »

فقال ماريوس :

— « بوسوويه ، ولكني ظننتُ انك تدعو نفسك ليغل . »

فأجاب ليغل :

« ليغل دو مو . وفي المجاز ، بوسوويه . »

ودخل كوفيراك العجيلة .

وقال :

— « الى اوتيل دو لا بورت سان جاك ، ايها السائق . »

وفي ذلك المساء نزل ماريوس في غرفة من غرف اوتيل دو لا بورت سان جاك ، جنباً الى جنب مع كورفيراك .

٣
دهش ماريوس

ولم تنقضِ بضعة ايام حتى أمسى ماريوس صديقَ كورفيراك .

فالشباب هو موسم الامزجة * اللاحمة ، والالتئامات السريعة . وتنفس ماريوس ، وهو في جوار كورفيراك ، في حرية – وهو شيء جديد بالنسبة اليه . ولم يوجّه كورفيراك اليه أيما سؤال . بل إنه لم يفكر في ذلك البتة . ففي تلك المرحلة من العمر يُفصح المحيّا عن كل شيء في الحال . إن الكلام لا غَناء فيه . وهناك بعض الشباب الذين نستطيع ان نقول ان وجوههم ثرثارة . ينظر احدهم الى الآخر ، فيعرف احدهم الآخر .

ومع ذلك فقد وجّه اليه كورفيراك هذا السؤال ، ذاتَ صباح ، على نحو مفاجيء :

– « بالمناسبة ، هل لك رأي سياسي ؟ »

فقال ماريوس وقد غاظه السؤال أو كاد :

– « ماذا تعني ؟ »

– « ما أنت ؟ »

– « ديموقراطي بونابرتي . »

فقال كورفيراك :

– « ظلٌّ أشهب للون فأرة مطمئنة . »

وفي اليوم التالي قدّم كورفيراك ماريوس الى مقهى الموزين . ثم همس في أذنه مبتسماً : « يجب ان افتح لك باب الثورة . » وقاده الى حجرة « أصدقاء الالفباء » ، حيث قدّمه الى سائر الاعضاء قائلاً في صوت كالهمس هذه الكلمة البسيطة التي لم يفهمها ماريوس : « تلميذ . »

كان ماريوس قد وقع في وكرِ عقليّ . ومع انه كان صموتاً آخذاً بأسباب الجدّ ، فأنه لم يكن اوهنهم جناحاً ولا أقلّهم سلاحاً .

وإذ كان ماريوس ، حتى ذلك الحين ، متوحّداً نزوعاً الى مناجاة النفس

* الامزجة ، هنا ، جمع مزاج ، وهو ما يُمزّج به .

وتوجيه الخطاب الى الذات بسائق العادة والذوق ، فقد اخذه شيء من الذهول لدنْ رؤيته هذه الجماعة من الشبان حوله . لقد هاجته هـــذه المبادَرات المختلفة ، في آن معاً ، وأربكته . إن الحركة الدائمة الصاخبة التي تكشّفت عنها هذه العقول المتحررة العاملة قد أثارت افكاره وعصفت بها . وفي غمرة من الاختلاط ، بعضَ الاحيان ، كانت تلك الأفكار تنأى عنه الى حد يجعل من العسير عليه ان يعثر عليها كرةً اخرى . كان يسمع أحـــاديث في الفلسفة ، والادب ، والفن ، والتاريخ ، والدين ، في اسلوبٍ غير منتظر . اقد لمح مظاهر غريبة ؛ وإذ لم يكن يتوقعها فما كان واثقاً من ان ما يراه ليس مجرّد تشوُّش . لقد ظن ، حين تخلى عن معتقـدات جـده ليعتنق معتقـدات أبيه أنـه قـد نعم بالاستقرار . ولكنه حسِبَ الآن ، في قلق ، ومن غير ان يعترف بهذا أمام نفسه ، أنه لم يكن كذلك . كانت الزوايا ، التي يرى جميع الاشياء منها ، قد شرعت تتغيّر كرة ثانية . لقد أثارت ذبذبةٌ ما آفاق دماغه كلها . بلبلةٌ باطنية غريبة . وآذاه ذلك أو كاد .

لقد بدا وكأن هؤلاء الفتيان لم يكن لديهم « أشياء مقدسة . » ففي كل موضوع من الموضوعات ، سمع ماريوس لغةً فريدة مزعجة لعقله الذي ما يزال هيّاباً .

وبرز امامهم إعلان من اعلانات المسرح مزدان بعنوان تراجيديا من القائمة القديمة المسماة كلاسيكية . فصاح باهوريل : « فلتسقط التراجيديا العزيزة على قلب البورجوازي ! » وسمع ماريوس كومبوفير يجيب :

ـ « انت مخطىء ، يا باهوريل . ان البورجوازية تحب التراجيديا ، وفي هذه النقطة يجب ان ندع البورجوازية وشأنها . إن للتراجيديا ذات اللمة المستعارة مبرر وجودهـا ، وأنا لست واحـداً من اولئك الذين يُنكرون عليها ، باسم أشيلوس ، الحقّ في الحياة . إن في الطبيعة رسوماً أولية . وإن في البرايا تحريفات جاهزة . منقار ليس من المناقير

في شيء ، اجنحة ليست من الاجنحة في شيء ، زعانف ليست من الزعانف في شيء ، مخالب ليست من المخالب في شيء ، وصيحة فاجعة تغرينا بالضحك - تلك هي البطة . والآن ، ما دام الطائر الداجن يحيا جنباً الى جنب مع العصفور ، فلست ارى لماذا لا ينبغي للتراجيديا الكلاسيكية ان توجد في وجه التراجيديا العتيقة . »

وفي مرة اخرى اتفق ان كان ماريوس يجتاز شارع جان جاك روسو بين آنجولراس وكورفيراك .

وامسك كورفيراك بذراعه :

- « انتبه . هذا شارع بلاتريير ، المسمى اليوم شارع جان جاك روسو بسبب من أسرة غريبة عاشت فيه لستين عاماً خلت . كانت مؤلفة من جان جاك وتيريز . وبين الفينة والفينة كانت كائنات صغيرة تولد هناك . كانت تيريز تجيء بهم ، وكان جان جاك يُبعدهم . »

فأجابه آنجولراس في قسوة :

- « إلزم الصمت أمام جان جاك ! أنا عظيم الاعجاب بذلك الرجل . لقد أنكر أولاده ؛ حسنٌ جداً ، ولكنه تبنّى الشعب . »

ولم ينطق ايّ من اولئك الفتيان بهذه اللفظة : الامبراطور . كان جان بروفير وحده يقول في بعض الاحيان : نابوليون . أما سائر الجماعة فكانوا يقولون : بونابرت . وكان آنجولراس يلفظها هكذا : بُوُونابرت .

ودهش ماريوس والتبس عليه الامر . *Initium Sapientiae* *

* في اللاتينية ، ومعناها : اول الحكمة ؛ او رأس الحكمة .

٤

الحجرة الخلفية في مقهى الموزين

ومن بين الاحاديث التي دارت بين هؤلاء الفتيان ، على مسمعٍ من ماريوس ، والتي شارك هو فيها بعض الاحيان ، حديثٌ أصابه بهزة عنيفة .

دار ذلك الحديث في الحجرة الخلفية من مقهى الموزين . وكان « اصدقاء الالفباء » كلهم مجتمعين ذلك المساء . وأضيء المصباح الكبير في احتفال . وتحدّثوا في موضوعات مختلفات ، من غير ما انفعال ، وفي ضجة . وباستثناء آنجولراس وماريوس ، اللذين لزما الصمت ، ألقى كل منهم ، كيفما اتفق ، خطاباً صغيراً . ان محاورات الرفاق تُنتج في بعض الاحيان هذا الصخب الدمث . كان لعباً وفوضى بقدر ما كان حديثاً . وكان الواحد منهم يقذف بكلماتٍ ما يلبث الآخر ان يتلقّفها . لقد تحدثوا في كلّ من الزوايا الاربع .

ولم يكن يجاز لأيّ من النساء ان تدخل الى هذه الحجرة الخلفية ، ما خلا لويزون غاسلة الاطباق في المقهى ، التي كانت تجتازها بين الفينة والفينة لكي تمضي من المغسَل الى « المختبر » .

وكان غرانتير ، وقد تعتعه السُّكر ، يُصمّ الزاوية التي بسط سلطانه عليها . كان يتحدث بأعلى صوته حديثاً بعضه معقول وبعضه هراء . لقد صاح :

– « انا ظمىء . ايها الفانون ، لقد حلمتُ حلماً : أن دنّ هايدلبرغ قد أصيب بالسكتة ، واني دزينة العلقات التي اصطُنعت في علاجه . أنا ابتغي الشراب ، انا اريد ان انسى الحياة . ان الحياة اختراع بشع لست ادري

صاحبه . إنها لا تدوم ، وهي لا تساوي شيئاً . وكل منا يدق عنقه لكي يعيش . الحياة مشهد تمثيلي ليس فيه غير قليل من محتمل الوقوع . والسعادة إطار عتيق دُهن من جانب واحد . يقول « سفر الجامعة » : كل شيء باطل . انا اتفق مع هذا الرجل الصالح الجائز ان لا يكون قد وُجد قطّ . إن الصفر ، وقد رغب عن العري الكامل ، قد ألبس نفسه رداء الباطل . اوه ، ايها الباطل ! ترقيع كل شيء بالكلمات الضخمة ! المطبخ مختبر ، والراقص استاذ ، والمشعوذ محترف رياضة بدنية ، والملاكم ملاكم ، والصيدلي كيميائي ، والحلاق فنان ، والمتوحّل معمار ، وفارس السباق رياضي ، وقمّل الخشب ُظفر غصنيّ . والباطل له قفا وله وجه ، فالوجه أحمق ، إنه الزنجي بخرَزه . والقفا أبله ! إنه الفيلسوف بأسماله البالية . انا أرثي لأحدهما . وأضحك من الآخر . وما يدعونه المراتب والمناصب ، وحتى العزّة والعظمة هي عادةً ذهب زائف . إن الملوك يتخذون من الكبرياء الانسانية لعبة يعبثون بها . فـ « فليقولا » * عيّن أحد الجياد قنصلاً . وشارل الثاني جعل قطعة من لحم ُصلب البقر فارساً . فسيروا في نظام عسكري بين القنصل إينسيتاتوس ، والبارونة شريحة لحم البقر . أما قيمة الناس الذاتية فلم تعد بعدُ موضع الاحترام . اسمعوا الى المدائح التي يتبادلها الجيران . إن البياض قاسٍ على البياض . ولو كان للزنبقة ان تتكلم عن الحمامة إذن لسلقتها بألسنة حداد ! إن المرأة المتطرفة في الورع ، التي تطلق القيل والقال عن امرأة تقية ، هي اشد سماً من الصّلّ والافعى الزرقاء . من المؤسف اني جاهل ، اذ كان يجدر بي ان اقدم اليكم كثيراً من الشواهد ، ولكني لا أعرف شيئاً . لقد كنت ، مثلاً ، متوقد الذكاء دائماً . فحين كنت تلميذاً عند « غرو » كان من

---

* Caligula امبراطور روماني تولى العرش ما بين عامي ٣٧ و٤١ م وقد بلغ من احتقاره للشعب ان عيّن فرسه ، اينسيتاتوس ، قنصلاً . ولقد قال ذات يوم في كلام له عن رعاياه : « فليبغضوني ، ولكن فليهابوني ! » *Oderint dum metuant*

دأبي أن أُنفق الوقت في مرقة التفاح بدلاً من انفاقه في خربشة الصُّور . ولا غرابة ، فالتلميذ في التصوير (rapin) هو مذكر الاغتصاب (rapine)* وفي هذا المقدار من الكلام عن نفسي كفاية . أما أنتم فلا تقلون عني شأناً . إني اهزأ من كمالاتكم ، وفضائلكم ، وسجاياكم . فكل سجية تنقلب الى نقيصة . المقتصد يحاذي البخيل ، والكريم يتاخم المبذّر ، والشجاع يسير جنباً الى جنب مع المتظاهر بالشجاعة ، ومن يقول : ورع جداً ، يقول : متكلف في التقوى . إن في الفضيلة من الرذائل مثل ما في رداء ديوجين من الثقوب . بمن تعجبون : بالقتيل ام بالقاتل ، بقيصر ام ببروتوس ؟ إن الناس على العموم يصفقون للقاتل . مرحى لبروتوس ! لقد قَتَل . تلك هي الفضيلة . فضيلة ؟ لا بأس ، ولكنها حماقة ايضاً . إن على هؤلاء الرجال العظام لطخاتٍ عجيبة . فان «بروتوس» الذي قتل قيصر كان مغرماً بتمثال صبي صغير . وكان ذلك التمثال من صنع النحات الاغريقي سترونجيليون ، الذي صنع ايضاً تمثال تلك الفارسة الباسلة المسمّاة ذات الساق الجميلة ، Eucnemos ، الذي كان نيرون يصطحبه في رحلاته . ولم يخلّف سترونجيليون هذا غير تمثالين أقاما التناغم ما بين بروتوس ونيرون . كان بروتوس يحب واحداً منهما ، وكان نيرون يحب الاخر . وما التاريخ كله غير تكرار طويل . إن كل قرن من الزمان ينتحل كلام قرن آخر . لقد حذت معركة مارانغو حذو معركة « بيدنا » ** . إن تولبياك *** كلوفيس وأوسترلتيز

* يقصد ان التصوير والاغتصاب من جذر لغوي واحد ، وان في الامكان ان يحلّ احدهما محل الآخر . وفي هذا الكلام تلاعب لفظي واضح .

** Pydna احدى مدن مقدونية حيث غلب بولس اميل القائدُ الروماني ، بيرسيه آخرَ ملوك مقدونية عام ١٦٨ ق . م

*** Tolpiac مدينة في غالة (فرنسة) القديمة حيث انتصر كلوفيس الاول – ملك الفرنجة – على اتحاد القبائل الجرمانية المعروف بالـ « آلامان » Alamams عام ٤٩٦ م .

نابوليون تتشابهان مثل قطرتين من دم . انا لا أقيم كبير وزن للنصر . فليس شيء اشدّ حماقة من الفتح والغلبة . المجـد الحقيقي هو الاقناع . ولكن حاولوا الان ان تقيموا الدليل على شيء ! انتم تقنعون بالنجاح ويا لها من حقارة ! وبالغلبة والنصر ، ويا له من شقـاء ! واأسفاه ، عبث وجبن في كل مكان . كل شيء يخضع للنجاح ، حـتى النحو Si volet usus * ، كذلك يقول هوراس . انا أحتقر ، اذن ، الجنس البشري . اتريدون ان نهبط من الكلّ الى الجزء ؟ اتريدون ان اشرع في الاعجاب بالشعوب ؟ ايّ شعب ، من فضلكم ؟ اليونان ؟ إن الاثينيين ، باريسيّي العصور القديمة ، قتلوا فوسيون ** ، كما لو قلنا كوليني *** مثلاً ، وتملقت الطغاة الى درجة جعلت آناسيفوراس يقول عن بيزيستراتوس **** : إن بوله يجذب النحل . وطوال خمسين عامـاً كان اقدر رجل في بلاد الاغريق هو النحوي فيلوتاس الذي كان ضئيل الجسم مهزولاً الى حد اضطره الى ان يدعّم حذاءه بالرصاص لكي لا تذروه الرياح . ولقـد كان في ساحة كورنث الكبيرة تمثال نحته سيلانيوس ، وقيده بليني ***** في جداوله . وكان هذا التمثال تمثال أبيستات . وما الذي فعله أبيستات ؟ لقد اخترع الشّغزبية ****** . هذه خلاصة لبلاد الاغريق وللمجد . ولننتقل

---

* في اللاتينية ، ومعناها : لان الاستعمال يريد .

** Phocion جنرال وخطيب اثيني (حـوالى ٤٠٠ – ٣١٧ ق م) اشتهر بنزاهته ، ولقد حكم عليه ظلماً بأن يشرب الشوكران السام ، بعـد ان اتهم بالخيانة .

*** Coligny كان احد زعماء البروتستانت اثناء الحروب الدينية ولقـد مات مسموماً بتحريض من كاترين دو مديتشي . (١٥٣١ – ١٥٦٩)

**** Pisistrate طاغية أثيني معاصر لصولون ، وقد توفي عام ٥٢٧ ق.م.

***** Pline او Pliny ، المؤلف الروماني الشهير (حوالى ٦٢ م – ١٢٠ م)

****** الشغزبية والشغربية اعتقال المصارع رجله برجل مصارعه وصرعه اياه بهذه الحيلة وهو ما يعرف في الفرنسية بـ Croc - en - jambe

الى موطن آخر . أأعجب بانكلترة ؟ أأعجب بفرنسة ؟ فرنسة ؟ لماذا ؟ من اجل باريس ؟ لقد أبديت اللحظة رأيي في اثينا . انكلترة ؟ لماذا ؟ من اجل لندن ؟ انا اكره قرطاجة . ثم ان لندن ، عاصمة الترف ، هي حاضرة البؤس . ففي ابرشية « تشيرنغ كروس » وحدها يموت مئة انسان جوعاً ، كل عام . تلك هي آلبيون * . وأضيف كتكملة ، اني رأيت في يوم من الايام فتاة انكليزية ترقص وعلى رأسها تاج من الزهور ، وعلى عينيها نظارتان زرقاوان . فلنتحب اذن على انكلترة . أنا لا أعجب بـ « جون بول » ** فهل ينبغي لي ان أعجب بالاخ جوناتان *** اذن ؟ أنا لا أستسيغ هذا الشعب ذا العبيد الارقاء إلا قليلًا . ضعوا « **الوقت من ذهب** » جانباً فماذا يبقى من انكلترة ؟ ضعوا « **القطن مَلِك** » جانباً فماذا يبقى من اميركة ؟ إن المانية هي السائل اللمفاوي . **** وإن ايطالية هي الصفراء التي تفرزها الكبد . ***** هل نسمح للوجود بأن يستبد بنا إكباراً للروسيا ؟ لقد أعجب فولتير بها . ولقد أعجب بالصين ايضاً . انا أقرّ بان للروسيا جمالاتها ، ومن بين تلك الجمالات حكم استبدادي قويّ . ولكني أرثي للمستبدين . إن لهم صحةً رقيقة جداً . لقد قُطِع رأس ألكسيوس ، وطُعن بطرس بخنجر ، وخُنق بولس ، وسُحق بولسٌ آخر بضرباتٍ

* Albion هو الاسم الذي اطلقه القدماء على انكلترة ، ولعل مرد ذلك الى بياض صخورها العالية المشرفة على شاطيء البحر (من كلمة *albus* في اللاتينية وتعني الابيض)

** John Bull (أو حنا الثور) لقب يطلق على الشعب الانكليزي إظهاراً لعدم أناقته ولعناده .

*** Jonathan لقب يطلق على شعب الولايات المتحدة . ويقال انه دعي كذلك على اسم جوناتان ترومبول Trumball حاكم كونكتيكوت ، وكان صديقاً ومستشاراً لواشنطون .

**** يقصد أنها تمثل المزاج الكسول في التفكير والعمل على اعتبار ان القدماء كانوا يرجعون ذلك الى وجود هذا السائل بكثرة في الدم .

***** يقصد انها تمثل المزاج النكد المتبرّم .

بعقب حذاء عالي الساق ، وذُبح عدد ممن حملوا اسم ايفـــان ، وسُمّم كثير ممن حملوا اسم نيقولا وباسيل ، وكل هذا يدلّ على أن قصر أباطرة الروسيا هو في حال من الوبال فظيعة . إن جميع الشعوب المتمدنـــة تقدّم إلى إعجاب المفكر هذه الواقعة : الحرب . ولكن الحرب ، الحرب المتمدنة ، تستنفد وتختصر كل شكل من اشكال اللصوصية ، ابتـــداء من قطع الطريق الذي قام به الـ « ترابوكير » في شعاب جبل جاكسا الى سلب الجنود الذي قام به الـ « كومانش » المنود في « مجاز الشك » .

آه ، سوف تقولون لي ان أوروبة هي برغم ذلك أفضل من آسية ؟ أنا اعترف بأن آسية مضحكة ؛ ولكني لا أرى جيـــداً بأي حقّ تضحكون على « اللاما الكبير » * ، انتم يا شعوب الغرب الذين ضممتم الى أزيائكم وأناقاتكم جميع اوساخ العظمة المعقدة ، من قميص الملكة ازابيلا القذر ، الى كرسيّ وليّ عهد فرنسة المثقوب ** . ايها السادة الانسانيون ، اني اقـــول لكم : خاب ظنكم ! ففي بروكسل لا في غيرها يُستهلك أعظم قـــدْر من الجعة ، وفي ستوكهولم لا في غيرها يُستهلك اعظم قدر من العرق ، وفي مدريد لا في غيرهـــا يُستهلك اعظم قدر من الشوكولا ، وفي أمستردام لا في غيرها يُستهلك اعظم قدر من شراب الـ « جنّ » ، أو رُبّ العَرْعَر ، وفي لندن لا في غيرها يُستهلك اعظم قدر من الخمر ، وفي القسطنطينية لا في غيرها يستهلك اعظم قدر من القهوة ، وفي باريس لا في غيرها يُستهلك اعظم قدر من الأفسنتين *** . تلك هي جميع المعلومات المفيدة . وباريس

---

* Grand Lama الرئيس الاعلى للديانة البوذية ، ويعتقد اتباعـــه أن بوذا متجسد فيه .

** الكرسي المثقوب ، chaise percée ، كرسي مثقوب يستخدمه المريض للبول او التغوّط .

*** abisinthe مسكر قويّ ، مرير ، اخضر اللون ينطوي على ٦٨ بالمئة من الكحول ، يصنع من الافسنتين وغيره من الاعشاب .

تنتزع قصب السَّبْق من منافساتها كلها . ففي باريس نجـــد ان ملتقطي الخِرَق انفسهم شهوانيون . ولو قد خُيِّر ديوجين اذن لآثر ان يكون ملتقط خِرَقٍ في ساحة موبير لا فيلسوفاً في بيروس . تعلّموا هـذا ايضاً : إن خمارات ملتقطي الخِرق تـدعى *bibines* ، وإن اعظمها شهرةً تدعى « القِدْر ذات المقبض » ، و « المسلخ » . وإذن ، فيا ايتهـا الخمارات ، والمطاعم ، والحانات ، والبارات ، والمسارح الوضيعة ، ومحالّ بيع الخمر بالجملة ، والمراقص ، والمواخـــير ، وخمارات ملتقطي الخِرق ، وخانات القوافل الشرقية ، أنا أُشهدكِ على اني خليـــعٌ شهوانيّ . اني اتناول الطعام عند « ربشار » بأربعين سو للشخص الواحد ، واني محتاج الى سجاد فارس لكي ادحرج كليوباترة عاريةً . أين كليـوباترة ؟ آه ! إنها انتِ ، يا لويزون . صباح الخير ! »

وهكذا أفاض غرانتير ، وكان أكثر من ثمِل ، في الحديث ، متعلقاً بغاسلة الاطباق وهي تمرّ به ، في الزاوية التي احتلها من حجرة مقهى الموزين الخلفية .

وبسط بوسرويه ذراعه نحوه محاولاً ان يفرض عليه الصمت ، فاستأنف غرانتير حديثه على نحوٍ أروع :

— « فلتسقط براثنك ، يا ايغل * دو مو ! انت لا تأثير لك فيّ بايماءتك هذه التي تشبه ايماءة أبقراط وهو يأبى عقاقيره على أرتحششتا ** . إنني أُعفيك من تهدئتي . والى هذا ، فأنا حزين . أيّ شيء تريدون ان اقول لكم ؟ الانسان شرير ؛ الانسان قبيح . لقد انتصرت الفراشة ، وكبا زَنْدُ الانسان . لقد خان الربُّ هذا الحيوانَ . والحشود لا تقدّم اليك إلاّ بشاعات مختارة . وأول شخص تقع عليه عيناك سافلٌ وغد . إن « المرأة » (*femme*) تتناغم تناغمَ القافيـة مع « الفاضح »

* واضح ان لفظ aigle وهو اسم « ليغل » مجرداً من لام التعريف يعني النسر .
** احد ملوك الفرس القدماء .

او « المرذول » (*infâme*) . أجل ، إني أعاني السأم ، مضافةً اليه الكآبة ، مع الحنين الى الموطن الأول ، الى جانب السوداء * . إني لأغتاظ ، إني لأثور ، إني لاتثاءب ، إني لأتبرّم ، وإني لمرَهقٌ ، وإني لشديد الضجر ! ليذهب الربُّ الى الشيطان ! »

— « اسكت ايها الراء الكبيرة ! » ** كذلك صاح بوسوويه من جديد وكان يناقش نقطة قانونية على حدة ، وكان غارقاً الى أبعد من خصره في سلسلة من عبارات اللغة القضائية ، هذه خاتمتها :

« ... أما أنا ، فبرغم اني لا أكاد أعدّ فقيهاً الا بشقّ النفس ، وبرغم اني في أحسن احوالي محامٍ هاوٍ ، فأقرر ما يلي : انه بموجب أحكام العرف السائد في نورمانديا ، في عيد القديس ميشيل ، ومرةً كل عام ، يجب ان يدفع كل منهم ضريبة الى السيد الاقطاعي — مع الاحتفاظ بحقوق الآخرين — يستوون في ذلك جميعاً ، سواء أكانوا اصحاب أملاك أم مَديني ميراث ، وهذا في جميع عقود الايجار البعيدة الأجل ، صكوك الكراء ، والاراضي الحرة ، وعقود الاملاك الخاصة والعامة ، والمرتهَن عنده ، والراهن ... »

فدندنَ غرانتير :

— « أصداء ، ايتها العرائس النائحات ! »

وعلى مقربة دانية من غرانتير ، وعلى مائدة تكاد تكون صامتة ، أعلنت ورقةٌ ، ومحبرة ، وريشة انتصبت بين قدحيْ خمر أن الخطوط الكبرى لرواية صغيرة ملحّنة كانت قيدَ الوضع . وكان القائمان بهذه المهمة الضخمة يتحدثان في صوت خفيض ، وقد تماسّ رأساهما اثناء

* hypocondric .

** « R majuscule » يقصد غرانتير ، على اعتبار المجاورة اللفظية بين اسمه Grantaire وبين Grand R كما رأينا من قبل .

العمل :

— « فلنبدأ بالبحث عن الاسماء . اذ ما نكاد نعثر على الاسماء حتى نعثر على الموضوع . »

— « هذا صحيح . أملِ عليّ . سوف اكتب . »

— « مسيو دوريون . »

— « غنيّ ؟ »

— « من غير شك . »

— « ابنته سيليستين . »

— « ... تين . ثم ماذا ؟ »

— « الكولونيل سينفال . »

— « سينفال اسم مبتذل . أفضّل فالسين . »

والى جانب هذين المسرحيَّيْن الناشئين ، كانت حلقة اخرى استفادت هي ايضاً من الفوضى فراحت تتحدث في همس ، وتتناقش في مبارزة من المبارزات . كان شيخ — في الثلاثين من العمر — ينصح شاباً — في الثامنة عشرة — ويصوّر له حقيقة الخصم الذي سينازله :

— « يا للشيطان ! خُذْ حِذْرك . إنه سيف جميل . إن لعِبه نظيف . إنه يهجم في غير مداراة ، وإن له معصماً رشيقاً ، ونفساً محتدمة ، وبرقاً خاطفاً ، وخطوةً دقيقة ، وضربات لا تخطىء . يا سلام ! وهو اعسر ايضاً ! »

وفي الزاوية المقابلة لغرانتير كان جولي وباهوريل يلعبان الدومينو ، ويتحدثان عن الحب .

قال جولي :

— « إنك محظوظ . إن الك خليلة لا تكفّ عن الضحك . »

فأجاب باهوريل :

— « هذا خطأ ترتكبه هي . إن خليلة المرء تخطىء إذ تضحك .

ذلك أن الضحك يشجعك على خداعها . فمجرد رؤيتك اياهـا مبتهجة يضع حداً لوخـز الضمير . أمـا إذا رأيتهـا محزونة فعندئذ يقلقك ضميرك . »

– « يا لك من ناكر للجميل ! المرأة الضاحكة شيء حسن ! أنت لن تتشاجر معها ابداً ! »

– « ذلك جزء من المعاهدة التي وقّعناها . فحين عقدنا « حلفنـا المقدس » الصغير عيّنّا لكل واحد منا حدوده التي لا يحق له تخطّيها البتة . فما هو واقعٌ الى الشمال مِلكٌ لـ « فود » ، وما هو واقع الى الجنوب مِلكٌ لـ « جيكس » . ومن هنا السلام الذي ننعم به . »

– « السلام هو السعادة هاضمةً . »

– « وأنت ، يا جوللي ، الى اين وصلت في خصامك مع الآنسة... انت تعرف من اعني ؟ »

– « إنها تتبرّم مني في صبر وحشيّ . »

– « وهكذا فانت عاشق يُلين القلوب بهزاله . »

– « وا أسفاه ! »

– « لو كنتُ مكانك لتخلصتُ منها . »

– « هذا شيء يسهل قوله . »

– « وعمَلُهُ . أليست تسمّي نفسها موسيقيّاً ؟ »

– « نعم . آه ، يا باهوريل المسكين ، إنها فتاة بالغة الجمال ، ذات نزعة أدبية ، ورجلين صغيرتين ، ويدين صغيرتين ، حسنة البزّة ، بيضاء ، بدينة ، ولها عينان مثل عيني قارئة البخت . انا مجنون بها . »

– « اذن فيجب أن تُرضيها ، يا صديقي العزيز . كن أنيقـاً . عرّضْ ساقيْك للابصار . إشترِ من محل « ستوب » بنطلوناً من جلد الظبية . إن ذلك يساعد . »

فصاح غرانتير :

– « بكم يباع ؟ »

وكانت الزاوية الثالثة مستغرقة في مناقشة شعرية . كانت الميثولوجيا الوثنية تتصارع مع الميثولوجيا المسيحية . وكان الموضوع هو الأولومب الذي أيده جان بروفير بروح هي الرومانسية نفسها . إن بروفير لم يكن حيياً إلا في فترات السكينة فما إن يُستثار حتى يتفجّر . كان ضرب من البهجة يميّز حماسته ، وكان ضاحكاً وغنائياً في وقت معاً .

وقال :

– « لا تُهينوا الآلهة . فلعل الآلهة لم تفارقنا . إني لا أرى أمارات الموت على وجه جوبيتير . الآلهة اضغاث أحلام . هكذا تقولون . حسناً ؛ ولكنْ حتى في الطبيعة – كما هي الآن ، بعد انقضاء تلك الاحلام – نجد جميع الاساطير الوثنية القديمة الرفيعة الذرى . فهذا الجبل ، ذو الصورة الجانبية الشبيهة بحصن ، ولنقل إنه الـ « فينيمال » * مثلاً ، لا يزال في نظري غطاء لرأس سيبيل ** . ولم يقم الدليل بعدُ على ان « بان » *** لا يَفِدُ ليلاً لينفخ في جذوع الصفصاف الجوفاء سادّاً ثقوبها باصابعه ، ثقباً بعد آخر . ولقد اعتقدت ، وما أزال ، ان « ايبو » **** لها علاقة ما بشلال بيسفاش . »

وفي الزاوية الاخيرة ، كانت السياسة موضوع الحديث . كانوا يطعنون على دستور لويس الثامن عشر . ودافع كومبوفير عنه في فتور .

* Vignemale جبل من جبال البيرينه (البرانس) يبلغ ارتفاعه ٣٢٩٨ متراً .

** Cybèle ابنة السماء ، والاهة الارض والزراعة ، زوجة ساتورن ، وأمّ جوبيتير ونبتون وبلوتون الخ .

*** Pan ابن هرمس ، وكان له قرنان كقرني التيس ورجلان مثل رجليه ايضاً ، وكان يروّع الناس بظهوره المفاجيء أمامهم ، وقد اخترع قيثارة كان يعزف بها لعرائس الغابات الراقصات .

**** Io ابنة ايناخوس ، وقد أحبها زيوس ومسختها هيرا الغيور الى عجلة وجعلتها تحت حراسة آرغوس ، العملاق ذي المئة عين .

وشنّ كورفيراك عليه هجوماً لا هوادة فيه . وكانت على المائدة نسخة سيئة الحظ من دستور توكيه الشهير . وأمسك كورفيراك به وهزّه ، مازجاً ارتعاشَ تلك الورقة بحُججه .

— « اولاً ، أنا لا أريد أيا ملك . لا أريد ، ولو من وجهة النظر الاقتصادية فحسب . الملوك متطفلون ونحن لا نفوز بهم مجاناً . اسمع الى هذا : غلاء الملوك . عند وفاة فرنسيس الاول كان دين فرنسة العام ثلاثين الف ليرة سنوياً . وعند وفاة لويس الرابع عشر كان الفين وستمئة مليون ليرة وكان المارك * يعدلُ ثماني وعشرين ليرة ، وهو مبلغ كان يساوي عام ١٧٦٠ ، وفقاً لرأي دوماريه ** ، اربعة آلاف وخمسمئة مليون ليرة ، ويساوي اليوم اثني عشر الف مليون ليرة . ثانياً : وارجو ان لا يثير ذلك غضب كومبوفير ، ان الدستور الذي يُمنحُ منحاً وسيلةٌ رديئة من وسائل الحضارة . فاجتناب الطفرة ، وتمهيد السبيل ، والتخفيف من حدّة الصدمة ، والانتقال بالامة رويداً رويداً من الملكية الى الديموقراطية بممارسة الاوهام الدستورية — هذه كلها حجج بغيضة . لا ! لا ! إياك وأن تقدّم الى الشعب نوراً زائفاً . إن المبادىء لتذوى وتشحب في كهف الدستوري . لا انصاف حلول ؛ لا تسويات ؛ لا منحة من الملك الى الشعب . ففي جميع هذه المنح توجد المادة ١٤ . والى جانب اليد التي تعطي تجد البرثن الذي يستردّ . أنا ارفض دستورك رفضاً صريحاً . الدستور الممنوح هو قناع ؛ ان الكذب يكمن وراءه . والشعب الذي يقبل دستوراً ممنوحاً يتنازل عن سيادته . والحق لا يكون حقاً إلا اذا كان كلًا غير متجزىء .

---

* المارك هنا عملة فضية او ذهبية قديمة كانت تستعمل في بلدان مختلفة من اوروبة ، وبقيم متفاوتة .

** Desmarets مراقب المالية العام من سنة ١٧٠٨ الى سنة ١٧١٥ وقد اخترع ضريبة العُشر لكي يتجنب افلاس الدولة .

لا ! لا دستور ! »

كان الفصل شتاء . وكانت قطعتان من الحطب كبيرتان تشتعلان في الموقد . وكان ذلك مغرياً ، ولم يستطع كورفيراك ان يقاوم . فسحق دستور توكيه المسكين بيده ، وألقاه في النار . والتهبت الورقة . ونظر كومبوفير ، على نحو فلسفي ، الى رائعة لويس الثامن عشر تحترق ، فاكتفى بالقول :

— « هو ذا الدستور يتحوّل ، باللهب ، الى خلقة اخرى . »

ولم يكن من السخريات ، والنكات ، والجناسات المستقبحة ، وهذا الشيء الفرنسي الذي ندعوه الحيوية المبتهجة ، وهذا الشيء الانكليزيّ الذي ندعوه الظرّف ، والذوق السليم والذوق الفاسد ، والحجج القوية والحجج الضعيفة ، وجميع حماقات الحوار المختلطة — لم يكن من هذه كلها إلا ان برزت دفعة واحدة منطلقةً من اطراف القاعة جميعاً ، لتحدث فوق الرؤوس ضرباً من القصف المدفعي المرح .

٥
توسيع الافق

إن لتصادم العقول الشابة هذه الخاصة الرائعة وهي ان المرء لا يستطيع أن يتكهن بالشرر او يتنبأ بالبرق . ايّ شيء يمكن ان ينبثق في تلك اللحظة ؟ لا أحد يدري . إن موجة من الضحك تتبع مشهداً من الرقة والحنوّ . وفي اللحظة الهازلة ، يُطلِعُ الجِدّ رأسه . والحوافز رهنٌ بكلمة عابرة . وقريحة كلّ امريء مطلقة السلطان . ونكتة واحدة كافية لأن تفتح الباب لغير المتوقّع . ولقد كانت اجتماعاتهم ذوات منعطفات حادة تتغيّر فيها أبعاد المنظر على نحو مفاجيء . ان المصادفة

هي التي تدير هذه الاحاديث .

وفجأة انبثقت من صليل بعض الكلمات ، وعلى نحو ٍ غريب ، فكرة صارمة ، واجتازت فوضى الكلام التي تصارع في غمرتها غرانتــير ، وباهوريل ، وبروفير ، وبوسوويه ، وكومبوفير ، وكورفيراك تصارعاً مشوّشاً .

كيف تتخذ عبارةٌ ما سبيلها الى حوار ما ؟ ما الذي يجعلها تفرض نفسها ، ُفجاءةً ، على انتباه اولئك الذين يسمعونها ؟ لقد قلنا منـذ لحظة : لا أحد يدري . ففي غمرة الاصوات الصاخبة ختم بوسوويه ، على نحو مفاجيء ، كلاماً كان يوجّهه الى كومبوفير ، بالتاريخ التالي :

— « ١٨ حزيران ، ١٨١٥ : واترلو . »

ولم يكد ماريوس — الذي كان متكئاً على احدى الطاولات ، قرب كأس ماء — يسمع هذ الاسم ، واترلو ، حتى نزع معصمه مـن تحت ذقنه ، وأنشأ يحدّق الى الجماعة تحديقاً موصولاً .

وصاح كورفيراك :

— « وحق الالـه *pardieu* (كانت *parbleu* * قد بدأت تبطُلُ في ذلك العهد) إن هذا الرقم ، ١٨ ، لغريبٌ ، وإنه ليُذهلني . إنـه رقم نابوليون المشؤوم . ضـع « لويس » في المقدمة ، و « برومـير » في المؤخرة تقع على قـَدَر الانسان كله ، مع هذه الخاصة المعبّرة ، وهي أن النهاية تطارد البداية مطاردة عنيفة . »

وهنا قطع آنجولراس حبل الصمت ، وكان أبكم حتى ذلك الحين ، وخاطب كورفيراك قائلًا :

— « تريد ان تقول إن التكفير يطارد الجريمة . »

وتجاوزت هذه الكلمة ، **الجريمة** ، حدود احتمال ماريوس ، وكان قد استثير بتلك الاشارة المفاجئة الى واترلو .

---

* وهي تحريف لـ pardieu .

ونهض ، ومشى في تؤدة نحو خريطة فرنسة المنشورة على الجدار ، وكانت تبدو في أدناها جزيرة طُوّقت باطار منعزل . ووضع اصبعه على هذا الاطار وقال :

— « كورسيكة . جزيرة صغيرة جعلت فرنسةَ دولة عظيمة حقاً . »

كانت تلك هبّةً من هواء مثلوج . وكانوا كلهم صامتين . واستشعروا ان شيئاً ما ، على وشك ان يبدأ .

وكان باهوريل – الرادّ على بوسوويه في سرعة وحدّة – على أهبة اتخاذ وضعٍ كوضع التماثيل النصفية كان يحرص عليه . ولكنه تخلى عن ذلك لكي يصغي .

ولم يكن من آنجولراس – الذي كانت عينه السوداء غير مركّزة على احد ، والذي بدا وكأنه يتأمل الفراغ – إلا ان أجاب من غير ان ينظر الى ماريوس :

— « ان فرنسة لا تحتاج الى شيء مثل كورسيكة لكي تكون عظيمة . إن فرنسة عظيمة لانها فرنسة . * *Quia nominor leo* »

ولم يستشعر ماريوس ايما رغبة في النكوص . لقد التفت الى آنجولراس ، وجلجل صوته في ارتجاج ناشيء عن ارتعاش اعصابه :

— « لست انتقص من قدر فرنسة ، لا سمح الله ! ولكن إدغام نابوليون بها لا ينتقص من ذلك القدْر ، البتة . تعال ، دعنا نتحدث اذن . أنا وافد جديدٌ عليكم ، ولكني اعترف انكم توقعون الدهش في نفسي . اين نحن ؟ من نحن ؟ فلنوضح آراءنا في الامبراطور . اني اسمعكم تقولون بُوُنابرت مشدّدين على الواو مثل الملكيين . وفي استطاعتي ان اقول لكم ان جدي يفوقكم في ذلك ايضاً ؛ إنه يلفظها بُوُنابرته .

* في اللاتينية ، ومعناها : « لاني ادعى الأسد » . وهي كلمة منتزعة من أحد امثال الشاعر اللاتيني « فيدر » حيث يقدّم الاسد هذه الحجة على حقه في الفوز بالقسم الاعظم من الغنيمة ...

لقد حسبتُ انكم شباب . اين حماستكم اذن ، وما الذي تفعلونه بها ؟ بم تُعجَبون ، اذا كنتم لا تُعجبون بالامبراطور ؟ وهل تطمعون في اكثر من ذلك ؟ واذا لم تتمنّوا مثل هذا الرجل العظيم فأيّ رجل تتمنّون ؟ كان كلّ شيء . كان كاملًا . كان في دماغه مكعّب الكفايات الانسانية . لقد وضع القوانين مثل جوستنيانوس ؛ وأملى ارادته مثل يوليوس قيصر ؛ وجمعت احاديثه برقَ باسكال الى رعد تاسيتوس ؛ لقد صنع التاريخ وكتبَهُ ؛ إن بياناته الرسمية هي الياذات؛ لقد مزج ارقام نيوتن باستعارات محمد ومجازاته ؛ وخلّف وراءه في المشرق اقوالاً عظيمة كالاهرام . في تيلسيت علّم الاباطرةَ الجلالَ ؛ وفي اكاديمية العلوم ردّ على لابلاس * ؛ وفي مجلس الدولة قاوم ميرلين ** ؛ لقد اضفى روحاً على هندسة هؤلاء ومماحكات اولئك ؛ كان فقيهاً مع رجال القانون وعالماً بالنجوم مع رجال الفلك . ومثل كروموبل الذي كان يطفىء شمعةً حين تضاء اثنتان ، كان يذهب الى « تامبل » ليساوم البائع في ثمن شرّابة من شراريب السُّجف ؛ لقد رأى كل شيء ؛ لقد عرف كل شيء ؛ وهو ما لم يمنعه من ان يضحك ضحكة رجل ساذج أمام مهد طفله الصغير . وفجأة ، أصغت اوروبة المشدوهة ، وزحفت جيوشٌ ، ودارت حظائر المدافع ، وامتدت جسور من المراكب فوق الأنهار ، وانطلقت سحائب من الخيّالة وسط الأعصار ، وضج الكون بالصيحات ، والأبواق ، وارتجافات العروش ، وتذبذبت تخوم الممالك على الخارطة ، وسُمع صليل حُسامٍ سوبرمانيّ ينبثق من الكُور ، ورآه الناس ، رأوه هو ، ينتصب واقفاً عند الافق ، وفي يديه برق ، وفي عينيه ضياء ، ناشراً في الرعد جناحيه الاثنين ، الجيش العظيم والحرس القديم ، وكأنه مَلاك الحرب الأكبر . »

* Laplace رياضي وفلكي فرنسي شهير . (١٧٤٩ – ١٨٢٧)

** Merlin سياسي فرنسي (١٧٥٤ – ١٨٣٨) شارك في اسقاط روبسبيير .

واعتصم الجمع كلهم بالصمت ، وخفض آنجولراس رأسه . وللصمت دائماً شيء من وَقْع القبول ، او وَقع ضرب من الدفع الى الجدار . ومن غير ان يأخذ نَفَساً ، تقريباً ، تابعَ ماريوس كلامه في فَضْل حماسة :

— « لنكن عادلين ، ايها الاصدقاء . ايُّ قدَرٍ بهيّ ذلك الذي يجعل الأمة امبراطورية لمثل هذا الامبراطور ، حين تكون تلك الأمة هي فرنسة ، وحين تضيف عبقريتها الى عبقرية رجل كهذا ! فلأن تبرز وتلي العرش ؛ ولأن تزحف وتنتصر ؛ ولأن تتخذ من كل عاصمة من العواصم محطة لك ؛ ولأن تختار رماة قنابلك وتجعل منهم ملوكاً ؛ ولأن تصدر امرك بأسقاط السلالات المالكة ؛ ولأن تسمو بأوروبة في مثل سرعة الزحف العسكري بحيث يشعر الناس ، حين تُهدِّد ، انك تضع يدك على قائم سيف الله ؛ ولأن تتبع — في رجل واحد — هنيبعلَ ويوليوس قيصر وشارلمان ؛ ولأن تكون شعبَ إنسان يزج بكل صباح من أصباحك ايذاناً مجيداً بأن معركة قد كُسِبت ؛ ولأن توقَظَ مع الفجر بمدافع الانفاليد ؛ ولأن تقذف في لجج من النور كلماتٍ جبارةً تلتهب الى الابد : مارانغو ، آركولا ، اوسترليتز ، يينا ، واغرام ! ولأن تُطلع كلّ لحظة في سَمْت القرون ابراجاً من الانتصارات ، ولأن تجعل الامبراطورية الفرنسية خليفة الامبراطورية الرومانية ؛ ولأن تكون الشعب العظيم وتنشيء الجيش العظيم ؛ ولأن تحمل فِرَقك على الطيران فوق الارض برمّتها كما يبعث الجبل بنسوره الى كل ناحية ؛ ولأن تقهر ، وتحكم ، وتُنزل الصواعق ، وتكون في اوروبة ضرباً من الشعب المذهّب بتواتر المجد وتعاظمه ؛ ولأن تبوّق من خلال التاريخ بألحان الجبابرة ؛ ولأن تفتح العالم مرتين ، بالفتح العسكري وبالجَهَر * إن ذلك لشيء جليل ، وايّ شيء يمكن ان يكون اعظم

* جَهِرت العينُ جَهَراً : لم تُبصر في الشمس .

من هذا ؟ »

فقال كومبوفير :

ـ « أن نكون أحراراً . »

وخفض ماريوس ، بدَوره ، رأسه . كانت هـــذه الكلمات الباردة البسيطة قد شقّت تدفُّقه الملحميّ مثل شفرة من فولاذ ، فاستشعر ان هذا التدفق قد تلاشى في قرارة نفسه . وحين رفع عينيه ، لم يكن كومبوفير هناك . ولعله ان يكون قد أحسّ بالارتياح لردّه على ذلك التأليه ، فغـــادر المكان وتبعَهُ الجمع كلهم ما عدا آنجولراس . كانت الحجرة خالية . وانشأ آنجولراس ينظر الى ماريوس في جدّ بعد أن لم يبق غيرهما في تلك الحجرة . وفي غضون ذلك كان ماريوس قد لمّ شتات افكاره فهو لا يعتبر نفسه مهزوماً . كان فيه بقية من ثورة كانت ، من غير شك ، على وشك أن تجد تعبيرها في أقيسة منطقية موّجهة ضـــد آنجولراس عندما سمعا ، فجأة ، شخصاً يغني فيما هو يهبط السلم . كان ذلك الشخص هو كومبوفير ، وكان ينشد الابيات التالية :

« اذا منحني قيصر ،
المجد والحرب ،
واذا تعين علي ان اتخلى
عن حب أمي ،
فعندئذ اقول لقيصر العظيم ،
استرجع صولجانك ومركبتك الحربية
انا افضل أمي ،
انا افضل أمي ! »

وكان في النبرة العذبة الضارية التي اصطنعها كومبوفير في انشاده ما خلع على هذه المقطوعة عظمة غريبة . وعلى نحو آليّ كرر ماريوس ، وقـــد استغرق في التفكير ، وسدد بصره الى السقف : « امي ؟.... »

وفي تلك اللحظة أحسّ بيد آنجولراس على كتفه .
وقال آنجولراس له :
— « ايها المواطن ، إن امي هي الجمهورية . »

٦
موارد مهزولة

قضى ماريوس تلك الليلة في اهتياج عميق ، وفي قتام نفسي كئيب . كان يعاني ما قد تعانيه الارض لحظةَ نشقها بالحديد لكي نودعها حبة القمح . إنها لا تستشعر غير ألم الجرح . أما اختلاجة البذرة ، وابتهاج الثمرة فلن يُلمّا بها إلا في ما بعد .

كان ماريوس مغموماً . لقد اعتنق — وما كاد — عقيدة جديدة . فهل يستطيع ان يطرّحها بمثل هذه السرعة ؟ وفي ما بينه وبين نفسه قرّر أنه لا يستطيع . لقد أعلن لنفسه انه لن يشكّ ، ولكنه شرع يشك بالرغم منه . ولأن يكون المرء بين دينين لمّا يهجر بعدُ أحدهما ولمّا يتبنّ بعدُ الآخرَ ، شيء لا يطاق ؛ والغَسق ليس يحلو إلا للنفوس الخفافيشية . كان ماريوس عيناً مفتوحة وكان في حاجة الى النور الحقيقي . اما غسق الشك فكان يؤذيه . وعلى الرغم من رغبته القوية في ان يقف حيث هو وان يصمد هناك ، فقد اضطر ، على نحو لا يقاوَم ، الى أن يستمر ، ويتقدم ، ويدرس ، ويفكر ، ويمضي الى أمام . الى اين سيقوده ذلك ؟ لقد خشي ، بعد ان خطا هذه الخطوات كلها ، التي قرّبته الى أبيه ، ان يقوم الان بأي خطوة تبعده عنه . وكان ضيقه النفسي يتعاظم مع كل فكرة تخطر له . وارتفعت من حوله صخور سامقة شديدة التحدر . إنه لم يكن على وئام لا مع جده ، ولا مع اصدقائه . كان متهوراً مع الاول ، وكان

متخلفاً عن الاخرين . ولقد استشعر انه يحيـــا في عزلة مضاعفة ، عن الشيخوخة من ناحية ، وعن الشباب من ناحية ثانية ، ولم يعـاود الذهاب الى مقهى الموزين .

وفي غمرة من هذا القلق الذي ألمّ به لم يفكر ببعض وجوه الوجود الجدية إلا قليلاً . إن حقائق الحياة لا تسمـــح لنفسها بأن تُنسى . وفجأة ، وفدت عليه وراحت تنكز ذاكرته بمرفقها .

وذات صباح ، دخل مدير الخدم غرفة ماريوس ، وقال له :

— « إن مسيو كورفيراك قد تعهد بأن يدفع دَينك . »

— « نعم . »

— « ولكني في حاجة الى المال . »

فقال ماريوس :

— « سَلْ كورفيراك ان يأتي ويتحدث معي . »

وأقبل كورفيراك . وفارقهما مدير النزُل . وقصّ عليه ماريوس ما لم يفكر في أن يرويه له من قبل ، وهو انه — اذا جاز التعبير — كان وحيداً في هذا العالم ، وأن ليس له أنسباء البتة .

فقال كورفيراك :

— « ما الذي سيحلّ بك ؟ »

فأجاب ماريوس :

— « لست ادري شيئاً من ذلك . »

— « ما الذي سوف تعمله ؟ »

— « لست ادري شيئاً من ذلك . »

— « هل عندك مال ؟ »

— « خمسة عشر فرنكاً . »

— « اتريد ان اقرضك شيئاً من المال ؟ »

— « لا ، مطلقاً . »

— « هل عندك ثياب ? »

— « عندي هذه . »

— « هل عندك حلية ما ? »

— « عندي ساعة . »

— « ساعة فضية ? »

— « ذهبية . ها هي ذي . »

— « انا اعرف متاجراً بالملابس مستعداً لأن يأخذ سترتك الطويلة وبنطلوناً واحداً . »

— « وأحذيتي . »

— « ماذا ? انك لن تمشي حافياً ? يا لها من رفاهية ! »

— « هذا سوف يكفيني . »

— « وأنا اعرف ساعاتياً مستعداً لأن يشتري ساعتك . »

— « ذلك حسن . »

— « لا . إنه غير حسن . ما الذي ستفعله في ما بعد ? »

— « كل ما يتعيّن عليّ . أيما عمل شريف على الاقل . »

— « أتعرف الانكليزية ? »

— « لا . »

— « هذا مؤسف . »

— « لماذا »

— « لأن لي صديقاً ، صاحب مكتبة ، يُعِدّ ضرباً من الموسوعة . ولقد كان في امكانك ان تترجم له بعض المقالات الالمانية او الانكليزية لو كنتَ تعرف احدى هاتين اللغتين . إنه يدفع تعويضاً ضئيلاً جداً ، ولكنه يُقيم الأوَد . »

— « سوف اتعلم الانكليزية والالمانية . »

— « وفي انتظار ذلك ? »

- « في انتظار ذلك سوف آكل ملابسي وساعتي . »

وأرسل في طلب تاجر الملابس ، فاشترى الثياب البالية بعشرين فرنكاً . وقصدا الى الساعاتي ، فاشترى الساعة بخمسة واربعين فرنكاً .

وقال ماريوس لكورفيراك وهما عائدان الى الفندق :

- « هذا مبلغ لا بأس به . واذا اضفت اليه الخمسة عشر فرنكاً التي معي يصبح المجموع ثمانين فرنكاً . »

فلاحظ كورفيراك :

- « وفاتورة الفندق ؟ »

فقال ماريوس :

- « اوه ، لقد نسيتها . »

فقال كورفيراك :

- « يا للشيطان ! سوف يكون عندك خمسة فرنكات لتأكل بها بينا تتعلم الانكليزية ، وخمسة فرنكات بينا تتعلم الالمانية . ومعنى ذلك ابتلاع لغةٍ في سرعة بالغة ، او ابتلاع قطعة نقدية من ذات المئة « سو » في بطء بالغ . »

وفي غضون ذلك كانت الخالة جيلنورمان ، ذات الجوهر الكريم حقاً في الظروف العصيبة ، قد انتهت الى اكتشاف المكان الذي أوى اليه ماريوس .

وذات صباح ، فيما كان ماريوس عائداً من المدرسة ، وجد رسالة من خالته و « الستين بيستولاً » ، يعني ستمئة فرنك ذهبيّ ، في علبة مختومة .

واعاد ماريوس الليرات الذهبية الثلاثين الى خالته مع رسالة موقّرة أعلن فيها ان لديه بعض اسباب الرزق ، فهو قادرٌ منذ اليوم على أن يسدّ حاجاته جميعاً . ولم يكن قد بقي لديه ، في تلك اللحظة ، غير ثلاثة فرنكات .

ولم تُعلم الخالة جدّ ماريوس بهذا الرفض خشية أن تثير سخطه . ومن ناحية ثانية ، ألم يكن قد قال لها : « حذارِ ان يحدثني احدٌ بعد اليوم عن شارب الدماء هذا ! »

وغادر ماريوس اوتيل دو لا بورت سان جاك ، غيرَ راغب في أن يحمّل نفسه ايّ دَيْن .

الكتاب الخامس

فضل النقاد

١

ماريوس مُعدِماً

وغـدت الحياة قاسية على ماريوس . إن أكلـهُ ملابسَـهُ وساعتَـهُ لم يكن شيئاً . فقد مضغ ذلك الشيء الذي يمتنع على التعبير والذي ندعوه « جِرّة * المرارة » . شيء رهيبٌ يشمل أياماً من غير خبز ، ولياليَ من غير نوم ، وأماسيَ من غير شمـــع ، وموقداً من غـــير نار ، واسابيـــع من غير عمل ، ومستقبلاً من غير أمل ، وسترة مثقوبةً عند المرفقين ، وقبعة عتيقة تغري الفتيات الصغيرات بالضحك ، والباب الذي

* الجرة ، بكسر الجيم ، ما تعيد مضغه الحيوانات المجترة .

يوصد في وجهك ليلا لأنك لم تدفع قيمة الايجار المستحقة ، وغطرسة البوّاب وصاحب الفندق ، وسخريات الجيران ، وضروب الاهانات ، والكرامة مكبوحة الجماح ، والرضا بالكدح في اعمال حقيرة ، والتقزز ، والغمّ ، والضنى . لقد تعلّم ماريوس كيف يبتلع المرء كل ذلك ، وكيف تكون هذه الاشياء ، في كثير من الاحيان ، كلّ ما تقدّمه الايام الى افواه الناس . وفي تلك المرحلة من الحياة ، حين يحتاج المرء الى الصلف لأنه في حاجة الى الحب ، استشعر أنه موضع الهزء لأنه كان رثّ الثياب ، وموضع السخرية لأنه كان فقيراً . وفي ذلك العمر ، حين يُفْعِم الصبا قلب المرء بخيلاء قيصرية ، خفض بصره ، غير مرة ، الى حذائه البالي فعرف خجل الشقاء الجائرَ وما يشيعه في الوجه من حمرة ممضة . تجربة رائعة وفظيعة يخرج منها الضعفاء مرذولين مهتوكي الستر ، ويخرج منها الاقوياء أجلّةً عظاماً . بوتقة يقذف القدَر فيها برجل من الرجال كلما رغب في ان يصنع جرواً او نصف الـه .

ذلك بأن معارك الحياة الصغيرة طافحة بالاعمال المجيدة . ان ثمة شجاعة عنيدة ، وان تكن غير ملحوظة ، تدافع عن نفسها رويداً رويداً في الظلام ، ضد الغزوات المهلكة التي تشنها ضرورات الحياة وخبائثها . انتصارات نبيلة خفية لا تراها عين ، ولا تكافئها شهرة ، ولا تحيّيها ابواق النصر . ان الحياة ، والتعاسة ، والتوحد ، والتخلي ، والفقر ساحات قتال لها أبطالها ؛ ابطال مغمورون هم في بعض الاحيان اعظم عظمة من الابطال المشاهير .

وهكذا تُخلق طبائع وطيدة ونادرة . إن الشقاء ، وهو دائماً تقريباً امرأة اب ، قد يكون في بعض الاحيان أماً . فالحرمان يولد وة نفس والعقل . والشدّة مرضعة احترام الذات . والشقاء لبنٌ صالح لانشاء النفوس العظيمة .

وانقضت فترة في حياة ماريوس كنس فيها غرفته بنفسه ، واشترى

من بائعة الخُضَر والثار ما ثمنه فلس واحد من جبن « بْري » ، وانتظر فيها هبوط الليل ليتخذ سبيله الى الخباز فيشتري رغيفاً يحمله خلسة الى علّيته وكأنه قد سرقه . وفي بعض الاحيان ، كان القوم يرون فتى ينسلّ – وسط الطاهيات الساخرات اللواتي كنّ يدفعنه بمرافقهن – الى دكان الجزار الذي في الزاوية ، فتىً مرتبكاً متأبطاً بعض الكتب وقد بدت على وجهه سيا حيية مروّعة يدخل الى ذلك الدكان ، وينزع قبعته عن جبينه الناضح منه العرق ، وينحني انحنـــاءة يسيرة للجزار الدهِش ، وانحناءة اخرى لصبي الجزار ، ويسأل عن قطعة من ضلع الضأن ، ويدفع ستة « سو » او سبعة « سو » ثمناً لها ، ويلفّها في ورقة ، ويضعها تحت ذراعه بين كتابين ، ويمضي لسبيله . كان ذلك الفتى هو ماريوس . وعـــلى تلك القطعة من ضلع الضأن ، التي كان يطبخها بنفسه ، كان يحيا ثلاثة أيام .

ففي اليوم الاول كان يأكل اللحم ، وفي اليوم الثـــاني كان يأكل الدهن ، وفي اليوم الثالث كان يقرض العظم .

وفي مناسبات عديدة كانت الخالة جيلنورمان تقوم ببعض المحاولات فتبعث اليه بالستين بيستولاً . ولكن ماريوس كان يردها اليها دائماً قائلاً انه في غير ما حاجة الى شيء .

وكان لا يزال في حداد على أبيه عندما اندلعت تلك الثـورة التي تحدثنا عنها وعصفت بعقله . ومن ذلك الحين لم يفارق الملابس السوداء قط . بيد ان ملابسه فارقته . فقد أطلّ عليه ، آخر الأمر ، يوم لم يبق لديه فيه ثوب ما . وبليَ بنطلونه ايضاً . فما الذي يستطيع ان يعمله ؟ وأعطاه كورفيراك ، وكان قد أسدى هو بدوره بعض الخدمات اليه ، بذلة عتيقة . ودفع ماريوس تلك البذلة الى احد البوابين ، فأعادها اليه جـديدة مقابل ثلاثين « سو » . ولكن تلك البذلة كانت خضراء . وعندئذ لم يعد ماريوس يغادر مأواه الا بعد ان يهبط الليل . فـكان ذلك يجعل بذلته سوداء . واذ كان يرغب دائماً في أن لا ينزع ثوب الحداد ، فقد خلع على جسمه قطعة

من الليل .

ومن خلال هذا كله شق سبيله الى صفوف المحامين . وكان الناس يحسبون انه يقطن غرفة كورفيراك النظيفة ، حيث كانت بضعة من كتب الحقوق ، تردفها وتتممها بضعة اخرى من الروايات الفريدة تؤلف المكتبة التي تقتضيها الانظمة . وكان يطلب الى الناس ان يوجهوا اليه رسائلهم على عنوان كورفيراك .

وحين أمسى ماريوس محامياً اعلم جده بذلك في رسالة باردة ولكنها حافلة بالخضوع والاحترام . وتلقى مسيو جيلنورمان تلك الرسالة بيدين راجفتين ، وقرأها ، وطرحها ممزقة إرَباً في سلة المهملات . وبعد يومين او ثلاثة ايام سمعت الانسة جيلنورمان أباها ، الذي كان خالياً الى نفسه في غرفته ، يتحدث في صوت عال . وأنصتت . كان الرجل العجوز يقول : « لو لم تكن أبله ، لعرفت ان المرء لا يستطيع ان يكون باروناً ومحامياً في آن معاً . »

٢
ماريوس فقيراً

والبؤسُ شأنه كشأن كل شيء آخر . إنه يمسي ، تدريجياً ، شيئاً محتملاً . إنه ينتهي الى ان يتخذ شكلاً ثابتاً . ان المرء ليحيا حياة بائسة مغمورة ، يعني انك تنمو على نحوٍ مهزول ما ، ولكنه كافٍ للحياة . وهذا هو النحو الذي جرت عليه حياة ماريوس بونميرسي :

كان قد غادر الموطن الاضيق . لقد اتسعت الثغرة ، أمامه ، بعض الشيء . وبقوة الكدح ، والشجاعة ، والمثابرة ، والارادة وفّق الى ان يكسب من عمله نحو سبعمئة فرنك كل عام . كان قد تعلّم الالمانية

والانكليزية . وبفضل كورفيراك الذي قدّمه الى صديقه الكتُبيّ ، نهض ماريوس ، في الدائرة الأدبية من تلك المكتبة ، بدَوْر صفار المثلين المفيد . كان يُعدّ مراجعاتٍ للكتب ، ويترجم مقالات من الصحف ، ويعلق الحواشي على الطبعات الجديدة ، ويجمع سير الأعلام الخ . نتاجٌ صافٍ ثابت يبلغ ، سواء أخصَبَ العامُ أم أمحل ، سبعمئة فرنك . لقد عاش على ذلك . لا بأس . كيف ؟ سوف نفصّل القول في هذا .

لقد احتلّ ماريوس ، لقاء أجر سنوي مقداره ثلاثون فرنكاً ، غرفة حقيرة صغيرة من غير موقد ، غرفة يدعونها حُجَيْرةً ، لم يكن فيها من الاثاث غيرُ الضروري الذي لا يستغنى عنه . وكان ذلك الاثاث مِلكاً له . ولقد أعطى ثلاثة فرنكات شهرياً الى امرأة عجوز كانت تتولى امر العناية بالبناء لكي تكنس غرفته ، وتحمل اليه كل صباح قليلًا من الماء الحار وبيضةً طازجة ورغيفاً ثمنه فلس واحد . وعلى هذا الرغيف وهذه البيضة كان يُفطر . وكانت نفقات فطوره تراوح ما بين فلسين واربعة فلوس تبعاً لرخص البيض أو غلائه . وفي الساعة السادسة مساء كان يهبط الى شارع سان جاك لكي يتعشى في مطعم روسو ، تجاه محلّ « باسيه » ، تاجر الصُّور المطبوعة على الخشب ، عند زاوية شارع الماتورين . ولم يكن يَطْعَمُ حساء ما ، مجتزئاً بطبق من اللحم بستة فلوس ، ونصف طبق من الخضر بثلاثة فلوس ، وطبق من الفاكهة او الحلوى بثلاثة فلوس . وكان يقدّم اليه ، بثلاثة فلوس ، ايُّ مقدار من الخبز يشاء . اما خمره فكانت الماء . حتى اذا نهض ليسدد حسابه عند المنضدة ، حيث تجلس مدام روسو في عظمة ، وكانت ما تزال في تلك الحقبة بدينة ناضرة البشرة ، أعطى النادل فلساً ، واعطته مدام روسو ابتسامة . لقد فاز ، مقابل ستة عشر فلساً بابتسامة وعشاء .

أما مطعم روسو هذا — حيث يُفرَغ قليل من القناني وكثيرٌ من

الاباريق – فكان مُسكِّناً اكثر منه مطعماً . إنه لم يعد قائماً ، اليوم . وكان لصاحبه لقب بديع ؛ كانوا يدعونه **روسو المائي** .

وهكذا : فطور باربعة فلوس ، وعشاء بستة عشر فلساً . كان طعامه يكلفه عشرين فلساً في اليوم ، يعني ثلاثئة وخمسة ستين فرنكاً في العام . أضف الى هذا ، الثلاثين فرنكاً وهي اجرة غرفته ، والستة والثلاثين فرنكاً وهي أجر المرأة العجوز ، وبعض النفقات الاخرى الضئيلة تجد ان ماريوس كان يأكل ويبيت ويُخدم لقاء اربعمئة وخمسين فرنكاً . وكلفته بذلته مئة فرنك ، وملابسه الداخلية خمسين فرنكاً ، وغَسْلُ تلك الملابس خمسين . وكذلك لم تتجاوز نفقاته كلها ستمئة وخمسين فرنكاً . وهذا ما ابقى له خمسين فرنكاً . كان غنياً . وبين الفينة والفينة كان يُعير صديقاً من أصدقائه عشرة فرنكات . وذات مرة استعار كورفيراك ستين فرنكاً منه . أما التدفئة – ولم يكن في غرفته موقد – فكان ماريوس قد « بسّطها » .

وكانت عند ماريوس دائماً بذلتان كاملتان ، احداهما عتيقة « للايام جميعاً » ، والاخرى بالغة الجِدّة ، للمناسبات الخاصة . وكانت كلتاهما سوداء . ولم يكن عنده غير ثلاثة قمصان ، احدها على بدنه ، والآخر في الدرج ، والثالث عند الغسالة . وكان يجدّدها كلما بليتْ . وكانت رثةً في الاغلب ، وهكذا جرت عادته بأن يزرّر سترته حتى الذقن .

ولم يبلغ ماريوس هذه الحالة الزاهرة إلا بعد صبر دام سنوات طويلة . سنوات شاقة ، عسيرة ؛ بعضها لكي يشق طريقه ، وبعضها لكي يصعد في جدّ . ولم يعرف ماريوس اليأس يوماً واحداً . لقد تحمل كل شيء في مجال الحرمان . ولقد عمل كل شيء ما خلا التردّي في الدَّين . لقد تمدّح بهذه المأثرة ، وهي أنه لم يكن في يوم من الأيام مديناً لأحد بفلس واحد . فقد كان الدَّين ، في اعتقاده ، اول العبودية . بل لقد استشعر ان الدائن شرّ من السيد . ذلك بأن السيّد لا يملك إلا

شخصك ، أما الدائن فيملك كرامتك ، وفي استطاعته أن يصفعها .
وبدلاً من أن يستدين ، كان يمتنع عن الطعام . لقد عرف أيامَ صومٍ
كثيرة . واذ أحسّ بأن جميع الأطراف القصوى تلتقي ، واننا اذا لم
تتخذ حذرنا فمن الجائز ان يؤدي انخفاض الحظّ الى انحطاط النفس ،
فقد سهر في كثير من الغيرة على شهامته . كانت هذه العادة او تلك
المشية وغيرهما (مما بدا له في جميع الاحوال الاخرى ناضحاً بالاحترام)
تبدو له راشحةً بالاحتقار ، فهو ينأى بنفسه عنها . إنه لم يخاطر بشيء اذ
كان غير راغب في النكوص على عقبيه . كان يعلو وجهَه ضربٌ صارم
من حمرة الخجل . فقد كان حيياً حتى الفظاظة .

وفي جميع محنِهِ استشعر ان قوة خفية باطنية تشجعهُ بل وتحرّضه
في بعض الاحيان . إن النفس تُعين الجسد ، وفي بعض الاحيان ترفعه .
إنها الطائر الوحيد الذي يحمل قفصه .

والى جانب اسم ابيه كان اسمٌ آخر منقوشاً على قلب ماريوس ،
هو اسم تيناردييه . كان ماريوس ، بطبيعته الحماسية والجدّية ، قد
طوّق بضربٍ من الهالة ذلك الرجل الذي كان مديناً له – كما توهم –
بحياة والده ، ذلك الرقيب الذي انقذ الكولونيل وسط قذائف واترلو
وقنابلها . إنه لم يفصل في يوم من الايام ذكرى هذا الرجل عن ذكرى
أبيه ، ولقد كان يجمع ما بينهما في إجلاله . كان ذلك الاجلال ضرباً
من العبادة على درجتين ، فالمذبح الكبير للكولونيل ، والمذبح الصغير
لتيناردييه . وكان مما كثّف عرفانه للجميل إدراكُه أن تيناردييه قد
سقط في مهاوي الفاقة فكادت تبتلعه . فقد علم ماريوس من ابناء
مونفيرماي بأفلاس الفندقيّ التعس . ومنذ ذلك الحين وهو يبذل جهوداً
لم يُسمع بمثلها لكي يتعقب أثره ، ويحاول العثور عليه في هوة البؤس
المظلمة التي اختفى فيها . وكان ماريوس قد جاب البلاد كلها من أجل
ذلك . لقد شخص الى شيل ، الى بوندي ، الى غورناي ، الى نوجان ،

الى لانيي . وطوال ثلاث سنوات وقف نفسهُ لهذا الغرض ، منفقاً في تنقيباته هذه كل ما وفره من مال ضئيل . بيد أنه لم يجد من يزوّده بأيّما نبأ عن تيناردييه . لقد اعتقد القوم بأنه هاجر الى بلد أجنبي . وكان دائنوه قد بحثوا عنه ايضاً ، في حبّ اقل من حبّ ماريوس ، ولكنْ في عناد مثل عناده ، فلم يوفقوا الى وضع يدهم عليه . ولام ماريوس نفسه ، بل لقد كاد يبغضها ، لاخفاقه في مباحثه . كان ذلك هو الدّين الأوحد الذي تركه الكولونيل له ، ولقد حسب ماريوس أن في دفعه شرفاً له وكرامة . وفكر في ما بينه وبين نفسه : « عجيب ! عندما كان والدي يلفظ أنفاسه الاخيرة في ساحة القتال عرف تيناردييه كيف يجده وسط الدخان وقذائف المدافع ويرجع به وقد حمله على منكبيه ، ومع ذلك فلم يكن مديناً له بشيء . في حين اني انا ، المدين لتيناردييه بشيء كثير ، أعجزُ عن الوصول اليه في تلك الظلمة التي يعاني وسطها سكرات الموت ، وأعيده بدوْري من الموت الى الحياة ! اوه ! سوف أجده ! » والواقع ان ماريوس كان مستعداً لأن يقدّم إحدى ذراعيه ثمناً للعثور على تيناردييه ، وأن يبذل دمه كله ثمناً لانقاذه من الشقاء . فلأن يرى تيناردييه ، ولأن يسدي خدمةً ما الى تيناردييه ، ولأن يقول له : « انت لا تعرفني ، ولكني اعرفك . ها أنا ذا ! اني تحت تصرفك ! » — ذلك كان اعذب أحلام ماريوس وأبهاها .

٣

ماريوس رجلاً

كان ماريوس قد بلغ ، في تلك الفترة ، العشرين من عمره . لقد انقضت ثلاث سنوات على فراقه جدّه . وكان كلٌّ منهما قد لزم موقفه ،

فلم يحاولا إصلاح ذات البين ولم يسعيا الى اللقاء . وما جدوى اللقاء ، في الواقع ؟ ألكي يتصادما ؟ ومن الذي سوف يستخلص حقــه من الآخر ؟ لقد كان ماريوس زهرية من نحـــاس أصفر ، ولكن مسيو جيلنورمان كان إناءً من حديد .

ولنقل هنا إن ماريوس أخطأ في فهمه لقلب جدّه . لقد تخيل أن مسيو جيلنورمان لم يحبه في يوم من الايام ، وأن هذا الرجل العجوز الجافّ القاسي الضاحك الذي كان يجدّف ، ويصيح ، ويعصف ، ويرفع عصاه لم يكن يستشعر نحوه على التكثير غير تلك المودة الخفيفة الصارمة معاً ، التي يتكشف عنها عجائز الكوميديا . لقد خُدع ماريوس . إن ثمة آباء لا يحبون اولادهم . ولكن ليس ثمة جدّ لا يهيم بحفيده . والحق اننا قلنا من قبل إن مسيو جيلنورمان كان يعبد ماريوس . لقد عبده بطريقته الخاصة ، على انغام الكلام اللاذع ، بل على انغام الصفعات . ولكن ما إن ذهب الغلام حتى احسّ بفراغ أسود في فؤاده . لقـد أصدر أمره بأن لا يحدثه احدٌ حديثَه منذ اليوم ، آسفاً في ما بينـه وبين نفسه لأن يكون أمرُه قد أطيع على هذا النحو الدقيـــق . وفي بادىء الأمر ، كان يرجو أن ينكص هذ البُوُناپرتي ، هذا اليعقوبي ، هذا الارهابي ، هذا الأيلوليّ * ، على عقبيه . ولكن الاسابيع انقضت ، والاشهر تصرّمت ، والسنين حالت ، من غير ان يعود شارب الدماء — ويا لبأس مسيو جيلنورمان ! — الى الحظيرة . « ولكني مـا كنت قادراً على أن أفعل شيئاً غير طرده . » كذلك قال الجدّ بينه وبـين نفسه ، ثم تساءل : « لو ان ذلك الحادث قد تكرر فهل أعاود الاقدام على ما أقدمتُ عليه ؟ » وعلى الفور ، أجابت كبرياؤه أن نعم ، ولكن رأسه العجوز الذي هزه في صمت اجـــاب في حزن ان لا . كانت له

---

* الايلوليون Septembriseurs هم الذين شاركوا في المذبحة التي ذهب ضحيتهـا المعتقلون السياسيون في سجون باريس من ٢ — ٦ ايلول عام ١٧٩٢ .

ساعات خَوَرِه . وافتقد ماريوس . فالعجائز يحتاجون الى المودّات حاجتهم الى أشعة الشمس . إنها دفء . وبرغم الصلابة التي تميزت بها طبيعته ، كان غياب ماريوس قد غير شيئاً في ذات نفسه . وما كان خليقاً به ان يخطو خطوة واحدة نحو « الوغد الصغير » بأي ثمن ؛ ولكنه تألم . ولم يستطلع نبأه قط ، ولكنه فكر فيه تفكيراً موصولاً . كان يسكن ، معتزلاً المجتمع اكثر فأكثر ، في الـ « ماريه » . وكان لا يزال ، شأنه من قبل ، مرحاً عنيفاً ، ولكن مرحه كان يتّسِمُ بقساوة متشنجة فكأنها تنطوي على وجع وغضب ، وانفجارات عنفه كانت تنتهي دائماً بضرب من الضنى العذب القاتم . كان يقول في بعض الاحيان : « أوه ، ايّ صفعة سوف أصفعه لو قُدّر له ان يعود ! »

اما الخالة فكان تفكيرها أندر من ان يحملها تحب حباً جماً . إن ماريوس لم يعد عندها غير ضرب من الصورة المظلّلة أسودَ غامضٍ ؛ ولقد انتهت آخر الأمر الى ان تشغل نفسها به اقلّ بكثير مما شغلتها بالهرة أو بالببغاء التي كانت عندها في اغلب الظن .

وكان مما ضاعف الآلام الخفية التي عاناها جيلنورمان الأب أنه احتبس تلك الآلام في ذات نفسه ولم يدع ابنته تشعر بشيء من ذلك . كان ثمّة مثل تلك الافران المخترَعة حديثاً والتي تُحرِق دخانها نفسه . وقد يتفق احياناً ان يحدّثه بعض الاشخاص ، النزّاعين الى الخير المعرّضين للبلايا ، حديث ماريوس ويسأله قائلاً : « ايّ شيء يفعله حفيدك ؟ » أو « ما الذي حلّ بحفيدك ؟ » فيجيبه البورجوازي العجوز ، وهو يتنهد ، اذا كان محزوناً اكثر مما ينبغي ، أو وهو يخفق بسبّابته الحليةَ التي تزيّن طرف رُدْن قميصه ، اذا كان يبتغي ان يبدو مبتهجاً : « إن السيد البارون بونميرسي يترافع في بعض القضايا الحقيرة في زاوية من الزوايا . »

وفيما العجوز يأسف ، كان ماريوس يتهلل . لقد محا الشقاءُ ، شأنه

مع ذوي القلوب الطيّبة ، كربَهُ ومرارته . كان لا يفكر في مسيو جيلنورمان إلا في دماثة ، ولكنه كان قد وطّن العزم على ان لا يتلقى شيئاً اضافياً من الرجل **الذي كان شديد القسوة على أبيه** . كان ذلك ، الآن ، هو التعبير الملطّف لسخطه القديم . والى هذا ، فقد كان سعيداً بأنه قاسى الآلام ، وبأنه ما يزال يقاسيها . كان ذلك من اجل أبيه . لقد أرضته قسوة الحياة ، ولقد سرّته . كان يقول لنفسه في ضرب من البهجة **ان هذا أقل ما ينبغي له** ، وان ذلك كان تكفيراً ، وإنه لولا هذا اذن لعوقب على نحو آخر وفي موعد آجل بسبب من لا مبالاته الملحدة بأبيه ، وايّ أب ! وانه ليس من العدل ان يكون ابوه قد قاسى تلك الآلام كلها وان لا يتحمل هو ألماً ما ، وعلى اية حال فما جهوده وما إملاقه اذا قيسا بحياة الكولونيل البطولية ؟ وإن وسيلته الوحيدة للاقتراب من والده والتشبّه به هي ان يكون باسلاً في وجه العوز كما كان هو شجاعـــاً في وجه العدوّ ؛ وإن ذلك كان ما عناه الكولونيل ، من غير شك ، بقوله : **« ولسوف يكون جديراً به »** . كلمات كان ماريوس ما يفتأ يحملها ، لا فوق صدره ، بعد ان اختفت وصية الكولونيل ، ولكنْ في فؤاده .

وفوق هذا ، فقد كان مجرد طفل حين طرده جده ، اما الآن فقد أمسى رجلاً . لقد احسّ بذلك . لقد اسدى اليه البؤس – وينبغي ان نصرّ على هذا – خدمةً صالحة . فللفاقة في الشباب – حين ينجح – هذه الخاصة الرائعة ، وهي ان تُوجّه الارادةُ كلها نحو العمل ، والنفس كلها نحو السموّ . إن الفقر يعرّي الحياة المادية في الحال ، ويجعلهـــا بشعة ، ومن هنا تنشأ ضروب من التوق الى الحياة المثالية لا سبيل الى التعبير عنها . إن للغنيّ مئةً من التسليـــات المشرقة والفظّة : سباق الخيل ، والقنص ، والكلاب ، والتبغ ، والقمار ، والمآدب ، وأضرابها ؛ شَغْلٌ للاجزاء الدنيا من النفس على حساب الاجزاء الرفيعة الرقيقة . إن

على الشاب الفقير ان يعمل كسباً لخبزه . إنه يأكل . حتى اذا أكل لم يبقَ له غير الاستغراق في التفكير الحالم . إنه يشهد ، بالمجان ، المسرحية التي يقدمها الله . إنه يتأمل السماء ، والمدى ، والنجوم ، والازهار ، والاطفال ، والانسانية التي يتألم فيها ، والخليقة التي يتألق فيها . إنه يسرف في النظر الى الانسانية حتى ليرى الروحَ ، وإنه يسرف في النظر الى الخليقة حتى ليرى الله . هو يحلم ؛ هو يشعر بأنه عظيم ؛ وهو يحلم كرة اخرى ؛ وهو يشعر بأنه رقيق القلب . ومن أنانية الرجل الذي يتألم ، ينتقل الى حنان الرجل الذي يتأمل . إن عاطفة رائعة لتتفجّرُ في ذات نفسه : نسيان النفس ، والرحمة للجميع . إنه اذ يفكر في المسرّات غير المعدودة التي تقدمها الطبيعة وتمنحها وتسخو بها للنفوس المنفتحة وتأباها على النفوس المغلقة ينتهي — هو ، مليونير الذكاء — الى ان يرثي لمليونيري المال . ويفارق البغضُ كله فؤاده بقَدر ما يتسرّب النور كله الى عقله . وبعدُ ، أهو تعس ؟ لا . إن بؤس شابٍ من الشبان ليس بائساً ابداً . إن اول فتىً تقع عليه عيناك ، مهما يكن فقيراً ، خليق بأن يثير — بصحته ، وقوته ، وخطوته الرشيقة ، وعينيه اللامعتين ، ودمه الذي يجري حاراً ، وغدائره السوداء ، ووجنتيه النضرتين ، وشفتيه الورديتين ، واسنانه البيضاء ، ونَفَسه الطاهر — حَسَدَ الاباطرة العجائز دائماً . ثم إنه ينطلق كل صباح سعياً وراء الخبز ؛ وفيما تكسب يداه الرغيف يكسب عموده الفقريّ شهامةً ، ويكسب دماغه افكاراً . حتى اذا أتم عمله ، انقلب الى النشوات الروحية التي تمتنع على التصوير ، الى التأمل ، الى الجذل . إنه يرى قدميه في المصاعب ، في العقبات ، على بلاط الشارع ، في العُلّيق ، وأحياناً في الوحل ؛ ويرى رأسه في النور . إنه مكينٌ ، بشوش ، رقيق الحاشية ، سهل الخليقة ، يقظٌ ، رصين ، يقنع بالقليل ، عامر القلب بالعطف . وهو يحمد الله لأنه منحه هذين الكنزين اللذين يُعوِزان كثيراً

من الاغنياء : العمل ، الذي يُسبغ عليه الحرية ؛ والفكر ، الذي يُلبسه رداء النبل .

ذلك ما جرى في ذات نفس ماريوس . بل لقد ذهب — اذا اردنا ان نقول كل شيء — الى أبعد ، قليلاً ، مما ينبغي ، في حقل التأمل . فما إن بلغ المرحلة التي اطمأن فيها ، او كاد ، الى كسب رزقه ، حتى وقف هناك ، مُؤثراً ان يكون فقيراً ، مقتصداً في العمل لكي ينصرف الى التفكير . يعني أنه كان ينفق احياناً اياماً بكاملها في التفكير ، غارقاً مثل اصحاب الرؤى والاحلام في المباهج الخرساء التي تتيحها النشوة الروحية والسنى الباطني . كان قد طرح مشكلة حياته على هذا النحو : أن يعمل أقلّ قدرٍ مستطاع في ميدان العمل الملموس ، ليعمل اكبر قدر مستطاع في ميدان العمل غير الملموس . وبكلمة اخرى أن يعطي الحياةَ الواقعية بضعَ ساعات ويقذف بسائرها الى اللانهاية . إنه لم يفطن — وقد حسِبَ أن شيئاً ما لا يُعوزه — الى أن التأمل الذي يفهمه المرء على هذا النحو ينتهي الى ان يصبح شكلاً من أشكال الكسل ، ولم يدرك انه كان قانعاً بقَهْر ضرورات الحياة الأولية ، وأنه كان يستريح بأبكر مما ينبغي .

كان واضحاً ان هذا لا يمكن ان يكون - بالنسبة الى طبيعته الهامة النجيبة — غير حالة عابرة ، وان ماريوس سوف يستيقظ عند أول اصطدام بتعقيدات القدَر التي لا مفرّ منها .

وفي غضون ذلك ، وبرغم كونه محامياً ، وأياً ما كانت الافكار التي راودت جيلنورمان الجدّ ، فانه لم يكن يترافع ، بل لم يكن يتولى الدفاع في بعض القضايا الحقيرة . كان الاستغراق في التأمل قد صرفهُ عن القانون . كان الاختلاط بالمحامين ، والتردد الى قصر العدل ، وتصيّد القضايا ، شيئاً يبعث على الضجر . وما حاجته الى ذلك ؟ إنه لم يرَ سبباً يدعوه الى تغيير مرتَزَقه . فقد قدّمت اليه تجارةُ

الكتب هذه ، الرخيصة ، الخاملة ، عملاً اكيداً ، عملاً لا يقتضيه غير قليل من الجهد كان يكفيه ، كما شرحنا من قبل .

وكان احد الكتُبيين الذين عمل في خدمتهم ، وهو مسيو ماجيميل في ما أعتقد ، قد عرض عليه ان يُنزله في بيته ، ويقدّم اليه غرفة جيدة ، ويزوّده بعمل نظامي ، ويدفع اليه الفاً وخمسمئة فرنك كل عام . أن تكون له غرفة جيدة ؟ ألف وخمسمئة فرنك ! حسن جداً ! ولكن أيتخلى عن حريته ؟ أيصبح شبه موظف يعمل من اجل الراتب ؟ ضرباً من الأديب المستخدَم في مكتب ؟ كان قبول ذلك ، في نظر ماريوس ، يحسّن وضعه ، ويجعله اسوأ في آنٍ معاً . كان خليقاً بأن يُكسبه شيئاً من الرفاهية ، وبأن يُفقده شيئاً من الكرامة . لقد كان يقتضيه ان يتخلى عن شقاء كامل عذبٍ في سبيل عسرٍ بشعٍ مضحك . إنه شيء اشبه بالأعمى يفوز بعين واحدة . ورفضَ .

وعاش ماريوس في عزلة . وكان قد قرّر ان لا يدخل الجماعةَ التي يرئسها آنجولراس ، وذلك بسببٍ من نزعته الى الابتعاد عن كل شيء ، وبسبب من غلوّ تلك الجماعة وتطرّفها . لقد ظلاّ صديقَين مخلصين . وكانا مستعدين لأن يساعد احدهما الآخر ، اذا قضت الحاجة ، بمختلف الطرق الممكنة ، ولكنْ ليس أكثر من ذلك . كان لماريوس صديقان ، شابٌ هو كورفيراك ، وعجوز هو مسيو مابوف ، وكان أميلَ الى الصديق العجوز . كان قبل كل شيء مديناً له بالثورة التي اندلعت في نفسه ؛ كان مديناً له بمعرفته أباه وحبّه له . وكان يقول : « لقد أجرى لي جراحة ظلام العدسة البلورية . »

حقاً ، لقد كان وكيل الكنيسة هذا حاسماً .

بيد ان مسيو مابوف لم يكن في تلك المناسبة شيئاً اكثر من رسول هادىء مطواع من رسل العناية الالـهية . كان قد نوّر ماريوس مصادفةً ومن غير ان يكون له بذلك علم ، كما تفعل شمعة يحملها شخص

ما . لقد كان هو تلك الشمعة لا ذلك الشخص .

أما ثورة ماريوس السياسية الباطنية فقد كان مسيو مابوف عاجزاً كل العجز عن فهمها ، أو الرغبة فيها ، أو توجيهها .

واذ كنا سنلتقي مسيو مابوف في ما بعد ، فأن من المفيد ان نقول بضع كلمات فيه .

٤
مسيو مابوف

يومَ قال مسيو مابوف لماريوس : « **أنا اقرّ اعتناق الاراء السياسية من غير شك** » كان يعبّر عن وضعه الفكريّ الحقيقي . كانت جميع الآراء السياسية سواءً عنده ، وكان يقرّها جميعاً من غير تمييز ، شرط ان لا تعكر عليه هدوءه ، كما كان الاغريق يدعون آلهة الجحيم « الحسان ، الخيّرات ، الفاتنات » ، Les *Euménides* * . كان رأي مسيو مابوف السياسي يتلخص بالهيام بالنباتات ، وبالهيام على نحو أخص بالكتب . كان له شأنَ سائر الناس ياء نسبته الدالة على المذهبية ، والتي ما كان في ميسور أحد ان يحيا بدونها في تلك الايام . ولكنه لم يكن لا ملكياً ، ولا بونابرتياً ، ولا دستورياً ، ولا اورليانياً ** ولا فوضوياً . كان كتبياً متاجراً بالكتب القديمة .

انه لم يفهم كيف يشغل الناس انفسهم بالتباغض من اجل اشياء باطلة مثل الدستور ، والديموقراطية ، والشرعية ، والملكية ، والجمهورية الخ . في

---

* وتعني المعطوفات الملاطفات ، وهو اسم التيمن الذي كان الاغريق يخلعونه على آلهة الجحيم (*Erinnyes* او *Furies*)

** نسبة الى دوق اورليان (١٨١٠ - ١٨٤٢) ابن لويس فيليب .

حين يحفل هذا العالم بمختلف ضروب الطحالب ، والاعشاب ، والشجيرات التي يستطيعون النظر اليها ، وبركام من الكتب من قطع نصف الطلحية بل ومن قطع واحد على اثنين وثلاثين من الطلحية يستطيعون تصفّحها . ولقد بذل عناية كبيرة لكي لا يكون قليل الغَناء . إن امتلاكه الكتب لم يمنعه من المطالعة ، وان كونه عالماً بالنبات لم يمنعه من ان يكون بستانياً . وحين عرف بونفيرمي ، نشأت بينه وبين الكولونيل هذه المشاركة الوجدانية وهي ان ما فعله الكولونيل من اجل الازهار ، فعلَهُ هو من أجل الاثمار . وكان مسيو مابوف قد وُفّق الى إنتاج اجاص يُزْرَع بذْراً لا يقلّ نكهةً عن اجاص سان جيرمان . وانما ندين لأحدى تركيباته ، في ما يظهر ، بخوخ اوكتوبر الصغير الاصفر ، الذي أمسى اليوم شهيراً ، والذي لا يقل عطريةً عن نظيره من خوخ الصيف . وكان يشهد القداس بدافع من الدماثة اكثر مما كان يشهده بدافع من العبادة ، ولأنه كان يحبّ محيّا الرجال ولكنه يكره صخبهم ، وما كان ليجدهم مجتمعين صامتين الا في الكنيسة . وإذ كان يشعر أن عليه أن يكون شيئاً في الدولة فقد اختار وظيفة وكيل كنيسة . وأخيراً فأنه لم يوفّق قطّ الى ان يحب أيما امرأة حبّهُ لبصلة من بصلات الخزامى ، أو ايما رجل حبّهُ لكتاب من مطبوعات أسرة « ايلزيفير » . * وكان قد تجاوز سنّه الستين منذ فترة غير قصيرة عندما سأله شخص ما ، ذات يوم : « ألم تتزوج قط ؟ » فأجابه : « لقد نسيت ! » وحين يتفق له في بعض الاحيان — ومن ذا الذي لا يتفق له ذلك ؟ — أن يقول : « اوه ، لو كنت غنياً ! » فأنه ما كان ليقولها وهو ينظر من طرف خفيّ الى فتاة حسناء ، مثل مسيو

* Elzévir أسرة شهيرة من الطابعين لمعت خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر في لايدن ، ولاهاي ، واوترخت ، وآمستردام . وكان اقدم افرادها لويس ايلزيفير . وكانت مطبوعاتها تتميز بأحرفها النحيلة .

جيلنورمان ، ولكنْ لدن رؤيته كتاباً قديماً . لقد عاش وحده ، مع مربية عجوز . كان مصاباً بنقرس الايدي بعض الشيء ، حتى اذا نام تشبّثت اصابعه الهرمة ، المتصلبة بالروماتزم ، بثنيّات الشرشف . وكان قد ألف ونشر « نباتات ضواحي كوتيريتز » المزين بالرسوم الملونة ، وهو مصنّف جليل كان يحتفظ بالواحه النحاسية ، وكان يبيعه بنفسه . وكان الناس يقبلون مرتين أو ثلاث مرات في اليوم فيقرعون جرسه ، في شارع ميزيير ، التماساً لذلك الكتاب . وكان يجني من ورائه الفي فرنك كاملةً كل عام ، وكان ذلك كلّ دخله تقريباً . وبرغم فقره ، وفق الى ان يلمّ – بالصبر ، والحرمان ، والوقت – شتات مجموعة نفيسة من النسخ النادرة ، في كل موضوع . انه لم يغادر منزله قطّ ، يوماً ، إلا وهو متأبط كتاباً ، وكثيراً ما كان ينقلب اليه حاملاً كتابين . وكان الزخرف الوحيد الذي يزين غرف الدور الارضي ذات الحديقة الصغيرة التي تؤلف بيته ، بعض مجموعات النباتات المؤطّرة * المحفوظة للدرس ، وبعض النقوش من عمل الفنانين القدماء . كان مشهد سيف ما، او بندقية ما ، يوقع القشعريرة في جسمه . فطوال حياته ، لم يقف قرب مدفع ما ، حتى في الانفاليد . كان له معدةٌ لا بأس بها ، وأخ كاهنٌ ، وشعرٌ اشيب كلُّه ، ولم يكن قد بقي من اسنانه شيء ، لا في فمه ولا في عقله ؛ وكانت له ارتعاشة تلفّ جسده كله ، ولهجةٌ بيكاردية ، وضحكة طفلية ، وأعصاب واهنة ، وسيماء خروف عجوز . ومع هذا كله ، لم يكن له اي صديق أو صاحب حميم بين الأحياء غير كتبيّ عجوز في شارع « دو لا بورت سان جاك » يُدعى رويول . كان حُلمَ حياته أن يجعل العِظْلِم ** نباتاً وطنياً في فرنسة .

---

* المحاطة بأُطر.

** العظلم : نبات « النيل » الذي يستخرج منه الصبغ الازرق المعروف بهذا الاسم .

وكانت خادمته هي الاخرى ، ضرباً مخصوصاً من البراءة . كانت تلك العجوز الفقيرة الصالحة عذراء . وكان هرّها ، « سلطان » ، الذي كان قادراً على ان يموء بمزمور آليغري * في كنيسة سيستين ، قد ملأ فؤادها وسدّ حاجة ذلك القدْر الذي كانت تملكه من العاطفة . إن اياً من أحلامها لم يذهب بها الى تخوم رجل ما . وهي لم تجتز في يوم من الايام حدود هرّها ذاك . لقد كان لها ، مثله ، شاربان . وكان مجدها في قلانسها ، الناصعة البياض دائماً . وكانت تنفق وقتها يوم الاحد بعد القداس ، في عدّ ملابسها الداخلية في صندوق امتعتها ، وفي نشر فساتينها التي ما تزال قِطعَ قماش ، تلك الفساتين التي اشترتها ولكنها لم تخطها قط . كانت تعرف القراءة . وكان مسيو مابوف قد اطلق عليها اسم **الأم بلوتارك** **

ووقع ماريوس موقعاً حسناً عند مسيو مابوف ، لأن ماريوس ، الغضّ الاهاب العذب الروح ، أسبغ الدفء على شيخوخته من غير أن يُجفّل خوفه . إن الشباب ، مصحوباً بالعذوبة ، ليخلّف في نفوس الشيوخ مثل أثر اشعة الشمس من غير رياح . وحين أُشبِع ماريوس بالمجد العسكري ، بالبارود ، وبزحف الجيوش ، وبزحفها في اتجاه معاكس لاتجاهها السابق ، وبجميع تلك المعارك الأعجوبيّة التي أعطى فيها أبوه وتلقّى ضرباتِ سيفٍ ضخمة جداً ، ذهب ليرى مسيو مابوف ، فحدّثه مسيو مابوف عن البطل من وجهة النظر الرياحينية .

وحوالى عام ١٨٣٠ ، توفي اخوه الكاهن . وبعد ذلك مباشرة تقريباً ، كالذي يقع عندما يهبط الليل ، أظلمَ أُفقُ مسيو مابوف كلهُ . لقد خسر ، بإفلاس كاتبٍ من الكتاب العدول ، عشرة آلاف فرنك

---

* Allegri مؤلف موسيقي ايطالي (١٥٨٢ — ١٦٥٢) وضع لحناً مزمورياً شهيراً .

** بلوتارك هو المؤرخ الاغريقي الكبير صاحب كتاب « سير مشاهير اليونان وروما ».

كانت كل ما يملكه من مال باسم اخيه وباسمه . وأدّت ثورة تموز *
الى أزمة في بيع الكتب . ففي ايام الحرج يصيب الكساد ، اول ما
يصيب ، الكتب الخاصة بنباتات بلد من البلدان . وتوقف رواج
« نباتات ضواحي كوتيريتز » فجأة . فتصرّمت أسابيع من غير أن
يفِد من يشتريه . وفي بعض الاحيان كان مسيو مابوف يثب طرباً عند
سماعه رنين الجرس ، فتقول له الأم بلوتارك ، محزونةً : « إنه
السقّاء . » وبالاختصار ، فقد غادر مسيو مابوف شارع ميزيير ذات
يوم ، وتخلّى عن مهامّ وكيل الكنيسة ، وهجر سان سولبيس ، وباع
جزءاً - لا من كتبه ، ولكنْ من صوره المطبوعة على الخشب ،
وكان اقلّ تعلّقاً بها منه بمجموعة كتبه - وأقام في بيت صغير بجادة
مونبارناس ، حيث استقرّ ثلاثة اشهر ليس غير ، لسببين اثنين : أولهما
أن الدور الارضي والحديقة كلّفاه ثلاثمئة فرنك وما كان يجرؤ على ان
يدفع اكثر من مئتي فرنك أجراً لمنزله . وثانيهما أنه ، وقد نزل على
مقربة من مرمى النار المعروف بمرمى « فاتو » ، كان يسمع طوال
النهار طلقات المسدّسات ، وهو امرٌ لم يكن في وسعه ان يحتمله .

وحمل مصنفه النباتي ، والواحه النحاسية ، ومجموعاته النباتية المحفوظة
المدرس ، ومحافظه ، وكتبه ، واستقرّ قرب الـ « سالبيتريير » في شبه كوخ
بقرية اوسترليتز حيث استأجر ثلاث غرف ، وحديقة مطوقة بسياج من
النبات الشائك ، وبئراً ، لقاء خمسين ريالاً في العام . ولقد أفاد من هذه
النقلة فباع اثاثه كله تقريباً . ويوم دخل الى هذا المأوى الجديد استشعر
ابتهاجاً بالغاً ، وراح يدق المسامير بنفسه ليعلق عليها النقوش والمجموعات
النباتية المحفوظة . وأنفق بقية النهار في حفر حديقته ، حتى اذا هبط الليل
ورأى انطباعة قاتمة متفكرة ترينُ على وجه الأم بلوتارك ، ربت على

** هي الثورة التي أطاحت بشارل العاشر (تموز ١٨٣٠) ورفعت لويس فيليب
الى عرش فرنسة .

كتفها وقال وهو يبتسم : « آه ، إن عندنا نبات النيل ! »

كان زائران اثنان ليس غير ، كتبي « لا بورت سان جاك » وماريوس ، يُستقبلان في كوخه بأوسترليتز ، وهو امرؤ صاحب كان — اذا اردنا ان نقول الحقيقة — بغيضاً جداً الى نفسه .

بيد ان العقول المستغرقة في الحكمة ، او في الحماقة ، أو في الحكمة والحماقة في آن معاً كما يتفق في كثير من الاحيان ، لا تنفذ اليها شؤون الحياة ، كما اشرنا من قبل ، الا نفاذاً بطيئاً . ان قدَرها بعيد عنها . وانما ينشأ عن هذا التركيز العقلي انفعالية خليقٌ بها ، اذا كانت قياسية ، ان تشبه الفلسفة . إننا ننحرف ، إننا نهبط ، إننا نسقط ، بل اننا ننهار ، ولا نلحظ ذلك الا بشقّ النفس . صحيح ان هــذا ينتهي دائماً ، بيقظة ، ولكنها يقظة متأخرة . وفي غضون ذلك يبدو وكأننا نقف موقفاً عادياً من تلك المباراة الجارية ما بين سعادتنا وشقائنا . ان مصيرنا نحن لمرهونٌ بتلك المعركة ، ومع ذلك فنحن نتابع وقائعها في لا مبالاة .

وهكذا احتفظ مسيو مابوف بطلاقة وجهه ، على نحو طفــليّ بعض الشيء ، ولكن في كثير من النفاذ ، وسط هذه الظلمة التي كانت تتجمع حوله ، وقد انطفأت آماله أملًا بعد أمل . لقد عرفتْ عاداتُه العقلية مثلَ ذبذبة رقاص الساعة ، الدائمة . انه وقد عُبيء بالوهم مرة ظلّ منطلقاً فترة طويلة حتى بعـــد ان زايله ذلك الوهم . فالساعة لا تقف فجأة لحظةَ نضيع المفتاح .

وكانت لمسيو مابوف بعض المباهج البريئة . وكانت تلك المباهج رخيصة وغير مرتقبة ، اذ كانت اقلُّ المصادفات تتيحها له . فذات يوم ، كانت الأم بلوتارك تقرأ رواية في زاوية الغرفة ، وكانت تقرأ بصوت مرتفع واجدةً ان ذلك يساعدها على حسن الفهم . إن قراءة المرء بصوت مرتفع تؤكد له ما يقرأه . وثمة أناس يقرأون بصوت مرتفع جداً ، وقد بدت عـلى محياهم سيما من يقسم لنفسه بين الشرف على صحة ما يقرأه .

بمثل تلك الطاقة كانت الأم بلوتارك تقرأ الرواية التي امسكت بها بيدها . وسمع مسيو مابوف ، ولكنه لم يصغ .

وفيما هي تقرأ انتهت الأمّ بلوتارك الى هذه العبارة . كانت تتحدث عن ضابط في سلاح التنانين وإحدى الحسان :

ـ « إن الحسناء قد أبدت استياءها *bouda* وإن التنّين ... »

وكفّت هنا عن التلاوة لكي تمسح نظارتيها .

فقال مسيو مابوف في صوت كالهمس :

ـ « بوذا (*Bouddha*) والتنّين . اجل ، هذا صحيح . لقد كان هناك تنين أطلق شدقَيْهُ اللهبَ ، من اعماق غاره ، فأضرم النار في السماء . ولقد احترقت عدة نجوم ، بسبب من هذا الوحش الذي كانت له براثن نَمِرٍ ايضاً . فما كان من بوذا إلا ان مضى الى الغار ، ووفّق الى هداية التنين . إن هذا الكتاب الذي تقرأينه ، ايتها الأم بلوتارك ، كتاب جيد . ليس ثمة اسطورة اجمل من هذه الاسطورة . »

واستغرق مسيو مابوف في تفكير حالم عذب .

٥
الفقر ، جار طيب للشقاء

ومالت نفس ماريوس الى هذا العجوز الابيض القلب ، الذي راى الى العَوز يستبدّ به شيئاً بعد شيء ، والذي انتهى الى ان يأخذه الدهش لذلك شيئاً بعد شيء ، ولكن من غير ان يلمّ به الحزن على الاطلاق . وكان ماريوس يلتقي كورفيراك ويمضيان لزيارة مسيو مابوف . بيد أن هذه الزيارات كانت نادرة جداً . مرةّ او مرتين ، كل شهر ، على الأكثر .

وكان يبهج قلب ماريوس ان يتمشى وحده مسافات طويلة ، في الجادات الخارجية ، او في الـ « شـان دو مارس » ، أو في ممرات اللوكسمبورغ الضيقة التي كان الناس قليلاً ما يسلكونها . وكان ينفق ، في بعض الاحيان ، نصف نهار ناظراً الى بستان خضَر ، والى المربّعات المزروعة بالنباتات التي تُعمل منها السَّلَطة ، والى الدجاج فوق المزابل ، والى الحصان يدير دولاب الناعورة . وكان عابرو السبيل ينظرون اليه في دهش ؛ وظن بعضهم أن له مظهراً مريباً وسيماء مشؤومة . إنه لم يكن غير شاب فقير ، يحلم من غير ما مأرب .

وفي احدى نزهاته هذه ، اكتشف بيت غوربو العتيق . وإذ جذبه انعزال ذلك البيت ورخصه ، فقد استأجر غرفةً من غرفه . وعرفه القوم هناك باسم مسيو ماريوس ليس غير .

ودعاه بعض الجنرالات المتقاعدين وبعض رفاق ابيه القدماء ، حين عرفوه ، الى زيارتهم . ولم يرفض ماريوس الدعوة قط . كانت تلك مناسباتٍ للكلام عن ابيه . وهكذا كان يزور بين الفينة والفينة الكونت باجول ، والجنرال بيلافين ، والجنرال فريريون في الأنفاليد . وهناك كانوا يعزفون الموسيقى ، وهناك كانوا يرقصون . وفي تلك الامسيات كان ماريوس يرتدي بذلته الجديدة . ولكنه ما كان يقصد لا الى تلك السهرات ولا الى تلك الحفلات الراقصة إلا حين يصيب الارضَ صقيع شديد ، اذ لم يكن قادراً على ان يدفع أجر عربة ما ، وكان عظيم الرغبة في ان يصل وحذاؤه لامع كالمرآة .

وكان يقول في بعض الاحيان ، ولكن من غير اكتئاب :

— « لقد رُكّب الرجال على نحو يجيز لهم ان يكونوا في صالون من الصالونات ، ملوثين بالطين كل التلوّث ، ولكن لا يجيز لاحذيتهم ان تكون ملوثة . انهم لا يسألونك هناك ، لكي يحسنوا استقبالك ، غير شيء واحد ينبغي ان يكون خلواً من العيب . أهو الضمير ؟ لا . الحذاء ! »

وجميع الاهواء، ما عدا هوى الفؤاد، تنقشع في التفكير الحالم . لقد انحسرت حُمّيات ماريوس السياسية . وكان في ثورة ١٨٣٠ التي أرضَتْها وهدّأتها ما ساعد على ذلك . لقد ظل هو هو، باستثناء اندفاعه وانفعاليته؛ وظلت آراؤه هي هي، ولكنها كانت قد لُطّفت . وبكلمة ادقّ، انه لم يعد صاحب آراء؛ لقد أمسى صاحب مشاركات وجدانية . الى أي حزب كان ينتمي؟ الى حزب الانسانية . ومن بين الانسانية اختار فرنسة، ومن بين الدولة اختار الشعب، ومن بين الشعب اختار المرأة . فأليها قبل كل شيء انصرفت شفقته . لقد غدا الان، يؤثر الفكرة على الواقعة، والشاعر على البطَل؛ وأُعجب بكتاب مثل سفر ايوب اكثر من اعجابه بحدث مثل مارانغو . وفوق هذا، فحين كان يرجع مساءً - بعد يوم من التأمل - مجتازاً الجادات، ويرى من خلال اغصان الاشجار المدى الذي لا يُسبر غوره، والانوارَ التي لا اسم لها، والاعماق، والظلمات، واسرار الكون، كان كل ما هو بشريّ يبدو صغيراً جداً في عينيه .

وظنّ ماريوس انه وصل - ولعله ان يكون قد وصل فعلاً - الى جوهر الحياة والفلسفة الانسانية . وانتهى آخر الامر الى ان لا ينظر بعدُ، الا نادراً، الى غير السماء، وهي الشيء الوحيد الذي تستطيع الحقيقة ان تراه من اعماق بئرها .

ولم يمنعه ذلك من مضاعفة الخطط، والتدابير، والاستعدادات، والتصاميم الموضوعة للمستقبل . ولو ان عيناً استطاعت ان تنظر، في هذه الحالة من التفكير الحالم، الى سريرة ماريوس اذن لبهرها صفاء تلك النفس . والواقع انه لو قدّر لاعيننا التي من لحم ودم ان تنفذ الى ضمائر الناس لكان في ميسورنا ان نحكم على المرء من خلال ما يحلم به بأوثق جداً مما نحكم عليه من خلال ما يفكر فيه . ان في الفكرة ارادة، اما في الحلم فليس من ارادة البتة . والحلم الذي هو تلقائيّ كلّه، يتخذ ويحفظ - حتى في العظيم والمثل الاعلى - صورة عقلنا . ان شيئاً ما، لا ينبثق من اعماق

نفوسنا على نحو اكثر مباشرة وأشدّ اخلاصاً ، من اشواقنا التي لم نفكر بها والتي لا حد لها الى أمجاد القدر . في هذه الاشواق نستطيع ان نجد شخصية الانسان – كل انسان – الحقيقية اكثر جداً مما نجدها في الافكار المركّبة ، القياسية ، المتّسقة . ان أوهامنا هي اكثر الاشياء شبهاً بنا . وكل امرىء يحلم بالمجهول وبالمستحيل وفقاً لطبيعته .

وحوالى منتصف تلك السنة ، ١٨٣١ ، علم ماريوس من العجوز التي تخدمه أن جيرانه ، أسرة جوندريت البائسة ، سوف يقذف بهم الى الشارع . والحق ان ماريوس ، الذي قضى ايامه كلها تقريباً خارج غرفته ، لم يكن يدري ، أو لم يكد ، أن له جيراناً .

وقال :

– « ولماذا يخرجونهم من بيتهم ؟ »

– « لأنهم لا يدفعون الأجرة . لقد تأخروا عن دفع قسطين اثنين . »

– « وما مبلغ ذلك ؟ »

فقالت العجوز :

– « عشرون فرنكاً . »

وكان ماريوس يحتفظ بثلاثين فرنكاً في احد الادراج .

وقال للعجوز :

– « خذي . هذه خمسة وعشرون فرنكاً . ادفعي الاجرة عن هذه الاسرة البائسة ، وقدّمي اليها خمسة فرنكات ، ولا تقولي ان هذا المبلغ مني . »

٦
البدل

واتفق ان الكتيبة التي كان الملازم الأول تيبودول منضوياً تحت لوائها عسكرتْ في باريس . وكانت هذه مناسبةً خطرت فيها للخالة جيلنورمان فكرة جديدة . لقد فكرت ، في المرة الاولى ، ان تُخضع ماريوس لرقابة تيبودول . أما الآن فقد ائتمرت لكي تجعل تيبودول يخلف ماريوس .

وأياً ما كان ، وفي حال شعور الجد بحاجة غامضة الى وجهٍ فتيّ في المنزل — ذلك أن اشعة الفجر هذه لتُبهجَ الخرائب أحياناً — فقد كان من الملائم ان يُبحث عن ماريوس آخر . وفكرت : « أجل ، إنها مجرد غلطة مطبعية كالتي اراها في الكتب ؛ إقرأ تيبودول بدلاً من ماريوس . »

ان ابنَ ابنِ الأخ هو حفيدٌ او يكاد . وعندما لا يجد المرء محامياً يستعيض عنه برمّاح .

وذات صباح ، فيما كان مسيو جيلنورمان يقرأ شيئاً مثل صحيفة « لا كوتيديين » ، دخلت ابنته عليه ، وقالت بصوتها الأكثر رقة ، اذ كانت المسألة تتصل بالشخص الأثير لديها :

— « ابي ، تيبودول سوف يأتي هذا الصباح ليقدّم اليك احترامه . »

— « من هذا ، تيبودول ؟ »

— « ابنُ ابنِ اخيك . »

فقال الجدّ :

— « آه ! »

ثم استأنف قراءته ، ولم يفكر بعدُ بابنِ ابنِ اخيه الذي ما كان

غير تيبودول * ما ؛ وسرعان ما غلب عليه الاهتياج ، شأنه كلما طالع شيئاً ، تقريباً . لقد اعلنت الصحيفة التي يقرأها – وكانت ملكية الهوى حقاً ، فهذه مسألة غنية عن البيان – وكان إعلانها ذاك خلواً من كلّ تلطيف ، أن يوم غد سيشهد أحد أحداث باريس اليوميـــة الصغرى آنذاك ؛ أعـــني أن طلاب مدرستي الحقوق والطب سوف يجتمعون في البانتيون ظهراً ، للتداول والمذاكرة . وكان الموضوع يدور حول قضية من قضايا الساعة : مدفعية الحرس الوطني ، والخلاف بين وزارة الحرب و « ميليشيا المواطنين » حول مسألة المدافع المنصوبة في ساحة اللوفر . كان الطلاب يعتزمون « المذاكرة » في أمر ذلك . وكان هذا كافياً ، وحده ، لاثارة مسيو جيلنورمان .

وفكّر في ماريوس الذي كان طالباً ، والذي كان من الراجح ان يذهب ، مثلَ غيره ، « للمذاكرة ، ظهراً ، في ساحة البانتيون . »

وفيما هو مستغرق في هذا التفكير الأليم دخل الملازم الأول تيبودول ، مرتدياً ملابسه المدنية – وكان ذلك بارعاً – فقدّمته الآنسة جيلنورمان في حذر . وقال الرماح في ما بينه وبين نفسه : « إن الكاهن الغاليّ العجوز لم يضع كل شيء وضعاً نهائياً ، مدى الحياة . وهـــذا الأمر يستأهل أن يقنّع المرء نفسه ، بين الفينة والفينة ، بنسيج حريريّ موشّى . »

وفي صوت مرتفع ، قالت الآنسة جيلنورمان لأبيها :

– « تيبودول ، ابنُ ابنِ اخيك . »

وفي همس ، قالت للملازم الأول :

– « أقِرّ كل شيء . »

وانسحبت .

ولم يكن الملازم الأول متعوّداً هذه اللقاءات الموقّرة جداً ، فتلجلج

---

* التنوين هنا تنوين التنكير ، اي أنه كان مثل ايّ رجل آخر يحمـــل اسم تيبودول .

في شيء من الحياء : « صباح الخير ، يا عماه ! » وانحنى انحناءة مختلطة ، تتألف من الخطوط الكبرى للتحية العسكرية ، اللاارادية الميكانيكية ، مُنجَزَةً بتحية مدنية .

فقال الرجل العجوز :

— « آه ! هذا انت ! حسن جداً . إجلس ! »

وبعد ذلك ، نسي الرمّاحَ نسياناً كاملاً .

وجلس تيودول ، ونهض مسيو جيلنومان .

وشرع مسيو جيلنورمان يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، واضعا يديه في جيبيه ، متحدثاً بصوت مرتفع ، فاركاً بأصابعه العصبية الهرمة الساعتين اللتين كان يحملهما في جيبي صُدرته .

— « هذه الكومة من الغلمان الاغرار ! إنهم يجتمعون في ساحة البانتيون ! وحقّ عاهرتي ! صبيان كانوا أمس في سنّ الرضاع ! ولو أنّ امرءاً عصَرَ انوفهم ، اذن لجرى اللبن منها ! ولسوف يتذاكرون ظُهر غد ! الى اين نحن صائرون ؟ الى اين نحن صائرون ؟ واضحٌ انا صائرون الى الهاوية ! فالى هناك تسوقنا جماعة اللاقمصان ! مدفعية المواطنين ! يتذاكرون في امر مدفعية المواطنين ! يخرجون ويثرثرون في الهواء الطلق عن ضُراط الحرس الوطني المتواصل ! ومع من سوف يجدون انفسهم هناك ؟ انظر قليلاً الى اين تقودنا اليعقوبية . إني اراهن على ما تشاء ، على مليون مقابلَ قشّة ، أنه لن يجتمع هناك غير سجناء سابقين وأشغاليين مُطلقي السراح . إن الجمهوريين والمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة لينسجمون مثل انفٍ ومنديل . قال كارنو * : « الى اين تريد ان اذهب ، ايها الخائن ؟ » فأجابه فوشيه ** : « حيث تريد ، ايها الأبله ! » هؤلاء

* Carnot سياسي وعالم رياضي فرنسي (١٧٥٣ — ١٨٢٣) كان عضواً في لجنة السلامة الوطنية ، وانشأ جيش الجمهورية الرابع عشر ، فلقب بـ « منظم النصر . » فلما رجع آل بوربون الى العرش نفي من البلاد .

** Fouché سياسي فرنسي (١٧٥٩ — ١٨٢٠) عمل في خدمة نابوليون ، ثم تخلى عنه بعد « الايام المئة » واحتفظ بمنصبه الوزاري في العهد البوربوني الجديد.

هم الجمهوريون . »

فقال تيبودول :

- « هذا صحيح . »

والتفت مسيو جيلنورمان نصف التفاتة ، فرأى تيبودول ، واضاف :

-- « حسبك ان تفكر ان هذا الحقير كان شريراً الى درجة جعلته يصبح كاربوناريا * . لماذا تركتَ بيتي ? لكي تذهب وتعتنق المذهب الجمهوري ! بش ! قبل كل شيء ، الناسُ لا يريدون جمهوريتك ؛ انهم لا يريدونها ؛ انهم عاقلون . إنهم يعرفون جيداً انه كان ثمة ملوك دائماً وانه سوف يكون ثمة ملوك دائماً ؛ وهم يعرفون جيداً ان الشعب على اية حال هو الشعب ، انهم يسخرون من جمهوريتك ، اسامعٌ انت ، ايها المعتوه ? اليس هذا الهوى فظيعاً ? لقد أغرموا بالاب دوشين ، وسدّدوا نظرات ولهى الى المقصلة ، وانشدوا الاغاني المؤثرة ، وعزفوا « الغيتار » تحت شرفة عام ٩٣ ؛ يجب ان نبصق على هؤلاء الشباب كلهم ، فما اشدّ حماقتهم ! إنهم جميعاً في كومة واحدة . وليس ثمة واحدٌ خارجها . يكفي ان يتنفسوا الهواء الذي يهبّ في الشارع حتى يصابوا بالخبل . القرن التاسع عشر سُمّ . إن ايّ داعر منهم يرسل لحيته التيسية ، ويحسب نفسه بالغ البراعة ، ويتخلى عن انسبائه العجائز . ذلك جمهوري ! ذلك رومانتيكيّ ! ما المقصود بالرومانتيكي ? تلطّفْ واخبرني ما معنى ذلك . جميع الحماقات الممكنة . منذ عام ، ذهبتَ لتشهد **هيرناني** ** . اريد ان اعرف ، **هيرناني** ! تناقضات ! خباثات لم تُكتب حتى باللغة الفرنسية . وبعد ذلك يريدون ان ينصبوا المدافع في فِناء

---

* نسبة الى الجمعية السرية الايطالية المعروفة بالكاربوناري . وقد انشئت في ايطالية ، مطلع القرن التاسع عشر ، وامتدت الى فرنسة بعد عودة آل بوربون الى العرش . وكان هدفها الرئيسي إشاعة الافكار التحررية ، وتوحيد ايطالية .

** Hernani مسرحية فيكتور هيجو الشهيرة التي مُثلت اول مرة عام ١٨٣٠ فأضفت على مؤلفها شهرة عريضة وجعلته زعيماً للمدرسة الرومانتيكية .

اللوفر . تلك هي لصوصية هذا العصر المسلّحة . »

فقال تيبودول :

– « انت على صواب ، يا عمّاه . »

واستأنف مسيو جيلنورمان كلامه :

– « مدافع في فِناء المتحف ! لماذا ؟ ايها المدفع ، ايّ شيء تريد ؟ أتريد ان تصرع أبولو بيلفيدير * ؟ وأيّ شأن لقذائف المدفع بفينوس آل مديتشي ** ؟ أوه ، إن شباب هذا الجيل كلهم لصوص مسلحون! وما أحقر شأن صاحبهم بنجامان كونستان ! وغير المجرمين منهم حمقى معتوهون ! انهم يبذلون غاية جهدهم لكي يكونوا بشعين . انهم يرتدون ثياباً رثة . انهم يخافون النساء . إن لهم حول صاحبات التنانير سيما شحاذين تُغري خادمات الفنادق الشرسات ، بعض الشيء ، بأن ينفجرن بالضحك . وأقسم بشرفي إن المرء خليق به أن يقول إن الفتيان المساكين مخجولون من الحب . انهم بشعون ، وهم يُكملون انفسهم بالبلاهة . انهم يكرّرون نكات « تيرسيلين » و « بوتييه » الجناسية . وإن لهم سترات قصيرة فضفاضة ، وصدرات كصدرات سُوّاس الخيل ، وقمصاناً من قطن غليظ ، وبنطلونات من جوخ غليظ ، واحذية طويلة من جلد غليظ . إن الرسوم المشجرة التي تزين ملابسهم تشبه ريشهم . وفي استطاعة المرء ان يُفيد من رطانتهم فيجدّد بها نعال احذيتهم العتيقة . ولجميع هؤلاء الصِّبْية الحمقى آراء سياسية . انهم ينتشون الانظمة ؛ انهم يصلحون المجتمع ؛ انهم يقوّضون الملكية ؛ انهم يُبطلون جميع القوانين ؛ انهم يضعون العلّية محلّ القبو ، وبوّاب بيتي محلّ الملك ؛ انهم يقلبون اوروبة رأساً على عقب ؛ انهم يُعيدون بناء العالم ، وما حظوتهم غير النظر من طرف

---

* أبولو بيلفيدير من اروع التماثيل لأبولو ، إلٰه الشعر عند الاغريق . وبيلفيدير متحف رومة الشهير ، في الفاتيكان .

** اشهر تمثال من تماثيل فينوس ، وهو محفوظ بمتحف فلورنسة .

خفيّ الى سيقان الغسّالات وهن يصعدن الى عرباتهم ! آه ! آه ! ماريوس ! آه ! ايها الشحاذ ! انت ذاهب لتصيح في ساحة عامـــة ! لتناقش ، وتجادل ، وتتخذ إجراءات ! إنهم يَدّعون ذلك اجراءات ، أيتها الآلهة العادلة ! إن البلبلة لتتكمش وتصبح حمقاء . لقد رأيت الفوضى ، وإني لأرى التشوّش . طلاب يتذاكرون في موضوع الحرس الوطني — هذا ما لا تقـــع عليه عند الأوجيبواس * أو عند الكادوداش ** ! إن المتوحشين الذين يمشون عراةً تماماً ، وقد بـدت رؤوسهم الضخمة مثل الفلّينة المراشة التي يلعب بها الاولاد ، وشُكّت دبابيس في أرجلهم ، هم اقلّ توحشاً من حملة البكالوريا هؤلاء ! قرودٌ لا تساوي اكثر من اربعة فلوس ! قرود يحسبها الناس مثقفين وأكفاء ! إنهـــم يتداولون ويُعملون الفكر إعمالاً سيئاً ! تلك هي نهاية العالم ! ومن الواضح أنها نهاية هذه الكُرة البائسة المؤلفِ نصفُها من اليابسة ونصفها من المـــاء. كانت في حاجة الى شهقة اخيرة ، وها هي فرنسة تطلق تلك الشهقة . تداولوا ، ايها الاوغاد ! مثل هـذه الاشياء سوف تحـــدث ما داموا يقرأون الصحف تحت أقواس الأوديون *** . ان ذاك يكلفهم فلساً واحداً ، وحصافتهم ، وذكاءهم ، وقلوبهم ، ونفوسهم ، وعقـولهم . انهم يرجعون من هناك حاملين الحرب الى أسرهم . كل هذه الصحف طواعين . كلها ، حتى **« الراية البيضاء »** ! إن مارتينفيل **** كان في اعماقه يعقوبياً . أوه ، يا

---

* Ogibewas قبيلة كبـــيرة من هنود اميركة الشمالية وهي موزعة بـــين كندا والولايات المتحدة .

** Cadodaches من القبائل الهندية في اميركة الشمالية أيضاً .

*** Odéon اثر أثيني مشهور كانت تجري فيه مباريات في الموسيقى والشعر . وقد خلع هذا الاسم على « المسرح الفرنسي الثاني » في باريس ، وقد اسس عام ١٧٩٧

**** Martainville صحفي وكاتب مسرحي فرنسي (١٧٧٦ — ١٨٣٠) . كان ملكياً متحمساً ، وقد انشأ عام ١٨١٨ صحيفة « الراية البيضاء » *Drapeau Blanc*

للسماء ! في استطاعتك ان تفخر بأنك ادخلت اليأس على قلب جدك ، اجل في استطاعتك ! »

فقال تيودول :

— « هذا واضح . »

وافاد الرمّاح من تمهل مسيو جيلنورمان وأخذهِ نفَساً فأضاف في نبرة جازمة :

— « يجب ان لا يكون ثمة غير صحيفة واحدة هي الـ « مونيتور » ، وغير كتاب واحد هو « الحولية العسكرية » *Annuaire Militaire* .

وتابع مسيو جيلنورمان حديثه :

— « انه مثل سييس * قاتلُ ملكٍ ينتهي الى ان يصبح عضواً في مجلس الشيوخ ! تلك هي الطريق التي ينتهون اليها دائماً . انهم يجلدون أنفسهم بضمير المفرد وبلفظة « مواطن » لكي يصلوا آخر الامر الى ان يدعوهم الناس السيد الكونت ، السيد الكونت بطول ذراعي ! يا لسفّاحي ايلول هؤلاء ! الفيلسوف سييس ! انا سعيد بأن اقول اني لم اكترث في يوم من الايام لفلسفات هؤلاء الفلاسفة جميعاً اكثر مما اكترثت لنظارتَيْ مهرّج التريفولي . لقد رأيت أعضاء مجلس الشيوخ يجتازون ذات يوم الـ « كي مالاكيه » وقد ارتدوا معاطف من مخمل بنفسجي مذرور بالنحل واعتمروا بقبعات من طراز هنري الرابع . كانوا فظيعين . ولقد كان في استطاعة المرء ان يقول انهم قرود بلاط النَّمِر . ايها المواطنون ، اني اقول لكم ان تقدمكم جنون ، وان

---

* Sieyès راهب وسياسي فرنسي (١٧٤٨ – ١٨٣٦) كان مؤسس « نادي اليعاقبة » ، وقد لعب دوراً بارزاً في السياسة الفرنسية ، فكان عضواً في « الجمعية التأسيسية » ، ثم في « المؤتمر الوطني » ، ثم في « مجلس الخمسمئة » ، ثم وزيراً في حكومة الادارة ، ثم قنصلاً .

انسانيتكم حلم ، وان ثورتكم جريمة ، وان جمهوريتكم هَوْلة * ، وان فرنسا كم الفتاة منبثقة من الماخور ! اني اؤكد ذلك لكم جميعاً ، سواء أكنتم صحافيين ، أم علماء اقتصاد ، أم فقهاء ، أم كنتم جهابذةً في الحرية والمساواة ، والاخاء ، اكثر من ساطور المقصلة ! اقول لكم ذلك ، ايها الرجال الطيبون ! »

فصاح الملازم الاول :

– « وحق الالـٰه ! هذا صحيح على نحو رائع . »

وعدل مسيو جيلنورمان عن ايماءة كان قد بدأ بها ، واستدار ، وحدّق الى ما بين عيني تيبودول الرمّاح ، وقال :

– « انت معتوه ! »

* الهولة : الشيء الغريب البشع المخيف في آن معاً . وقد عبّرنا بها عن كلمة monstre في الفرنسية والانكليزية .

الكتاب السادس

التقاء نجمين

١

اللقب : كيف تنشأ اسماء الاسر

في تلك الحقبة ، كان ماريوس شاباً جميلاً ، رَبْعَة ، ذا شعر كثيف فاحم ، وجبين عالٍ ذكيّ ، ومنخرين واسعين حيّين ، وسيماء مخلصة هادئة ، وكان يطفو على محياه كله شيء لا سبيل الى وصفه ، شيء شامخ ، متفكّر ، بريء . كانت صورته الجانبية - ذات الخطوط المدوّرة ولكنْ من غير ان تفقد صلابتها - تتمتع بتلك العذوبة الجرمانية التي اتخذت سبيلها الى السّحنة الفرنسية من خلال الالزاس واللورين ، وبانعدام الزوايا ذاك الذي جعل من اليسير جداً على المرء ان

يعرف السيكامبريين * بين الرومان ، والذي يميز العرق الأسدي عن العرق النسري . كان في تلك السن التي تكون فيها عقول المفكرين من الناس مؤلفة ، بنسبة متساوية تقريباً ، من العمق والسذاجة . إنه قد يتكشف ، في بعض مواقف الحرج ، عن جميع مقومات الحماقة . ولكنْ أدرِ اللولب دورة اخرى يصبحْ عظيماً جليلاً . كان متحفظاً ، بارداً ، مصقول الحاشية ، قليل المصارحة . ولكن لمّا كان فمه فاتناً ، وكانت شفتاه اشد الشفاه احمراراً واسنانه أنصع الاسنان بياضاً ، فقد صحّحت ابتسامته صرامةَ سيماه . وفي بعض اللحظات ، كان ثمة تغايرٌ غريب بين هذا الجبين العفيف وهذه الابتسامة الشهوية . كانت عيناه صغيرتين ، وكانت نظرته عظيمة .

وفي الفترات التي انتهى فيها الى الدرك الأسفل من الفقر لاحظ ان الفتيات كنّ يُشحن عنه بوجوههن حين يمرّ ، فكان يفرّ أو يختبىء وفي صدره شعورٌ قاتل . كان يحسب أنهن ينظرن اليه بسبب من ملابسه البالية ، وانهن كنّ يسخرن منه . والواقع انهن نظرن اليه بسبب من ملاحته ، وانهن اشتهينه .

وكان سوء التفاهم الأبكم هذا ، بينه وبين عابرات السبيل المليحات ، قد أورثه نفرةً من المجتمع . إنه لم يختر أياً منهن ، لسبب وجيه هو أنه كان يفرّ من وجوههن جميعاً . وهكذا عاش من غير هدف – على نحو حيوانيّ ، كما قال كورفيراك .

وقال له كورفيراك ايضاً :

– « لا تطمع الى ان تكون حكيماً (كانا يتخاطبان بضمير المفرد . والانزلاق الى ضمير المفرد من خصائص الصداقات الشابّة) . يا صديقي العزيز ، دونك هذه النصيحة . لا تقرأ كثيراً في الكتب ،

---

* Sicambres احد شعوب بلاد الجرمان القديمة ، وقد قهرهم دروسوس فاختلطوا بالفرنجة .

وانظر اكثر قليلاً الى بنـــات الهوى . إن في الساقطات خيراً لك ، يا ماريوس ! فبالفرار الموصول ، واحمرار الوجه دائماً ، سوف تصاب بالخبل . »

وفي مناسبة اخرى لقيه كورفيراك فقال له :

- « مرحباً ، ايها السيد الراهب . »

وكان ماريوس - كلما سمع ملاحظة مثل هـذه من كورفيراك ، يغالي في اجتناب النسوة ، طوال اسبـــوع ، سواء اكنّ شابات أو عجائز ، ويجتنب بخاصة أشباحَ كورفيراك .

بيد أنه كانت ثمـة من بين خلق الله جميعاً ، امرأتان لم يفرّ ماريوس منهما قط ، ولم يجتنبهما على الاطلاق . والحق انه كان جديراً بأن يغلب عليه الدهش لو ان احداً قال له انهما امرأتان . فأما اولاهمـا فالعجوز ذات اللحية التي كانت تكنس غرفته وتحمل كورفيراك على القول : « لمـا كانت خادمة ماريوس تطلق لحيتهـــا فأنه لا يطلق لحيته » . وأما الاخرى فكانت فتاة صغيرة كان كثيراً ما يراها ولكنه لم ينظر اليها قط .

فمنذ اكثر من عام ، لاحظ ماريوس في مجاز منعزل من حـديقة اللوكـسمبورغ ، المجاز الذي يحاذي حاجز الـ « بيبينيير » ، رجلاً وفتاةً صغيرة جداً كانا يجلسان جنباً الى جنب ، دائماً تقريباً ، على المقعد نفسه في طرف المجاز الاقصى ، قرب « شارع الغرب » . وكلما قـــادت المصادفة التي تسيطر على نزهات اولئك القوم المتلفّتة اعينُهم الى الداخل - نقول كلما قادت تلك المصادفة ماريوس الى هذا المجاز ، وكان ذلك كل يوم تقريباً ، وجد هذين المخلوقين هناك . كان الرجل في نحو الستين ، وكان يبدو محزوناً رصينـــاً . وكان شخصه كله يذكـّر المرء بالسيماء الشديدة ولكنِ المجهَدة التي تطفو على وجوه الجنود المسرّحين من الخدمة العسكرية . ولو قد كان يزين صدره بوسامٍ ما ، اذن لقال ماريوس :

« انه ضابط قديم » . كانت ملامح وجهه تؤذن بالطّيبة ، ولكنها غير مغرية بالاقتراب منه ؛ وما كان يدع عينه تقع على عين امرىء ما . كان يرتدي بنطلوناً ازرق ، وسترة طويلة زرقـــاء ، وقبعة عريضة الحاشية بدت جديدةً دائماً ، وعقدة عنق سوداء ، وقميصاً من قمصان الاصحاب الكويكريين * ، يعني قميصاً ابيضَ ناصعاً ولكنه مخيط من قماش غليظ . ولقد مرت به ، ذات يوم ، عاملة مغناجة فقالت : « هوذا أرمل ممتاز . » كان شعره أشيب كلّه .

وأول مرة جلست فيها الفتاة الصغيرة التي رافقته على المقعد الذي بدا وكأنهما قد تبنّياه ظهرت اشبه بفتاة في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ، مهزولة حتى البشاعة تقريباً ، خرقاء ، لا شأن لها ، ومع ذلك فقـــد كانت تَعِدُ في اغلب الظن بأن تنعم في المستقبل بعينين ساحرتين . ولكن عينيها هاتين كانتا تنظران حولها ، دائماً ، في طمأنينة بغيضـة . كانت ترتدي ثوباً عجائزياً وأطفالياً في آن معاً ، كذلك الذي تلبسه الفتيات في مدرسة الدير ، ثوباً رديء التفصيـــل مصنوعاً مـــن صوف الضأن المرينيّ** الأسود الغليظ . كانت تبدو عليهما سيماء أبٍ وابنته .

وطوال يومين او ثلاثة ايام ، تأمل ماريوس هذا الرجل العجوز الذي لم يصبح بعدُ هرماً ، وهذه الفتاة الصغيرة التي لم تبلغ بعدُ مبلغ المرأة ، ثم لم يُلقِ اليهما بالاً بعد ذلك قط . أما هما فقد بدا وكأنهـما لم يرياه ولو مجرد رؤية . كانا يتسارّان في وداعة ولا مبالاة . وكانت الطفلة تثرثر في غير انقطاع ، وفي ابتهاج ، أما الرجل العجوز فـكان يتكلم قليلاً ، ويتطلع اليها بين الفينة والفينة بعينين مفعمتين بأبوة لا سبيل الى وصفها :

---

* وهم طائفة الفرندز (الاصحاب او الاصدقاء) البروتستانتية المعروفين بتقواهم وزهدهم في الدنيا وزخارفها . وانما عرفوا بالكويكرز ، اي المرتعشين ، لان مؤسس الفرقة قال لاتباعه : « ارتعشوا امام سيف الرب . »

** mérinos نسبة الى ضأن بني مرين في الاندلس .

وكان ماريوس قد اكتسب ضرباً من عادة ميكانيكية تحمله على التنزه في ذلك المجاز . وكان يجدهما دائماً هناك .

ودونك كيف كان ذلك :

كان من دأب ماريوس ان يُقبل من طرف المجاز الذي يواجه مقعدهما ، فيتمشى على طول ذلك المجاز ، مارّاً امامهما ، ثم يرتد الى الطرف الاقصى الذي اقبل منه ، وهكذا . كان يقوم بحركة الذهاب والاياب هذه خمس مرات او ست مرات في كل نزهة من نزهاته ، وكان يقوم بكل نزهة من نزهاته تلك خمس مرات او ست مرات في الاسبوع ولكن من غير ان يتبادل ، هو وهذين المخلوقين ، تحية ما . وكان طبيعياً – برغم ما بدا من ان هذا الرجل وتلك الفتاة الصغيرة كانا يجتنبان النظرات ، ولربما بسببٍ من ذلك نفسه – ان يثيرا انتباه اولئك الطلاب الخمسة أو الستة الذين كانوا يتنزهون بين الفينة والفينة في محاذاة الـ « بيبينير » ، فاما المجتهدون منهم فتحصيلًا لدروسهم ، وأما الآخرون فالتماساً للبليارد يتنافسون في لعبه . ولاحظهما كورفيراك – وكان من الطائفة الثانية – في وقت ما ، ولكنه سارع الى اجتنابهما ، في كثير من العناية ، بعد أن وجد الفتاة قبيحة . لقد فرّ مثل رجل من البارثيين * راشقاً اياهما بلقب . واذ بدَهه ُ ، في المحل الاول ، ثوب الفتاة الصغيرة وشعر الرجل العجوز فقد سمّى البنت **مدموزيل لونوار** (السوداء) وسمى الأب **مسيو لوبلان** (الابيض) . وهكذا – ولما كان ايّ منهم لا يعرفهما باسم آخر ، لعدم وجود ذلك الاسم – فقد فرض هذا اللقب نفسه وكأنه القانون . وقال الطلاب : « آه ، مسيو

---

* كان البارثيون القدماء – الذين انشأوا عام ٢٥٠ ق . م مملكة في ايران – يجبون على صهوات الخيل دائماً . واذ كانوا يتظاهرون بالفرار فقد كانوا يسددون السهام ، من تحت اكتافهم ، الى من يتعقبهم . وقد ادت هذه الحيلة القاتلة الى نشوء المثل : رشقه بسهم من سهام البارثيين ، يعني سدد اليه وهو ينسحب سهماً او كلمة جارحة .

لوبلان جالس على مقعده ! » ووجد ماريوس – شأنَ زملائه – أن من الملائم ان يدعو هذا الرجل المجهول مسيو لوبلان .

ولسوف نفعل مثلما فعلوا فنقول مسيو لوبلان حرصاً على السهولة في هذه القصة .

وهكذا رآهما ماريوس ، كل يوم تقريباً ، وفي الساعة نفسها ، خلال العام الأول . لقد وقع الرجلُ في نفسه موقعاً حسناً ، ولكنه وجد الفتاة بغيضةً بعض الشيء .

٢
« وكان نــــور »

وفي السنة الثانية ، عند مطلع هذا التاريخ الذي بلغهُ القارىء تماماً ، اتفق أن أقلع ماريوس عما ألفهُ من عادة الذهاب الى حديقة اللوكسومبورغ ، من غير أن يدري هو نفسه سبباً لذلك ، فانقضت ستة أشهر تقريباً لم تطأ قدماه في خلالها مجازه ذاك . وأخيراً انقلب الى هناك ، ذات يوم ، كرةً اخرى . وانما كان ذلك في صباح يوم صاحٍ من أيام الصيف ، وكان ماريوس مبتهج النفس شأنَ المرء حين يكون الجوّ رائقاً . لقد بدا له وكأن في قلبه جميع أناشيد الطيور التي سمعها، وجميع أفلاذ السماء الزرقاء التي رآها من خلال الاشجار .

ومضى الى « مجازه » مباشرة . ولم يكد يبلغه حتى رأى ، على المقعد نفسه أيضاً ، هذين المخلوقين المعروفين . حتى اذا اقترب منهما وجد أن الرجل كان هو نفسه من غير شك ، على حين بدا له ان الفتاة لم تعُدْ تلك التي كانت تصحبه من قبل . كانت الفتاة التي رآها الآن مخلوقة كريمة جميلة تتمتع بجميع ملامح المرأة الاكثر فتنةً ، في تلك اللحظة

التي تكون فيها هذه الملامح متصلة ، ما تزال ، بكامل جمال الطفل ، —
تلك اللحظة العابرة الطاهرة التي لا تُترجم إلا بهذه الكلمات : الخامسة عشرة من العمر . شعرٌ كستنائي جميـــل تظلله عروقٌ من الذهب ، وجبين بدا وكأنه منحوت من رخام ، ووجنتان بدتا وكأنهما مصنوعتان من ورد ، ولون ارجواني شاحب ، وبياض مُشرَّب بالاحمـرار ، وفم رائع تنبثق منه ابتسامـة كالضياء ، وصوت كالموسيقى ، ورأس كان خليقاً برافاييل أن يقدّمه الى مريم على جيدٍ كان خليقاً بجان غوجون * أن يقدمه الى فينوس . واخيراً لكي لا يُعوز شيء هـذا الوجهَ الفاتن فأن الانف لم يكن جميلاً ولكنه كان مليحاً . إنه لم يكن مستقيماً ، ولم يكن معقوفاً ؛ لم يكن ايطالياً ولم يكن اغريقياً ؛ كان انفـــاً باريسياً ، يعني شيئاً بهيجـــاً ، لطيفاً ، شاذاً ، صافياً ، شيئاً يُؤئس الرسامين ، ويفتن الشعراء .

وحين مرّ ماريوس على مقربة منها ، لم يستطع ان يرى عينيها اللتين كانتا مطرقتين دائماً . انه لم يرَ غير اهدابها الكستنائية الطويلة الراشحة بالظلال والحياء .

ولكن ذلك لم يمنع الطفلة الجميلة من الابتسام فيما أصغت الى الرجل الاشيب الذي كان يتحدث اليها . ولم يكن ثمة شيء أشد سحراً من هذه الابتسامة الطريئة بعينين مطرقتين .

وحسبها ماريوس ، للوهلة الاولى ، بنتاً ثانية للرجل نفسه ، اختاً لا ريب فيها للفتاة التي رآها من قبل . ولكن حين قادته نزهاته المعتـــادة التي لا تتغير الى قريب من مقعدها ، مرة ثانية ، ونظر اليها في انتباه ، أدرك انها تلك الفتاة عينها . ففي مدى ستة اشهر امست الفتـاة الصغيرة شابة

---

* Goujon مثّال فرنسي شهير (حوالى ١٥١٠ — حوالى ١٥٦٨) نحت « حوض الابرياء » في باريس وشارك في زخرفة اللوفر .

فتية ؛ ذلك كل ما هنالك . وليس شيء اكثر شيوعاً من هذه الظاهرة . فثمة لحظة تتفتح فيها اكمام الفتيات في طرفة عين ويصبحن وروداً على نحو مفاجىء . لقد تركناهن أمس اطفالاً ، وإنا لنجدهن اليوم شاغلاتٍ للبال .

ولم تكن تلك الفتاة قد كبرت فحسب ؛ كانت قد غدت مثاليـــة ايضاً . وكما ان ثلاثة أيام من نيسان كافية لأن تَلبس بعضُ الاشجار حلة من الازهار فكذلك كانت ستة اشهر كافية لأن ترتدي تلك الفتاة رداء من الجمال . كان نيسانها قد اقبل .

اننا نرى في بعض الاحيان اناساً ، فقراء حقيرين ، يبـــدون وكأنهم يستيقظون ، وينتقلون فجأة من العوز الى الترف ، وينفقون الاموال ذات اليمين وذات الشمال ، ويصبحون بغتةً لامعين ، مبذرين ، ذوي أبهة . وانما ينشأ ذلك عن دخلٍ تلقّوه ؛ كان أمسِ يوم الدفع . لقد قبضت الفتاة الشابة راتبها نصف السنويّ .

ثم انها لم تعد تلك الطالبة الداخلية بقبعتها المصنوعة من نسيج ذي وَبر ، وثوبها المخيط من صوف الضأن المرينيّ ، وحذائها التلمذيّ ، ويديها الحمراوين . كان الذوق قد وفد عليها مع الجمال . وكانت قد أمست فتاة حسنة البزة تزينها اناقة بسيطة غزيرة ، خلوٌ من التكلف . كانت ترتدي ثوباً من دمقس أسود ، وصدرة من النسيج نفسه ، وقبعة من « كريب » أبيض . وكان قفازاها الابيضان يكشفان عن نعومة يدها العابثة بمقبض مظلتها المصنوع من العاج الصيني ، وكان حذاؤها الحريري العالي ينم عن صغر قدمها ، وكانت زينتها كلها تتنفس بأريج الشباب النـافذ ، كلما مرّ المرء على مقربة منها .

اما الرجل فكان هو هو لم يتغير البتة .

وحين انتهى ماريوس الى قريب منها ، للمرة الثانية ، رفعت الفتـــاة الشابة جفنيها . كانت عيناها ذواتَيْ زرقة سماوية عميقة ، ولكن لم يكن في ذلك اللازورد المحجّب غير نظرة طفل . لقد نظرت الى ماريوس في

لا مبالاة كما كان خليقاً بها ان تنظر الى القُرَيْد الذي يعـــدو تحت شجرات الجميز، او الى الزهرية الرخامية التي تلقي ظلهـــا على المقعد .
وواصل ماريوس، بدَوره، نزهته وهو يفكر في شيء آخر .

ومرّ اربع مرات أو خمس مرات اخرى على مقربة من المقعد الذي جلست عليه الفتاة الشابة ، ولكن من غير ان يدير عينيه نحوه مجرد إدارة .

وفي الايام التالية وفد كعادته على حديقة اللوكسمبورغ ، فوجـد فيها كعادته ايضاً « الاب والبنت » ولكنه لم يُلق اليهما بالاً . انه لم يعد يفكر في هذه الفتاة وقد امست جميلة بأكثر مما سبق له ان فكر فيها يوم كانت قبيحة . كان يمر دائماً بحذاء مقعـدها لأن عادته جرت بذلك .

٣
أثرُ الربيـع

وذات يوم ، كان الهواء معتدلاً ، وكانت حديقـة اللوكسمبورغ مغمورةً بأشعة الشمس وبالظلال ، وكانت السماء صافية وكأن الملائكة قد غسلتها في الصباح ، وغردت عصافـــير الدوري في اعماق شجرات الكستناء ، وكان ماريوس قد فتح روحه كلها للطبيعة ، ولم يعد يفكر في شيء . لقد عاش وتنفس ، ولقد مرّ بحذاء ذلك المقعـــد ، فرفعت الفتاة الشابة عينيها نحوه ، فالتقى نظراهما .

ولكنْ ايّ شيء كان في نظرة الفتاة الشابة ؟ لقد عجز ماريوس عن الاجابة . لم يكن ثمة شيء ، وكان ثمة كل شيء . لقد كان ذلك ضياء غريباً .

وغضّت من بصرها ، وواصل هو سبيله .

إن ما رآه لم يكن عين طفل ساذجة سليمـــة الطوية . كان هاويةً محاطة بالاسرار ، هاويةً فتحت فاها نصف فتحة ثم اغلقته فجأة .

فثمة فترة تنظر فيها كلُّ فتاة شابة مثل هذه النظرة . والويل لمن يتفق ان يكون هناك !

إن تلك النظرة الاولى التي تسددها نفسٌ لمّا تعرفْ بعدُ ذاتهـــا أشبه بارتفاع الضحى في السماء . إنها يقظة شيء مشعٍّ مجهول . وليس هناك ما يستطيـع التعبير عن الفتنة الخطرة الكامنة في هذا الوميض غير المرتقب الذي يُنير فجأة ، وعلى نحو غامض ، ظلمـــاتٍ حبيبة ، والذي يتألف من براءة الحاضر كلها ، واهواء المستقبل كلها . انها ضربٌ من الحنان الحائر الذي تنمّ المصادفة عنه ، والذي ينتظر . انها شرك تنصبه البراءة من غير وعي ، وتتصيد به القلوبَ من غير ان تقصد الى ذلك ، ومن غير ان تدري ذلك . انها عذراء تنظر كما تنظر المرأة .

ومن النادر أن لا ينشأ عن هذه النظرة ، حيثما وقعت ، استغراق في تفكير حالم عميق . ان كل ما هو طاهر وكل ما هو متوهج ليتركزان في هذه النظرة السماوية القاتلة التي تتميّز بقدرتها السحرية — اكثر من غمزات الفتيات المغناجات الأشدّ إحكاماً — على ان تفتّـــح فجأة ، في اعماق القلب ، تلك الزهرةَ القاتمة ، المفعمة بالاطياب والسموم ، والتي ندعوها الحب .

وفي المساء ، عندما رجع ماريوس الى علّيته ، القى نظرة عـــلى ملابسه . ولأول مرة ادرك بأية قذارة ، وقلةِ لياقة ، وبلاهة لم يُسمع بمثلها ، كان يتنزه في حديقة اللوكسمبورغ مرتدياً « بذلته اليومية » تلك ، وقبعة محطّمة قرب العروة ، وحذاء غليظاً من احـــذية سائقي العربات ، وبنطلوناً اسود تلتمع ركبتـــاه ، وسترة سوداء شحُبتْ خيوط مرفقيها .

٤

بدء اعتلال عظيم

وفي اليوم التالي ، في الساعة المعتادة ، أخرج ماريوس من خزانته سترته الجديدة ، وبطلونه الجديد ، وقبعته الجديدة ، وحذاءه الجديد ، وتسلّح بهذه المجموعة الكاملة من الملابس ، ولبس قفازيه – ترفٌ مسرف – ومضى الى حديقة اللوكسومبورغ .

وفيما هو في بعض الطريق ، التقى بكورفيراك وتظاهر بأنه لم يره . حتى اذا انقلب كورفيراك الى غرفته قال لاصدقائه :

– « لقد التقيت اللحظةَ بقبعة ماريوس الجديدة وسترته الجديدة ، وماريوس في داخلهما . وليس من شك في انه كان ذاهباً الى امتحان . لقد بدت على وجهه سيماء بلاهةٍ كاملة . »

حتى اذا وصل الى حديقة اللوكسومبورغ دار دورةً حول الحوض ونظر الى الأوزّ السابح فيه . ثم لبث فترة طويلة مستغرقاً في التأمل أمام تمثال أسود من العفَن تعْوزه احدى ورِكَيْه . وعلى مقربة من الحوض ، كان بورجوازي في الاربعين ضخم الكرش يمسك بيد صبيّ صغير في الخامسة ويقول له : « حذار من التطرف . ابتعِدْ عن الاستبداد ابتعادك عن الفوضوية . » واصغى ماريوس الى هذا البورجوازي الطيب . ثم دار دورةً اخرى حول الحوض . واخيراً مضى الى «مجازه» ، في أناة ، وكأنما يمضي اليه في أسف . ولقد كان خليقاً بالناظر اليه ان يقول إنه كان مُكرهاً على المضيّ وممنوعاً عن المضيّ في آنٍ معاً . كان لا يعي شيئاً من ذلك كله ، ولقد حسب أنه يسلك مسلكه اليوميّ عينه .

حتى اذا انتهى الى المجاز رأى مسيو لوبلان والفتاة الشابة جالسين ،

في الطرف الآخر ، « على مقعدهـا » . وزرّر سترته ، وشـدّها الى أدنى لكي يزيل ما قد يشينها من تغضّن ، وتأمّل في شيء من العُجْب رونق بنطلونه وبهاءه ، وزحف الى المقعد . كان في ذلك التقـدم شيء من الهجوم ، وكان فيه من غير شك رغبةٌ في الفتح . إني اقول اذن : « وزحف الى المقعد » ، كما اقول : « زحـف هنيبعل الى رومة . »

وفي ما عدا هذا لم يكن ثمة شيء غير ميكانيكي في حركاته جميعاً ، ولم يعترض بأية حال شواغلَ عقله وعمله المعتادة . كان يفكر في تلك اللحظة في ان « المختصر في البكالوريا » كتاب أبله ، وانه لا شك من عمـــل معتوهين يعز نظيرهم ، وإلا فكيف يقدّم عند تحليله لروائع العقل البشري ثلاثاً من مآسي راسين وواحدة ليس غير من ملاهي موليير ؟! وأحس بشبه صفيرٍ حادّ في أذنه . وفيما هو يتقدم الى المقعد ملّس تغضّنات سترته واستقرت عيناه على الطفلة الشابة . لقد بدت ، في نظره ، وكأنها تمـــلأ جانب المجاز كله بضياء ازرق شاحب .

وكلما ازداد من المقعد قرباً ازدادت خطوته تباطؤاً . حتى اذا انتهى الى مسافة ما من المقعد ، وقبل ان يصل الى اقصى المجاز بكثير ، كفّ عن المسير ، ونكص على عقبيه من غير ان يدري هو نفسه كيف اتفق له ذلك . بل انه لم يقل لنفسه إنه لن يذهب الى نهاية المجاز . وليس من ريب في انه كان من العسير على الفتاة الشابة ان تلمحه من بعيد وترى هيئته البديعة في سترته الجديدة . وايّاً ما كان ، فقد وقف منتصب القامة لـكي يبدو حسن السمت اذا ما اتفق لأحدٍ خلفَه ان يرى اليه .

وبلغ الطرفَ المقابل ثم رجع . وهذه المرة اقترب ، اكثر بعض الشيء ، من مقعدها . بل لقد انتهى الى نقطة تقع على مسافة ثلاث شجرات منه ، ولكنه استشعر هناك بعجز عن مواصلة التقدم لا سبيل الى وصفه ، فتردد. لقد خيل اليه ان وجه الفتاة الشابة انحنى نحوه . ومع ذلك فقـــد بذل جهداً رجولياً عظيماً ، فقهر تردده ، وواصل تقدمه . وبعد بضع ثوان مرّ

أمام المقعد ، مستقيماً راسخ القدم ، محمرّ الوجه حتى الاذنين ، من غير ان يجرؤ على ان يلقي نظرة ما الى اليمين او الى الشمال ، واضعاً يده في سترته مثل رجل من رجال الدولة . ولحظةَ مرَّ - تحت مدافع القلعة - خفق قلبه خفقاناً مروّعاً . وكانت ترتدي - شأنها في اليوم السابق - ثوبها الدمقسي وقبعتها المصنوعة من الكريب . وسمع صوتاً يمتنع على الوصف كان « صوتَها » من غير ريب . كانت تتحدث في سكينة . وكانت بارعة الجمال . لقد استشعر ذلك ، برغم انه لم يحاول ان يراها . وقال في ذات نفسه : « انها لا تستطيع ، على اية حال ، إلا أن تكنّ لي اجلالاً واحتراماً اذا ما عرفت اني المؤلف الحقيقي للدراسة الموضوعة عن ماركو اوبريغون دو لا روندا التي قدم بها مسيو فرانسوا دو نوفشاتو ، وكأنها من قلمه ، لطبعته الخاصة لرواية « جيل بلا » *

واجتاز بالمقعد ، ومضى الى اقصى المجاز الذي كان بالغ القرب ، ثم استدار ومرّ كرة اخرى امام الفتاة الجميلة . وهذه المرة كان شديد الشحوب . والواقع انه لم يكن يستشعر شيئاً ليس ببغيض جداً . فابتعد عن المقعد وعن الفتاة الشابة . وبرغم انه أولاها ظهره فقد تخيل انها كانت تنظر اليه ، وهذا ما جعل الارتباك يغلب عليه .

ولم يقم بأيما محاولة جديدة للاقتراب من المقعد ؛ لقد وقف عند منتصف المجاز تقريباً ، وجلس هناك - وهو شيء لم يفعله قط من قبل - ملقياً كثيراً من النظرات الجانبية ، ومفكراً في اعماق عقله الاكثر ضبابيةً ان من العسير على اية حال ان تكون الفتاة ذات القبعة البيضاء والثوب الاسود - تلك الفتاة التي أعجب بها - خالية الذهن على نحو كليّ من بنطلونه الصقيل وسترته الجديدة .

وبعد ربع ساعة ، نهض وكأنما يريد ان يستأنف سيره نحو ذلك

---

* Gil Blas de Santillane احدى روايات الكاتب الفرنسي لوساج Lesage (١٦٦٨- ١٧٤٧) الشهيرة .

المقعد المطوّق بهالة . بيد أنه ظل واقفاً لا يتحرك . وللمرة الاولى منذ خمسة عشر شهراً ، قال في ذات نفسه ان هذا السيد المتعوّد ان يجلس هناك مع ابنته كل يوم قد لاحظه ، هو ايضاً ، من غير شك ، ولعله قد وجد في مواظبته شيئاً غريباً .

وللمرة الاولى ايضاً استشعر بعض الأزراء في الاشارة الى هذا الرجل المجهول ، ولو في سريرته ، بذلك اللقب الذي خُلع عليه : مسيو لوبلان .

وظل هكذا بضع دقائق مطرق الرأس ، راسماً بعض الاشكال على التراب ، بواسطة عصا صغيرة كانت في يده .

ثم انه استدار فجأة واعرض بجانبه عن المقعد مبتعداً عن مسيو لوبلان ، وعن ابنته ، وانقلب الى غرفته .

وذلك اليوم نسي ان يتناول عشاءه . وفي الساعة الثامنة مساء ، اكتشف هذه الواقعة . واذ كان أوان الذهاب الى شارع سان جاك قد فات ، فقد قال في ذات نفسه : « لا بأس ! » ، وأكل قطعة من خبز .

ولم يأوِ الى فراشه الا بعد ان فرشى سترته جيداً وطواها في عناية .

٥
صواعق شتى تنقضّ على رأس « مام بوغون »

وفي اليوم التالي لاحظت « مام بوغون » * — هكذا سمّى

* اي مدام بوغون ، أو السيدة الكثيرة التذمر والدمدمة .

كورفيراك العجوزَ البوابة الموكول اليها أمر العناية ببيت غوربو العتيق ، وكان اسمهـــا في الحقيقة مدام بورغون كما ذكرنا من قبل ، ولكن كورفيراك الفظيع هذا لم يكن يحترم شيئاً ـ نقول لاحظت «مام بوغون» ، في انشداه ، أن مسيو ماريوس غادر غرفته كرةً اخرى وهو لابسٌ بذلته الجديدة .

لقد مضى كرةً ثانية الى حديقة اللوكسومبورغ ، ولكنه لم يذهب الى أبعد من مقعده القائم عند منتصف المجاز . وجلس هناك ، كما جلس أمس ، منعماً النظر من بعيد ، لامحاً على نحو واضح القبعةَ البيضاء ، والثوب الاسود ، وبخاصةٍ الضياء الازرق . ولم يتحرك من مجلسه ذاك ، ولم ينقلب الى غرفته الا بعد أن أُوصـــدت ابواب اللوكسومبورغ . إنه لم يرَ مسيو لوبلان وابنته ينصرفان . فاستنتج من هنا انهما غـادرا الحديقة من الباب المؤدي الى « شارع الغرب » . وبعد بضعة اسابيع ، عندما فكّر في ذلك ، لم يستطع ان يتذكر أين تناول طعام العشاء تلك الليلة .

وفي اليوم التالي ، وكان ذلك للمرة الثالثة ، صُعقت « مام بوغون » ايضاً . لقد خرج ماريوس وهو لابسٌ بذلته الجديدة . وصاحت :

ـ « ثلاثة ايام على التعاقب ! »

وحاولت أن تلحق به ، ولكن ماريوس مشى برشاقـة وفي خطىً واسعة جداً . كانت اشبه بفرس الماء يحاول أن يطارد شمواةً * . وما هما الا دقيقتان حتى افلت من نظرها ، فارتدّت لاهثةً ، ساخطة ، يكاد الربو أن يخنقها . ودمدمت :

ـ « لستُ ادري ، مـا اذا كان من الحكمة ان يرتدي ملابسه الجديدة كل يوم ويحمل الناس على أن يجروا خلفه على هذه الصورة ! »

كان ماريوس قد ذهب الى حديقة اللوكسومبورغ .

---

* الشمواة chamois ضرب من الغزلان .

وكانت الفتاة الشابة هناك مع مسيو لوبلان . واقترب ماريوس ما استطاع الى الاقتراب سبيلا ، وقد بدا وكأنه يقرأ كتاباً ، ولكنه ظلّ بعيداً جداً ؛ ثم إنه رجع وجلس على مقعده حيث انفق اربع ساعات وهو يراقب عصافير الدوري الصغيرة البيضاء الفؤاد فيما هي تثب في المجاز . لقد بدت تلك العصافير وهي تسخر منه .

وانقضى اسبوعان على هذا النحو . ولم يعد ماريوس يقصد الى اللوكسومبورغ ابتغاء النزهة ، ولكنْ ليجلس في المكان نفسه دائماً ، ومن غير أن يدري لماذا . فما ان يصل الى هناك حتى يمتنع عن الحركة . وكان يرتدي بذلته الجديدة كل صباح ، لكي لا يلفت الانظار ، ثم يستأنف ذلك في اليوم التالي .

كانت على جمال باهر حقاً . والملاحظة الوحيدة التي كان في ميسور المرء ان يبديها ، والتي تشبه النقد ، هي أن ذلك التناقض بين نظرتها ، وهي نظرة محزونة ، وبين بسمتها ، وهي مبتهجة ، أضفى على محيّاها مسحةً شاردةً بعض الشيء مما جعل هذا المحيا العذب يبدو غريباً ، في بعض الاحيان ، ولكنْ من غير ان يفقد شيئاً من فتنته .

٦
في قبضة الاسر

وفي اواخر الاسبوع الثاني ، كان ماريوس جالساً كالعادة على مقعده ، ممسكاً بيده كتاباً لم يقلب صفحة من صفحاته منذ ساعتين . وفجأة ، سرت في اوصاله رعدة . كان حدث خطير قد وقع في أقصى المجاز . لقد غادر مسيو لوبلان وابنته مقعدهما ، بعد أن اخذت البنت بذراع

الاب ، ومضيا في أناة نحو منتصف المجاز حيث جلس ماريوس . واغلق ماريوس كتابه ، ثم أعاد فتحه ، ثم حاول ان يقرأ . وارتعد . كانت الحالة تتقدم نحوه مباشرةً . وقال في ذات نفسه : « آه يا الـٰهي ! لن يكون لديّ متسعٌ من الوقت لكي أتخذ موقفاً » . وفي غضون ذلك كان الرجل الأشيب والفتاة الشابة يتقدّمان . لقد بدا له أن هذا سوف يستمرّ قرناً من الزمان وان هـذا لم يكن غير ثانية واحدة . وسأل نفسه : « ما الذي حملها على المجيء الى هنا ؟ كيف ؟ إنها سوف تمرّ من هنا . إن قدميها سوف تطآن هذا التراب ، في هذا المجاز ، على بُعد خطوتين مني ليس غير ! » واضطرب اضطراباً شديـداً ، وتمنى لو كان وسيماً جداً ، ولو كان يحمل صليب جوقة الشرف . لقد سمع وقع خطواتها الرفيقة الموزونة يقترب . لقد تخيّل ان مسيو لوبلان يقذفه بنظرات غضبى . وقال في ذات نفسه : « أيعتزم هـــذا السيد ان يتحدث اليّ ؟ » وحنى رأسه . وحين رفعه كانا على مقربة دانية منه . ومرّت الفتاة الشابة ، ونظرت اليه فيما هي تمرّ . لقد نظرت اليه نظراً موصولاً ، وفي عذوبة متفكرة جعلت ماريوس يرتجف من قمة رأسه الى اخمص قدميه . لقد بدا له وكأنها تؤنبه لتخلّفه هذه المدة كلها عن المجيء اليها وأنها قالت : « اني انا القادمة . » وظل ماريوس مشدوهاً بهاتين العينين الحافلتين بالاشعة واللُّجج .

واستشعر وكأن دماغه يغلي على نار . كانت قـــد اقبلت نحوه . يا للسعادة ! وبعدُ ، فما كان أروعَ نظرتها اليه ! لقد بدت أجمل مما بدت في ايما وقت من الاوقات ، وكان جمالها من ذلك الضرب الانثوي الملائكي في آن معـــاً ، والجدير بان يغري بترارك بالغناء ، ودانتي بالركوع . واستشعر وكأنما كان يسبح في سماء عميقة زرقـاء . وفي الوقت نفسه ، غلب عليه استياء مروّع لأن بعض الغبـار كان يعلو حذاءه .

لقد اعتقد اعتقاداً جازماً بأنها رأت حذاءه ايضاً .

وأتبعَها بصرَه حتى غابت عن النظر ، ثم شرع يمشي في حديقة اللوكسومبورغ مثل رجلٍ معتوه . واغلب الظن أنه أنشأ يضحك في بعض الاحيان ، متوحِّداً ، ويتحدث في صوت مرتفع . وكان موزّع الفكر ، أمام جماعة من مربيات الاطفال ، الى درجة جعلت كلًّا منهنّ تعتقد أنه متيمٌ بها .

وغادر الحديقة ليبحث عنها في شارع من الشوارع .

والتقى بكورفيراك تحت قناطر الأوديون وقال له : « هيا نتناول العشاء معاً . » ومضيا الى مطعم روسو ، وأنفقا ستة فرنكات . لقد أكل ماريوس مثل غول . وأعطى النادل ستة فلوس . وحين جيء بالحلوى قال لكورفيراك : « هل قرأت الجريدة ؟ أيّ خطاب رائع ألقاه آندري دو بوبرافو ! »

لقد تيّمه العشق .

وبعد العشاء قال لكورفيراك : « سوف ادفع عنك رسم الدخول الى المسرح . » ومضيا الى « بورت سان مارتان » ليريا فريدريك في مسرحية « فندق آدريه » . وسُرّ ماريوس بالرواية سروراً عظيماً .

وفي الوقت نفسه ، أمسى أكثر غرابةً وتوحشاً . فحين غادرا المسرح رفض ان ينظر الى رباط ساق احدى صانعات القبعات النسائية وهي تخطو فوق ساقية . وحين قال كورفيراك : « **لا مانع عندي في أن أضع هذه المرأة في مجموعتي** ! » استبدّ به الذعر او كاد .

ودعاه كورفيراك الى تناول طعام الفطور معه في اليوم التالي في مقهى فولتير . وذهب ماريوس وأكل في شهوة دونها شهوته في الليلة البارحة نفسها . كان مستغرقاً في التفكير ، كثير الابتهاج . ولقد كان في ميسور المرء ان يقول إنه عمد الى تصيُّد جميع المناسبات الممكنة لينفجر بالضحك . لقد عانق في حنانٍ كلّ من قُدّم اليه من ابناء

الريف ، كائناً من كان . وكانت حلقة من الطلاب قد تشكلت حول احدى الموائد ، ودار ثمة حديث عن تُرّهات تنفق عليها الدولة وتجد لها سوقاً رائجة في السوربون ؛ ثم تطرّق الحديث الى الاخطاء والفجوات التي تحفل بها معاجم كويشيرا * وكتبُهُ العروضية . واعترض ماريوس المناقشة صائحاً : « على اية حال ، فأن من المستحبّ ان يفوز المرء بالوسام ! »

فهمس كورفيراك في اذن جان بروفير :

— « هو ذا شيء مضحك ! »

فأجابه جان بروفير :

— « لا . إنه شيء جدّي . . »

وكان ذلك جدياً في الحق . فقد كان ماريوس يجتاز تلك اللحظات العنيفة الفاتنة ، الأولى ، التي تتصدّر ضروب الهيام العظيم .

كانت نظرةٌ واحدة قد فعلت ذلك كله .

فحين يكون اللغم مشحوناً ، ويكون عود الثقاب مستعداً ، فلن تقع على ما هو ايسر واسهل . إن النظرة شرارة .

وقضي الأمر . لقد احب ماريوس امرأةً . كان قدَرُه يتخذ سبيله نحو المجهول .

إن نظرات النساء اشبه شيء ببعض الماكينات الوديعة في ظاهرها ، الرهيبة في حقيقتها . انك تمرّ بها كل يوم مرّاً هادئاً لا ينطوي على ضررٍ ما ، ولا يدعو الى ريبة ما . وتعبر بك لحظةٌ تنسى فيها مجرد وجود تلك الاشياء هناك . إنك لتروح ، وانك لتجيء . انك لتحلم ، وانك لتتكلم ، وانك لتضحك . وفجأةً تحسّ بأنك وقعت في الأسر ! انتهى كل شيء . لقد امسكت الدواليب بك ، لقد امرتك النظرة .

---

* Quicherat لغويّ فرنسي (١٧٩٩ — ١٨٨٤) وضع معجماً لاتينياً فرنسياً معروفاً ، وكتابين في العروض الفرنسي والعروض اللاتيني .

إستولت عليك – ولا تسلْ أين وكيف – بجزء ما من اجزاء تفكيرك كان يجرّ نفسه متباطئاً ، بذهول كان مستحوذاً عليك . ويُلمّ بـــك الهلاك . وتُسحبُ الى هنــاك بكاملك . إن سلسلة من القوى العجيبة لتستحوذ عليك . وتناضل على غير طائل . وليس ثمة سبيلٌ الى نجـدة بشرية ما . انك سوف تتدحرج من دولاب الى دولاب ، من ألم نفسي مرير الى ألم نفـسي مرير ، من نَكال الى نَكال ؛ أنت ، وعقلــك ، وقدَرك ، ومستقبلك ، وروحك . ولن تخرج من بين براثن تلك الآلة الفظيعة إلا بعد أن يشوّهك العار أو يخلقك الحب خلقاً أسمى – تبعاً لشخصية من تقع تحت سلطانهِ ، ومـا اذا كان مخلوقاً شريراً او قلبا نبيلا .

٧

مغامرات الحرف υ وقد أُسلم الى الحدس والظن

كانت العزلة ، والانفصال عن كل شيء ، والعُجْب ، والاستقلال ، وحب الطبيعة ، وفقدان النشاط اليومي والماديّ ، والانطواء على النفس ، ونضالات العفة الخفية ، والنشوة الروحية الخيّرة تجاه الكون كلـــه – كانت هذه جميعاً قد أعدّت ماريوس لذلك المسّ الذي ندعوه العشق . كان تقديسه لأبيه قد أمسى ديناً أو يكاد ، وكان قد ارتدّ شأن كل دين الى أعماق القلب . لقد احتاج الى شيء فوق ذلك . وهنـا أقبل الحبّ .

وتصرّم شهرٌ كامـــل قصد ماريوس ، خلاله ، الى حديقــة

اللوكسومبورغ كل يوم . فما إن تحين تلك الساعة حتى يعجز كل شيء عن إبقائه بعيداً عن ذلك المكان . وكان كورفيراك يقول : « لقد آن وقت خدمته العسكرية » . وكان ماريوس يحيا في جذل . ومن الثابت أن الفتاة الشابة قد نظرت اليه .

وكان قد أمسى اكثر جراءةً ، فهو يقترب من المقعد اكثر من ذي قبل . بيد أنه لم يمرّ بذلك المقعد بعدُ ، على الاطلاق ، مطيعاً في آنٍ معاً غريزة الخوف وغريزة الفطنة اللتين يتميّز بهما العشاق . لقد قدّر ان من الخير له ان لا يلفت « انتباه الأب » . لقد نظّم محطّاته خلف الاشجار وقواعد التماثيل في ميكيافيلية عميقة بحيث تستطيع الفتاة الشابة ان تراه اكثر ما يكون ، وبحيث يستطيع الرجل العجوز ان يراه اقل ما يكون . وفي بعض الاحيان ، كان يقف جامداً ، طوال نصف ساعة ، خلف تمثالٍ لـ « ليونيداس » * أو لـ « سبارتاكوس » ** أو غيرهما ، وفي يده كتاب كانت عيناه ترتفعان من فوقه على مهل ، وتبحثان عن الفتاة الجميلة ، فيما كانت هي بدورها تدير نحوه جانباً من وجهها الفاتن ، في ابتسامة غامضة . وفيما هي تتحدث باكثر ما يكون من الطبيعية والسكينة مع الرجل ذي الشعر الاشيب ، سدّدت الى ماريوس عيناً عذراء مغرمة مستغرقة في الاحلام . وإنه لفنٌّ عتيق سابق كلّ تاريخ — فنٌّ عرفته حواء منذ اليوم الاول من أيام العالم ، وتعرفه كل امرأة منذ اليوم الأول من حياتها ! كان لسانها يجيب احدهما ، وكانت عينها تجيب الآخر .

ويجب ان نفترض ، مع ذلك ، ان مسيو لوبلان أدرك شيئاً من

* Léonidas الأول ، ملك اسبارطة من عام ٤٩٠ الى عام ٤٨٠ قبل المسيح ، وقد قضى في ميدان المعركة ، مع ثلاثمئة من الاسبارطيين ، وهو يقاوم الجيوش الفارسية.

** Spartacus هو زعيم العبيد الثائرين في وجه القوات الرومانية ، وقد قُتل عام ٧١ بعد أن صمد في وجه الرومان سنتين . وبلغ عدد المنضوين تحت لوائه في وقت من الاوقات سبعين الف رجل .

هذا آخر الامر ، اذ كان ينهض في كثير من الاحيان ويتمشى حالما بجيء ماريوس . كان قد ترك مكانها المألوف ، واتخذ المقعد القائم عند الطرف الآخر من المجاز ، قرب تمثال « المقاتل » وكأنما كان يريد ان يرى أيتبعه ماريوس أم لا . ولم يفهم ماريوس شيئاً من هذا ، وارتكب تلك الغلطة . وأمسى « الاب » اقل محافظة على المواعيد ، ولم يعد يصطحب « ابنته » كل يوم . كان يفد في بعض الاحيان وحده . وفي مثل هذه الحال ، كان ماريوس يسارع الى مغادرة الحديقة . غلطةٌ اخرى .

ولم يحترس ماريوس من هذه الاعراض قط . كان قد انتقل من مرحلة الخوف — وهو تقدُّم طبيعيّ محتوم — الى مرحلة العمى . كان حبه قد نما . لقد امسى يراها كل يوم في ما يرى النائم . والى ذلك ، فقد ألمت به سعادة غير مرتقبة ، فكان هذا اشبه بالزيت صُبّ على النار ، ومن ثم ضُربت على بصره غشاوة مزدوجة . فذات مساء ، عند الغسق ، وجد على المقعد الذي فارقه « مسيو لوبلان وابنته » ، منذ لحظة ، منديلاً — منديلاً بسيطاً غير مطرّز ، ولكنه ابيض ، رقيق ، بدا لماريوس وكأنه يتنفس بأطياب تمتنع عن الوصف . وأمسك به في تهلّل . وكان ذلك المنديل مُعْلَماً بحرفي U. F ؛ ولم يكن ماريوس يعرف شيئاً عن هذه الطفلة الجميلة ، لم يكن يعرف اسرتها ، او اسمها ، او بيتها . كان هذان الحرفان اول شيء عثر عليه ماريوس منها ، وكانا حرفين أوّلين من اسمٍ معبود ، شرع يشيّد فوقهما قصره . كان واضحاً ان اسمها الصغير يبدأ بـ U . وقال في ذات نفسه : « أورسول ، يا له من اسم حلو ! » وقبّل المنديل ، وشم اريجه ، ووضعه فوق قلبه ، وعلى جسده في ساعات النهار ، وكان لا ينام ليلاً الا وقد وضعه على شفتيه . وصاح :

— « إني أستشعر روحها كلها فيه ! »

وكان ذلك المنديل للرجل العجوز الذي تركه يسقط ، بكل بساطة ، من جيبه .

وفي الايام التي عقبت عثوره على هذه اللقية لم يظهر في اللوكسومبورغ قط إلا مقبّلًا هـذا المنديل ، واضعاً اياه على فؤاده . ولم تفهم الطفلة الجميلة شيئاً من هذا ، وأعلمته بذلك بإيماءاتٍ لم يرها .

وقال ماريوس :

– « يا للحياء ! »

٨

حتى مشوهو الحرب يمكن ان يكونوا محظوظين

وما دمنا قـد لفظنا كلمة « حياء » ، ومـا دمنا لا نخفي شيئاً ، فيتعيّن علينا أن نقول إن « أورسول » تلك ، قـد انزلت بـه ذات يوم – من خلال نشوته الروحية كلها – اذىً خطيراً . وكان ذلك يوم حملت مسيو لوبلان على مغادرة المقعد والقيام بنزهة في مجـاز الحديقة . وهبّت ريح شمالية عنيفة رنّحت أعالي شجرات الدلب . وكان الاب وابنته قد اجتازا ، منذ لحظة ، بمقعد ماريوس . فما كان منه إلا أن نهض خلفهما ، وأتبعهما بصرَهُ ، وهو امرٌ طبيعي في مثل هذه الحـال من الوله والهيام .

وفجأةً هبّت من جانب المغرِس ريحٌ اشدّ بأساً من سابقاتهـــا – ولعلها كانت مكلفةً القيامَ بمهـامّ الربيـع الصغرى – واندفعت نحو المجاز فطوّقت الفتاة الشابة بارتعـاشة فاتنة جديرة بعرائس المـــاء عند

فرجيل ، وآلهات الاحراج عند تيوقريط * ، ورفعت تنّورتها ، تلك التنورة المقدّسة اكثر من تنورة إيزيس ، الى مستوى رباط الساق تقريباً . لقد كشفت تلك الريح عن ساقٍ ذات قالب رائع . ولقد رأى ماريوس تلك الساق ، فاستبدّ به الحنق والسخط .

وكانت الفتاة الشابة قد سارعت الى خَفْض التنورة في حركة مجفلة على نحو رائع ، ولكن ذلك لم يخفّف من سخطه البتة . لقد كان وحده في ذلك المجاز ، هذا صحيح . ولكنْ كان من الجائز ان يكون هناك شخصٌ ما . ولو قد كان شخص ما هناك ! أيستطيع المرء ان يفهم شيئاً مثل هذا ؟ إنه لفظيعٌ هـــذا الذي اقدمت عليه ! واأسفاه ! إن الطفلة المسكينة تفعل شيئاً . فلم يكن ثمة غير مذنب واحد : الريح . ومع ذلك ، فإن ماريوس ـ الذي ارتجف في ذات نفسه ، على نحو مبهم ، بارتولو ** ذاك الذي يمكن أن ينطوي عليه ملاكٌ من الملائكة الكروبيّين ـ كان مصمماً على أن يكون ساخطـــاً ، وكان غيوراً من خياله . ذلك بأنه على هذه الصورة تستيقظ غيرة الجسد المريرة والعجيبة ، في القلب البشريّ وتفرض نفسها على الانسان ، ولو من غير حقّ . والى هذا ، وبصرف النظر عن هذه الغيرة ، فانه لم يجد شيئاً مستحباً في مشهد تلك الساق الجميلة ؛ كان الجورب الابيض الذي تلبسه أيما امرأة اخرى خليقاً بأن يوقع في فؤاده سروراً أعظم .

وحين رجعت « أورسول » ـ هي ومسيو لوبلان ، بعد أن بلغت أقصى المجاز ـ ومرّت بالمقعد الذي عاود ماريوس الجلوس عليه ،

---

* Théocrite شاعر إغريقي (ولد حوالى ٣١٠ أو ٣٠٠ قبل الميلاد) وكان يمتاز بشدة حساسيته ، وبعد خياله ، وقوة ملاحظته الواقعية . ويعتبر مخترع الشعر الذي يصف حياة الرعاة .

* Bartholo احدى شخصيات « حلاق اشبيلية » لبومارشيه ، وهو لا يزال الى اليوم نموذجاً للوصيّ الغيور الكثير الشكوك .

رمقها ماريوس بنظرة فظة ضـــارية . وتصدّرت الفتاة الشابة ، بعض الشيء ، ورفعت اجفانها على ذلك النحو الذي يقول : « حسن ، ما الذي أصابه ؟ »

كان ذلك هو « خصامهما الأول » .

ولم يكد ماريوس ينتهي من ذلك التوبيخ الذي وجّهه اليها بعينيه حتى عَبرَ المجاز شخص ما . وكان ذلك الشخص مشوّهاً من مشوهي الحرب ، محدودب الظهر احديداباً كاملاً ، مغضّن البشرة شديد الشحوب الى حد بعيد . وكان يرتدي بذلة عسكرية من طراز لويس الخامس عشر ، ويضع على صدره تلك الرقعة البيضية المصنوعة من جوخ احمر والموسوم عليها سيفان متقاطعان ، وسام القديس لويس الخاص بالجند . وكان ذلك المشوّه يزدان ايضاً بِرُدْن سترةٍ ليس في داخلها ذراع ، وبذقن فضية ، وساق خشبية . وحسب ماريوس أنه رأى سيما من الارتيـاح البالغ تطفو على وجه ذلك المخلوق . بل لقد بدا له ان ذلك العجوز الوقح وجّه اليه فيما هو يعرج على مقربة منه عرجـــاً خفيفاً ، غمزةً أخويةً جداً ، مبتهجةً جداً ، وكأنهما تواطآ بمصادفة ما ، على أمر ، واستمتعا معاً بسعادة غير مرتقبة . أيّ شيء رآه فضلة « مارس » * هذا حتى يغلب عليه السرور ؟ ما الذي جرى بين هذه الساق الخشبية وبين تلك الساق ؟ لقد عصفت بماريوس عاصفة من الغيرة . وقال في ذات نفسه : « لعله كان على مقربة منها ! لعله قد رآها ! » وتمنى لو يستطيع أن يُبيد ذلك المشوّه .

وبمعونة الزمن ، يتثلّم كل حدّ قاطع . وهكذا فان غضب ماريوس على أورسول ، مهما يكن عادلاً ومشروعاً ، لم يلبث ان زال . وغفر لها آخر الأمر ، ولكنّ ذلك اقتضاه جهداً كبيراً . لقد أظهر لها استياءه ثلاثة أيام .

---

* الـه الحرب . وهو يقصد بـ « فضلة مارس » مشوّه الحرب ذاك .

وفي غضون ذلك ، وبرغم هذا كله ، بل بسبب من هذا كله ، كان هيامه يتعاظم ، ويغدو جنوناً .

٩
خسوف

لقد رأينا كيف اكتشف ماريوس ، او اعتقد انه اكتشف ، ان اسمها كان أورسول .

ان الجوع يمشي مع الحب جنباً الى جنب . لقد كانت معرفته لاسمها شيئاً ذا شأن ، ولكنها لم تكن كافية . ففي مدى ثلاثة اسابيع او اربعة اسابيع ، التهم ماريوس هذه السعادة . ومن ثمّ كان في حاجة الى سعادة اخرى . لقد اراد ان يعرف أين تسكن .

كان قد ارتكب خطيئة الوقوع في شرك المقعد المجاور لتمثـال « المقاتل » . وكان قد ارتكب خطأ آخر عندما احجم عن البقاء في حديقة اللوكسومبورغ كلما أقبل مسيو لوبلان وحده اليها . ولقد ارتكب الآن خطأ ثالثاً ، خطأ هائلاً : لقد سار على آثار أورسول .

كانت تسكن في « شارع الغرب » ، بل في جزئه الأشدّ انعزالاً ، في منزل جديد متواضع المظهر مؤلف من ثلاثة ادوار .

ومن ذلك الحين اضاف ماريوس الى سعادته برؤيتها في حديقة اللوكسومبورغ سعادة السير خلفها حتى منزلها .

وتعاظم جوعه . لقد عرف اسمها ، اسمها الاول على الاقل ، ذلك الاسم الفاتن ، ذلك الاسم الانثوي الحقيقي . ولقد عرف اين تسكن . فهو يريد الآن ان يعرف من هي .

وذات ليلة ، بعد ان تبعها حتى المنزل ، ورآهما يتواريان خلف باب

العربات ، دخل على آثارهما وسأل البواب في شجاعة :

– « ايكون هذا السيد الذي دخل اللحظة هو سيد الدور الأول ؟ »

فأجابه البواب :

– « لا . إنه سيد الدور الثالث . »

وكانت تلك خطوةً اخرى مشاها في طريق المعرفة . وضاعف هذا النجاح جرأة ماريوس .

وسأل البواب :

– « من الجهة الامامية ؟ »

فأجابه :

– « يا للسماء ! إن البيت ليس مبنياً إلا على الشارع . »

– « ومن هو هذا السيد ؟ »

– « إنه صاحبُ دخْل . رجل طيب جداً كثير الاحسان الى الفقراء على الرغم من انه ليس غنياً . »

فأردف ماريوس :

– « وما اسمه ؟ »

فرفع البواب رأسه ، وقال :

– « أيكون سيدي رجلًا من رجال المباحث ؟ »

وانصرف ماريوس ، وقد غلب عليه الخجل ، ولكنه ما يزال في نشوة عارمة . وتقدّم ، وهو يقول في ما بينه وبين نفسه :

– « حسن . انا اعرف أن اسمها اورسول ، وانها ابنــة رجل ذي دخل ، وانها تسكن هناك ، في شارع الغرب ، وفي الدور الثالث . »

وفي اليوم التالي لم يقضِ مسيو لوبلان وابنته في حديقة اللوكسومبورغ غير برهة قصيرة . لقد انصرفا في وضح النهار . وتبعهما ماريوس الى « شارع الغرب » جرياً على عادته . حتى اذا انتهيا الى باب العربات ، ادخــل مسيو لوبلان ابنته امامه ، ثم توقف قبل ان يجتاز العتبة ، واستدار وحدق

الى ماريوس تحديقاً موصولاً

وفي اليوم الذي تلا، لم يذهب الى حديقة اللوكسومبورغ . لقد انتظره ماريوس هناك طوال النهار ، ولكن من غير طائل .

حتى اذا هبط الليل شخص الى شارع الغرب ، فرأى نوراً ينبعث من نوافذ الدور الثالث . وتمشّى تحت هذه النوافذ حتى أطفىء النور .

وفي اليوم التالي لم يجيء احد الى اللوكسومبورغ. لقد انتظر ماريوس طوال النهار ، ثم مضى ليقوم بواجبه الليلي تحت النوافذ . ولقد شغله ذلك حتى الساعة العاشرة مساء . ولم يتناول طعام العشاء . إن الحمى تُقيت المحموم ، وكذلك يقيت الحبُ المحبَّ .

وسلخ اسبوعاً على هذا النحو . ولم يعاود مسيو لوبلان وابنته الظهور في حديقة اللوكسومبورغ . وراودت ماريوس ظنون كئيبة . ولم يجرؤ على مراقبة باب العربات في اثناء النهار . فاجتزأ بالذهاب ليلاً ليتأمل ضوء زجاج النوافذ الضارب الى الحمرة . وبين الفينة والفينة ، كان يرى ظلالاً تروح وتجيء ، فيخفق فؤاده خفقاناً شديداً .

وفي اليوم الثامن لم يجد ، حين وصل الى المنزل ، ايما ضوء منبعث من النوافذ . وقال :

— « ماذا ؟ المصباح لمّا يُشعلْ بعد . ومع ذلك فالدنيا ليل ، أم انهما قد خرجا الى مكان ما ؟ »

وانتظر . انتظر حتى الساعة العاشرة . حتى منتصف الليل . حتى الواحدة صباحاً . ولكن ضوءاً ما ، لم ينبعث من نوافذ الدور الثالث . ولكن شخصاً ما ، لم يدخل الى المنزل . وانصرف متجهّماً كاسف البال .

وفي غدٍ — إذ انتهى الى ان يعيش من غد الى غد ؛ فلم يعد ثمة لديه اذا جاز التعبير ، شيء اسمه « اليومَ » — لم يجد احداً في حديقة اللوكسومبورغ . وانتظر . حتى اذا هبط الليل مضى الى المنزل . لم يكن ثمة نور منبعث من النوافذ ، وكانت المصاريع الخارجية موصدة .

كان الدور الثالث مظلماً بالكلية .
وقرع ماريوس باب العربات ، ودخل وقال للبواب :
ـ « السيد النازل في الدور الثالث ؟ »
فأجابه البواب :
ـ « لقد انتقل . »
وترنح ماريوس ، وقال في وهن :
ـ « متى ؟ »
ـ « أمس . »
ـ « اين يسكن الآن ؟ »
ـ « لست ادري شيئاً من ذلك . »
ـ « اذن ، فهو لم يترك عنوانه الجديد ؟ »
ـ « لا . »
ورفع البواب أنفه ، فعرف ماريوس .
وقال :
ـ « ماذا ؟ هذا انت ! ولكنك من غير شك مفوض شرطة اذن ! »

الكتاب السابع

المعلم مينيت

١

الالغام واللاغمون

إن للمجتمعات الانسانية كلها ما ندعوه في المسارح « الدور التحتيّ الثالث » . والتربة الاجتماعية مزروعة بالالغام في كل مكان ، ابتغـاء الخير حيناً ، وابتغاء الشر حيناً . وهذه الالغام طبقاتٌ بعضُهـا فوق بعض . فهناك الالغام العليا ، والالغام السفلى . وهناك قمـة وقعر في هذه الطبقة تحت الارضية ، المظلمة ، التي تَتْلفُ تحت المدنيـة ، والتي تطأها لامبالاتنا وإهمالنا بأقدامها . فالانسكلوبيديا ، في القرن الماضي ، كانت لغماً مزروعاً على سطح الارض ، أو يـكاد . والكهوف المظلمة ،

تلك الحاضنات الكالحات الوجوه التي حمت النصرانية البدائيـــة ، كانت تنتظر اول فرصة لكي تنفجر تحت القياصرة ، وتُغرق الجنس البشري بالضياء . ذلك بأن في هذه الدياجير المقدسة نوراً كامناً . فالبراكـــين ملأى بظلمة قادرة على السطوع والالتماع . وجميـع الحمم تبدأ في التكون ليلاً . إن الداميس * ، التي تُلي فيها القداس الأول ، لم تكـن غارَ رومة فحسب ، بل كانت كهف العالم .

إن تحت البِنية الاجتماعية — هذه الآية المعقّدة يتكشّف عنها بيت عتيق — لحَفَراً من كل نوع . فهناك اللغم الديني ، وهناك اللغم الفلسفي ، وهناك اللغم السياسي ، وهناك اللغم الاقتصادي ، وهناك اللغم الثوري. فهذا مِعولٌ مع فكرة ، وذاك معولٌ مع رقم ، وذلك معول مـع انتقام . إنها تتداعى وتتجاوب من كهف الى كهف . وإن المدن الفاضلة تتقدم وئيداً ، تحت الارض ، في تلك المسالك . إنها تتشعب في كل اتجاه . وهي تلتقي هناك في بعض الاحيان وتتآخى . فجان جاك يعير ديوجين معوله ، وديوجين يعير جان جاك مصباحه . وهي تتقاتـل في بعض الاحيان . فكالفين * يأخذ بشعر سوسينيوس ** . ولكن شيئاً لا يوقف او يعترض سعيَ هذه الطاقات كلها نحو غايتهـــا ، والنشاطَ الضخم المصاحب الذي يروح ويجيء ، ويصعد ، ويهبط ، ويعاود الصعود في هذه الارجاء المظلمة ، والذي يسمو بالاعلى بواسطة الادنى ، والخارجي بواسطة الباطني . تجمهرٌ هائل مجهول . والمجتمع لا يكاد يرتاب بعمليـة

---

* الداميس ، جمع دَيماس ، وهي الكهوف التي كان قدماء المسيحيين يختلفون اليها للتعبد سراً ، ولدفن موتاهم .

* Calvin المصلح البروتستانتي المشهور الذي نادى بفكرتـــه الاصلاحية في فرنسة وسويسرة ، والذي انشأ جمهورية بروتستانتية في جنيف (١٥٠٩ — ١٥٦٤)

* Socin بروتستانتي ايطالي اسس مذهباً خاصاً نُسب اليـــه فعرف بالمـــذهب السوسينيوسي (١٥٢٥ — ١٥٦٢)

النسف هذه التي تغيّر جوهره من غير ان تمس سطحه . أدوار دهليزية كثيرة جداً ، واعمال متفاوتة كثيرة جداً ، وحفر شتى كثيرة جداً . فما الذي ينبثق من هذه التجاويف العميقة كلها ؟ المستقبل .

وكلما امعنّا في الغوص وجدنا القائمين بالعمل هناك اكثر خفاء وغموضاً. فحتى درجةٍ تستطيع الفلسفة الاجتماعية ان تعترف بها ، يكون العمل صالحاً. فاذا تعدّى تلك الدرجة أمسى مريباً مشوباً . اما بعد ذلك فيغـدو فظيعاً . وعند عمقٍ بعينه تصبح الحُفر كتوماً لا تنفـذ اليها روح الحضارة ، ويُتخطّى مجال الانسان التنفّسي . عندئذ يصبح وجود الهُوَل ممكناً .

والسلّم الهابطة غريبة حقاً . إن كلًا من درجاتها توافق مَوْطِئاً تستطيع الفلسفة أن تضع قدمها عليه ، موطئاً نعثر فيه على احد هؤلاء العمال ، الالـهيين حيناً ، البشعين حيناً آخر . فتَحْتَ جان هُسّ * نجد لوثر ؛ وتحت لوثر نجـد ديكارت ؛ وتحت ديكارت نجد فولتير ؛ وتحت فولتير ؛ نجد كوندورسيه ؛ وتحت كوندورسيه نجد روبسبيير؛ وتحت روبسبيير نجد مارا ؛ وتحت مارا نجـد بابوف ** . وهكذا دواليك . فاذا غُصْنا الى أبعد من ذلك ، وسط الاختلاط والتشوّش ، وبلغنا الحدّ الفاصل ما بين غير الواضح وغير المنظور ، لمحنا في الظلمة رجالاً آخرين ، لعله لم يبقَ لهم اليومَ وجود . إن رجـال الأمس أشباح . وإن رجال الغد يرقانات . إن عملَ المستقبلِ الجنينيّ إحدى رؤى الفيلسوف .

عالَمٌ جنينيٌ في السُّدُم . أية صورة مظلّلة رائعة !

---

* Huss مصلح ديني تشيكي حكم عليه بالموت حرقاً (١٣٦٩ – ١٤١٥)

** Babeuf ثوري فرنسي (١٧٦٠ – ١٧٩٧) تآمر ضد حكومة الادارة ، وانتحر طاعناً نفسه بالخنجر قبل أن يصعد الى المشنقة . ويعرف مذهبه ، الذي كان ضرباً من الشيوعية ، بالبابوفية . *Babouvisme*

وسان سيمون ، وأووين ، وفورييـــه هم هناك ايضاً ، في حُفَر جانبية .

وعلى الرغم من أن سلسلة البَهية غـــير منظورة تربط هؤلاء الرواد الدهليزيين الذين يعتقدون دائمـاً تقريباً انهم منعزلون ومـــع هذا فهم ليسوا كذلك ، فان ألوان نشاطهم تختلف جداً ، وان ضياء بعضهم ليتغاير مع لهيب بعضهم الاخر . بعضهم فردوسيون ، وبعضهم مأساتيون . ومع ذلك ، وأياً ما كان التغاير الذي بينهم ، فأن قاسماً مشتركاً يجمع ما بين هؤلاء العاملين جميعاً ، من أسماهم الى أقتمهم ، ومن اكثرهم حكمة الى اشدهم حماقةً ، وهو النزاهة . ان مارا ، مثل يسوع ، لينسى نفسه . انهما يطّرحان نفسيهما جانباً ؛ لنهما يُغفلان نفسيهما ؛ انهما لا يفكران بنفسيهما البتة . انهما يريان شيئاً آخر غير نفسيهما . ان في اعينهما نوراً ، وهذا النور يبحث ابداً عن المطلق . اما الأول فالسماء كلها منطوية في عينيه . وأما الآخر فيبدو تحت حاجبيه ، برغم لُغْزيّته كلها ، ضياء اللانهاية الشاحب . فلنقدّس كل من يحمل هذه العلامة ، « الحدقة النجم » ، كائناً من كان .

إن « الحدقة الظلمة » هي العلامة الاخرى .

بها يبدأ الشرّ . وأمام من لا نور في عينه يتعين عليك ان تفكر وترتجف . إنّ للنظام الاجتماعي لاغميهِ السود .

هناك نقطة ينتهي زرع الالغام فيها الى ان يصبح دفناً ، وينطفىء عندها الضياء .

وتحت جميـع هذه الالغام التي اشرنا اليها ، تحت جميـع هذه الدهاليز ، تحت مجموعة العروق الهائلة المحجوبة ، عروق التقدم والمدينة الفاضلة ، وعند نقطة أعمق في باطن الارض ، في موقع ادنى من موقع مارا ، وادنى من موقع بابوف ، اجل ادنى ، أدنى بكثير ، ومن غير ان تكون بينها وبين الدهاليز العليـــا صلة ما ، تقـــع الحفرة الاخـــيرة . مكانٌ رهيب . ذلك ما دعوناه « الدور التحتيّ الثالث » . إنه قبر الظلمات .

إنه كهف العميان . *Inferi* *

وهو متصلٌ بالهُوَى . **

٢
الدرك الأسفل

هناك تتلاشى النزاهة . إن الشيطان ليرتسم على نحوٍ غامض ؛ وكل يعمل من أجل ذاته . إن « أنا » العمياء تعوي ، وتبحث ، وتتحسّس طريقها في الظلام ، وتقرض . إن « اوغولينو » *** الاجتماعي لفي هذه الهوة .

إن الصُوَر الشرسة المظللة التي تطوّف في هذا القبر ، شبيهةٌ بالبهائم شبيهةٌ بالأطياف ، لا تُعنى بالتقدّم الكليّ . إنها تُنكر الفكرة والكلمة ؛ وليس لها من همٍّ غير إرواء غليلها الفرديّ . إنها تكاد أن تكون لاواعية ، وإن فيها لضرباً من الاندثار الرهيب . إن لها أمّين ، كلتاهما امرأة أب ، الجهل والبؤس . وإن لها هادياً هو الحاجة . والشكل الأوحد الذي تعرفه ، من اشكال الارتياح ، هو الشهوة الى الطعام . إنها نهمةٌ على نحو بهيميّ ، يعني أنها ضارية ، لا على طريقة الطاغية ولكن على طريقة النمِر . ومن المحنة تنتقل هذه اليرقانات الى الجريمة . بُنوّة محتومة . تناسلٌ يوقع الدُوار في الرأس ، منطق الظلام . إن ذلك الذي يدبّ في « الدور التحتيّ الثالث » هذا ، لم يعُد البحث

* باللاتينية ، وتعني جهنم او الجحيم .

** الهوى : جمع هوّة .

*** Ugolin Della Cherardesca طاغية بيزا الرهيب وقد حبسه اعداؤه في احد الابراج ليموت جوعاً (القرن الثالث عشر للميلاد) .

المكظوم عن المطلق ؛ إنـه احتجاج المادة . إن الانسان هناك ليصبح تنّيناً . والجـوع والظمأ هما نقطة الانطلاق . والشيطان هو نقطة الوصول . من هذا الكهف ينبثق لاسينير * .

لقد رأينا في الكتاب الرابع ، منذ لحظة ، احـدى طبقات اللغم الاعلى : اللغم السياسي ، الثوريّ ، الفلسفي الكبير . هناك ، كما قلنا ، كل شيء نبيلٌ ، طاهر ، جليل ، فاضل . صحيح أن المرء ، هناك ، قد يُخدع ، وانه ليُخدَع ، ولكن الخطأ هناك مدعاة للاحترام لما ينطوي عليه من بطولة بالغة . وليس لجمّاع العمل الذي يتم هناك غـير اسم واحد ، هو التقدم .

ولقد آن لنا ان نلقي نظرةً على أعماق أخرى ، أعماق الرعب .

ان تحت المجتمع – ونحن نصرّ على ذلك ، كهفاً ضخماً هو كهف الشرّ ، ولسوف يظلّ هذا الكهف قائماً تحت المجتمع الى يومِ يزول الجهل .

وانما يقع هذا الكهف تحت ذلك كله ، وانه لعدوّ لذلك كله . انه البغض الذي لا يقيّده استثناء . وهذا الكهف لا يعرف فلاسفةً البتة . ان مديته لم تبرِ يراعةً ما ، في يوم مـن الأيام . فليس لسواده ايما صلة بسواد المحبرة السّنيّ . ان اصابع الليل المتشنجة تحت هذا السقف الخانق لم يُقدّر لها ان قلّبت صفحات كتاب ، او بسطت جريدة قط . ان بابوف محتال في نظر كارتوش ، وان مارا اريستوقراطي في نظر شيندرهان . ان لذلك الكهف هدفاً ، هو انهيار كل شيء .

اجل كل شيء . حتى الألغام العليا التي يُبغضها . إنه لا ينسف ، في دبيبه المخيف ، نظام العصر الاجتماعيّ فحسب ، بل إنه ينسف الفلسفة ، إنه ينسف العلم ، إنه ينسف القانون ، انـه ينسف الفكر الانساني ، انه ينسف الحضارة ، انه ينسف الثورة ، انـه ينسف التقـدم

* Lacenaire مجرم سفاح أعدم في باريس (١٨٠٠ – ١٨٣٦)

ايضاً . وهو يسمّى ، بكل بساطة ، اللصوصية ، والبغاء ، والقتل ، والاغتيال . انه مظلم ، وهو يحبّ الفوضى . ان قنطرته مصنوعة من الجهل .

والطبقات الأخرى التي تعلوه ليس لها كلها غير غرض واحد : أن تقضي عليه . ومن اجل هذا الغرض تعمل الفلسفة والتقدم بوسائلها جميعاً في آنٍ معاً ، باصلاح الواقع وإنعام النظر الى المطلق على حدّ سواء . دمّروا الكهف المسمّى الجهل ، تقتلوا الخُلد المسمى الجريمة .

ولسوف نكشف في بضع كلمات جزءاً مما قلناه اللحظة . ان الخطر الاجتماعي الأوحد هو الظلام .

الانسانية هي وحدة الذات . فالناس كلهم مجبولون من طين واحد . لا فرق ، هنا في هذا العالم على الاقل ، في القضاء والقدر . الظلمة نفسُها قبل الحياة ، والجسد نفسُه في اثنائها ، والرفات نفسه بعدها . ولكن الجهل ، ممتزجاً بالجبلّة الانسانية ، يسوّدها . وهذا السواد الذي لا بُرء منه يستحوذ على قلب الانسان ، ويتحوّل هناك الى الشرّ .

٣
بابيه ، غولوميه ، كلاكسو ، ومونبارناس

كان رباعيّ من قطاع الطرق — كلاكسو ، غولوميه ، بابيه ، ومونبارناس — يهيمن على دوْر باريس التحتيّ الثالث من عام ١٨٣٠ الى عام ١٨٣٥ .

كان غولوميه جباراً مُبعداً عن ميدانه الطبيعيّ . وكان جُحرُه بالوعة « آرش ماريون » . كان طوله يبلغ ستة اقدام ، وكان ذا صدر رخاميّ ، وعضلات نحاسية ، ورئتين كهفيّتين ، وجذع تمثال فائق

الضخامة ، وجمجمة عصفور . وتخيّل اليك اذ تراه انك ترى الى فارنيز *
الجبار لابساً بنطلوناً من نسيج كتاني مشدود ، وصدرةً من مخمل
قطنيّ . وكان في استطاعة غولوميه ، وقد انشيء على هذا النحو
النّقشيّ ، أن يقهر الهَوَل ، ولكنه وجد أنّ من الأيسر عليه أن
يصبح هو واحداً منهم . جبين منخفض ، وصدغان عريضان ، وسنّ
دون الاربعين ، وقدم اوزّة ، وشعر قصير خشن ، وخدّ شائك ،
ولحية خنزيرية برية ، ومن خلال هذا كنت ترى الرجل . كانت
عضلاته تلتمس العمل ، ولكن حماقته لم تكن راغبة في شيء من ذلك .
كان قوةً هائلة كسولاً . كان سفّاحاً بالتثاقل والتواني . ولقد كان
الناس يحسبونه من مواليد المستعمرات . واغلب الظن انه كان في بُرديه
شيء من المارشال برون ** ، اذ كان بواباً في آفينيون عام ١٨١٥ .
ومنذ تلك الفترة امسى قاطع طريق .

وكانت شفافية « بابيه » تتغاير تغايراً واضحاً مع لحمانية غولوميه .
كان بابيه نحيلًا حاذقاً . وكان شفافاً . ولكنه مُغلق لا ينفذ المرء الى
سريرته . كان في ميسورك ان ترى النور من خلال عظامه ، ولكن لم
يكن في ميسورك ان ترى شيئاً من خلال عينيه . كان يدّعي انه
كيميائي . ولقد عمل مشعوذاً عند بوبيش ، ومهرجاً عند بوبينو . وكان
قد مثل بعض ادوار الفودفيل في سان ميهييل . كان رجلًا متكلفاً ،
ومحدّثاً بارعاً ، يضع خطاً تحت ابتساماته ويقيّد ايماءاته بمزدوجين .
كانت تجارته بيع رسوم « رئيس الدولة » وتماثيله النصفية المصنوعة من
الجبس ، في الشوارع . وفوق هذا ، فقد مارس خلع الاضراس . كان

---

* Farnèse رجل حرب وسياسة (١٥٤٥ — ١٥٩٢) ولد في رومة وتولى الحكم في « الاراضي المنخفضة » ، وقد وجّهه فيليب الثاني الى فرنسة لنجدة الكاثوليك .

** Brune مارشال فرنسة (١٧٦٣ — ١٨١٥) وقد لمع نجمه خلال حملتي هولندة وايطالية ، ولقي حتفه في افينيون خلال الارهاب الابيض (١٨١٥) .

قد عرض بعض الغـــرائب في الاسواق الموسمية ، وكان له دكان خشبي ذو بوق وهذه اللافتة : « بابيه ، فنّان في طب الاسنان ، عضو في الجامع العلمية ، يجري تجارب فيزيائية على المعادن واشباه المعـادن ، يقتلع الاسنان ، ويستأصل جذورها المكسورة التي خلّفها اطباء الاسنان الآخرون . التعرفة : سنّ واحدة ، فرنك وخمسون سنتيماً . سنّان ، فرنكان . ثلاث اسنان ، فرنكان وخمسون سنتيماً . اغتنموا الفرصة » (وكانت عبارته « اغتنموا الفرصة » هذه تعني اقلعوا اكبر عدد ممكن من اسنانكم .) وكان قد تزوج ، وكان قد انجب اولاداً . اما ما حلّ بزوجته واولاده فذلك شيء لم يكن يدريه . لقـد اضاعهم كما يُضيع المرء منديله . وكان بابيه يقرأ الصحف ، وهي ظاهرة فريدة في العالم المظلم الذي ينتمي اليه . وذات يوم ، حين كانت امرته معه في دكانه النقّال ، قرأ في جريدة « الرسول » ان امرأة وضعت طفلا تبدو عليه قابلية الحياة ذا وجه كوجه العجل ، فصاح : **« هذا حظ عظيم ! إن زوجتي ليس عندها من الذوق ما يحملها على ان تلد لي طفلاً كهذا . »**

ومن ذلك الحين ترك كل شيء لكي « يهيمن عـــلى باريس » ، كما عبّر هو نفسه .

ايّ شيء كان كلاكسو ؟ كان الليلَ . فقبل ان يبرز للناس كان ينتظر حتى تتّسخ السماء بالسواد . وعند المساء ، كان يخرج من جُحْره ليعاود دخوله قبل ان يرتفع الضحى . اين كان ذلك الجحر ؟ ان احداً لم يعرف ذلك . وفي الظلمة الأشدّ حلكةً ، لم يكن يخاطب شركاءه في الجريمة الا مولّياً اياهم ظهره . أكان اسمه كلاكسو ؟ لا . كان يقول : اسمي « لا شيء على الاطلاق » . وكان اذا مـا جيء بشمعة لبس قناعاً . وكان يتكلم وكأن صوته يخرج مـــن بطنه . ولقـــد قال بابيه : **« كلاكسو طائر ليليّ ذو صوتين . »** كان كلاكسو قلقاً ، تائهاً ، فظيعاً . وليس من الراهن أنه كان له اسم ، فكلاكسو ليس

غير لقب . وليس من الراهن أنه كان له صوت ، اذ كان بطنـــه هو الذي يتكلم في أغلب الاحيان لا فمه . وليس من الراهن انه كان له وجه ، اذ لم يقدّر لأحد ان يرى شيئاً قط غير قناعه . كان يختفي وكأنه قد تلاشى . وكان ظهوره انبثاقاً من الارض .

أما مونبارناس فكان مخلوقاً فاجعاً . كان مونبارناس طفلا ، فهو لمّا يبلغ العشرين بعد ، وكان وسيماً ذا شفتين اشبه شيء بحبـــتي الكرز ، وغدائر فاتنة سوداء ، يلتمع في عينيه ضياء الربيع . لقد جمع الرذائل كلها ، وطمح الى الجرائم كلها . فقد كان هضم الرديء يحرك شهوتـه الى ما هو اردأ . كان هو المتشرد متحوّلاً الى زقاقيّ داعر ، ولقـــد أمسى الزقاقي سفّاحاً . كان لطيفاً ، مخنثاً ، أنيقاً ، قوياً ، رخصاً ، ضارياً . وكان يعتمر بقبعته مالةً الى اليسار لكي يفسح المجـــال لخصلة الشعر وفقاً لزيّ عام ١٨٢٩ . لقد عاش باللصوصية . وكانت سترتـــه مفصّلة على أجمل موضة ، ولكنها رثة متقطعة الخيوط . والحق ان مونبارناس كان رجلا مثالي الاناقة يحيا في بؤس ، ويرتكب جرائم القتل. وكان السبب الذي من اجله ارتكب هذا المراهق تلك الجرائم كلها رغبته في ان يكون حسن البزة . كانت اول عاملة مغناجة قالت له : « أنت جميل » ، قد ألقت أدران الظلمة في فؤاده ، وجعلت من « هابيل » هذا « قايينا » * آخر . واذ خيل اليه أنه جميل المحيّا ، فقد أراد ان يكون أنيقاً . واوّل الاناقة البطالة ، وبطالة الفقير هي الجريمة . ان قليلا من المطوّفين في الليل التماساً للفريسة كانوا مرهوبي الجانب مثـــل مونبارناس . كان قد خلّف وراءه ، وهو بعد في الثامنة عشرة ، عدداً وافراً من الجثث . وكان اكثر من عابر سبيل واحد يرقد ، في ظلمة هذا البائس ، مبسوط الذراعين ، غارقاً وجهه في بركة من الدم . فتىّ

* واضح ان التنوين هنا هو تنوين التنكير ، والمقصود رجلا قاتلا مثل قايين الوارد ذكره في الكتب المقدسة .

جعد الشعر ، مطيّب بمراهم الرأس الخاصة ، ذو جذع كجذع ضابط بروسي ، تحيط به وشوشات الاعجاب الصادرة عن فتيات الجادة ، وقد عقد رباط عنقه في دراية بالغة ، ووضع في جيبه عصا قصيرة رصاصية الطرف ، وعلّق في عروته زهرة — كذلك كان فتى القبور ذاك ، المعجب بنفسه .

٤

تكوُّن الشرذمة

وشكّل قطاع الطرق الاربعة هؤلاء شبه « بروتيه » * فهم يلفّون من حول الشرطة ، ويحاولون اجتناب نظرات « فيدوك » ** الفضولية تحت اشكال مختلفة : « شجرة ، او شعلة ، او ينبوع » ، ويستعير بعضهم اسماء بعض وحيَلهم ، متوارين في ظلالهم ، ويجعل كل منهم نفسه مخبأ وملجأ للآخرين ، مطّرحين شخصياتهم كما ينزع المرء انفه الزائف في حفلة رقص مقنعة ، مبسّطين أنفسهم في بعض الاحيان حتى ليصبحوا شخصاً واحداً ليس غير ، مضاعفين انفسهم في بعضها الآخر حتى ليحسبهم « كوكو لاكور » نفسه حشداً غفيراً .

وهؤلاء الرجال الاربعة لم يكونوا رجالاً أربعة . كانوا ضرباً من لص عجيب ذي اربعة رؤوس يعيث فساداً ، على نطاق واسع ، في

---

* Protée في الميثولوجيا ، اله بحري منحه أبوه ، نبتون ، القدرة على التنبؤ ، ولكنه كان يرفض الكلام في كثير من الاحيان ، فكان يغير شكله حيناً بعد حين تخلصاً من الحاح السائلين .

** Vidock مغامر فرنسي (١٧٧٥ — ١٨٥٧) شغل مديرية الشرطة بعد ان كان شريراً محكوماً عليه بالاشغال الشاقة .

باريس . كانوا أخطبوط الشر المروّع ، ساكناً في مرداب المجتمع .

وبفضل فروعهم المتشعبة وشبكة صِلاتهم الخفية ، سيطر بابيه ، وغولوميه ، وكلاكسو ، ومونبارناس على صناعة المكائد العامة في مديرية السين . كان مبتدعو الافكار في هذا الحقل ، وهم رجالٌ اصحاب خيال ظلاميّ ، يقدون اليهم التماساً للتنفيذ . كانوا يزودون الاوغاد الاربعة بالخطة المفردة فينهضون بعبء إخراجها الفنيّ . كانوا يعملون على أساس تصميم موضوع ، وكانوا دائماً على استعداد لأن يقدّموا جماعة تتناسب مع ايما محاولة للاغتيال تحتاج الى مساعدة ، وتنطوي على كسب . إنهم يقدّمون الى كل جريمة يعوزها العضل من يشارك فيها . ان عندهم شرذمة من ممثلي الظلمة تحت تصرف كل مأساة من مآسي المغاور .

وكانوا يجتمعون عادة حين يهبط الليل ، وهي ساعة استيقاظهم ، في الارض البور المجاورة ا « لا ساليتريير » . هناك كانوا يتذاكرون . كانت الاثنتا عشرة الساعة المظلمة امامهم ، فهم يوزعون العمل وينظمونه .

المعلّم مينيت — ذلك هو الاسم الذي أطلق في المجتمع تحت الأرضيّ على هؤلاء الرجال الاربعة مجتمعين . وفي اللغة الشعبية الغريبة العتيقة ، التي تندثر يوماً بعد يوم ، يفيد قولهم « **المعلم مينيت** » الصباح ، كما يعني قولهم « **بين الكلب والذئب** » المساء . وأغلب الظن أن هذا اللقب ، المعلم مينيت ، ناشيء عن الساعة التي ينتهي بها عملهم ، اذ كان الفجر هو ميعاد اختفاء الاشباح وتفرّق اللصوص . لقد عرف هؤلاء الاربعة بهذا اللقب . وحين زار رئيس محكمة الجنايات السفاحَ لاسينير في سجنه استجوبه عن جريمة انكرها لاسينير ، فسأله : « من الذي ارتكبها ؟ » فاجابه لاسينير بهذا الجواب الذي كان ملغزاً عند القاضي ، ولكنه واضح عند الشرطة : « لعله المعلم مينيت » .

إن في استطاعة المرء ، احياناً ، ان يتخيل المسرحية من مجرد الاطلاع على اسماء أبطالها . وكذلك نستطيع ايضاً ان ندرك على نحو

تقريبيّ ماهية عصابة ما من مجرد الاطلاع على لائحة لصوصها الملحين .
وها نحن نقدّم ههنا الألقاب التي كان مساعدو المعلم مينيت الرئيسيون يستجيبون لها ، فهذه الاسماء محفوظة في الوثائق :

بانشو ، المسمّى بـ « برينتانيه » وبـ « بيغروناي » .

بروجون . (كان ثمة سلالة من الـ « بروجون » سنتحدث عنها في ما بعد .)

بولاتروويل ، معبّد الطرق الذي سبقت الاشارة اليه .

لافوف .

فينيستير .

هومير هوغو ، وهو زنجي .

مارديسوار .

ديبيش .

فونتلوروا ، المسمى بوكوتيير .

غلوريو ، وهو أشغاليّ مطـْلـَق السراح .

باركاروس ، المسمى مسيو دوبون .

ليبلاناد دو سود .

بوساغريف .

كارمانيوليه .

كرويدونييه ، المسمى بـ « بيزارو » .

مانجودانتيل .

ليبيبه آن لير .

دومي ليار ، المسمى دو مييّار .

الخ . الخ .

ولقد ضربنا صفحاً عن بعضها ، وليس ذلك الذي أهملناه بالأسوأ .
ولهذه الاسماء وجوه . إنها لا تعبّر عن كائنات فحسب ، بل عن انواعٍ

من الكائنات . إن كلًّا من هذه الاسماء يطابق فئة من فئـات القُطر الشائهة تلك ، النامية في سراديب الحضارة .

وتلك الكائنات ، التي لا تسخو بوجودهـا الا قليلًا ، لم تكن من تلك التي نمر بها في الشوارع . ففي النهار ، بعد ان تكون لياليهـــا الضارية قد أنصبتها ، تستسلم للرقاد ، في افران الجبس حيناً ، وفي مقالع مونمارتر او مونروج المهجورة حيناً ، وفي البواليع حيناً . إنهم يختبئون في اجحار .

ما الذي حلّ بهؤلاء الرجال ؟ إنهم لا يزالون على قيد الحيـاة . ولقد كانوا دائماً على قيـد الحياة . ان هوراس قـــد قال فيهم *Ambubaiarum collegia, pharmacopolae, mendici, mimae* وما دام المجتمع كما هو ، فلسوف يظـلّون كما هم . فتحت سقف كهفهم المظلم ، ما يفتـأ هؤلاء القوم ينشأون من جديد نتيجة للارتشاح الاجتماعي . انهم يعاودون الظهور اشباحاً ، شأنهم دائماً . ولكنهم لا يحملون الاسماء نفسها . لقد خلعوا جلدهم القديم ، وبرزوا بجلد جديد .

الافراد قد أُبيدوا ، ولكن القبيلة ما تزال باقية .

ان لهم مواهبهم نفسها دائماً . ومن الشحاذ الى المتلصّص في جوف الليل يحتفظ العِرْق بنقاء دمه . انهم يتكهّنون بحافظـــات النقود في الجيوب ، ويستروحون الساعات في جُيَيبات الصُّدرات . ان للذهب والفضة رائحة في انوفهم . وهناك بورجوازيون سُذّج يستطيـع المرء ان يقول ان على وجوههم سيما تؤذن بأن في الامـــكان سرقتهم . ان اولئك الرجال يتعقّبون هؤلاء البورجوازيين في أناة . فما ان يمرّ على مقربة منهم غريب عن البلد او وافد من الريف حتى تعتريهم ارتعاشة كارتعاشة العنكبوت .

ومثلُ هؤلاء القوم يوقعون الرعب في الفؤاد حين يلتقيهم المرء او يلمحهم من بعيد — حوالى منتصف الليل — في جـــادة مقفرة .

إنهم لا يبدون رجالاً ، ولكنْ اشكالاً صُنعت من الظلمة الحيـة . في استطاعتك ان تقول إنهم على العموم جزء لا يتجزأ من الظلمـة ؛ إنهم لا يختلفون عنها ، إنهم لا روح لهم غير الدجنّة ، وإنهم لا ينسلخون عن الليل إلا آنياً ولـكي يحيوا بضع دقائق حياةً مضادةً للطبيعة .

إلام نحتاج لـكي نجعل اليرقانات تسقط مغشياً عليها ؟ الى النور . الى فيض من النور . فليس من خفاش يستطيع ان يقـــاوم الفجر . أنيروا أعماق المجتمع السفلي .

الكتاب الثامن

الفقير الشرير

١

ماريوس ، الباحث عن فتاة ذات قبعة يلتقي برجل ذي قلنسوة

وانقضى الصيف ، ثم انقضى الخريف ، وأقبل الشتاء . ولم يطأ لا مسيو لوبلان ولا الفتاة الشابة ارض اللوكسومبورغ . وسيطرت على ماريوس فكرة واحدة ليس غير : ان يرى ذلك المحيّا الحلو المعبود ، مرةً اخرى . وبحث على نحوٍ موصول ، وبحث في كل مكان ، فلم يجد شيئاً . إنه لم يعد ماريوس الحالم المتحمّس ، والرجل الحازم ، المتقد

الرصين ، ومتحدّي القدر الجريء ، والعقل الذي يصمم ويبني مستقبلاً فوق مستقبل ، والقلب الرخص المليء بالخطط ، والمشاريع ، والخُيلاء ، والافكار ، والارادات . كان كلباً ضائعاً . لقد سقط في لجة كآبة سوداء . وقضي الامر . امسى العمل ينغّصه ، والسير يتعبه ، والوحدة تُضجره ، وأمست الطبيعة الواسعة — التي كانت من قبل حافلةً بالاشكال ، والأضواء ، والأصوات ، والآراء ، والمناظر ، والآفاق ، والدروس — خاوية أمامه . لقد بدا له أن كل شيء قد اختفى .

كان لا يزال مفعماً بالافكار ، إذ لم يكن في ميسوره ان يكون غير ذلك ؛ ولكنه ما عاد يجد متعةً في افكاره . وجواباً على كل ما عرضته عليه في صمت وفي إلحاح كان يقول : « وما الفائدة ؟ »

وعنف نفسه مئة مرة . لماذا تبعتُها ؟ لقد كنتُ سعيداً جداً بمجرد رؤيتها ! ولقد نظرتْ اليّ ، ألم يكن ذلك شيئاً عظيماً ؟ كان محيّاها يؤذن بأنها تحبني ، ألم يكن ذلك كل شيء ؟ ايّ شيء كنت أطمع في ان أنال ؟ ليس ثمة شيء وراء ذلك . لقد كنت احمق ، إنها غلطتي ،الخ . الخ . والحق ان كورفيراك الذي لم يُفضِ ماريوس اليه بشيء — فقد كانت هذه هي طبيعته — والذي حزر برغم ذلك كل شيء تقريباً — فقد كانت تلك هي طبيعته أيضاً — نقول : الحق ان كورفيراك كان قد بدأ يهنئهُ بالحب الذي استبدّ به ، ويعجب مع هذا لذلك . حتى اذا رأى ماريوس يتردّى في تلك الكآبة ، انتهى آخر الأمر الى ان يقول له : « ارى انك لم تكن إلا حيواناً . هيّا ، تعال الى الكوخ ! »

وذات يوم ، وقد ركن الى شمس ايلول الجميلة ، ارتضى أن يأخذه كورفيراك ، وبوسوويه ، وغرانتير ، الى « مرقص سو » راجياً ، ويا له حلم ! ان يجدها هناك . ولسنا في حاجة الى القول إنه لم يجد هناك الفتاة التي التمسها . « ومع هذا ، فههنا يستطيع المرء ان يعثر على جميع النسوة الضائعات » ، كذلك غمغم غرانتير . وترك ماريوس اصدقاءه في المرقص ،

وانقلب ماشياً وحده ، على القدمين ، مجهداً ، محموماً ، قلق العينين محزونهما في الظلام ، دهِشاً بضجة العربات المرحة وبغبارها ، تلك العربات الحافلة بالجماعات المنشدة الراجعة من العيد ، فيما كان يتنشق ، مخيَّبَ الأمل، روائح شجرات الجوز الحرّيفة القائمة على جانبي الطريق لكي يعيد الى رأسه الصفاء .

واستغرق من جديد ، وعلى نحوٍ متعاظم ، في العيش المتوحد ، التائه ، المثقَل ، فهو يتجرع آلامه الباطنية المريرة ، وهو يروح ويجيء متحملاً وجهه مثل ذئب في قفص ، باحثاً عن ضالته ، في كل مكان ، مخبَّلًا بالحب .

وفي مناسبة اخرى ، تركت احدى المصادفات أثراً فريداً في نفسه . ففي احد الشوارع الصغيرة المجاورة لـ « جادة الانفاليد » التقى رجلًا مرتدياً ثياب العمل ، ومعتمراً بقلنسوة ذات حافة عريضة كانت تبدي بضع ذوائب من شعر ناصع البياض . وتأثر ماريوس بجمال هذا الشعر الاشيب ،وتأمل هذا الرجل الذى كان يمشي في خطى وئيدة ، وكأنه مستغرق في تفكير موجع . ومن عجب ان قد بدا له أنه تبين في ذلك الرجل مسيو لوبلان. كان الشعر شعره ، والصورة الجانبية صورته — بقدر ما ساعدته القلنسوة على الرؤية — والمشية مشيته ولكنها أحفل بالحزن . ولكن لمَ يرتدي ثياب العمال هذه ؟ ما معنى ذلك ؟ علام يدلّ هذا التقنّع ؟ وغلب الانشداه على ماريوس ، حتى اذا ثاب الى نفسه كان أول ما فعله ان لحق بذلك الرجل . فمن يدري ، لعله اهتدى آخر الامر الى الاثر الذي يبحث عنه ؟ وعلى اية حال ، فينبغي ان يرى الرجل كرة اخرى ، عن كثب ، ويحل تلك الاحجية . ولكن هذه الفكرة لم تخطر له إلا بعد فوات الاوان ؛ كان الرجل قد مضى الان لسبيله . كان قد سلك زقاقاً جانبياً ما ، فلم يعثر له ماريوس على اثر . وشغلت هذه المصادفة تفكيره بضعة أيام ، ثم تبددت . وقال في ذات نفسه :

– « لعله ، على اية حال ، مجرد شبه ليس غير . »

٢
لقيـــة

كان ماريوس لا يزال يسكن في بيت غوربو العتيق . ولم يلقِ بالاً الى احد هناك .

والواقع أنه لم يكن قد بقي ، في تلك الفترة ، احـدٌ من سكان ذلك البيت غيره وغير اسرة جوندريت التي دفع عنهـا ، ذات مرة ، اجرة السكنى ، من غير ان يتحدث في يوم مـن الايام الى الأب ، او الى الأم ، أو الى ايٍّ من البنتين . كان المستأجرون الآخرون قد انتقلوا أو ماتوا ، أو أُخرجوا لتخلّفهم عن دفع الاجرة .

وذات يوم ، من ايام ذلك الشتاء ، تجلّت الشمس قليلًا ، عنـــد الاصيل ، ولكنه كان اليوم الثاني من شباط ، عيدَ تقدمة يسوع في الهيكل ، ذلك العيد القديم الذي اوحت شمسه الغادرة ، المبشرةُ بستة اسابيـع من البرد ، الى ماثيو لينزبيرغ هذين البيتين اللذين أمسيا ، بحق ، من الادب الكلاسيكي :

« دعها تسطع أو ترسل أشعة واهنة
إن الدبّ يرجع الى وجـــاره . »

وكان ماريوس قد غادر وجاره منذ لحظة . كان الليل قد هبط . وكانت الساعة ساعة عشائـــه ، اذ كان لا يزال مضطراً الى ان يمضي لتناول عشائه ، وأسفاه ! آه ، يا لعجز العشق المثالي !

وكان قد اجتاز ، وما كاد ، عتبة بابه التي كانت « مام بوغون » تكنسها في تلك اللحظة مدمدمةً في الوقت نفسه بهذه المناجاة الخالدة :

— « وما الشيء الرخيص اليوم ؟ كل شيء غـال . ليس من شيء رخيص غير آلام الناس . إن آلام الناس مجانية ! »

وصعّد ماريوس في الجادة ، بخطي وئيدة ، متجهاً نحو باب المدينة لـكي ينتهي الى شارع سان جاك . كان يمشي شارد البال ، مطرقـاً برأسه الى الارض .

وفجأة ، أحسّ بمن يدفعه برفقـه ، في الغسق . والتفت ، فرأى فتاتين شابتين في اسمال بالية ــ الأولى طويلة مهزولة ، والاخرى أقصر منها بقليل ــ تمرّان به على عجل ، لاهثتين ، مروّعتين ، وقد بدت عـلى وجهيهما سيما الفرار . لقد التقتا به من غير أن ترياه ، ولقد صدمتاه في اندفاعهما . وتبيّن ماريوس ، في الغسق ، وجهيهـما البالغي الشحوب ، وغدائرهما المنفوشة المتطايرة ، وقبعتيهما الرهيبتين ، وتنورتيهما الممزقتين ، وأقدامهما الحافية . كانتا تتبادلان الحديث وهما راكضتان . وقالت أطولهما قامةً ، في صوت خفيض جداً :

— « لقد اقبل رجال الشرطة . ولقد اخطأوا الامساك بي عنـد منتصف الدائرة . »

فأجابت الاخرى :

— « لقد رأيتهم . ولقد ركضت ، وركضت ، وركضت ! »

وفهم ماريوس ، من خلال هذه اللهجة العامية المشؤومة ، ان الدرك او شرطة المدينة ، لم يوفقوا الى القاء القبض على هاتين الطفلتين ، وان الطفلتين قد ولّتا فراراً .

واندفعتا تحت اشجار الجادة من خلفه ، فأحدثتا في الظلمة ضرباً من البياض القاتم ، ما لبث ان تلاشى بعد بضع ثوان .

ووقف ماريوس لحظة .

وكان علي وشك ان يستأنف سيره حين لمح رزمة صغيرة ضارباً لونها الى الرماديّ ملقاةً عند قدميه . وانحنى والتقطها . كانت شبه ظرف بدا وكأنه يحتوي بعض الاوراق .

وقال :

— « حسن . لا شك في ان هذه قد سقطت من هاتين المخلوقتين البائستين » !

وارتدّ على آثاره ، وناداهما ، فلم يهتدِ اليهما . واستنتج من هذا أنهما قد انتهتا الى مكان بعيد ، فوضع الرزمة في جيبه ، ومضى لتناول طعام العشاء .

وفي بعض الطريق رأى في زقاق من شارع موفتارد تابوت طفل مغطى بقطعة من الجوخ الأسود وقد وُضع على ثلاثة كراسيّ وأضيء بشمعة . وهنا تذكّر فتاتي الغسق .

وفكّر :

— « يا للامهات البائسات ! ان شيئاً واحداً هو ادعى الى حزنهن من رؤية اولادهن يموتون . وما ذلك غير رؤيتهم يحيون حياة الشر . »

ثم إن هذه الظلال التي ادخلت على حزنه عنصراً جديداً ما لبثت ان فارقت تفكيره ، فاستغرق في تأملاته المعتادة . لقد شرع يفكر في أشهر الحب الستة التي نعِمَ بها ، والسعادة التي تمت له في الهواء الطلق وفي وضح النهار ، تحت شجرات اللوكسومبورغ الجميلة .

وقال في ذات نفسه :

— « كم قد أصبحت حياتي مظلمة ! إن الفتيات الشابات لا يزلن يبرزن أمامي . مع فارق واحد ، هو أنهن كنَّ من قبلُ ملائكة ، أما اليوم فهنّ غيلان . »

٣
أنصاب ذات أربعة وجوه

وفي المساء ، فيما كان ينزع ملابسه ليأوي الى الفراش ، وقعت يده في جيب سترته على الرزمة التي التقطها في الطريق . كان قد نسيها . وخطر له ان من المفيد ان يفضّها ، وان تلك الرزمة قد تحتوي على عنوان تينك الفتاتين الشابتين ، اذا كانت رزمتهما حقاً . وايّاً ما كان ، فقد تحتوي على المعلومات الضرورية لاعادتها الى من فقدها .

وفتح الظرف .

كان غير مختوم . وكان يحتوي على أربع رسائل غير مختومة أيضاً .

كانت العناوين مدونة عليها .

وفاحت منها جميعاً رائحة تبغ فظيع .

وكانت الرسالة الاولى معنونة هكذا : **الى سيدتي ، السيدة المركيزة دو غروشيراي ، الساحة المقابلة لمجلس النواب ، رقم ....**

وقال ماريوس في ذات نفسه إنه سوف يجد - على الأرجح - في هذه الرسالة ، المعلومات التي كان يبحث عنها . وفوق ذلك ، فما دامت الرسالة غير مختومة فأغلب الظن ان لا يكون في قراءتها بأس .

كانت تنطوي على هذه الكلمات :

« سيدتي المركيزة :

« إن فضيلة الحنان والشفقة هي التي توحّد المجتمع اكثر ما يكون التوحيد . ايقظي عاطفتك المسيحية ، وألقي نظرة رأفة الى هـذا

الاسباني البائس الذي ذهب ضحيت * الولاء والتعلق بقضية « الشرعية » المقدسة التي بذل من أجلها دمه ، ووقف في سبيلها ثروته كلها ، والذي يجد نفسه اليوم في أقسى حالات الفاقة والعوز . وهو لا يشك في ان نفسك النبيلة سوف تمدّه بالعون لكي يحتفظ بوجود بالغ الأيلام لجنديّ ذو * ثقافة وشرف ، مفعَمٍ بالجراح ، جنديّ يعتمد مقدّمـاً على الانسانية التي تعمر فؤادك وعلى الاهتام الذي تبديه سيدتي المركيزة نحو أمة بائسة الى هذا الحد . إن صَلاتهم لن تذهب سدى وان ذاكرتهم سوف تحتفظ بذكراها الفائتة . »

« واقبلي عواطف إجلالي التي اتشرّف معها ان اكون ،

« سيدتي ،

« دون آلفاريز ، كابيتين اسباني في سلاح الفرسان ، ملكيّ لاجيء في فرنسة ، يجد نفسه مسافراً من اجل وطنه ، ولكن موارده لا تمكنـه من مواصلة رحلاته . »

ولم يُضَفْ ايا عنوان الى الامضاء . ورجا ماريوس أن يجد العنوان في الرسالة الثانية المكتوب على ظاهرها : **الى سيدتي ، السيدة الكونتيس دو مونفيرنيه ، شارع كاسيت ، رقم ٩** . وقرأ ماريوس ما يلي :

« سيدتي الكونتيس ،

« هذه أمّ بائسة لأسرة مؤلفة من ستة أطفال آخرهم لا يزيد عمره

---

* وردت في هذه الرسائل كما أثبتها الاصل الفرنسي عدة اخطاء املائيـة ونحوية قصد المؤلف من ورائهـا الى اظهار جهالة كاتبها . وقد حاولنا أن نحافظ على هذا الغرض فرسمنا بعض الكلمات على غير صورها الصحيحة وعدلنا ببعضها عن حكمهـا الاعرابيّ كما يلاحظ القاريء .

على ثماني * اشهر . انا مريضة منذ أن وضعتُ ولدي الأخير ، هجرني زوجي منذ خمسة اشهر ، وليس لي أية * مورد في العالم ، فأنا أعاني اشدّ الفقر .

« وعلى املها بالسيدة الكونتيس ، يشرّفها ان تكون ، يا سيدتي ، في احترام عميق ،

« الأم باليزارد »

وانتقل ماريوس الى الرسالة الثالثة ، التي كانت ، مثل الرسالتين السابقتين ، عريضة تستدرّ العطف .

وقد جاء فيها :

« مسيو بابورجو ، ناخب ، تاجر قبعات بالجملة ،
شارع سان دونيس ، عند زاوية « رو أو فير . »

« إني اسمح لنفسي بأن اوجه اليك هذه الرسالة لأرجوك ان تسبغ عطفك الثمين وأثير اهتمامك في رجل من رجال الادب رسل ، منذ لحظة ، مسرحيةً الى « المسرح الفرنسي » . إن الموضوع تاريخيّ ، والحوادث تجري في اوفيرنيْ في عهد الامبراطوريت * . والاسلوب ، على ما أعتقد ، طبيعيّ ، مختصر ، ولعله يفوز ببعض الاعتبار . إن فيها ابياتاً من الشعر يجب ان تُنشد في اربع * مواضع . إن المضحك ، والجدّيّ ، وغير المتوقع ، تمتزج كلها مع شخصيات الرواية المتنوعة ، وبمسحة من الرومانس ، تنتشر في رقة فوق كامل العقدة الروائية التي تتقدّم في شكل خفيّ ، وبتحوّلاتٍ مؤثّرة ، الى الحلّ وسط مجموعة

* راجع الحاشية السابقة .

من المفاجآت المسرحية الرائعة .

« إن غايتي الرئيسية هي إشباع الرغبة التي تسيطر شيئاً فشيئاً على الرجل في عصرنا هذا ، أعني « الموضة » ، أو دوّارة الهواء ، الغريبة الكثيرة التقلّب ، التي تتغير مع كل ريح تقريباً .

« وعلى الرغم من هذه المزايا فأن عندي سببٌ * يجعلني أخاف ان يؤدي حد المؤلفين المتمتعين بالحظوة وانانيتهم الى ابعادي عن المسرح ، ذلك لأني لا أجهل التقزّز الذي يتجرعون به الوافدين الجدد .

« سيدي بابورجو ، إن شهرتك الحقة كحامٍ مستنير لأهل الأدب تشجعني على ان ابعث اليك بابنتي ، التي ستشرح لك مبلغ فقرنا ، وحاجتنا الى الخبز والنار في موسم الشتا * هذا . وانا اقول لك اني ارجوك ان توافق على ما ارغب فيه من رفع هذه الرواية وجميع الرواياة * التي سوف أألفها * اليك ، وذلك لكي ابرهن لك عن مدى أملي في التشرف بأن اضع نفسي تحت رعايتك ، وان أزين كتاباتي باسمك . فاذا تنازلت وشرفتني بهذه التقدمة الاشدّ تواضعاً ، فسوف انصرف في الحال الى عمل مقطوعة من الشعر تكون عربوناً على اعترافي بجميلك . وهذه المقطوعة التي سأحاول ان اجعلها كاملةً جهد الامكان ، سوف تُرسل اليك قبل ان تُدْرجَ في مقدمة الرواية وتُلقى على المسرح .

« والى سيدي ،
« ومدام بابورجو ،
« تحياتي المثقلة بالاحترام

« جينفلو ، رجل أدب .

---

* راجع الحاشية السابقة .

« حاشية . ولو لم تكن غير أربعين سو .

« اعذرني لارسالي ابنتي اليك وعدم ذهابي بنفسي ، ولكن دوافع حزينة تتعلق بالملابس تمنعني ، واأسفاه ! ، من الخروج .... »

وفتح ماريوس ، آخر الامر ، الرسالة الرابعة . كان مكتوباً على ظاهرها : « **الى سيدي الخيّر رجل كنيسة سان جاك دو هو با** » . وكانت تنطوي على هذه الاسطر القليلة :

« أيها الرجل الخيّر

« اذا تنازلتَ ، ورافقتَ ابنتي ، فسوف ترى بليّةً قاسمة * للظهر ، وسوف أريك شهاداتي .

« وحين ترى هذه الكتابات فأن نفسك السخية سوف تتحرك بعاطفة حيّة من حب الاحسان ، ذلك لان الفلاسفة الحقيقيين يحسّون دائمـاً بانفعالات عنيفة .

« إعترِفْ ، ايها الرجل الرؤوف ، أن على الرجل ان يتحمل اقسى الفقر ، وهو شيء مؤلم جداً ، لكي يحصل على الاسعاف ، وان يحمل السلطة على ان تشهد أنه فقير ، كأننا لسنا احراراً في ان نتألم ، ونموت جوعاً ريثما يأتي من ينقذنا من شقاؤنا * . إن الاقدار قاسية اكثر مما يجب على بعض الناس ، مداوية اكثر مما يجب لبعضهم الآخر مبذّرة معهم .

« اني انتظر حضورك ، او تقدمتك ، اذا تنازلت ووافقت على ذلك ، واني اتوسل اليك أن تتكرم فتقبل عواطفي الموقّرة التي اعتزّ

* راجع الحاشية السابقة .

معها بأن اكون ،

« أيها الرجل الشهم حقاً ،
« خادمك الاكثر حقارة ،
« والاكثر انقيـــاداً ،

ب . فابانتو ، فنان مسرحي . »

ولم يستشعر ماريوس ، بعـد قراءة هـذه الرسائل الأربـع ، أنه ازداد علماً .

إن أياً من موقّعي تلك الرسائل لم يذكر عنوانه .

ثم إنهـا بدت وكأنهـا صـــادرةٌ عن اربعـة افراد مختلفـين : دون ألفـاريز ؛ الأم باليزارد ؛ الشاعر جينفلو ؛ الفنـان المسرحي فابانتو . ولكن العجيب في الأمر ان هذه الرسائل كلها كانت مكتوبةً بخط يدٍ واحدة .

فما الذي يُستنتج من هذا غير أنها صادرة عن شخص واحد ؟

وفوق ذلك ، وهذا ما جعل الحدس اقرب الى الاحتمال ، فـــان الورق الذي خُطّت عليه الرسائل – وهو خشنٌ أصفر – كان واحداً في الرسائل الاربع ، ورائحـة التبغ كانت هي هي ؛ وعلى الرغم من انه كانت ثمة محاولةٌ واضحة لتغيير الاسلوب فأن الاخطاء الاملائية نفسها تكرّرت في هدوء عميق ، فلم يكن جينفلو ، الكاتب الاديب ، اقلّ تردّياً في مهاويها من الكابيتين الاسباني .

وكانت كل محاولة للكشف عن سرّ هذه المسألة عملاً لا طائل تحته . ولو لم تكن لقيةً ، اذن لبدت وكأنما مخاتلة ساخرة . وكان ماريوس من الحزن بحيث لا يتقبل المزاح ، حتى ولو كان صادراً عن المصادفة ،

بقبول حسن ، او يرتضي اللعبة التي بدا وكأن حصباء الطريق رغبت في ان تلعبها معه . لقد تراءى له انه اشبه برجل معصوب العينين بين هذه الرسائل الاربع ، التي كانت تهزأ به .

وعلى اية حال ، فلم يكن ثمة ما يؤذن بان هذه الرسائل قد سقطت من الفتاتين اللتين لقيهما ماريوس في الجادة . وهكذا فأنها كانت مجرد اوراق ليس لها ايما فائدة او قيمة .

وأعادها ماريوس الى الظرف ، وقذف بها الى احدى الزوايا ، وأوى الى مضجعه .

وحوالى الساعة السابعة صباحاً ، كان قد نهض من فراشه وتناول طعام الفطور ، وشرع في العمل عندما قُرع باب غرفته قرعاً رفيقاً .

واذ لم يكن يملك شيئاً ، فانه ما كان ليغلق باب غرفته ، الا في بعض الاحيان – وهي نادرة جداً – حين يكون منصرفاً الى عمل مُلحّ . والواقع انه كان ، حتى في الاحوال التي يغادر فيها غرفته ، يترك مفتاحها في القفل . وقالت له مام بوغون ذات مرة : « سوف يسرقك اللصوص . » فأجابها : « وهل عندي ما يُسرَق ؟ » ومع ذلك ، فقد سرق احدهم حذاءً عتيقاً عالي الساق ، من غرفته ، فكان ذلك نصراً مؤزّراً لـ « مام بوغون » .

وقُرع الباب كرةً ثانية ، وفي رفق بالغ ، كالمرة الأولى .

فقال ماريوس :

– « أدخلي ! »

وفُتح الباب .

– « ماذا تريدين ، يا « مام بوغون ؟ » كذلك تساءل ماريوس من غير ان يرفع عينيه عن الكتب والاوراق التي كانت على طاولته .

واجابه صوت ، لم يكن صوت « مام بوغون » :

— « ألتمس عفوك ، يا سيدي .... »

كان صوتاً غائراً ، مرتعشاً ، مختنقاً ، مبحوحاً ؛ صوت رجل عجوز أصدأته الخمر والعرق .

واستدار ماريوس في سرعة ، فرأى فتاة شابة .

٤
وردة في الشقاء

كانت فتاةٌ في ريعان الصبا واقفةً بالباب نصف المفتوح . وكانت الكوة التي ينفذ النور من خلالها الى العليّة قائمةً تجـــاه الباب تماماً ، فأنارت هذا الوجه بضوء باهت . كانت مخلوقةً شاحبةً ، ضعيفة البنية ، شديدة الهزال ؛ ليس يستر عريها المرتجف المثلوج غير قميص وتنورة . خيط من القنب يطوّق الخصر ، وخيط آخر يصفّف الشعر ، وكتفان محددتان ناتئتان من القميص ، وشحوب أشقر ليمفاويّ ، وتَرْقُوتان وسختان ، ويدان حمراوان ، وفم فاغر غائر ، وبضع اسنان مفقودة ، وعينان خامدتان وقحتان ، ذابلتان ، وشكل كشكل فتـاة شابة غير ناضجة ، ونظرة كنظرة عجوز فاجرة . خمسون عاماً ممتزجة بخمسة عشر عاماً . احدى تلك المخلوقات الضعيفة المخيفة في آن معاً ، والتي توقع الرعدة في أوصال مَنْ لا تُسيل الدمعَ من أعينهم .

ونهض ماريوس ، وحدّق في ضرب من الدهش الى هـــذه المخلوقة الشبيهة ، تقريباً ، بتلك الأشكال الشبحية التي تتبدّى لنا في المنام .

وأوجع ما في الأمر ان هذه الفتاة لم تجيء الى هـذا العـالم لتكون بشعة . بل إن الذي يبدو أنها كانت في طفولتهـا الأولى جميلة . كان جمال صباها لا يزال يصارع الشيخوخة القبيحة التي عجّلت بهـــا الدعارة والفقر . وكانت بقيةٌ من جمال تموت على هذا الوجـه ذي الستة عشر ربيعاً مثل شمس شاحبة تُخمدهـــا سحبٌ مروّعـة فجرَ يوم من ايام الشتاء .

ولم يكن الوجه مجهولاً عند ماريوس بالمرّة . لقـد بدا له أنه رآه في مكان ما .

وسألها :

– « ماذا تريدين ، ايتها الآنسة ؟ »

فأجابته الفتاة الشابة بصوتها الذي يشبه صوت عبد ثَمِلٍ من عبيد الأشغال الشاقة :

– « هذه رسالة اليك ، يا مسيو ماريوس . »

لقد نادت ماريوس باسمه . فلم يكن في وسعه ان يرتاب في أنهـــا تعنيه . ولكن من هذه الفتاة ؟ كيف عرفت اسمه ؟

ودخلت من غير ان تنتظر دعوة . دخلت في جسارة ، ناظرةً الى الغرفة كلها والى السرير المحطم في ضرب من الثقة توقـــع القشعريرة في القلب . كانت حافية القدمين . وكانت ثقوب واسعة في تنورتها تكشف عن ساقيها الطويلتين ، وركبتيها المهزولتين . لقد ارتجفت .

وكانت تمسك بيدها ، في الحق ، رسالةً قدّمتها الى ماريوس .

واذْ فضّ ماريوس هذه الرسالة لاحظ أن برشامة الختم الكبيرة الى حدّ هائل كانت لا تزال رطبة . ومن هنا ادرك ان الرسالة لم تأت من مكان بعيد .

وقرأ :

« جاري المحبوب ، أيها الرجل الشاب !

« لقدْ عرفتُ بما أظهرته نحوي من كرم نفس ، وانك دفعت عني اجرة الغرفة منذ ستة اشهر . إني اباركك ، ايها الشاب . إن ابنتي الكبيرة سوف تخبرك أنه ليس عندنا منذ يومين كسرة خبز : اربعـــة اشخاص ، وزوجتي طريح الفراش . واذا لم يكذبني الظن فأظن أنّ في استطاعتي ان ارجو ان يرق قلبك الكريم لهذا الشرح ، فتسارع الى

الاحسان اليّ بأن تتنازل وتنفحني بعطيّة خفيفة .
« إني بالاحترام العظيم الذي يستحقه محسنو الانسانية ،

« جوندريت .

حاشية : إبنتي تنتظر اوامرك ، أيها السيد ماريوس العزيز . »

وهذه الرسالة ، في غمرة الحادثة الغامضة التي شغلت ذهن ماريوس منذ الليلة البارحة ، كانت اشبه بشمعة في كهف . لقد أمسى كل شيء واضحاً على نحو مفاجيء .

لقد صدرت تلك الرسالة من حيث صدرت الرسائل الاربع الاخرى. كان خط هذه هو خط تلك ، واسلوب هذه هو اسلوب تلك ، واخطاء هذه هي اخطاء تلك ، وورق هذه هو ورق تلك ، ورائحة التبغ المنبعثة من هذه هي رائحة التبغ المنبعثة من تلك .

كانت ثمة خمس رسائل ، وخمس قصص ، وخمسة اسماء ، وخمسة توقيعات ، وموقّعٌ واحد . كان الكابيتين الاسباني دون آلفاريز ، والأم باليزارد المسكينة ، والشاعر المسرحي جينفلو ، ومؤلف التمثيليات العجوز فابانتو – كانت هذه الاربعة كلها تدعى جوندريت ، هذا اذا كان اسمُ جوندريت نفسِهِ هو جوندريت حقاً .

فخلال الفترة الطويلة التي ’قدّر لماريوس ان يقطن في اثنائها ذلك المنزل العتيق لم تسنح ، كما قلنا من قبل ، غير فرص قليلة مكّنته من أن يرى ، بل مكنته من ان يلمح جيرانه المعدمين . كان عقله في مكان آخر ، وحيث يكون العقل تتجه العينان . ولا ريب في انه قد التقى افراداً من اسرة جوندريت في الرواق أو على السلم ، ولكنهم لم يكونوا عنده غير ظلال قاتمة . كان قليل الالتفات اليهم الى درجة جعلته يصطدم البارحةَ ، بابنتَي جوندريت في الجادة من غير ان يعرفهما ؛

ذلك بأنهما كانتا بنتي جوندريت من غير ريب ؛ وفي كثير من العسر كانت هذه الفتاة التي دخلت اللحظة الى غرفته قد ايقظت في ذات نفسه ، من خلال الاشمئزاز والشفقة ، ذكرى غامضةً بأنْ قد سبق له ان التقاها في مكان آخر .

لقد رأى الآن كل شيء ، في وضوح . لقد فهم ان صناعة جاره جوندريت ، في محنته تلك ، هي استدرار عطف المحسنين ؛ وانه قد حصل على عناوينهم ؛ وأنه كان يحرّر ، باسماء مصطَنعة ، رسائل يوجهها الى أولئك الناس الذين قَدّر انهم اغنياء تعمر الرأفة قلوبهم ، فتحملها بنتاه اليهم معرّضتين نفسَيهما المخاطر ؛ ذلك ان هذا الاب لم يكن ليتورع عن المغامرة ببنتيه ؛ كان يقامر مع القَدَر ، ولقد قامر عليهما . ورجّح ماريوس – على اساس من فرارهما في موهن من الليل ، ولهاثهما ، وذعرهما ، والكلمات العامية التي طرقت اذنه – ان هاتين البائستين كانتا تمارسان ايضاً بعض صناعات الظلام السرية ، وانه قد نشأ عن هذا كله ، وسط المجتمع الانساني في حالته الحاضرة ، مخلوقتان تعستان لم تكونا لا طفلتين ولا فتاتين ولا امرأتين ، ولكن شبهَ هولتين غير طاهرتين ، وإن كانتا بريئتين ، من عمل الشقاء .

كائنتان كئيبتان من غير اسم ، ومن غير عمر ، ومن غير جنس* ، كائنتان لم يَعُدْ ايٌّ من الخير أو الشرّ ممكناً عندهما ، ولم يبق لديهما في هذا العالم – وقد فارقتا الطفولةَ – ايّ شيء على الاطلاق ، لا حرية ، ولا فضيلة ، ولا مسؤولية . نفسان تفتّحتا امسِ ، وذبلتا اليوم ، مثل تلك الرياحين التي تسقط في الشارع فيُذبلها الوحل ريثما يسحقها دولاب من الدواليب .

وفي غضون ذلك ، وفيما كان ماريوس يسمّر عليها نظرةً دهشة متألمة ، انشأت الفتاة تذرع العلّية جيئة وذهاباً ، في وقاحة شبح .

* المقصود هنا بالجنس sexe اي الذكورة او الانوثة .

كانت تروح وتجيء من غير ان تفكّر في عريها . وفي بعض الاحيان ، كان قميصها الممزّق ، غير المشدود يسقط حتى خصرهـــا . لقد نقلت الكراسيّ ، من مكان الى مكان ، وبعثرت ادوات الزينـة الموضوعـة على الخزانة ذات الادراج ، وجسّت ملابس ماريوس ، وفتّشت ما كان في الزوايا .

وقالت :

— « آه ! عندك مرآة ! »

وهمهمت ، وكأنها كانت منفردةً ، بمقطّعات من بعض الروايات الملحّنة ، وبلازمات غنائية مرحة كان صوتها الحلقيّ الاجشّ يجعلهـــا مأتمية . وتحت هذه الوقاحة كان في ميسور المرء ان يلحظ شيئاً من القَسْر ، والقلق ، والضّراعة لا سبيل الى وصفه . إن القِحَةَ عار .

ولم يكن ثمة ما هو أدعى الى الحزن من رؤيتها تلهو ، واذا جاز التعبير ، ترفرف حول الغرفة بمثل حركات عصفور ذهب النور بصوابه ، او عصفور كُسِر واحدٌ من جناحيه . ولقد كان في ميسور الناظر اليها آنذاك ان يُدرك ان مسلك هـــذه الفتاة الشابة ، المرح الحرّ ، كان خليقاً بأن يكون شيئاً عذباً وفاتناً لو كُتبَ لهـا ان تنشأ في ظروف من التربية مختلفة ، وفي ظلّ قدَرٍ غير قدَرها ذاك . والحق أن الكائن الذي وُلد ليكون حمامةً لا يمكن ان يتحوّل بحالٍ من الاحوال الى عُقاب بحرية ، في عالم الحيوان . ذلك شيء لا يقع إلا في عالم الانسان .

وفكّر ماريوس ، وتركها تسترسل في عبثها .

ومضت الى الطاولة .

وقالت :

— « آه ! كُتُب ! »

واخترق شعاعٌ عينيها شبه الزجاجية . واردفت ، وقد افصحت

لهجتها عن تلك السعادة التي نستشعرها ونحن نتباهى بشيء ما ، والتي نتساوى فيها جميعاً من غير استثناء .

— « انا استطيع أن اقرأ . انا استطيع . »

وفي نشاط ، امسكت بالكتاب المفتوح على الطاولة ، وقرأت بكثير من الطلاقة :

« ... وتلقّى الجنرال بودوين الأمر بأن يقود خمسة افواج من لوائه ويستولي على قلعة هوغومونت القائمة وسط سهل واترلو .... »

وكفّت عن القراءة ، قائلة :

— « آه ، واترلو ! أنا أعرفها . إنها معركة وقعت في العصور القديمة . كان ابي هناك . لقد خدم ابي في الجيوش . نحن بونابرتيون الى حدّ بعيد ، في بيتنا . واترلو تعني ضد الانكليز . »

ووضعت الكتاب على الطاولة ، وأمسكت بريشة ، وصاحت :

— « وانا اعرف الكتابة ايضاً ! »

وغمست الريشة في الحبر ، والتفتت نحو ماريوس قائلة :

— « هل تحبّ ان ترى ؟ انظر ، سوف اكتب كلمة لأثبت لك ذلك . »

وقبل ان يجد متسعاً من الوقت للاجابة ، كتبت على ورقة بيضاء كانت في منتصف الطاولة :

« لقد اقبلت الشرطة . »

ثم طرحت الريشة ، وقالت :

— « ليس هناك اخطاء املائية . في استطاعتك ان ترى . لقد تلقّينا مقداراً من الثقافة ، اختي وانا . إنا لم نكن دائماً كما نحن اليوم . إننا لم نُخلَق .... »

وهنا صمتت ، وسدّدت عينها الباهتة الى ماريوس ، وانفجرت بالضحك ، قائلةً في نبرة انطوت على ألم نفسيّ مرير كامل ، تخنقه

وقاحة كاملة :

— « باه ! »

وشرعت تدندن بهذه الكلمات ، في نغمة مرحة :

« أنا جائعة ، يا أبي
لا لحم مقليّاً عندي .
أنا مقرورة ، يا أمي
لا نسيج ممروداً على جسدي .
الخ . الخ . »

ولم تكد تتمّ هذه المقطوعة حتى صاحت :

— « هل تذهب في بعض الاحيان الى المسرح ، يا مسيو ماريوس ؟ أنا اذهب . إن لي اخاً صغيراً تربطه ببعض الفنانين صداقة ، فهو يعطيني بطاقاتٍ احياناً . فمثلاً ، انا لا احب مقاعد الشرفة . ان المشاهدين يزدحمون هناك ، وانك لا تعرف معنى الراحة . وقد يكون هناك قوم أجلاف في بعض الاحيان . وهناك اقوام تفوح منهم روائح كريهة . »

ثم نظرت الى ماريوس ، وغلبت على وجهها سيماء غريبة ، وقالت له :

— « اتدري ، يا مسيو ماريوس ، انك فتىً جميل جداً ؟ »

وخطرت فكرة واحدة لكلٍّ منهما ، في آنٍ معاً — فكرةٌ جعلتها تبتسم . وجعلته يحمرّ خجلاً .

وتقدّمت نحوه ، ووضعت يدها على كتفه وقالت :

— « انت لا تلتفت اليّ ، ولكني أعرفك ، يا مسيو ماريوس . انا ألتقي بك هنا على السلم ، ثم أراك تزور في بعض الاحيان رجلاً يدعى الاب مابوف يقطن في اوسترليتز ، حين يتفق لي ان أتنزه في تلك

الناحية . إن شعرك المنفوش هذا يناسبك تماماً . »

لقد حاول صوتها ان يكون رقيقاً جداً ، ولكنه وُفّق الى ان يكون منخفضاً جداً ، ليس غير . وضاعت بعض كلماتها في طريقها من الحنجرة الى الشفتين وكأنما انطلقت من لوحة بيان تعوزها بعض العلامات الموسيقية .

وكان ماريوس قد ارتدّ الى الوراء في هدوء .

وقال في رصانة باردة :

— « ايتها الآنسة ، عندي هنا رزمة اظنها لكِ . فاسمحي لي بأن اعيدها اليك . »

وقدّم اليها الظرف ، الذي كان ينطوي على الرسائل الاربع .

وشبكت يديها وصاحت :

— « لقد بحثنا عنه في كل مكان ! »

ثم اختطفت الرزمة ، وفتحت الظرف قائلةً :

— « يا الـهي ! يا الـهي ! كم بحثنا أنا وأختي عنه ! ثم كنتَ أنت الذي وجدته ! في الجادة ، اليس كذلك ؟ لا بدّ انك وجدته في الجادة ؟ ترى ، ان هذه الرزمة سقطت منا ونحن نركض . إن اختي الطفلة هي التي ارتكبت هذه الحماقة . وحين رجعنا الى البيت لم نوفّق الى العثور عليه . وإذْ لم نكن راغبتَيْن في ان نُضرَب ، ما دام ذلك غير مفيد ، غير مفيد بالمرّة ، غير مفيد على الاطلاق ، فقد قلنا لأهلنا إننا أوصلنا الرسائل الى اصحابها ، وإنهم أجابونا : على الله ! والآن ، ها هي ذي ، تلك الرسائل المسكينة . ولكن كيف عرفتَ أنها لنا ؟ آه ، نعم : من الخطّ ! واذن ، فقد كنت أنت الذي اصطدمنا به البارحة . نحن لم نرك ، حقاً . ولقد قلت لأختي : « أهذا سيد ؟ » فقالت اختي : « أظن انه سيد ! »

وكانت قد نشرت ، في غضون ذلك ، الرسالة المعنونة : « الى سيدي

الخيّر ، رجل كنيسة سان جان دو هو با » .

وقالت :

— « هاها . هذه هي الرسالة الخاصة بذلك الرجل العجـــوز الذي يذهب الى القداس . وفي الحق ، لقد حان الوقت . سوف أمضي واحملها اليه . ولعله ان يعطينا شيئاً نأكل به طعام الصباح . »

ثم شرعت تضحك ، وأضافت :

— « اتدري ما الذي سيحصل اذا تناولنا طعام الصباح اليـــوم ؟ الذي سيحصل أننا سوف نتناول فطـــور أمس الاول ، وعشاء أمس الأول ، وفطورَ امس ، وعشاء امس - كلها سوف نتناولها دفعـــةً واحدة هذا الصباح . أجل ! وحقّ الالـــه ! واذا لم تكونوا راضين ، فانفزروا ايها الكلاب ! »

وكان في هذا ما ذكّر ماريوس بالذي من اجله اقبلت الفتاة المسكينة الى غرفته .

وبحث في صدرته ، فلم يجد ثمة شيئاً .

وتابعت الفتاة كلامها ، وكأنها لم تعد تعي ان ماريوس كان هناك .

— « في بعض الاحيان أنطلقُ ليلاً . وفي بعض الاحيان لا أعود الى الغرفة . وقبل ان نجيء الى هذا المكان ، في الشتاء المـــاضي ، عِشْنا تحت قناطر الجسور . كان بعضنا يلتصق ببعضنا الآخر حتى لا تجمد أطرافنا من الصقيع . وبكت اختي الصغيرة . ما أبرد الماء ! وحـــين فكرتُ بأغراق نفسي ، قلت : « لا ، الماء بارد اكثر مما ينبغي . » إني أنطلق منفردةً حين ارغب في ذلك . إني انام في الخنـادق ، في بعض الاحيان . أتدري ؟ اني في الليل ، حين أمشي على الجـــادة ، أرى الاشجار مثل المذاري ، وأرى بيوتاً سوداء ضخمة كلها مثل ابراج نوتردام ، وأتخيّل ان الجدران البيض هي النهر ، فأقـــول لنفسي : « هنا ! يوجد ماء ، هنا ! » والنجوم اشبه بمصابيح الاضاءة حتى ليخيّل

الى المرء ان الدخان ينبعث منها وان الريح تطفئها . ويصيبني الذهول ، وكأن خيلًا تتنفس في أذني ؛ وعلى الرغم من هبوط الليل ، اسمع أراغنَ يدويةً صغيرة ، وماكينات الغزل ، واشياء لا ادري ما هي . ويتراءى لي ان شخصاً من الاشخاص يقذفني بالحجارة ، فأركض من غير ان ادري ، وليس ذلك كله غير دُوار ، أجلْ دُوار . فحين يكون المرء جائعاً ، يحسّ باشياء مضحكة حقاً . »

ونظرتْ اليه بعين شاردة .

وبعد ان كاد ماريوس يثقب جيوبه بحثاً وتنقيباً وفّق آخر الأمر الى ان يجمع خمسة فرنكات وستة عشر « سو » . وكان ذلك كلّ ما ملكه في تلك اللحظة . وقال في ذات نفسه : « هذا مبلغ يكفي لعشائي الليلة . وغداً سنرى . » واخذ الستة عشر « سو » ، وقدّم الخمسة فرنكات الى الفتاة .

وأخذت القطعةَ النقدية في لهفة .

وقالت :

— « حسن . هناك شيء من نور الشمس . »

وكأنما حملت تلك الشمس على إذابة كُتَل اللسان العاميّ الثلجية ، في ذهنها ، فتابعت :

« خمسة فرنكات ! كوكب نيّر ! ملك من الملوك ! في هذا المنزل ! انت طفل صغير طيب . انا اعطيك قلبي . مرحى ! يومان من الخمر ! سوف تأكل أكلًا ممتازاً ! وحساءً لذيذاً ! »

ورفعت قميصها الى أعلى ، فوق كتفيها ، وانحنت لماريوس انحناءة عميقة ، ثم لوّحت له بيدها ، ومضت نحو الباب قائلة :

— « طاب صباحك ، يا سيدي . كل الامور سواء . سوف اذهب لأبحث عن الرجل العجوز . »

وفي طريقها ، رأت على الخزانة ذات الأدراج كسرة خبز يابسة كان

العفن قد علاها وسط الغبار . فوثبت عليها ، وقضمتها متمتمةً :

— « هذا حسن ! إنها قاسية ! إنها تحطم اسناني ! »

ثم خرجت .

٥
يوضاس * العناية الالـهية

كان ماريوس قد عاش ، طـــوال خمس سنوات ، في الفقر ، في الحرمان ، والضيق ، ولكنه أدرك أنه لم يعرف البؤس الحقيقي في يوم من الأيام . إن البؤس الحقيقي ما قد رآه اللحظة . إنه تلك البرقانة التي مرّت تحت ناظريه الآن . والحق ، ان الذي لم يرَ غـــير بؤس الرجل لم يرَ شيئاً ؛ يجب ان يرى بؤس المرأة . ومن لم يرَ غير بؤس المرأة لم يرَ شيئاً ؛ يجب ان يرى بؤس الطفل .

وحين ينتهي المرء الى الطرف الاقصى ينتهي ، في الوقت نفسه ، الى آخر السبل والوسائل . والويل للمخلوقات العاجزة التي تحيط به . إن العمل ، والأجر ، والخبز ، والنار ، والشجاعة ، والرغبة في الخير كلها تعوزه دفعةً واحدة . وهكذا يبدو نور النهار وكأنـــه ينطفيء في الخارج ، ويبدو النور الاخلاقي وكأنه ينطفيء في الباطن . في هذه الدجنّة يلتقي الناس ضَعْفَ المرأة والطفل ، فيُخضعونهما عنوةً للخزي والعار .

وعندئذ تصبح الأهوال كلها ممكنة . إن اليأس محاطٌ بحواجز واهنة تؤدي كلها إما الى الرذيلة وإما الى الجريمة .

فالصحة ، والشباب ، والشرف ، ولطافات الجسد الرخص المقدسة الفظة ، والقلب ، والبتولية ، والعفة ، بَشَرة الروح تلك — كل هذه

* هو احد تلامذة المسيح الاثني عشر وقد خانه وأسلمه الى طالبيه .

يتخلى عنها على نحو مشؤوم ذلك التلمّسُ الأعمى الذي يبحث عن العون ، والذى يلتقي الخزي ، والذي يقنع به . إن الآباء ، والامهـــات ، والاولاد ، والاخوة ، والاخوات ، والرجال ، والنساء ، والفتيات ، ليتشبث بعضهم ببعض ، ويَنـمُون معاً ، تقريباً ، مثلَ تشكـُّل معدني ، في اختلاط الجنسين ، والقرابات ، والاعمار ، والفواحش ، والـبراءات اختلاطاً مظلماً . إنهم يجلسون القرفصاء ، وقـــد ولى بعضُهم ظهرَه بعضَهم الآخر ، في ضرب من « القَدَر الكوخ » . إنهم يتبادلون النظرات في كآبة . اوه ، يا لهم من مساكين ! ما أشدّ شحوبهم ! ما أقرسَ البرد الذي يعصف بهم ! لكأنهم يعيشون على ظهر كوكب أبعد عن الشمس من كوكبنا — أبعد بكثير .

كانت هذه الفتاة الشابة ، عند ماريوس ، رسولاً من لَدُنِ الظلمات .

لقد كشفت له عن مظهر كامل مخيف من مظاهر الليل .

وكادَ ماريوس يعنّف نفسه لأن استغراقه المطلق في الاحلام والاهواء أدى به الى ان لا يُلقي ، حتى الآن ، نظرةً واحدة الى جيرانــه . كان دفعهُ أجرةَ السكنى عنهم مجرد حركة ميكانيكية ، ولقـــد كان خليقاً بأيما امرىء آخر ان يقوم بتلك الحركة . ولكنْ كان عليه — هو ماريوس — أن يفعل شيئاً أفضل . ماذا ؟ لقد فصلهُ مجرد جـدارٍ عن هذه المخلوقات المهمَلة التي تعيش بالانطلاق ليلًا تتحسّس سبيلها في الظلام ، بعيداً عن سائر الأحياء ؛ لقد اصطدم بها ، وكان بمعنى من المعـــاني آخر حلقة من حلقات الجنس البشري لمستها أيديها ؛ لقد سمعها تعيش بل تتنفس الى جانبه ، ولكنه لم ينتبه اليها ! وكل يوم ، وكل لحظـة ، سمعها — من خلال الجدار — تمشي وتروح ، وتجيء ، وتتحدث ، ولم يُعرها أُذنه ! وفي تلك الاحاديث كانت أنّاتٌ ، ولكنه لم يسمعها ! كانت افكاره في مكان آخر ، كانت مستغرقة في الأحـــلام ، في الأيماضات المستحيلة ، في ضروب من الحب غير المعقول ، في الحماقات .

بينا كان نفرٌ من المخلوقات البشرية – إخوته في يسوع المسيح ، اخوته في الشعب – يعالجون سكرات الموت في جواره ! يعالجون سكرات الموت على غير طائل ! بل لقد سبّب هو جزءاً من شقائهم ، وضاعفَهُ. إذْ لو كان لهم جارٌ غيره ، جارٌ اقلّ تعلقاً بالاوهام ، واقوى ملاحظةً ، رجلٌ عاديّ ومحسن ، اذن للاحظ فقرهم ، ولرأى أمارات شقائهم ، واذن لكان من الممكن أن يحظوا بالغوث ويتمتعوا بالنجاة منذ عهد بعيد ! لقد بدَوْا من غير ريب فاسدين جداً ، داعرين جداً ، دنيئين جداً ، بغيضين جداً ، ولكنْ قليلون هم اولئك الذين يفتقرون من غير ان يَذِلوا . والى هذا ، فهناك نقطة يلتقي عندها منكودو الحظ ومهتوكو الستر ويُخلط ما بينهم بكلمة واحدة ، كلمةٍ مشؤومة : **البؤساء** . من المسؤول عن هذه الخطيئة ؟ وفوق ذلك ، اليس صحيحاً انه حين يكون السقوط أعمق يتعيّنُ ان يكون الاحسان أعظم ؟

وفيما هو يعظ نفسه على هذا النحو – إذ كانت ثمة اوقات كان ماريوس فيها ، مثل جميع القلوب المخلصة ، مرشدَ نفسه المعنِّف لها باكثر مما تستحق – نظر الى الجدار الذي يفصله عن أسرة جوندريت ، وكأنما كان يستطيع ان يُرسل نظرته المفعمة بالرأفة ، من خلال ذلك الجدار ، الى اولئك القوم التعساء . وكان الجدار طبقة رقيقة من جصّ مدعومة بألواح وعوارض خشبية كان في إمكان المرء أن يسمع من خلالها – كما ذكرنا من قبل – مختلف الكلمات والاصوات سماعاً واضحاً جداً . والواقع ان المرء ينبغي ان يكون ماريوس الحالم حتى لا ينتبه لهذا كله . لم يكن ثمة ورق ملصق على هذا الجدار ، لا من ناحية اسرة جوندريت ، ولا من ناحية ماريوس ؛ فكان تكوينه الجافي عارياً في نظر العين . وعلى نحوٍ غير واعٍ تقريباً درس ماريوس هذا الجدار ؛ فالتأمّل الحالم يفحص في بعض الاحيان ويلاحظ ويتحرى ، شأنَ الفكر

سواء بسواء . وفجأة نهض ؛ لقد لمح في القسم الاعلى من الحجرة ، قرب السقف ، ثقباً مستطيلاً ناشئاً عن ثلاثة الواح خشبية تُركت في ما بينها فجوة . كان الجبسينُ الذي سُدّت به تلك الفجوة في يوم من الايام قد سقط ؛ وبامتطاء متن الخزانة ذات الادراج كان في ميسوره ان يرى من خلل هذا الثقب ، الى عليّة جوندريت . إن للشفقة ، وينبغي ان يكون لها ، فضولها . فقد كان هذا الثقب أشبه ببوصاص . وانه لمن المباح ان ينظر المرء ، الى الشقاء مثل خائن من الخونة ، من أجل العمل على التخفيف من وطأته . وفكّر ماريوس : « فلنرَ قليلاً من هم هؤلاء القوم ، والى أين قد صاروا . »

وتسلّق الخزانة ذات الادراج ، وأدنى حدقته من الثغرة ، ونظر .

٦
الرجل الضاري في مأواه

إن للمدن ، مثلما للغابات ، اوكارها التي يختبيء فيها كل مُوغلٍ في الشرّ وفي الفظاعة . مع فارق واحد ، هو ان من يختبيء في اوكار المدن شرس ، قذر ، حقير ، يعني أنه بشعٌ . في حين ان ما يختبيء في اوكار الغابات شرس ، وحشيّ ، وجليل ، يعني أنه جميل . أوكار مقابل اوكار ، ولكن اوكار البهائم مفضّلة على أوكار البشر . إن المغاور خيرٌ من اكواخ البشر القذرة .

لقد كان ما رآه ماريوس كوخاً قذراً .

كان ماريوس فقيراً ، وكان أثاث غرفته حقيراً ، ولكنْ كما كان فقره نبيلاً كانت عليّته نظيفة . أما الوكر الذي سدّد النظر اليه اللحظة فكان زريّاً ، قذراً ، منتناً ، عفناً ، مظلماً ، دنساً . وكان كل ما

فيه من الأثاث كرسياً من قش ، وطاولة كسيحة ، وبضعة صحون عتيقة مهشّمة ، وفراشَين حقيرين لا سبيل الى وصفهما منطرحـين في زاويتين من زواياه . وكان النور لا يتسرّب اليه إلا من نافذة ذات اربعة ألواح زجاجية تجللها أنسجة العنكبوت . ولم يزد الضـوء المتسرّب من تلك النافذة على ذلك المقدار الكافي لأن يجعل وجه الانسان يبدو وكأنه وجه شبح . كانت ترين على الجدران سيما جذماء ، وكانت تعلوها التخاريم والندوب مثل محيّا شوّهه مرضٌ رهيب ما . وكانت تنضح منها رطوبة عفنة . وكان في ميسور المرء ان يتبيّن على صفحتها صوراً بذيئة رُسمت بالفحم على نحوٍ يُعوزه الاتقان .

كانت الغرفة التي احتلها ماريوس مفروشةً بأرضية آجرية محطّمـة . أما هذه فلم تكن لا مبلّطة ولا مخشّبة . كانوا يمشون مباشرة عـلى جصّ المنزل القديم الذي أمسى أسود تحت أقدامهم . وعلى هذه التربة غير المستوية التي تبدّى الغبار وكأنما قد اكتسب فوقها قشرة حجرية ، والتي لم تكن بكراً إلا من حيث امتناعها على المكنسة ، نقول على هذه التربة اجتمعت كيفما اتفق ابراج من الاحذية القماشية العتيقـة ، والنعال البالية ، والخرق الرهيبة . بيد ان تلك الغرفة كانت تنطوي على موقد ، ومن أجل هذا كانت أجرتها السنوية اربعين فرنكاً . وفي الموقد كان شيء من كل شيء : كان كانون ، ومرجل ، والواح خشبية مهشمة ، وأسمال تتدلى من المسامير ، وقفص عصفور ، وبعض الرماد ، بل ونارٌ ضئيلة ايضاً . كانت جمرتان ترسلان الدخان في كآبة .

وزاد اتساع تلك العلية في مظهرها الراعب . كانت ذات نتوءات ، وزوايا ، وحُفَر سوداء ، وتضاريس تحت السقف ، وخلجان صغيرة ، وآكام مرتفعة . ووراء ذلك كانت زوايا فظيعة لا يُسبر غورها - زوايا بدت وكأنها حافلة بالعناكب التي في حجم جُمْعَ اليد ، وأمّات الاربع والاربعـين التي في حجم القَدَم ، ولربما ببعض الكائنات البشرية

الرهيبة ايضاً .

كان أحد الفراشين قرب الباب ، والآخر قرب النافذة . وكان طرف كلّ منهما يلامس الموقد ، ويواجه ماريوس .

وفي زاوية قريبة من الفجوة التي كان ماريوس ينظر منها كان يتدلى على الجدار ، ضمن إطار من خشب أسود ، نقشٌ ملوّن مكتوب في أدناه بأحرف ضخام : **الحُلم** . وكان ذلك النقش يمثّل امرأة نائمة وفي حجرها طفل نائم ، ونسراً وسطَ سحابة حاملاً بمنسره تاجاً ، وقد اخذت المرأة تُبعِد التاجَ عن رأس طفلها ، ولكنْ من غير ان تستيقظ . وفي خلفية الرسم بدا نابوليون وسط هالة ، مستنداً الى عمود ازرق ضخم ذي تاج أصفر مزدانٍ بهذه الكلمات :

مارانغو
أوسترليتز
ينا
واغرام
ايلو

وتحت هذا الاطار كان ضربٌ من لوح خشبي مأطور يزيد طوله على عرضه ، وقد أُوقف على ارض العلية وأُسند الى الجدار مشكّلاً زاوية ما . كان يبدو أشبه بلوحة فنية مقلوبة وجهاً لظهر ، أو إطار متسخ في أغلب الظن من الناحية الثانية ، او مرآة بين نافذتين أُنزلت عن الجدار ثم نسي القوم أن يعلّقوها من جديد .

والى الطاولة - التي رأى ماريوس فوقها ريشةً ، وحبراً ، وورقاً - كان يجلس رجلٌ في نحو الستين ، ضئيل الجسم ، هزيل ، شديد الشحوب ، شرس تبدو عليه سيما الدهاء ، والوحشية ، والقلق ، نذلٌ شنيع .

ولو قد ُقدّر لـ « لافاتير » ان يدرس هذا الوجه اذن لوجد فيه مزيجاً من العُقاب والمحامي الصغير . وقد تمّم كلٌّ من الطائر المفترس والرجل المحتال الاخرَ وبشّعَهُ ، إذ جعل الرجلُ المحتالُ الطائرَ المفترس خسيساً ، وجعل الطائرُ المفترسُ الرجلَ المحتالَ رهيباً .

وكانت لذلك الرجل لحية طويلة شائبة . وكان يرتدي قميصاً نسائياً يكشف عن صدره الاشعث ، وذراعيه العاريتين الشائكتين بالشعر الاشيب . وتحت هذا القميص كان في ميسور المرء ان يرى بنطلوناً لوّثه الوحل ، وحذاءً عالي الساق برزت منه أصابع َقدَمي الرجُل .

كان واضعاً في فمه غليوناً ، وكان يدخن . لم يكن في الوكر بقية من خبز ، ولكنْ كان فيه بقية من التبغ .

كان يكتب ؛ وأغلب الظن ان ما كتبه كان رسائل مثل تلك التي قرأها ماريوس .

وعلى احدى زوايا الطاولة كان مجلد عتيق فريدٌ ضاربٌ لونه الى الحمرة . وكان قطعهُ ، وهو قطعُ الواحد على اثني عشر من الطلحية الذي ُطبعت به سلاسل الكتب القديمة ، ينمّ عن أنه رواية . وعلى الغلاف ، كان هذا العنوان مطبوعاً بأحرف كبيرة ضخمة :

الله ، الملك ، الشرف ، والسيدات ، بقلم دوكراي دومنيل ، ١٨١٤ .

وتكلم الرجل بصوت عالٍ فيما كان يكتب . وسمع ماريوس كلماته:

— « ما أصعب ان يفكر الانسان بأنه ليس ثمة مساواة حتى بعد الموت ! انظر قليلاً الى « الاب لوشيز » * ! إن الكبار ، اولئك الذين

---

* Lavater فيلسوف وشاعر سويسري (١٧٤١ – ١٨٠١) كانت له براعة فائقة في علم الفراسة .

* مقبرة باريس الرئيسية .

هم اغنياء ، يرقدون في الجزء الاعلى ، في مجـــاز الآكاسيا ، المعبّد . إن في استطاعتهم أن يذهبوا الى هناك في عربة . اما الصغار ، الفقراء ، التعساء ، فهؤلاء يضعونهم في القسم الأدنى - حيث يرتفع الوحـل حتى الركب - في الحُفَر ، في الرطوبة . إنهم يضعونهم هناك لكي تفسد جثثهم بصورة أسرع ! انك لا تستطيع ان تذهب لتراهم من غير ان تغوص في الأرض . . »

وهنا سكت ، وضرب الطاولة بجمع كفه ، ثم اضاف وهو يصرف بأسنانه :

– « اوه ! في استطاعتي ان آكل العالم . . »

وكانت امرأةٌ ضخمة ، قد يكون عمرها اربعين وقد يكون عمرها مئة ، جالسةً القرفصاء ، قرب الموقد ، على قدميها الحافيتين .

كانت هي ايضاً لا ترتدي غير قميص وتنورة مسرودة مرقعة بقطع من الجوخ العتيق . وكان مئزر من قماش غليظ يغطي نصف تنورتها . وعلى الرغم من ان تلك المرأة كانت محدودبة منكمشة فقـد كان في إمكان الناظر اليها ان يلمح انهـــا فارعة الطول . كانت شبه عملاقـة الى جانب زوجها . كان لها شعرٌ رهيب ، أحمر فاتحٌ وخطّه الشيب ، كانت تردّه الى الوراء بين الفينة والفينة بيديهـا الضخمتين اللامعتين المسطّحة الاظافر .

والى جانبهـا كان ملقىً على الارض ، مفتوحـاً على مصراعيـه ، مجلد في مثل حجم المجلد الآخر ، ولعله انـ يكون جزءاً من الرواية نفسها .

وعلى إحدى الحشيّتين لمح ماريوس شبه فتاة صغيرة مهزولة شديـدة الشحوب وقد جلست ، عارية تقريباً ، وتدلت قدماها ، من غير ان يبدو على محياها ما يؤذن بأنها تسمع ، او ترى ، او تحيا .

كانت من غير ريب الاخت الصغرى لتلك الفتاة الـتي وفـدت على

عليته .

لقد بدت وكأنها في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من العمر . حتى اذا أنعم النظر اليها تبيّن أنها في الخامسة عشرة . وليس من شك في انها هي الطفلة التي قالت ، البارحة ، على الجادة : « لقد ركضت ! وركضت ! وركضت ! »

كانت من ذلك الضرب المعتل الصحة الذي يظلّ متخلفاً فترة طويلة ، ثم ينطلق في سرعة وعلى نحو مفاجىء . إنما العوز هو الذي يُطلع هذه النبتات البشرية الكئيبة . فهذه المخلوقات ليس لها طفولة ولا مراهقة. انها في الخامسة عشرة تبدو وكأنها في الثانية عشرة ، وفي السادسة عشرة تبدو وكأنها في العشرين . وإنك لتراهنّ اليوم فتياتٍ صغيرات ، وانك لتراهنّ غداً نسوةً ناضجات . وفي استطاعة المرء ان يقول انهن يتخطّين الحياة وثباً لكي يتخلصن منها في مدة أقصر .

في تلك اللحظة كانت تطفو على محيا هذه المخلوقة سيما الاطفال .

والى هذا ، فلم يكن ثمة ما يؤذن بأن عملاً من الاعمال كان يتمّ في تلك الغرفة . فلا نَوْل ، ولا دولاب ، ولا أداة . وكانت في احدى الزوايا بضع قطع حديدية ذات مظهر مريب . وعلى الجملة ، فقد كان يرينُ على العليّة ذلك الكسل القاتم الذي يعقب اليأسَ ، والذي يسبق سكرات الموت .

ونظر ماريوس ، طوال فترة ما ، الى تلك الغرفة المأتمية التي كانت ادعى الى الذعر من جوف قبر ، إذ كان المرء يستشعر هنا اضطراب النفس البشرية ، وخفقان الحياة .

إن العليّة ، والقبو ، والحفرة السفلى ، حيث يدبّ بعض المعوزين في قعر الصرح الاجتماعي ليست القبر نفسَه . إنها غرفة الانتظار المؤدية اليه . ولكنْ ، كما يعرض اولئك الاغنياء اعظم ما يقدرون عليه من أبهة عند مدخل قصرهم ، كذلك يبدو الموت ، الجاثم

على مقربة دانية ، وكأنه يعرض أقصى ما عنده من تعاسة في هذا الرواق .

وصمت الرجل ؛ ولم تتكلم المرأة ؛ ولم يَبدُ أن الفتاة الشابة تتنفّس . كان في استطاعة ماريوس أن يسمع الريشة تخدش الورق في جريها .

وغمغم الرجل من غير ان يكفّ عن الكتابة :

– « سافل ! سافل ! كل شيء سافل ! »

وكان في هذا التحريف لكلمة سليمان المأثورة ما انتزع زفرةً من صدر المرأة .

وقالت :

– « الزم الهدوء ، يا صديقي الصغير . لا تؤذِ نفسك يا عزيزي . جميل منك جداً ان تكتب الى هؤلاء القوم كلهم ، يا صاحبي ! »

في الفقر تتلاصق الاجسام ، شأنها في البرد ، ولكن القلوب تتباعد . كانت كل المظاهر تشير الى ان هذه المرأة كانت خليقةً بأن تحبّ زوجها بكامل ما تقدر عليه من حب . ولكن هذا الحب انتهى الى ان يخمد ، في اغلب الظن ، نتيجةً لتكرّر التوبيخ المتبادل الناشيء عن الشقاء المروّع الذي رزحت تحته الجماعة كلها . ومن هنا لم يبق في قلبها نحو ذلك الزوج غير رماد المحبة . ومع ذلك ، فأنّ تعابير التحبب ، وهو ما يقع دائماً ، لم تمت على لسانها . كانت تقول له : **يا عزيزي** ، **يا صديقي الصغير** ، **يا صاحبي** الخ ، بشفتيها ، على حين يظلّ قلبها صامتاً .

وعاود الرجلُ الكتابة .

٧
ستراتيجية وتكتية *

وكان ماريوس على وشك ان يهبط ، موجع القلب ، من شبه المرصد ذاك الذي ارتجله ، عندما لفتت انتباهه ضجة ما ، وأغرته بالبقاء حيث هو .

وفُتح باب العلية على نحو مفاجىء .

وبرزت الفتاة الكبرى عند العتبة .

كانت تنتعل حذاءً وجالياً ضخماً يعلوه الوحل المتناثر حتى كعبيها الأحمرين ، وكانت تتسربل برداء فضفاض عتيق لم يره ماريوس على جسدها قبل ساعة ، ولعلها ان تكون قد تركته عند بابه لتستدرّ شفقته اقصى ما يكون الاستدرار ، ثم عاودت لبسه حين خروجها ، من غير شك . ودخلتْ ، ودفعت الباب خلفَها ، ووقفت لكي تأخذ نَفَساً ، فقد كانت تلهث لهاثاً شديداً ، ثم صاحت وقد طفَتْ على محيّاها سيما النصر والبهجة :

— « إنه آتٍ ! »

وأدار الأب عينيه ، وأدارت المرأة رأسها ، ولم تتحرك الاخت الصغرى .

وتساءل الأب :

— « من ؟ »

— « الرجل ! »

— « المحسن ؟ »

* تعريب اصطنعناه للفظة tactique في اللغات الاجنبية وتعني فن الحرب وتنظيم المقاتلين .

— « نعم . »
— « محسن كنيسة سان جاك ؟ »
— « نعم . »
— « ذلك الرجل العجوز ؟ »
— « نعم . »
— « سوف يأتي ؟ »
— « لقد مشى على اثري . »
— « أواثقة أنتِ ؟ »
— « انا واثقة . »
— « ولكنْ ، اهو قادمٌ حقاً ؟ »
— « إنه آتٍ في عربة اجرة . »
— « في عربة اجرة . هذا روتشيلد ! »
ونهض الأب .

— « كيف تقولين انك واثقة ؟ اذا كان قادماً في عربة اجرة فكيف جاز ان تصلي قبله ؟ هل أعطيته عنوان البيت على الاقل ؟ هل قلتِ له جيداً : آخر باب في اقصى الرواق الى اليمين ؟ شرط ان لا يرتكب خطأ ما ! لقد وجدتِهِ في الكنيسة ، اذن ؟ هل قرأ رسالتي ، ماذا قال لكِ ؟ »

فقالت الفتاة :

— « تا ، تا ، تا ! كيف تعدو خَبَباً ، ايها الرجل الساذج ! سوف أقول لك : لقد ذهبتُ الى الكنيسة ؛ كان في مكانه المعتاد ؛ وحنيت له رأسي احتراماً ؛ وقدّمت اليه الرسالة ، فقرأها وقال لي : « اين تسكنين ، يا طفلتي ؟ » فقلت : « سيدي ، سوف اقودك اليه . » فقال لي : « لا ، أعطيني عنوانك . إن ابنتي تريد ان تشتري بعض الحاجات ، ولسوف آخذ عربة ، فأصل الى منزلك حالما تصلين . »

واعطيته العنوان . وحين ذكرتُ اسم البيت ، بدا وكأنه دُهش ، وتردد لحظة ، ثم قال : « سيان ، سوف اذهب . » وعندما انتهى القداس ، رأيته يغادر الكنيسة مع ابنته . لقد رأيتهما يركبان العربة . ولقد قلت له في وضوح : آخر باب في اقصى الرواق الى اليمين . »

— « وكيف تعرفين انه سوف يأتي ؟ »

— « لقد رأيت العربة ، منذ لحظة ، وقد وصلتْ الى شارع « بيتي بانكييه » . وذلك ما جعلني اركض . »

— « وكيف تعرفين انها العربة نفسها ؟ »

— « لأني راقبت رقمها . »

— « وما هو هذا الرقم ؟ »

— « اربعمئة واربعون . »

— « حسن . انت فتاة ذكية . »

فنظرت الفتاة الى ابيها ، في جسارة ، وقالت وهي تشير الى الحذاء الذي انتعلته :

— « فتاة ذكية ، هذا جائز . ولكني اقول لكَ اني لن ألبس هذا الحذاء بعد اليوم ، واني لم أعد اريده ، من اجل الصحة ، اولاً ، ومن اجل النظافة ثانياً . انا لا اعرف ما هو ازعج من النعال التي تَصِرّ : زيء ، زيء ، زيء ، طول الطريق . اني افضل ان امشي حافية . »

فأجابها الاب في نبرة رقيقة تغايرت تغايراً واضحاً مع خشونة الفتاة الشابة :

— « أنتِ على صواب . ولكن اذا مشيت حافية فعندئذ لا يسمحون لكِ بالدخول الى الكنيسة . إن على الفقراء ان يلبسوا أحذية . »

قال ذلك ، واضاف في مرارة :

– « ان الناس لا يذهبون الى بيت الله حفاةً ! »

ثم رجع الى الموضوع الذي يشغل تفكيره :

– « ولكن ، هل انت واثقة من انه آتٍ ؟ »

فقالت :

– « إنه قادمٌ على اثري . »

ووثب الرجل . كان يطفو على وجهه شبه الهام .

وصاح :

– « ايتها الزوجة ! اتسمعين ? هوذا المحسن . أطفئي النار . »

ولم تتحرك الأمّ المشدوهة .

وفي رشاقة مشعوذ أمسك الأب بأناء مكسور كان على الموقـــد ، وقذف الجمرات بشيء من الماء .

ثم التفت الى ابنته الكبرى وقال :

– « أنتِ ! أزيلي قشّ الكرسيّ ! »

ولم تفهمه ابنته قط .

فأمسك بالكرسي ، ورفسها رفسةً أتلفها بها . لقد نفذت ساقهُ من خلالها .

وفيما هو يسحب ساقَهُ ، سأل ابنته :

– « الجو بارد ؟ »

– « بارد جداً . الثلج يتساقط . »

واستدار الأب نحو الفتاة الصغرى التي كانت على الحشيّة القريبة من النافذة ، وصاح في صوت راعد :

– « عجّلي ! اخرجي من الفراش ، يا من لا تصلح لشيء ! ألن تفعلي شيئاً على الاطلاق ? اكسري لوح زجاج ! »

ووثبت الفتاة الصغيرة من الفراش وهي ترتعد .

وقال كرةً اخرى :

– « اكسري لوحاً من ألواح الزجاج ! »

وظلت الفتاة معتصمة بالصمت .

وكرّر الاب :

– « أتسمعين ما أقول ؟ اقول لك اكسري لوحاً زجاجياً ! »

وفي ضرب من الخضوع المذعور ، انتصبت الطفلة على رؤوس اصابعها وضربت احد الواح النافذة الزجاجية بجُمْع كفها . وانكسر اللوح ، وسقط محدثاً ضجةً كبيرة .

فقال الأب :

– « حسن . »

كان رصيناً ورشيقاً . وفي سرعة ، طافت عينهُ بزوايا العلية جميعاً .

ولو قد رأيتَهُ اذن لقلت انه جنرال يتخذ الاستعدادات النهائية لحظة اوشكت المعركة ان تنشب .

ونهضت الأم – ولم تكن قد نطقت بكلمة ما حتى الان – وسألت في صوت بطيء مخنوق ، وقد بدت كلماتها وكأنها تنطلق متجمدةً :

– « ما الذي تريد ان تصنعه ، يا عزيزي ؟ »

فأجابها الرجل :

– « عودي الى فراشكِ ! »

كانت لهجته حاسمةً لا تحتمل جدالاً . فأذعنت الأم ، وانطرحت في ثِقَل فوق احدى الحشيّتين .

وفي غضون ذلك سُمِعت زفرةٌ في زاوية ما .

فصاح الأب :

– « ما هذا ؟ »

ومن غير ان تخرج من الظلام الذي انكمشت فيه ، أبرزت الفتاة الصغرى جُمْعَ كفّها الدامي . لقد جُرحت عند كسرها زجاج النافذة .

كانت قد ذهبت الى فراش أمها ، وكانت تبكي في صمت . وهنا جاء دور الأم في الانتصاب والصياح :

— « انت ترى جيداً ! أية حماقات هذه التي ترتكبها ! لقد جرحت نفسها لكي تكسر لوحك الزجاجي ! »

فقال الرجل :

— « هذا خير ! لقد كنت أعرف أنها سوف تجرح نفسها . »

فاستأنفت المرأة الكلام :

— « كيف ؟ تقول إن هذا خير ؟ »

فأجابها الأب :

— « الصمت ! إني أكبت حرية الصحافة ! »

ثم إنه مزّق القميص الذي كان يرتديه ، واتخذ منه ضمادة سارع الى رَبْط رسغ ابنته الصغرى الدامي ، بها .

حتى اذا أتمّ ذلك ، وقعت عيناه على القميص الممزق في ارتياح ، وقال :

— « والقميص ايضاً . إن لهذا كله مظهراً حسناً . »

وصفرت ريحٌ متلوجة عند النافذة ، ودخلت الى الغرفة . وتسرّب الضباب من الخارج ، وانتشر في جنباتها مثل قطن مندوف ضاربٍ لونُهُ الى البياض تفرّقه اصابع غير منظورة . ومن خلال اللوح الزجاجي المكسور رُئي الثلج يتساقط . كان البرد المرتقَب قبل يوم من عيد تقدمة يسوع في الهيكل قد أقبل فعلاً .

وأجال الأب نظرهُ في ما حوله وكأنما كان يريد أن يتأكد من أنه لم ينسَ شيئاً . لقد أمسك بجرفة عتيقة ، ونشر الرماد فوق الجمرات المبلّلة على نحو يخفيها إخفاءً كاملاً .

ثم استقام وأسند ظهره الى الموقد .

وقال :

– « الان ، نستطيع أن نستقبل رَجُل الاحسان ! »

٨
الشعاع في البيت الحقير

ومضت الفتاة الكبرى الى أبيها ، ووضعت يدها على يده .
وقالت :
– « أنظر كم أنا بردانة ! »
فأجابها الاب :
– « هه ! أنا بردان اكثر منك بكثير . »
وصاحت الأم في حدة :
– « إنك تجد كل ما عندك خيراً مما عند غيرك ، حتى الألم ! »
فقال الرجل :
– « إخفضي صوتك ! »
وبعد أن سدّد الرجل الى زوجه نظرةً خاصة ، لزمتِ السكوت .
وعَبَرتِ بالوكر لحظةُ صمت . كانت البنت الكبرى تزيل الوحل ، في سيماء لا مبالية ، عن الجزء الادنى من ردائها ، وكانت الاخت الصغرى تواصل تنهُّدها ، وقد طوّقت الأم رأسها بيديها الاثنتين وغمرتها بالقبلات ، قائلةً لها في صوت خفيض :
– « أتوسل اليكِ ، يا كنزي ! إنّ هذا الجرح سوف يندمل في الحال . لا تبكي . إن ذلك يغضب والدكِ . »
فصاح الاب :
– « لا ! على العكس ! انتحبي ! انتحبي ! هذا يترك أثراً رائعاً . »
ثم ارتدّ الى ابنته الكبرى ، وقال :

— « آه ، ولكنه لم يأتِ ! إذا كان لا يعتزم المجيء ، فعندئـذ اكون قد اطفأت ناري ، ونزعتُ القسم الاسفل من كرميتي ، ومزّقت قميصي ، وكسرت لوح زجاجي من غير فائدة ! »

فدمدمت الام :

— « وجرحتُ الطفلة الصغيرة ! »

ثم استأنف الاب حديثه قائلاً :

— « أتعرفين أن هذه العلـّية الشيطانية باردة كالكلب ؟ أما اذا لم يأتِ هذا الرجل ! أوه ! هو ذاك ! إنه يحملنا على انتظاره ! إنـــه يقول في ذات نفسه : « حسناً ، إنهم ينتظرونني ! ذلك ما خُلقوا من أجله ! » أوه ! كم أكرههم ، وما اجدرني بـأن اخنقهم في تهلّـل ، وبهجة ، وحماسة ، وارتياح — أولئك الاغنياء ! جميع اولئك الاغنياء ! اولئك الذين يتظاهرون بأنهم رجالٌ محسنون ، والذين هم شـــديدو التقوى ، والذين يذهبون الى القداس ، والذين يصدقون رجال الدين المردّدين معاني خطبهم على نحو مضحك ، ويصدّقون الكهان ، والذين يحسبون انفسهم اسمى منا ، والذين يجيئون لكي يُذِلّونا ، ويحملوا الينا الملابس ! كما يَدْعونها ! خِرَقٌ لا تساوي اربعة فلوس ، وشيء من الخبز ! ليس هذا ما أريده من اولئك السفلة ! انا اريد مالاً ! آه ، ولكنهم لا يقدّمون الينا مالاً البتة ! لانهم يقولون إننا نذهب ونشرب الخمر به ، وإننا سكيرون لا نصلح لشيء ! وحضراتهم ! ايّ شيء هم اذن ، وايّ شيء كانوا في زمانهم ؟ لصوص ! ولولا ذلك لما كان في استطاعتهم ان يصبحوا أغنياء ! أوه ! يجب ان يُمسِك احدنا بالمجتمع من زوايا السماط الأربع ويقذف به في الهواء . سوف ينكسر كل شيء ، هذا جائز ، ولكنّ احداً لن يملك شيئاً على الاقل ، وهذا في ذات نفسه ربح ! ولكنْ ، ما الذي يفعله ، الان ، صاحبُك المحسن الغليظ ؟ هل سيأتي ؟ لعل ذلك الحيوان قد نسي العنوان ! أراهن ان ذلك

المعتوه المعجوز ... »

في تلك اللحظة ، قُرع الباب قرعاً رفيقاً ؛ واندفع الرجل الى أمام وفتحه هاتفاً منحنياً عدة مرات انحناءً خفيضاً ، ومرسلاً ابتسامات الاعجاب والتقدير :

— « أدخل ، ياسيدي ! تنازل وادخل ، يا محسني النبيل ، وأدخِلْ معك آنستك الفاتنة ! »

وبرز لدى باب العليّة رجلٌ كهل ، وفتاة شابة .

ولم يكن ماريوس قد فارق مكانه . لقد استشعر في تلك اللحظة ما تعجز اللغة الانسانية عن وصفه .

كانت هي .

وكل من أحبّ ، يعرف كاملَ المعنى المشعّ الذي ينطوي عليه حرفا هذه الكلمة : هي .

كانت هي حقاً . وإنما تبيّنها ماريوس ، في كثير من العسر ، من خلال البخار الساطع الذي انتشر فجأة فوق عينيه . كانت ذلك الكائنَ العذب الذاهل ، ذلك النجم الذي كان نورَه طوالَ ستة اشهر ، تلك الحدقة ، ذلك الجبين ، ذلك الفم ، ذلك المحيّا الجميل الذي امحّى ، والذي خلّف وراءه ظلاماً دامساً . كانت الرؤيا قد اعتراها الكسوف ، وها هي ذي الآن تعاود الظهور !

لقد عاودت الظهور في هذه الظلمة ، في هذه العليّة ، في هذا الوكر الشائه ، في هذا الهول !

وارتعد ماريوس ارتعاداً عنيفاً . ماذا ؟ إنها هي ! وكان في خفقان قلبه ما أوقع الاضطراب في بصره . لقد استشعر ان عينيه على وشك أن تغرورقا بالدموع . ماذا ! لقد رآها من جديد ، آخر الأمر ، بعد ان بحث عنها دهراً طويلاً ! وبدا له وكأنما كان قد أضاع نفسَهُ ثم اهتدى اللحظةَ اليها .

كانت لا تزال هي هي ، ولكنها شاحبةً بعض الشيء . كان وجهها الدقيق مطوّقاً بقبعة مخملية بنفسجية ، وكانت قامتها محجوبةً تحت رداء حريري أسود مبطّن بالفرو . ولقد لمح تحت فستانها الطويل قدمَها الصغيرة مُقحَمةً في حذاء حريري عالٍ ذي رباط .

كان مسيو لوبلان لا يفارقها ، جرياً على مألوف عادته .

كانت قد تقدمت بضع خطوات في الغرفة ، ووضعت رزمة كبيرة على الطاولة .

وكانت البنت الكبرى قد ارتدّت خلفَ الباب وانشأت تنظر ، في حسد ، الى تلك القبعة المخملية ، وذلك الرداء الحريري ، وهذه الطلعة المبتهجة الفاتنة .

٩
جوندريت يكاد يبكي

كانت العليّة من الاظلام بحيث استشعر الوافدون اليها من الخارج أنهم يَلِجون كهفاً من الكهوف . وهكذا تقدّم الوافدان الجديدان ، في شيء من التردّد ، وهما لا يكادان يتبيّنان الوجوه الباهتة من حولهما ، على حين كان سكان العليّة الذين تعوّدت أعينهم هذا الغسق يرونها في وضوح ويدرسونها في عناية .

واقترب مسيو لوبلان ، بسيمائه الكريمة الكئيبة ، وقال للأب :

— « سيدي ، سوف تجد في هذه الصرّة بعض الملابس الجديدة ، وبعض الجوارب والبطانيات الصوفية . »

فقال جوندريت ، منحنياً حتى الارض :

— « إن محسننا الملائكي يغمرنا بنعَمِهِ . »

ثم مالَ على أذن ابنته الكبرى ، فيما كان الزائران يفحصان هـــذا المسكن المبكي ، وأضاف في سرعة وفي صوت خفيض :

– « هه ؟ ماذا قلت لكِ ؟ خِرَق بالية ! لا مال ! إنهم جميعاً سواء ! أخبريني ، أيّ إمضاء كان يذيّل الرسالة الموجهة الى هذا الأبله العجوز ؟ »

فأجابته الفتاة :

– « فابانتو . »

– « الفنان المسرحي . حسن ! »

وكان ذلك من حسن حظ جوندريت ، إذْ في تلك اللحظة التفت لوبلان نحوه ، وقال له وقد بدت على وجهه سيما من يحاول ان يتذكر اسماً :

– « ارى انك تستحق الشفقة حقاً ، يا مسيو ... »

فسارع جوندريت الى القول :

« فابانتو . »

– « مسيو فابانتو . أجل ، ذلك هو . لقد تذكرت . »

– « فنان مسرحي ، يا سيدي ، وُفـّق في ما مضى الى نجـاح كثير . »

وهنا حسب جوندريت من غير ريب أن لحظة الاستحواذ على مشاعر « محسنِهِ » قد أزفت . فهتف في جَرْس حافلٍ بزهـــو مشعوذٍ في الاسواق الموسمية ومذلة شحاذ في الطريق العام ، في آنٍ معاً :

– « تلميذ من تلاميذ تالما * ، يا سيدي ! انا تلميذ من تلاميـــذ تالما ! لقد ابتسم لي الحظ في وقت من الاوقات . واأسفاه ! الآن جاء دور الشقاء . أنظر يا سيدي المحسن : لا خـــبز ، لا نار ! إن

* ممثل فرنسي شهير ، وقد سبق التعريف به .

اطفالي الصغار لا نار عندهم . أنظر الى هذا الكرسي الوحيـــد الذي تقطّع قشّه ! والى هذا الزجاج المكسور ! وفي مثل هذا الجوّ العاصف ! إن زوجتي في الفراش ! انها مريضة ! »

فقال مسيو لوبلان :

– « مسكينة ! »

فأضاف جوندريت :

– « وابنتي جريحة ! »

وكانت الطفلة – التي أذهلها وصول الزائرين الغريبين – تحـدّق الى « الآنسة الصغيرة » ، وكانت قد كفّت عن الانتحاب .

وقال لها جوندريت ، في همس :

– « لماذا لا تبكين ؟ لماذا لا تصرخين ؟ »

وفي الوقت نفسه قرص يدها الجريحة . كل ذلك في براعة مشعوذ من المشعوذين .

وأطلقت الصغيرة صرخات عالية .

وسارعت نحوها الفتاة الشابة البارعة الجمال التي دعاها ماريوس في سريرة نفسه « أورسوله » .

وقالت :

– « ايتها الطفلة العزيزة ، المسكينة ! »

وتابع جوندريت حديثه :

– « انظري ، يا آنستي الجميلة ، الى رسغها الدامي ! ذلك حادث أصابها وهي تعمل بواسطة احدى الماكينات لكي تجني ستة فـــلوس في اليوم . وقد نُضطرّ في المستقبل الى ان نبتر ذراعها . »

فقال السيد العجوز مذعوراً :

– « حقاً ؟ »

وإذ أخذت الفتاة الصغيرة هذا الكلام أخذاً جدياً فقد استأنفت الانتحاب على نحو أجمل .

وأجاب الأب :

– « نعم ، واأسفاه ، يا مُحسني ! »

كان جوندريت يتأمل « المحسن » ، منذ بضع لحظات ، تأملاً غريباً . لقد بدا ، حتى وهو يتكلم ، وكأنما كان يفحصه فحصاً دقيقاً ، شأنَ من يحاول ان يسترجع ذكرىً معيّنة . وفجأة – وقد أفاد من اللحظة التي انصرف فيها الزائران الى سؤال الفتاة الصغرى ، في لهفة ، عن يدها الجريح – تقدّم نحو امرأته المنطرحة في فراشها ، وقد بدت عليها سيما الاجهاد والبلاهة ، وقال لها في سرعة وفي صوت خفيض جداً :

– « تأمّلي هذا الرجل ! »

ثم استدار نحو مسيو لوبلان ، وتابع شكواه النائحة :

– « انظر يا سيدي ! كل ما على جسدي من الثياب قميص من قمصان زوجتي ! وهو قميص ممزّق تمزيقاً كاملاً ! وفي قلب الشتاء ! أنا لا أستطيع الخروج من هذا المكان ، لاني لا أملك بذلة . ولو كان عندي بذلة مهما تكن حقيرة اذن لذهبت وزرتُ الآنسة مارس التي تعرفني والتي تحبني كثيراً . إنها لا تزال تسكن في شارع « لا تور دي دام » ، أليس كذلك ؟ أتدري ، يا سيدي ؟ لقد مثّلنا معاً في الأرياف . لقد قاسمتها أكاليل الغار التي تُوّجت بها . إن سيليمين * جديرة بأن تأتي الى نجدتي ، يا سيدي ! إن ايلمير ** خليقة بأن تتصدق

* Célimène إحدى شخصيات موليير في رواية « مبغض البشر » Misanthrope وهي تمثل المرأة الشابة ، الجميلة ، المغناجة ، النامة .

** Elmire زوجة اورغون في رواية « طرطوف » لموليير ، وهي تمثل المرأة المخلصة من غير مغالاة في تكلف العفة .

على بيليزاريوس * ! ولكن لا ، لا شيء ! ليس في منزلي فلس واحد ! إن زوجتي مريضة ، وليس من فلس ! إن ابنتي جريح على نحو خطر ، وليس من فلس ! إن زوجتي تصاب بنـوبات اختناقية . فهي في سن الشيخوخة ؛ ثم إن للجهاز العصبي صلةً بذلك ايضاً . إنها في حاجة الى مساعدة ، وكذلك ابنتي ! ولكن الطبيب ! ولكن الصيدليّ ! كيف أستطيع أن ادفع ما يطلبانه ? ليس في جيبي فلس ! اني جدير بأن أركع على ركبتيّ امام فلس واحد ، يا سيدي ! أنت ترى كيف انهارت الفنون ! وهل تعرفين ! أنتِ يا آنستي الفاتنـة ، وانت يا نصيري الكريم ، هل تعلم ، أنت الذي يعبق بالفضيلة والطيبة والذي تعطّر الكنيسة التي تراك فيها ابنتي كل يوم عندمـــا تذهب للصلاة ? ذلك أني أنشّيء بنتيّ على الدين ، يا سيدي . انا لم اسمح لهما ان تميلا الى المسرح . آه ، يا للماكرتين ! لو رأيتهما تزلّ بهما القدم ! أنا لا أهزل ، أنا ! اني أحصّنهما بمواعظ عن الشرف ، عن الاخـــلاق ، عن الفضيلة ! إسألهما ! ان عليهما ان تسلكا مسلكاً قويماً . ان لهما أباً . انهما ليستا من اولئك التعسات اللواتي يبدأن بأن لا تكون لهن أسرة ، واللواتي ينتهين بالزواج من الجمهور ! ان الواحدة منهن تكون « مدموزيل لا أحد » ، ثم تصبح « مـــدام كل انسان » ! شكراً للسماء ! ليس ثمة شيء من ذلك في أسرة فابانتو ! أنا أعتزم ان اثقفهما على اساس من الفضيلة ، وأن اساعدهما على ان تكونا طاهرتي الذيل ، وان تكونا لطيفتين ، وأن تؤمنا بالله ! جلّ اسمه ! حسناً ، يـــا سيدي ، يا سيدي الجليل ، هل تعلم ما الذي سيقع غداً ? غداً هو

* Bélisaire جنرال بيزنطي (حوالى ٤٩٤ – ٥٦٥) قهر ، في عهـــد جوستنيان ، القوات الفارسية والفندالية ، وصدّ جماعات الهون . وتذهب بعض الروايات التاريخية الى أنه فقد بصره في اواخر حياته وأمسى شحاذاً . ومن هنا غـــد أمسى اسم بيليزاريوس يرمز الى الفقير الاعمى الذي تنطوي نفسه على شيء من النبـــل والخلق الرفيع .

الرابع من شباط ، اليوم المشؤوم ، المهلة الأخيرة التي أعطاني اياها مؤجري . فاذا لم ادفع اليه الاجرة هذا المساء فان ابنتي الكبرى ، وأنا ، وزوجتي وحُمَّاها ، وطفلتي وجرحها سوف نُطرَدُ غداً ، نحن الاربعة ، من هنا ، ونُطرح الى الخارج ، الى الشارع ، الى الجادة ، من غير ملجأ ، وتحت المطر ، وتحت الثلج . تلك هي المسألة ، ياسيدي . أنا مدينٌ لصاحب البيت بأربعة اقساط . بأجرة سنة ! يعني ستين فرنكاً . »

لقد كذب جوندريت . إن الاقساط الاربعة لا يزيد مجموعها على اربعين فرنكاً ، ولم يكن من المعقول ان يكون مديناً بأربعة اقساط اذ لمّا تنقض ستة اشهر على دَفع ماريوس قيمةَ قسطَين عنه .

واخرج مسيو لوبلان خمسة فرنكات من جيبه ، وطرحها على الطاولة .

ووجد جوندريت متسعاً من الوقت ليدمدم في أذن ابنته الكبرى :

— « النذل ! ايّ شيء يريد مني ان افعله بفرنكاته الخمسة ؟ إن هذا لا يكفي لاصلاح كرسيي ونافذتي ! يجب ان استرجع نفقاتي ! »

وفي غضون ذلك ، كان مسيو لوبلان قد نزع سترة طويلة واسعة سمراء ارتداها فوق سترته الطويلة الزرقاء ، وكان قد طرحها على ظهر الكرسيّ .

وقال :

— « مسيو فابانتو ، لستُ أحمل غير خمسة فرنكات . ولكني سوف أرجع بابنتي الى البيت ، ثم اعود هذا المساء . ألست مضطراً في هذا المساء الى الدفع ؟ »

وأشرق وجه جوندريت بتعبير غريب . واجاب في سرعة :

— « نعم ، يا سيدي المحترم . في الساعة الثامنة يجب ان اكون عند صاحب البيت . »

— « سوف ارجع الى هنا في الساعة السادسة ، ولسوف احمل اليك الفرنكات الستين . »

فصاح جوندريت في انفعال شديد :

- « يا محسني ! »

واضاف في صوت كالهمس :

- « تأمّليه جيداً ، ايتها الزوجة ! »

وكان مسيو لوبلان قـــد أمسك بذراع ابنته الجميلة الشابة واستدار نحو الباب .

وقال :

- « الى هذا المساء ، ايها الاصدقاء . »

فقال جوندريت :

- « الساعة السادسة ؟ »

- « الساعة السادسة على الضبط . »

وفي تلك اللحظة لفتَ المعطف الملقى على الكرسيّ نظر الفتاة الكبرى ، فقالت :

- « سيدي ، لقد نسيت سترتك الطويلة . »

وحدج جوندريت ابنته بنظرة صاعقة مصحوبة بهزة كتفين فظيعة .

والتفت مسيو لوبلان ، في ابتسامة :

- « انا لم أنسَها . لقد تركتُها . »

فقال جوندريت :

- « اوه ، يا نصيري ! يا محسني النبيل . إن عينيّ تغرورقان بالدمع ! اسمح لي بأن اشيّعك حتى عربتك العمومية . »

فأجابه مسيو لوبلان :

- « اذا خرجتَ ، فالبس هذا المعطف . ان الجو جدُّ بارد حقاً . »

ولم يضطره جوندريت الى ان يقول ذلك مرتين . لقد سارع الى ارتداء المعطف الاسمر في خفة بالغة .

وخرجوا ثلاثتهم ، وقد تقدّم جوندريت الزائرين .

١٠
تعرفة عربات الاجرة ذوات الدولابين فرنكان في الساعة

لم يفت ماريوس شيء من هذا المشهد كله ، ومع ذلك فانه لم ير منه ، في الواقع ، شيئاً . كانت عيناه قد رُكّزتا على الفتاة الشابة ، وكان قلبه قد أمسك بها – اذا جاز التعبير – وطوّقها تطويقاً كاملاً منذ وطئت قدماها ارض العلّية . وطوالَ مقامها هنـــاك غمرته تلك النشوة الروحية الـتي تعطّل المشاعر المـــادية وتحمل النفس على الاستغراق في نقطة واحدة . لقد تأمّل ، لا تلك الفتاة ، ولكنْ ذلك الضياء المتشح برداء حريري مبطّن بفرو ، والمعتمر بقبعة مخمليـة . ولو ان الشّعرى دخلت الغرفةَ لمـــا بهرت بصرَه عـــلى نحوٍ أشدّ .

وفيما كانت الفتاة الشابة تفتح الصرّة ، وتنشر الملابس والبطانيات ، موجّهة الاسئلة في طيبةٍ الى الأم المريضة ، وفي حنان الى الفتاة الجريح ، راقب انفعالاتها كلهـــا ، وحاول ان يصغي الى كلماتها . كان يعرف عينيها ، وجبينها ، وجمالها ، وقامتها ، ومشيتها ، ولكنه مـا كان يعرف جَرْس صوتها . وحسبَ انه تلقّف بضع كلمات منه ، ذات مرة في اللوكسومبورغ ، ولكنه لم يكن موقنـــاً كل اليقين . وكان على استعداد لأن يتخلى عن عشر سنوات من حياته لكي يسمعه ، ولكي يتمكن من ان يحمل في روحه قليلاً من تلك الموسيقى . ولكن كل شيء تلاشى وسط استعراضات جوندريت الموجعة وتبويقاته الصارخـة . واضاف ذلك غضباً حقيقياً الى تهلّل ماريوس . لقد حضنها بعينيه . ولم يستطع ان يتخيل ان هذه التي لمحها وسط هذه الكائنات الدنـة في هذا

الوكر الرهيب كانت تلك المخلوقة الالـهية فعلاً . لقد بدا له وكأنه رأى طيراً صغيراً رقيق المنقار بين مجموعة من ضفادع الجبل .

وحين خرجت لم يخطر له غير خاطر واحد : ان يتبعها ، ان يقتفي أثرها ، ان لا يتركها من غير ان يعرف أين تسكن ، وان لا يُضيعها كرةً اخرى ، على الاقل ، بعد ان وجدها على هذا النحو الاعجوبيّ ! ووثب عن الخزانة ذات الادراج ، وتناول قبعته . ولم يكد يضع يده على القفل ، ويخطو الى خارج العلية حتى اوقفتـه فكرة . كان الرواق طويلاً ، وكانت السلم وعرة الانحدار ، وكان جوندريت ثرثاراً ؛ وليس من شك في ان مسيو لوبلان لمّا يدخل عربته بعدُ . ولو قد اتفق له ان يلتفت في المجاز ، أو على السلم ، او عند العتبة ، ويلمحه – هو ، ماريوس – في ذلك البيت ، اذن لأصـابه الذعر من غير شك ، واذن لوجد وسيلة الى الفرار منه كرة ثانيةً ، وينتهي كل شيء من جديد . ما العمل ؟ اينتظر قليلاً ؟ ولكن العربة قد تمضي لسبيلها خـلال فترة الانتظار هذه . وارتبك ماريوس . واخيراً غامر ، وغادر غرفته .

لم يكن في الرواق أحـــد . وهرع الى السلم . ولم يكن على السلم أحـد . وهبطها في سرعـة ، وبلغ الجادة لحظـة كانت عربـة الاجرة تستدير حول زاوية شارع الـ « بيتي بانكييه » وترجـع الى باريس .

واندفع ماريوس في ذلك الاتجاه . وحين انتهى الى زاوية الجادة رأى عربة الاجرة كرةً اخرى تهبط شارع موفتارد مسرعةً . كانت العربة قد اجتازت مسافة غير يسيرة ، ولم تكن ثمة وسيلة الى اللحاق بهـا . ما الذي يتعيّن عليه ان يفعله ؟ أيعدو خلفها ؟ مستحيل . إنهم سوف يلاحظون من داخل العربة – لا ريب في ذلك – رجلاً يركض لاحقاً بهم باقصى السرعة ، وعندئذ يعرفه الأب . وفي تلك اللحظة – وكانت فرصة ذهبية لم يُسمع بمثلهـــا – لمح ماريوس عربة اجرة ذات دولابين

تخطر فارغةً في الجادة . ولم يكن ثمة غير سبيل واحدة : ان يمتطي مثن هذه العربة ذات الدولابين ، ويلحق بعربة الاجرة . كان ذلك مأموناً ، ناجعاً ، خلواً من الخطر .

وأشار ماريوس الى السائق ان يقف ، وصاح قائلاً له :

– « في الحال ! »

كان ماريوس من غير ربطة عنق ، وكان يرتدي بذلة عمله العتيقة التي أعوزتها بعض الازرار ، وكان قميصه ممزقاً عند احدى ثنيات الصدر .

ووقف السائق ، وغمز بعينه ، وبسط يده اليسرى نحو ماريوس فاركاً سبابته في رفق ، بأبهامه .

فقال ماريوس :

– « ماذا ؟ »

فأجابه السائق :

– « إدفع مقدّماً . »

وتذكّر ماريوس أنه ما كان يملك غير ستة عشر « سو » .

وسأله :

– « كم ؟ »

- « اربعون سو . »

– « سوف أدفع حين أعود . »

ولم يُجب السائق باكثر من الترنم صافراً بلحن « لا باليس » ، وإلهاب جواده بالسوط .

ونظر ماريوس ، شارد اللب ، الى العربة تبتعد . فمن أجل اربعة وعشرين « سو » كانت تعوزه ، أضاع بهجته ، وسعادته ، وحبه ! لقد انقلب الى الظلام . كان قد أبصر ، ثم ارتدّ أعمى ! وفكّر في مرارة ، وفي اسف عميق – وهو ما ينبغي ان نقوله – بالفرنكات

الخمسة التي قدّمها ، ذلك الصباحَ ، الى تلك الفتاة البائسة . اذ لو كانت تلك الفرنكات الخمسة في جيبه اذن لفاز بالخلاص ، ولوُلِد من جديد ، ولخرج من الشك والظلام ، ولفارق عزلته ، وسوداويته ، و ُثكلَه ، ولعاودَ عقدَ خيط قَدَرِه الاسود بذلك الخيـــط الذهبي الجميل الذي طفا اللحظةَ أمام عينيه ثم انقطع كرةً اخرى . ورجع الى البيت العتيق يائساً .

كان في ميسوره أن يذكر أن مسيو لوبلان وعد بالعودة ذلك المساء ، وانْ ليس عليه إلا ان يبذل غاية الجهد للّحاق بـه عندئذ ولكنه لم يكد يفهم ، في غمرة من تأمّله الغائم ، شيئاً من ذلك .

وفيما هو يصعد السلم ، لمح على الجانب الآخر من الجـــادة ، الى جانب حائط شارع « لا باريير دي غوبلين » المهجور — لمح جوندريت مرتدياً معطف « المحسن » يتحدث الى احد اولئك الرجـــال الخطري الملامح ، الذين يُجمع النـاس على تسميتهم « الحائمين ليلاً حول ابواب المدينة » ، اولئك الرجال المبهمي الوجوه ، المريبي المحاورات ، الذين تبدو عليهم أمـــارات النيّة الشريرة ، والذين ينامون في اثناء النهـار عادةً ، مما يحمل على الاعتقاد بأنهم يشتغلون في موهن من الليل .

وألّف هذان الرجلان المتحدثان في سكينة بينما كان الثلج يتساقط من فوقهما مدوّماً — ألّف هذان الرجلان صورةً كان خليقاً برجل من رجال الشرطة ان يلمحها من غير ريب ؛ على حين ان ماريوس كاد ان يخطئها .

ومع ذلك ، وبرغم مـا استغرق ذهنَهُ من تفكير فاجع فلم يتمالك عن ان يقول في ذات نفسه ان ذلك « الحائم الليلي حول ابواب المدينة » يشبه « بانشو » - المعروف بـ « بريتانييه » ، وبـ « بيغروناي » — الذي كان كورفيراك قد دلّه عليه ذات مرة ، والذي كان اهل الحيّ يعتبرونه مطوّفاً ليلياً خطراً جداً . لقد رأينا اسم هذا الرجـــل في

الكتاب السابق . ولقد برز بانشو هذا ، المعروف بـ « بريتنانييه » و بـ « بيفروناي » ، بعد ذلك في عدد من المحاكمات الجنائية وامسى منذ تلك الفترة وغداً شهيراً . اما في ذلك الحين فلم يكن غير وَغد رديء السمعة . وهو اليوم حديثٌ يُروَى في اوساط السفاحين وقطّاع الطرق . لقد تزعم مدرسةً ما ، في اواخر عهد الملك السابق . وعند المساء ، لحظةَ يهبط الليل في تلك الساعة التي تجتمع خلالها الحشود وتتكلم في صوت خفيض ، كان موضوعَ الكلام في « لا فورس » عند « حفرة الأسود » . وحتى في ذلك السجن ، عند النقطة التي امتدت فيها ، تحت مجاز العَسس ، قناة المراحيض التي مكّنت ثلاثين سجيناً من الهرب في وضح النهار ، على نحو خارق ، عام ١٨٤٣ - نقول حتى في ذلك الموضع كان في-ميسورك ان تقرأ ، فوق بلاط تلك المراحيض ، اسمه « بانشو » وقد حفره هو نفسُهُ ، في جسارة ، على الجدار الخارجي في احدى المحاولات التي قام بها للهرب من السجن . كان رجال الشرطة قد شرعوا يراقبونه ، عام ١٨٣٢ . ولكنه لم يكن قد استهلّ نشاطه الخطر ، استهلالاً جدياً ، بعد .

١١

عروض خدمة يقدمها البؤس الى الأسى

ورقي ماريوس سلّم البيت العتيق في خطى وئيدة . ولحظة انتهى الى غرفته ، أو كاد ، لمح في الرواق ، خلفَهُ ، ابنة جوندريت الكبرى التي كانت تتبعه . كانت هذه الفتاة بغيضة في ناظره ؛ فهي

التي اخذت منه فرنكاته الخمسة ، ولم تبق ثمة فائدة ترتجى من مطالبتهما بها ، فعربة الاجرة ذات الدولابين لم تعد هنــاك ، والعربة العمومية أمست بعيدةً جداً . والى هذا ، فقد كان خليقاً بها أن لا تُرجعهــا اليه . أما سؤالها عن عنوان الزائرين اللذين وفدا عليهم منذ برهة وجيزة ، فلم يكن ذا غَناء . كان واضحاً انها لا تعرفه ، لان الرسالة المذيلة بتوقيع فابانتو كانت موجهة الى « **سيدي الخيّر ، رَجل كنيسة سان جاك دو هو با** » .

ودخل ماريوس غرفته ، ودفع بابها من خلفه .

ولم ينغلق . واستدار ، فرأى يداً كانت تُبقي الباب منفتحاً على نحو جزئيّ .

وسأل :

– « ما هذا ؟ مَنْ هناك ؟ »

كانت ابنة جوندريت .

وقال ماريوس في خشونة ، تقريباً :

« هذا انتِ ؟ انتِ دائماً ؟ ماذا تريدين مني ؟ »

لقد بدت مستغرقة في التفكير ، ولم تنظر اليه . كانت قد فقدت الثقة التي تكشّفتْ عنهــا ذلك الصباح . ولم تدخل غرفته ، بل وقفت في الرواق القاتم ، حيث لمحها ماريوس من خــلال الباب نصف المفتوح .

وقال ماريوس :

– « هاي ، أنت ، ألا تجيبين ؟ ايّ شيء تريدينه مني ؟ »

ورفعت عينيها الفاجعتين ، حيث بدا وكأن ضرباً من الضياء كان يتوهج على نحو مُبهم ، وقالت له :

– « مسيو ماريوس ، أنت تبدو حزيناً . فهل تشكو شيئاً ؟ »

فقال ماريوس :

– « انا ؟ »

– « نعم ، أنت . »

– « انا لا اشكو شيئاً . »

– « بلى ! »

– « لا . »

– « اقول لك بلى . »

– « دعيني وشأني . »

ودفع ماريوس الباب ، كرة اخرى ، ولكنها ظلت متشبثة به . وقالت :

– « قف ، أنت على خطأ . فعلى الرغم من انك قد لا تكون غنياً ، فقد كنت خيّراً هذا الصباح . كن هكذا الآن . لقد أعطيتني شيئاً آكل به ، فقلْ لي الآن ما بك . أنت محزون ، هذا واضح . أنا لا اريد ان اراك محزوناً . ما الذي يجب ان يُعمل من اجل هذا ؟ هل أستطيع ان اقدّم اليك خدمة ما ؟ إستخدمني . أنا لن اسألك عن اسرارك ، فلستَ في حاجة الى ان تبوح بها اليّ ، ولكني قد اكون مع ذلك ذات فائدة . في استطاعتي من غير شك ، أن أساعدك ، ما دمتُ أساعد ابي . فحين يحتاج الى من يحمل الرسائل ، ويذهب الى البيوت ، ويسأل من بيتٍ الى بيت ، ويبحث عن عنوان ، ويلحق بشخصٍ ما ، أقوم أنا بهذه المهامّ . والان ، في استطاعتك من غير شك أن تقول لي ما بك . سوف اذهب واتحدث مع الناس . إنّ التحدث الى الناس في بعض الاحيان كافٍ لان يفهم المرء الاشياء ، وعندئذ تسوّى الامور . استفد مني . »

وخطرت لماريوس فكرة . وهل يزدري المرء قضيباً حين يستشعر انه على وشك الغرق ؟

وتقدّم نحو الفتاة ، وقال لها بضمير المفرد :

— « اسمعي ! »

فقاطعته وفي عينيها وميض ابتهاج :

— « اوه ! اجل ! خاطبني بضمير المفرد ! انا احبّ هذا اكثر . »

فأردف قائلاً :

— « حسن . لقد قُدْتِ ذلك الرجل وابنته الى هنا ... »

— « نعم . »

— « اتعرفين عنوانها ؟ »

— « لا . »

— « ابحثي لي عنه . »

كانت عينا الفتاة الفاجعتان قد امستا بهيجتين . ولكن الكآبة ما لبثت ان رانت عليها .

وسألته :

— « اهذا هو الشيء الذي تريده ؟ »

— « نعم . »

— « هل تعرفها ؟ »

— « لا . »

فقالت في قوة :

— « يعني انك لا تعرفها ، ولكنك تريد ان تعرفها . »

وكانت « ها » هذه التي اصبحت « ها » ، تنطوي على مغزى ومرارة لا سبيل الى وصفها .

وقال ماريوس :

— « حسن . هل تستطيعين ان تقومي بذلك ؟ »

— « تريد عنوان الانسة الجميلة ؟ »

وكان في هاتين الكلمتين ايضاً ، « الانسة الجميلة » ، معنىً اقلق ماريوس . واستأنف كلامه :

– « على كل حال ، لا فرق ! عنوان الاب والبنت . عنوانهما . اجل ! »

وصوّبت بصرها اليه على نحو موصول .

– « وايّ شيء سوف تعطيني ؟ »

– « كل ما تطلبين . »

– « كل ما اطلب ؟ »

– « اجل . »

– « سوف آتيك بالعنوان . »

وخفضت رأسها ، ثم اغلقت الباب في حركة مفاجئة .

ووجد ماريوس نفسَه وحيداً .

وارتمى في كرسيّ ، مسنداً رأسه ومرفقيه الى السرير ، مستغرقاً في افكار لم يكن قادراً على فهمها ، وكأنما هو فريسة ُدوار . كان كل ما جرى منذ الصباح ، وظهورُ الملاك ، وغَيْبَتُهُ ، وما قالتـــه له اللحظةَ هذه المخلوقة ، وشعاع الأملِ الطافي وسط اوقيانوس من اليأس – كان ذلك هو ما ُيفعم دماغه على نحو مشوّش .

وفجأة انُتزِع من تفكيره الحالم انتزاعاً عنيفاً .

لقد سمع صوت جوندريت المرتفع القاسي وهو يلفظ هذه الكلمات الحافلة بأغرب ما اثار اهتمامه :

– « اقول لكِ اني واثق من ذلك ، واني قد عرفتُهُ ! »

عمن كان جوندريت يتحدث ؟ لقد عرف مَن ؟ مسيو لوبلان ؟والد « أورسوله » ؟ ماذا ؟ هل عرفه جوندريت ؟ أكان ماريوس على وشك ان يفوز ، على هذه الطريقة المفاجئة غير المتوقّعة ، بكل المعلومات التي كان جهله بها قد جعل حياته قاتمة في عينيه ؟ أكان على وشك ان يعرف ، آخر الأمر ، من أَحب ؟ مَن كانت هذه الفتاة الشابة ؟ من كان أبوها ؟ أكانت الظلمة الكثيفة التي حجبتها عنه في سبيلها الى الانجلاء ؟

اكان اللئام في طريقه الى التمزّق ؟ آه ! يا للسماء !

ووثب ، ولا نقول ارتقى ، الى الخزانة ذات الادراج ، واستعاد موقفه قرب كوة الجدار الصغيرة .

واطّلع على ما كان يجري في وكر جوندريت ، كرةً اخرى .

١٢
كيف استُعملت فرنكات
مسيو لوبلان الخمسة

لم يكن قد تغيّر شيء في مظهر الأسرة ، لولا ان الزوجة والفتاتين كنّ قد فتحنَ الصرّة وارتدين الجوارب والصدرات الصوفية . كانت بطانيتان جديدتان قد طُرحتا على السريرين .

كان جوندريت قد رجع الى غرفته ، من غــير شك . وكان لا يزال يلهث . وكانت ابنتاه جالستين على الارض قرب الموقد ، وقـد انصرفت كبراهما الى تضميد يد الصغرى . وكانت زوجتـه مستلقية ، وكأنها منهوكة القوى ، على الحشيّة المجاورة للموقد ، وقد رانت عـلى محيّاها سيماء مشدوهة . أما جوندريت فكان يذرع العلّية جيئة وذهاباً ، وبخطىً واسعة . كانت نظراته خارقة للعادة .

وغامرت المرأة – التي بدت جبانةً مذعورة أمام زوجها – فقالت له :

– « ماذا ، حقاً ؟ اواثق انت ؟ »

– « واثق ! لقد انقضت ثمانية أعوام ! ولكني عرفتهُ ! آه ! لقد عرفته ! لقد عرفته في الحال ! ماذا ؟ ألم يتّضح ذلك في عينيك ؟ »

– « لا . »

– « مع اني قلتُ لك انتبهي جيداً ! ولكن القامة هي القامة ، والوجه هو الوجه ، لم يكبر إلا قليلاً . إن ثمة رجالاً لا يهرمون ؛ وأنا لا أدري كيف يفعلون ذلك ؛ وجَرْسُ صوته كذلك لم يتغير . إنه أحسن بزّةً من ذي قبل ، هذا كل ما هنالك ! آه ! ايها الشيطان الغامض العجوز ، لقد أمسكتُ بك ، لقد امسكتُ بك ! »

وكبح جماح نفسه ، وقال لبنتيه :

– « وانتما ايضاً ! أخرجا من هنا ! من العجيب انــه لم يتّضح لناظريكما . »

ونهضتا تنفيذاً لرغبته .

وتمتمت الأم :

– « ويدها ما تزال تؤلمها ؟ »

فقال جوندريت :

– « الهواء سوف يفيدها . أخرجا . »

كان واضحاً ان هذا الرجل كان من اولئك الرجال الذين لا رادّ لمشيئتهم . وخرجت الفتاتان .

وفيما هما تجتازان الباب ، أمسك الأب بذراع البنت الكبرى وقال في نبرة فريدة :

– « يجب ان تكونا هنا في الساعة الخامسة تماماً . انتِ وهي . سوف أحتاج اليكما . »

وضاعف ماريوس انتباهه .

حتى اذا خلا جوندريت الى امرأته شرع يذرع الغرفة من جديد ، فتمّ له ذلك مرتين او ثلاث مرات في صمت . ثم قضى بضع دقائق في إقحام الجزء الأدنى من القميص النسائي الذي كان يرتديه ، في الجزء الأعلى من بنطلونه .

وفجأة التفت الى المرأة ، وطوى ذراعيه هاتفاً :

— « وهل تريدين ان اخبرك شيئاً ؟ ان الآنسة ... »
فقالت المرأة :
— « ثمّ ماذا ؟ الآنسة ؟ »
ولم يعد في ميسور ماريوس ان يشك ؛ فعنها هي كان جوندريت وزوجته يتحدثان . وأصغى في قلق محتدم . كانت حياته كلها متركزة في أذنيه .
ولكن جوندريت انحنى ، وأسرّ في اذن زوجته حديثاً . ثم انتصب واكمل كلامه في صوت مرتفع :
— « انها هي ! »
فقالت الزوجة :
— « تلك الفتاة ؟ »
فقال الزوج :
— « تلك الفتاة ! »
ان اية كلام لم يكن قادراً على تحمّل ما انطوى عليه قول الأم « تلك الفتاة ؟ » من معانٍ . كان في تينك الكلمتين دهش ، وغيظ ، وبغض ، وغضب ممتزجةً ومتحدةً بنبرة صوت فظيعة . ذلك ان الكلمات القليلة التي همس بها زوجها في اذنها ، وهي اسم شخص ما من غير شك ، كانت كافية لايقاظ هذه المرأة الضخمة الناعسة والى تحويل تقززها الى هَوْل .
وصاحت :
— « مستحيل ! حين افكر انّ بنتيّ تمشيان حافيتين وليس لديها ثوب تلبسانه ! كيف ! رداء حريري مبطّن بالفرو ، وقبعة مخملية ، وحذاء عالٍ ذو رباط ، وكل شيء . ملابس تساوي اكثر من مئتي فرنك ! ان المرء ليحسبها سيدة ! لا ؛ انت مخطيء ! ولكنْ ، قبل كل شيء ، كانت تلك رهيبة ، أما هذه فليست رديئة ! انها ليست

رديئة حقاً ! مستحيل ان تكون اياها ! »

— « اقول لك انها هي . سوف ترين . »

وعند هذا التوكيد الجازم ، رفعت المراة رأسهـا الضخم الأحمر الاشقر ، ونظرت الى السقف وعلى محياها انطباعة مروّعة . وفي تلك اللحظة بدت في عيني ماريوس اشدّ فظاعة من زوجها . كانت خنزيرة لها نظرات نَمِرة .

واستأنفت كلامها :

— « ماذا ؟ هذه الآنسة الجميلة الرهيبة التي نظرت الى بنتيّ وقد غلبت عليها الشفقة ، ايمكن ان تكون تلك الشحاذةَ ! أوه ، كم أتمنى لو أدوس قلبها بعقب حذاء خشبيّ ! »

ووثبت من السرير ، وظلت واقفةً لحظة ، منفوشة الشعر ، منتفخة المنخرين ، فاغرة الفم ، متشنجة الاصابع مردودة الى وراء . ثم إنها خرّت على الفراش . وظلّ الرجل يروح ويجيء غير ملقٍ بالاً الى أنثاه .

وبعد بضع لحظات من الصمت ، اقترب من زوجتـه ، ووقف أمامها ، طاوياً ذراعيه شأنَه من قبل .

— « وهل تريدين أن اقول لك شيئاً آخر ؟ »

فسألته :

— « ماذا ؟ »

فأجابها في صوت سريع منخفض :

— « لقد تكوّنت ثروتي . »

وحدقت اليه المرأة بتلك النظرة التي تعني : هل أصيب الرجل الذي يتحدث اليّ بمسٍّ من الجنون ؟

وتابع :

— « يا للصاعقة ! لقد انقضت فترة طويلة على انتسابي الى « ابرشية مُتْ من الجوع اذا كان عندك نار ، ومُتْ من البرد اذا كان عندك

خبز » ! لقد شبعتُ بؤساً ! وأنا احمل نيري ونيرَ الآخرين ! إني لا أمزح بعد اليوم ، إني لا أجد ذلك مضحكاً بعد اليوم ! حسبي نُكتاً لفظية جناسية ، ايها الرب الرحيم ! لا تمثيل هزلياً من الآن فصاعداً ، ايها الاب الازليّ ! اني اريد طعاماً اسدّ به جوعي ، وشراباً أطفيء به ظمأي ! اريد أن ألتهم ! أن انام ! ان لا أفعل شيئاً ! أريد ان يجيء دوري ، أجل ان يجيء دوري ، قبل أن أنفجر ! اريد أن أكون جزءاً من مليونير ! »

وذرع العليّة من اقصاها الى اقصاها وأضاف :

– « مثل غيري من الناس . »

وسألته المرأة :

– « ماذا تعني ؟ »

فهزّ رأسه ، وغمز بعينه ، ورفع صوته مثل عالم طبيعي من علماء مفارق الطرق على وشك ان يعرض براعاته .

– « ماذا أعني ؟ إسمعي ! »

فتمتمت المرأة :

– « هِسْت ! لا تتكلم بصوت عالٍ الى هـــذا الحد ، اذا كان الحديث متصلًا بأشياء لا ينبغي لأحد ان يسمعها ! »

– « هه ! ومَنْ هناك حتى يسمع ؟ جارنا ؟ لقد رأيته يغادر الغرفة منذ لحظة . والى هذا ، فهل يسمع ذلك الأبله الكبير شيئاً ؟ ثم إنني قلت لك اني رأيته يغادر الغرفة . »

ومع ذلك ، فقد خفض جوندريت صوته ، بضرب من الغريزة ، ولكن من غير ان يحول ذلك دون سماع ماريوس للحديث . ومما ساعد ماريوس على الاحاطة بذلك الحديث كله ، تقريباً ، ان الثلج المتساقط خنق ضجة العربات المنطلقة على الجادة .

وهذا ما سمعه ماريوس :

— « أصغي جيداً . لقد وقع « قارون » ذاك ! هذا شيء حسن . ولقد تمّ ذلك . إن كل شيء قد أُعِدّ . لقد اجتمعتُ الى الرجال . إنه سوف يجيء هذا المساء في الساعة السادسة . لكي يحمل الينا فرنكاته الستين ، الوغد ! أرأيتِ كيف تقيأتُ الستين فرنكاً ، وصاحب البيت ، والرابع من شباط ! انا لم يستحق عليّ مجرد قسط واحد بعد ! أكان ذلك عملاً احمق ! إنه سوف يأتي ، اذن ، في الساعة السادسة . انها الساعة التي يمضي فيها جارنا لتناول طعام العشاء . والأم بورغون تغسل الاطباق في المدينة . ليس ثمّ احدٌ في المنزل . وليس من دأب جارنا ان يرجع قبل الحادية عشرة على الاطلاق . ان البنتين سوف تقومان بالحراسة . وانتِ سوف تساعديننا . انه سوف يُجري ما نطلبه منه . »

فسألته زوجته :

— « واذا لم يجرِ ما نطلبه منه ؟ »

فأومأ جوندريت إيماءة كالحة ، وقال :

— « سوف نحكم عليه بالموت ! »

وانفجر ضاحكاً .

كانت تلك أول مرة رآه ماريوس يضحك . وكانت تلك الضحكة باردةً واهنةً ، ولقد اوقعت الرعدةَ في اوصاله .

وفتح جوندريت خزانة مجاورة للموقد ، وأخرج منها قلنسوة عتيقة ، فاعتمر بها بعد ان فرّشاها بردنه .

وقال :

— « والآن ، أنا ذاهب . هناك رجال آخرون ينبغي ان أراهم . رجالٌ طيبون . سوف ترَيْنَ كيف سيتمّ كل شيء . إني سأرجع في اسرع وقت ممكن . هذه ورقة جميلة يجب ان تُلعب ! انتبهي الى البيت . »

ووقف لحظةً يفكر ، مقحماً قبضتيه في جيبي بنطلونه ، ثم هتف :

— « أتعلمين ان من حسن حظنـا العظيم أنه لم يعرفني ؟ ولو انـه عرفني اذن لمـــا رجع . كان خليقـاً بـه ان يجتنبنا ! إن لحيتي هي التي انقـذتني ! لحيتي الرومانتيكية ! لحيتي الرومانتيكية الصغيرة الجميلة ! »

وشرع يضحك من جديد .

ومضى الى النافذة . كان الثلج ما يزال يتساقط ، وكان قد محـــا السماء الرمادية .

وقال :

— « أي جوٍّ خنزيريّ ! »

ثم ثنى سترته الطويلة واضاف :

— « هذا الثوب اوسع مما ينبغي . ولكن لا بأس . لقـد احسن على نحوٍ شيطانيّ في تركه لي — الوغد ! فلولاه لمـــا كنت قـادراً على مغادرة الغرفة ، وعندئذ يفسد الأمر كله ! عجيبٌ علام تتوقّف الاشياء ؟ »

وأنزل قلنسوته فوق عينيه ، وخرج .

ولم يكد يخطو بضع خطوات في الرواق ، حتى فُتح الباب من جديد ، وأطلّ وجه الأشقر الداهية من شقّهِ .

وقال :

« لقد نسيت . سوف تنعمين بفحم يدفئك . »

وقذف في مئزر امرأته قطعة الفرنكات الخمسة التي تركها له « المحسن » .

وتساءلت المرأة :

— « فحم ؟ »

— « نعم . »

— « كم كيساً ؟ »

— « كيسان مليئان . »

– « هذان يكلفان ثلاثين سو . وبالباقي ، سوف اشتري شيئاً للعشاء . »
– « لا ، بحقّ الشيطان ! »
– « لماذا ؟ »
– « إن قطعة المئة « سو » يجب ان لا تُنفق . »
– « لماذا ؟ »
– « لأن ثمة شيئاً ينبغي ان اشتريه . »
– « ما هو ؟ »
– « شيء ما . »
– « الى كم ستحتاج ؟ »
– « هل يوجد بائع الادوات النحاسية والحديدية ، على مقربة من هنا . »
– « في شارع موفتارد . »
– « آه ، نعم . عند زاوية احد الشوارع . إني ارى الدكان . »
– « ولكن قل لي ، الآن ، الى كم ستحتاج من اجل شراء ذلك الشيء ؟ »
– « الى خمسين سو او ثلاثة فرنكات . »
– « وعندئذ لن يبقى مقدارٌ كافٍ للعشاء . »
– « ينبغي ان لا نتكلم اليوم في امر الطعام . إن عندنا عملاً أفضل . »
– « كفى ، يا جوهرتي ! »

وعند هذه الكلمة التي نطقت بها زوجته ، اغلق جوندريت البابَ من جديد ، وسمع ماريوس خطاه تبتعد في رواق البيت العتيق ، وتهبط السلّم في سرعة .

وفي تلك الساعة ذاتها اعلنت ساعة « سان ميدار » الواحدةَ .

١٣

« وحيد مع نفسي في مكان قصيّ
فانهم لم يجدوا حافزاً للصلاة ياأبانا ! »

كان ماريوس برغم نزعته الى الاستغراق في التأمل ذا طبيعة حازمة تنضح بالعزم . قد تكون عادة التأمّل الموحِّد – التي طوّرت فيه الحنان والمشاركة الوجدانية – قد قللت من إمكان غضبه ، ولكنها تركت قدرته على السخط سليمةً لم تُمَس . كان له عطفُ برهميٍّ ، وقسوة قاضٍ . كان يشفق على ضفدع الجبل ، ولكنه كان يسحق الافعى . وها هو ذا الآن ينظر الى جُحر أفعى حقاً . كان امام عينيه وكر من اوكار الهُوَل .

وقال :

– « يجب ان أدوس بقدمي هؤلاء الادنياء . »

إن اياً من الاحاجي التي رجا ان تُحَلّ لم تكن قد انجلت ؛ على العكس ، فلعلّ كلّ شيء كان قد ازداد قتامـاً . إنه لم يعرف شيئاً إضافياً عن فتاة اللوكسومبورغ الجميلة وعن الرجل الذي كان يدعوه مسيو لوبلان ، باستثناء ان جوندريت كان يعرفهما . ومن خلال الكلمات التي نُطق بها ، لم يرَ على نحو واضح غير شيء واحد ، هو ان كميناً كان يُهَيَّأ ، كميناً غامضاً ولكنه فظيع ؛ وان خطراً عظيماً كان يحيط بكل منهما : بها هي في اغلب الظن ، وبه هو على وجه التحقيق ؛ وان عليه ان يُحبط مكائد جوندريت الرهيبة ويقطع نسيج هذه العناكب .

ونظر لحظة الى جوندريت الانثى . كانت قد أخرجتْ كانوناً حديدياً قديماً من احدى الزوايا ، وانشأت تقلّب ضروباً من الحدائد

العتيقة .

وترجل عن الخزانة ذات الادراج بأقصى ما يستطيع من الهدوء ، محاذراً ان يحدث ضجةً ما .

وفي غمرة من ذعره مما كان يُبيّت والهول الذي القاه جوندريت وزوجته في فؤاده ، استشعر ضرباً من البهجة حين فكّر انه قد يقيّض له ان يُسدي مثل تلك الخدمة الى الفتاة التي يحبّ .

ولكنْ ما الذي يتعين عليه أن يعمل ؟ أيحذّر الشخصين المهدّدين بالخطر ؟ وأين يجدهما ؟ إنه ما كان يعرف عنوانهما . كانا قد عاودا الظهور لعينيه لحظةً ، ثم غاصا من جديد في اعماق باريس التي لا يُسبر غورها . أينتظر مسيو لوبلان ، لدى الباب ، في الساعة السادسة مساء ، لحظةَ وصوله ، ويحذره من الشرَك ؟ ولكن جوندريت ورجاله سوف يرونه يترصّد ؛ والمكان منعزل ؛ ولسوف يكونون اقوى منه ؛ وخليقٌ بهم ان يلتمسوا وسيلةً للقبض عليه او ازاحته من الطريق ، وعندئذ يهلك ذلك الذي اراد ماريوس ان ينقذه . لقد دقت الساعةُ الواحدةَ منذ لحظات ، والتدبير يقضي بتنفيذ المكيدة في السادسة . كانت امام ماريوس خمس ساعات .

لم يكن ثمة غير شيء واحد يمكن ان يُعمل .

وارتدى بذلته المقبولة ، وعقد حول عنقه رباطاً ، وتناول قبعته ! وخرج غير محدث من الضجة اكثر مما كان جديراً بأن يُحدثه منها لو سار على الطحالب حافياً .

والى هذا ، فقد كانت جوندريت المرأة ما تزال تقلّب حدائدها العتيقة باحثة عن شيء ما .

حتى اذا غادر البيت ، شخص الى شارع الـ « بيتي بانكييه » .

وكان قد انتهى ، او كاد ، الى منتصف ذلك الشارع قريباً من جدار منخفض جداً في ميسور المرء ان يتجاوزه بخطوةٍ واحدة في

بعض المواطن ، جدار يؤدي الى حقل متوامي الاطراف ، وكان يمشي وئيداً ، مستغرقاً في افكاره وقد خنق الثلج صدى خطواته عندما سمع ، فجأة ، اصواتاً تتحدث على مقربة منه . والتفت . كان الشارع مقفراً ليس فيه احد ، وكانت الشمس في كبد السماء ، ومع ذلك فقد سمع بعض الاصوات سماعاً واضحاً .

وخطر له ان يطلّ من أعلى هذا الجدار الذي كان يحاذيه .

كان ثمة ، في الواقع ، رجلان جالسان على الثلج ، وقد ولّيا الجدارَ ظهريهما ، وراحا يتجاذبان اطراف الحديث في صوت خفيض .

ولم يكن يعرف هذين الرجلين . كان احدهما ملتحياً ، يرتدي سترة فضفاضة ، وكان الآخر طويل الشعر ، يرتدي اسمالاً بالية . كان الرجل الملتحي يعتمر بقلنسوة إغريقية ، وكان الآخر حاسر الرأس ، وكان على شعره ثلج .

وحين خفض ماريوس رأسه من فوقهما كان في ميسوره ان يسمع .

لقد وكز ذو الشعر الطويل صاحبه بمرفق يده ، وقال :

— « اذا تولى المعلم مينيت المسألة فلن تُخفق ابداً . »

فقال الرجل الملتحي :

— « أتعتقد ذلك ؟ »

فاستأنف ذو الشعر الطويل كلامه :

— « سوف ينال كل منا ورقة ألف فرنك ذات خمسمئة صورة . واسوأ ما سوف يصيبنا خمس سنوات ، ستّ سنوات ، عشر سنوات على الاكثر . »

فأجاب الآخر متردداً ، مرتعداً تحت قلنسوته الاغريقية :

— « اجل ، هذا شيء حقيقي . نحن لا نستطيع ان نسير في اتجاه معاكس لمثل هذه الاشياء . »

فقال ذو الشعر الطويل :

— « اقول لك ان المسألة لن تخفق . إن « عربة » الأب فلان سوف تُقرن بالدوابّ . »

ثم بدءا يتحدثان عن مأساة شعبية كانا قد شهداها الليلةَ البارحة ، في مسرح « لا غيتيه » .

ومضى ماريوس لسبيله .

لقد بدا له ان الكلمات الغامضة التي فاه بها هذان الرجلان ، المختبئان على ذلك النحو البالغ الغرابة خلف هذا الجدار والجالسان القرفصاء في الثلج ، لا يبعد ان تكون ذات صلة ما بمشروعات جوندريت الرهيبة . تلك من غير ريب كانت « المسألة » .

وتقدّم نحو ضاحية « سان مارسو » ، وسأل صاحب اول دكان التقاه عن مركز للشرطة قريب .

وسمّوا له شارع بونتواز والرقم ١٤ .

وشخص ماريوس الى هناك .

واذ اجتاز بأحد الخبازين اشترى رغيفاً بفلسين وأكله ، بعد ان تبدّى له انه لن يصيب عشاء ما تلك الليلة .

وفي طريقه الى مركز الشرطة رفع الى العناية الالـهية حقها من الحمد . لقد تخيّل أنه لو لم يعطِ فرنكاته الخمسة الى جوندريت الفتاة في الصباح ، اذن للحق بعربة مسيو لوبلان ، واذن لجهل من ثمّ كلّ شيء ، وهكذا تتمّ مكيدة جوندريت من غير ان يعترضها شيء ، ويهلك مسيو لوبلان ، وتهلك ابنته معه من غير شك .

١٤
وفيه يقدم شرطي
الى احد المحامين مسدسين فولاذيين

حتى اذا انتهى الى رقم ١٤ شارع بونتواز ، رقي السلّم وسأل عن مفوض الشرطة .

فقال أحد الخدم :

– « إن مفوض الشرطة ليس هنا ، ولكن ثمة مفتشاً يقوم مقامه . أتحبّ ان تتحدث اليه ؟ هل المسألة ملحّة ؟ »

فقال ماريوس :

– « نعم . »

وقاده الخادم الى مكتب المفوّض . كان رجلٌ فارع الطول واقفاً هناك ، خلف حاجز مشبّك ، أمام الموقد ، مشمّراً عن يديه معطفاً ضخماً مثلّث التلابيب . كان ذا وجه مربّع ، وفمٍ رقيق حـازم ، وعارضَيْن ضاريين ، أشيَبْين ، وخطّهما الشيب ، وعينٍ خليقٍ بها ان تجعل جيوبك باطنَها ظاهرها . كان في ميسورك ان تقول عن هذه العين إنها تبعثر وتبحث ، لا إنها تنفذ الى الاشياء وحسب .

ولم يكن مُظهر هذا الرجل اقلّ ضراوة بكثير او اقلّ هولاً بكثير ، من مظهر جوندريت . إن مواجهة الكلب ليست دون مواجهة الذئب إزعاجاً .

وقال لماريوس من غير ان يُتبع كلامه بلفظة « سيّدي » :

– « ماذا تريد ؟ »

– « السيد مفوض الشرطة ؟ »

– « إنه غائب . أنا أقوم مقامه . »

— « انها مسألة سرية جداً . »
— « تكلم ، اذن . »
— « وملحّة جداً . »
— « اذن ، تكلم في سرعة . »

كان هذا الرجل ، الهادىء الغليظ ، مروَّعاً ومطمَئناً في آنٍ معاً . كان يوحي بالخوف وبالثقة . وروى ماريوس القصة : — أن شخصاً لم يكن يعرفه الا بالرؤية سوف يـلقى ، ذلك المساء نفسِهِ ، الى كمين أعدّ له ؛ وانه ، هو مـاريوس بونميرسي ، المحـامي ، الساكن في غرفة مجاورة لمغارة اللصوص تلك ، كان قد سمع المكيدة كلها من خلال الجدار ؛ وان الوغد الذي نَصب ذلك الشرَك كان يدعى جوندريت ؛ وانه كان ذا شركاء في الجريمة ، لعلهم من « الحائمين ليلاً حول ابواب المدينة » ، وفيهم رجل اسمه بانشو ، المعروف بـ « برينتانييه » و بـ « بيغروناي » ؛ وان ابنة جوندريت سوف تراقب المكان ؛ وانـه ليس ثمة وسيلة الى انذار الرجل المهدّد إذ لم يكن ليعرف عنه شيئاً حتى اسمه ؛ واخيراً ان هذا كله سوف يـتمّ في الساعة السادسة من ذلك المساء ، في الجزء الأشدّ انعزالاً من « جادة المستشفى » ، في البيت الذي يحمل الرقم ٥٠ — ٥٢ .

ولم يكد مفتش الشرطة يسمع هذا الرقم ، حتى رفع رأسه وقال في برود :

— « اذن فسيتمّ ذلك في الغرفة التي في اقصى الرواق ؟ »

فقال ماريوس :

— « تماماً . »

ثم اضاف :

— « هل تعرف ذلك البيت ؟ »

فاعتصم المفتش بالصمت لحظةً ، ثم اجاب وهو يدفىء عقب قدمـه

عند باب الموقد :

– « في ما يبدو . »

وتابع ، من بين اسنانه ، متحدثا الى رباط عنقه اكثر منه متحدثاً الى ماريوس :

– « ينبغي ان يكون ثمة شيء من « المعلّم مينيت » في ذلك المكان . »

واذهلت هذه الكلمة ماريوس .

وقال :

– « المعلم مينيت . الحقّ اني سمعتُ من يلفظ هذه الكلمة . »

وروى للمفتش الحوار الذي دار بين الرجل ذي الشعر الطويل والرجل ذي اللحية ، وسط الثلج ، وراء جدار شارع الـ « بيتي بانكييه » .

وغمغم المفتش :

– « ان صاحب الشعر الطويل هو بروجون ، من غير شك ، وان صاحب اللحية هو دومي ليبار المعروف بـ « دو ميار » من غير شك ايضاً . »

كان قد خفض بصره ، من جديد ، وانشأ يفكر .

– « اما الأب فلان فعندي ريب في حقيقته . لقد احرقتُ معطفي هناك . انهم يضرمون كثيراً من النار في تلك المواقد اللعينة . رقم ٥٠ – ٥٢ ؛ ملك غوربو العتيق . »

ثم نظر الى ماريوس :

– « الم ترَ غير هذا الرجل الملتحي وذلك الرجل الطويل الشعر ؟ »

– « رأيت بانشو ايضاً . »

– « ألم ترَ ضرباً من الشابّ المفرط في الاناقة يحوم متلصّصاً هناك ؟ »

— « لا . »

— « وهل رأيت كومةً كبيرة ضخمة غليظة مثل الفيل في « حديقة النبات » ؟

— « لا . »

— « حسن . ألم ترَ ايضاً رجلاً خبيثاً يبدو وكأنه مهرّج تنتهي لمّته المستعارة بذيل معصوب بشريطة حمراء ؟ »

— « لا . »

— « أما الرابع ، فانّ أحداً لا يراه ، حتى أعوانه ومستخدَموه وعملاؤه انفسهم . فليس غريباً ان لا تقع عليه عيناك .. »

فتساءل ماريوس :

— « لا . ولكن ما هي هذه المخلوقات كلها ؟ »

فأجابه المفتش :

— « ومن جهة اخرى ، فليست هذه الساعة ساعتهم . »

واستغرق في صمته ، كرة ثانية ، ثم اردف :

— « رقم ٥٠ — ٥٢ . أنا أعرف الكوخ . من المستحيل ان نختبيء في الداخل من غير ان يلمحنا الفنانون ، وعندئذ يغادرون المكان ويلغون المسرحية . إنهم حييّون الى هذا الحد ! إن الجمهور يُوبكهم . أنا لا أريد شيئاً من هذا ؛ انا لا أريد شيئاً من هذا . إني اريد ان أسمعهم يغنّون ، وأن اجعلهم يرقصون . »

حتى اذا انتهى هذا الحوار ، التفت الى ماريوس وسأله ناظراً اليه نظراً موصولاً :

— « هل ستخاف ؟ »

فقال ماريوس :

— «ممّ ؟ »

— « من هؤلاء الرجال ؟ »

فاجاب ماريوس :

— « انا لن اخاف اكثر مما ستخاف أنت ! »

وإنما قال ذلك في قسوة ، وكان قد بدأ يلاحظ ان جاسوس الشرطة هذا لم يوجّه اليه حتى الان لفظة « سيدي » .

وحدّق المفتش الى ماريوس تحديقاً أشدّ ، وتابع كلامه في مهابة مُحكَمَة :

— « انت تتكلم الآن مثل رجل شجاع ، ومثل رجل نزيه . إن الشجاعة لا تخشى الجريمة ، وان النزاهة لا تخاف السلطان . »

وقاطعه ماريوس قائلاً :

— « هذا حسن جداً ، ولكنْ ما الذي سوف تعمله ؟ »

فاكتفى المفتش بمجرد القول :

— « إن سكان ذلك البيت يملكون مفاتيح عمومية تمكّنهم من دخوله ليلاً . ولا ريب في ان عندك مفتاحاً من هذا النوع . » .

فقال ماريوس :

— « نعم . »

— « أهو معك الان ؟ »

— « نعم . »

فقال المفتش :

— « أعطني اياه . »

وأخرج ماريوس مفتاحه من جيب صدرته ، وقدّمه الى المفتش ، مضيفاً :

— « اذا كنت تثق بي ذهبتَ الى هناك باكمل السلاح . »

والقى المفتش على ماريوس نظرةً كمثل تلك النظرة التي يجدر بفولتير ان يلقيها على عضو ريفيّ من اعضاء الاكاديمية الفرنسية اقترح عليه قافية من القوافي . وفي حركة واحدة ، أقحم يديه الاثنتين — وكانتا هائلتين — في جيبي معطفه الواسعين الى حد بعيد ، وأخرج مسدسين فولاذيين

صغيرين من النوع المعروف باللكمة . ثم إنه قدّمهما الى ماريوس وقال في سرعة وفي إيجاز :

— « خذ هذين . إرجع الى المنزل . إختبيء في غرفتك . دعهم يعتقدون انك قد خرجت . إنهما مشحونان . في كل منهما رصاصتان . راقبهم جيداً . هناك ثغرة في الجدار ، كما قلت لي . إن الرجال سوف يُقبلون . دعهم يتقدمون قليلاً . وحين تقدّر ان المسألة بلغت حد الخطورة ، وأن الوقت قد حان لتعطيلها ، أطلِق رصاصةً . لا تتعجّل كثيراً . أما البقية فعليّ . طلقة مسدس في الهواء ، نحو السقف ، في ايما جهة . ولكني اوصيك قبل كل شيء بأن لا تتعجّل . إنتظر حتى يشرعوا في الأجراء . أنت محام . وانك لتعرف معنى هذا . »

واخذ ماريوس المسدسين الصغيرين ووضعهما في جيب سترته الجانبيّ .

فقال المفتش :

— « إنهما مُحدثان حَدبَةً ، على هذا الشكل . إنهما يبدوان للعيان . ضعهما في جيبي صدرتك . »

وخبأ ماريوس المسدسين الصغيرين في جيبي صدرته .

واضاف المفتش :

— « والآن ، لم يعد ثمة دقيقة واحـــدة يمكن ان تُضيَّع . كم الساعة ؟ الساعة الثانية والنصف . الموعد الساعة السابعة ؟ »

فقال ماريوس :

— « الساعة السادسة . »

وتابع المفتش :

— « عندي وقت كافٍ ، ولكنْ ليس عندي غير الكفاية . حذار ان تنسى شيئاً مما قلته لك . بَنْغ ! طلقة مسدس . »

فأجابه ماريوس :

— « كن مطمئناً . »

وفيما كان ماريوس يضع يده على مزلاج الباب ابتغاء الخروج ، صاح به المفتش :

– « بالمناسبة ، اذا احتجت اليّ بين فينةٍ وفينة فتعال او أرسل احداً الى هنا . وعندئذ اسأل عن المفتش جافير . »

١٥
جوندريت يتبضّع

وبعد بضع لحظات ، حوالى الساعة الثالثة ، اتفق ان اجتاز كورفيراك بشارع موفتارد يصحبه بوسوويه . كان الثلج قد تضاعف وملأ الارجاء . وكان بوسوويه على وشك ان يقول لكورفيراك :

– « إن رؤية رقاقات الثلج هذه كلها تسقط ، لتخيلُ الى المرء ان ثمة أسراباً من الفراشات البيض في السماء . »

وفجأة وقعت عين بوسوويه على ماريوس ، الذي كان يصعّد في الشارع نحو باب المدينة ، وقد طفَتْ على وجهه سيماء غريبة .

وصاح بوسوويه :

– « انظر ! ماريوس ! »

فقال كورفيراك :

– « لقد رأيته . لا تكلّمه . »

– « لماذا ? »

– « إنه مشغول . »

– « بماذا ? »

– « الا ترى كيف يبدو ? »

– « كيف ? »

– « إنه يبدو وكأنه يتبع شخصاً ما . »

فقال بوسوويه :

– « هذا صحيح . »

واضاف كورفيراك :

– « وانظر ايّ نظراتٍ غرامية يرسلها ! »

– « ولكنْ ، يا للشيطان ، ايّ شيء يتبع ؟ »

– « إنها قبعةٌ حبيبة ، ريفية ، منمقة ! إنه عاشق . »

ولاحظ بوسوويه :

– « ولكني لا أرى اية قبعة حبيبة ، أو ريفية ، أو منمقة ، في الشارع . ليس ثمة امرأة . »

فنظر كورفيراك وهتف :

– « إنه يتبع رجلًا ! »

وفي الحق أن رجلًا يعتمر بقبعة – رجلاً استطاعا أن يتبيّنا لحيته البيضاء على الرغم من أنه لم يكن يبدو منه غير ظهره – كان يسير على مسافة عشرين خطوة ، تقريباً ، أمام ماريوس .

وكان ذلك الرجل يرتدي سترة طويلة جديدة ، فضفاضة جداً ، وبنطلوناً رهيباً ممزقاً سوّده الوحل .

وانفجر بوسوويه ضاحكاً :

– « من هذا الرجل ؟ »

فاجاب كورفيراك :

– « هذا ؟ هذا شاعر . الشعراء مولعون بارتداء بنطلون تاجر من تجار جلد الارنب ، وسترة طويلة من سترات عضو في مجلس الاعيان الفرنسي . »

فقال بوسوويه :

– « دعنا نرى الى اين يذهب ماريوس . دعنا نرى الى اين يذهب

هذا الرجل . فلنتبعهما ، هيه ؟ »

فصاح كورفيراك :

– « بوسوويه ! إيغل دو مو ! أنت معتوه مدهش . انتبع رجلاً يتبع رجلاً ! »

وتابعا طريقهما .

كان ماريوس قد رأى جوندريت ، حقاً ، يجتاز بشارع موفتارد ، وكان يراقبه .

ومضى جوندريت لسبيله من غير أن يرتاب في أن عيناً كانت مركّزة عليه .

وترك شارع موفتارد ، ورآه ماريوس يدخل الى احد المواطن الاشدّ إرعاباً في شارع غراسيوز . ولبث هناك نحواً من ربع ساعة ، ثم انقلب الى شارع موفتارد . ووقف ليدخل دكاناً للادوات الحديدية والنحاسية وغيرها كانت قائمة في تلك الايام عند زاوية شارع بيير لومبار ؛ وبعد بضع دقائق رآه ماريوس يغادر الدكان وفي يده أزميل ضخم للحديد البارد ذو مقبض خشبي ابيض ما لبث ان خبأه تحت سترته الطويلة . وعند الطرف الأعلى من شارع الـ « بيتي جانتيي » انعطف الى اليسار ومشى مسرعاً الى شارع الـ « بيتي بانكييه » . كان الليل يهبط ، وكان الثلج الذي كفّ عن السقوط لحظةً قد شرع يسقط كرة اخرى . وكمنَ ماريوس عند زاوية شارع الـ « بيتي بانكييه » تماماً ، تلك الزاوية التي كانت مقفرة كشأنها دائماً ، ولم يتبع جوندريت الى أبعد من ذلك . وكان هذا من حسن الطالع ، اذ لم يكد جوندريت يصل الى الجدار المنخفض – حيث سبق لماريوس ان سمع الرجل ذا الشعر الطويل والرجل ذا اللحية يتحدثان – حتى استدار ، واستيقن أن احداً لم يتبعه ولم يرَه ، ثم جاوز الجدار بخطوة واسعة ، واختفى .

وكانت الارض الواسعة التي يحيط بها ذلك الجدار تتصل بالفناء الخلفي

لمؤجر عربات سابقٍ ذي شهرة رديئة ، مؤجر كان قد أفلس ، ولا تزال تحت سقائفه بضع عربات عتيقة .

وبدا لماريوس ان من الخير أن يفيد من غيبة جوندريت فينطلق الى البيت . والى هذا ، فقد كانت العتمة تشتدّ ؛ فكلّ مساء ، كان من دأب « مام بوغون » لدنْ خروجها لغسل الاطباق في المدينة ان توصد باب البيت ، فهو مغلق دائماً عند الزوال . وكان ماريوس قد أعطى مفتاحه الى مفتش الشرطة . واذن فقد كان من الضروريّ ان يُسرع .

كان المساء قد اقبل ، وكان الليل قد أطبق على الكون أو كاد . ولم يبقَ في الأفق أو في السماء كلها غير نقطة واحدة مضاءة بالشمس ؛ وكانت تلك النقطة هي القمر .

كانت ترتفع حمراءَ خلف قبة « لا سالبيتريير » المنخفضة .

ورجع ماريوس الى رقم ٥٠ - ٥٢ في خطىً واسعة . كان الباب لا يزال مفتوحاً حين وصل الى البيت . وارتقى السلم على رؤوس اصابعه وتسلّل في محاذاة جدار الرواق حتى غرفته . وكان هذا الرواق ، كما نذكر ، مطوّقاً من جانبيه بالعلالي التي كانت شاغرةً كلّها ، آنذاك ، ومعدّةً للتأجير . وكان من عادة « مام بوغون » أن تترك الابواب مفتوحة . وفيما كان ماريوس يمرّ باحد هذه الابواب خالَ انه لمح في الحُجيرة الفارغة اربعة رؤوس لا تبدي حراكاً ، رؤوس لم تكن لتبدو على نحو باهت إلا بفضل بقية من ضوء النهار كانت تمرّ من خلال النافذة الصغيرة . واذ كان ماريوس راغباً في ان لا يراه أحد ، فأنه لم يحاول أن يرى . ووفّق الى دخول غرفته من غير ان يلمحه أحد ، ومن غير أن يُحدث ضجةً ما . كان الوقت قد حان. وبعد لحظة سمع « مام بوغون » تخرج ، وتغلق باب البيت .

١٦

وفيه سنجد من جديد تلك الاغنية ذات اللحن الانكليزي دارجة عام ١٨٣٢

وجلس ماريوس على سريره . لعل الساعة كانت الخامسة والنصف . إن ثلاثين دقيقة ليس غير تفصله عما سوف يحدث . وسمع شرايينه تنبض كما يسمع المرء تكتكة الساعة في الظـــلام . وفكر في ذلك الزحف المزدوج الذي كان يجري في تلك اللحظة وسطَ الدجنّة : الجريمة تتقدم من ناحية ، والعدالة تتقدم من ناحية . ولم يعترهِ الخوف ، ولكنه لم يستطع ان يفكر ، من غير ان تأخذه شبه رعدة ، في الاشياء الـــتي توشك ان تقع . لقد بدا له ، شأن جميع اولئك الذين يُلمّ بهم حادث مفاجيء مذهل ، أن ذلك النهار كله لم يكن إلا حُلماً . ولكي لا يقع في نفسه أنه فريسة كابوس من الكوابيس ، تعيّن عليه ان يستشعر برودة المسدسين الفولاذيين الصغيرين في جيبي صدرتهِ .

كان الثلج قد كف عن السقوط . وكان القمر ، وقـــد تعاظم إشراقه ، ينجو بنفسه من الضباب . وامتزج ضياؤه بالاشعة البيضاء المنعكسة عن الثلج المتراكم ، فخلع على الغرفة مظهراً غَسَقياً .

كان في وكر جوندريت ضوء . ورأى ماريوس الى ثغرة الجدار تلتمع بنور أحمر بدا في عينيه مضرجاً بالدماء .

وكان على مثل اليقين من ان هذا الضوء لا يمكن أن يكون منبعثاً من شمعة ما . وعلى اية حال ، فلم تكن في غرفة جوندريت وأسرته أيما حركة . إن احداً لم يكن يتحرك هناك ، وإن احـداً لم يكن يتكلم . لم يكن ثمة نفَس . كانت السكينة مثلوجة وعميقـــة . ولولا ذلك الضوء اذن لكان خليقاً به أن يعتقد أنه في جوار قبر .

ونزع ماريوس نعليه ، في رفق ، ودفعهما تحت سريره .

وانقضت بضع دقائق . وسمع ماريوس البـــابَ الادنى يدور على رزّاته . وارتقت السلّم خطىً ثقيلة سريعة ، واجتـازت الرواق ؛ ورُفع مزلاج الرواق في صخب . كان جوندريت هو الذي دخل .

وفجأةً ، ارتفعت اصوات عديدة . كانت الاسرة كلها في العلّية . بيد أنها لزمت الصمت في غيبة ربّ البيت فعْلَ الذؤيبات في غيبة الذئب .

وقال :

— « هذا أنا . »

وعوّت الفتاتان :

— « مساء الخير ، يا أبانا الرائع ! »

فقالت الأم :

— « والآن ؟ »

فأجاب جوندريت :

— « كل شيء يسير على نحو ساحر . ولكن قدميّ باردتان مثل قدمي كلب ـ حسن ، هذا هو المطلوب . لقد لبستما . يجب ان تكونا قادرتين على إيحاء الثقة . »

— « نحن مستعدتان للخروج . »

— « حذار ان تنسيا شيئاً مما قلته لكما ! سوف تعملان كل شيء على احسن وجه ، اليس كذلك ؟ »

— « كن مطمئناً . »

فقال جوندريت :

— « لأنه .... »

ولم يتمّ جملته .

وسمعه ماريوس يضع شيئاً ثقيلاً على الطاولة ، ولعله أن يكون ذلك

الازميل الذي اشتراه .

وقال جوندريت :

— « آه ، ها ! هل أكلتِ هنا ؟ »

فأجابت الأم :

— « نعم . لقد أكلت ثلاث حبات كبيرة من البطاطا مع شيء من الملح . لقد أفدتُ من وجود النار فطبختها عليها . »

فقال جوندريت :

— « حسن . غداً ، سآخذك لتتناولي الطعام معي . سوف يكون على المائدة بطة وتوابعها . ولسوف تتعشين مثل شارل العاشر . أيجري كل شيء على ما يرام ؟ »

ثم اضاف ، خافضاً صوته :

— « لقد نُصِبَت مصيدة الفيران . والقطط على اتم الاستعداد . »

وخفض صوته اكثر من ذي قبل ، ايضاً ، وقال :

— « ضعي هذا في النار . »

وسمع ماريوس حسيس فحم كانت يدٌ ما تصدمه بكلاّبة صغيرة او بأداة حديدية ما . وتابع جوندريت :

— « هل شحّمتِ رزّات الباب ، بحيث لا تُحدث ايّ صوت ؟ »

فأجابت الأم :

— « نعم . »

— « كم الساعة ؟ »

— « السادسة تقريباً . إن ساعة سان ميدار قد أعلنت النصف بعد الخامسة منذ لحظة فقط . »

فقال جوندريت :

— « يا للشيطان ! يجب ان تخرج الفتاتان وتقوما بالحراسة . تقدّما الى هنا ، ايتها البنتان ، واستمعا اليّ . »

ودار همسٌ .

وارتفع صوت جوندريت كرة اخرى !

— « هل خرجت بورغون ? »

فأجابت الأم :

— « نعم . »

— « اواثقة انتِ من انه لا يوجد أحد في غرفة جارنا ? »

— « إنه لم يرجع ، اليومَ ، بعد ، وانت تعلم ان هذا هو الموعد الذي يتناول فيه عشاءه . »

— « اواثقة انتِ ? »

— « واثقة . »

فأجاب جوندريت :

— « سيان . لا ضرر في الذهاب والتثبت من وجوده في الغرفة او عدمه . خذي الشمعة ، يا ابنتي واذهبي . »

ونزل ماريوس عن الخزانة واثباً على يديه وركبتيه ، ودبَّ تحت سريره من غير أن يحدث ضجةً ما .

ولم يكد يختبىء ، حتى لمح ضوءاً ينبعث من خلال شقوق الباب . وصاح صوت :

— « بابا ! لقد خرج . »

وادرك ان الصوت كان صوت الفتاة الكبرى .

وسألها الأب :

— « هل دخلت الغرفة ? »

فأجابت الفتاة :

— « لا . ولكنْ لمّا كان مفتاحه في الباب فمن الواضح انه قد خرج . »

فصاح الاب :

— « مهما يكن ، ادخلي الى الغرفة . »

وفُتح الباب ، ورأى ماريوس الفتاة الطويلة تدخل وفي يدها شمعة . كان يبدو عليها ذلك المظهر الذي تبدّت فيه ذلك الصباح ، وإن تكن الآن ، وعلى ضوء هذه الشمعة ، ادعى الى الهول .

وتقدمت نحو السرير مباشرةً . وعبرتْ بماريوس لحظة من الحَصَر النفسي لا سبيل الى تصويرها . ولكنْ كان ثمة مرآة مسمّرة على الجدار ، قرب السرير ؛ وانما كانت الفتاة تتجه نحو تلك المرآة . ورفعت نفسها على رؤوس اصابعها ، ونظرت الى وجهها فيها . وسُمِع صوت حدائد عتيقة في الغرفة المجاورة .

وملّست شعرها براحة يدها ، وابتسمت أمـــام المرآة منشدةً في خلال ذلك بصوتها القَبْريّ المهشّم :

« إن حبنا قد دام اسبوعاً ،
ولكن لحظات السعادة قصيرة !
ولأن يهيم المرء حباً ثمانية ايام شيء يستحق الجهد !
ان زمان الحب ينبغي ان يستمر الى الابد !
ينبغي ان يستمرّ الى الأبد ! ينبغي ان يستمر الى الأبد . »

وفي غضون ذلك ، كان ماريوس يرتعد . لقد بدا له ان من المتعذر ان لا تسمع أنفاسه .

ومضت نحو النافذة ، ونظرت الى الخارج ، متحدثةً في صوت عال على طريقتها تلك ، نصف البلهاء .

وقالت :

— « ما أبشع باريس حين ترتدي قميصاً أبيض ! »

ورجعت الى المرآة ، وعاودت القيام بحركاتها المتكلفة ، وتأملت في طلعتها الأمامية ، ثم في طلعتها الجانبية .

وصاح الأب :

– « حسناً ، ما الذي تفعلينهُ الان ؟ »

فاجابت ، مواصلةً تسوية شعرها :

– « إني انظر تحت السرير والأثاث . ليس هناك أحد . »

فهرّ الأب :

– « ايتها البلهاء . ارجعي الى هنا في الحال ! ينبغي ان لا نضيع دقيقة واحدة ! »

فقالت :

– « آنا آتية ! انا آتية ! إن المرء لا يجد متسعاً لشيء في كوخه الحقير ! »

وهمهمت :

« لقد تركتني لتذهب الى المجد ،
ان قلبي الحزين ليتبع خطاك حيثا اتجهتَ . »

وألقت نظرة اخيرة على المرآة ، وخرجت ، موصدةً الباب خلفها .

وبعد لحظة ، سمع ماريوس وقع اقدام الفتاتين الصغيرتين الحافيتين ، في الرواق ، وصوت جوندريت يصيح بها :

– « انتبها جيداً ! واحدة نحو باب المدينة ، والاخرى عند زاوية شارع الـ « بيتي بانكييه » . حذار ان ترفعا عيونكما عن باب المنزل دقيقةً واحدة . واذا رأيتما اقلّ شيء فسارعا الى هنا في الحال ! طيرا الى هنا طيراناً ! إن معكما مفتاحاً يمكّنكما من الدخول . »

ودمدمت البنت الكبري :

– « نقوم بالحراسة واقدامنا حافية في الثلج ! »

فقال الأب :

– « غداً سوف تنتعلان حذاءين حريريين بلون الخنفسة ! »

وهبطتا السلم ، وبعد بضع ثوانٍ أعلن صوتُ الباب السفليّ المنغلق أنهما قد غادرتا البيت .

وهكذا لم يبق في البيت غير ماريوس وجوندريت وزوجته ؛ ولعل الكائنات العجيبة التي لمحها ماريوس في الغسق وراء باب العليـة الشاغرة كانت هناك ايضاً .

١٧
كيف أُنفقت قطعة ماريوس النقدية ذات الفرنكات الخمسة

وقدّر ماريوس أنْ قد آن له ان يستعيد موقعه القديم في مرصده . وفي غمضة عين ، وفي خفة الشباب ، كان قرب ثغرة الجدار .

ونظر .

كانت غرفة جوندريت تتكشّف عن مظهر فريد ، واهتدى ماريوس الى تفسير للضوء الغريب الذي سبق له أن لاحظه . كانت شمعة تحترق في شمعدان زنجاريّ اللون ، ولكنْ لم تكن هي التي اضاءت الغرفة في الواقع . كان الوكر كله مضاءً بالوهج المنبعث من كانون حديدي ضخم ملقىً في الموقد ، مملوءٍ بفحم مشتعل ؛ وهو الكانون الذي أعدتـه جوندريت الزوجة ذلك الصباح . كان الفحم متأججاً ، وكان الكانون أحمر حامياً . وتراقصت شعلة زرقاء فوقه ، فساعدت على الكشف عن شكل الازميل الذي اشتراه جوندريت من شارع « بيير لومبار » ، والذي كان يُحمَى وسط الجمرات . وفي زاوية قرب الباب كانت كومتان بدتا وكأن احداهما كومة حدائد عتيقة ، والاخرى كومة حبـال ،

وقد أعدتا على ما يظهر لاستعمالٍ مرتقَب . وكان ذلك كله خليقاً بأن يحمل المرء الذي لم يطلع على شيء مما كان مُهيّأً هناك ، على ان يتردد بين فكرة مشؤومة جداً ، وفكرة بسيطة جداً . كانت الغرفة ، وقد أضيئت على هذا النحو ، أشبه بدكان حداد منهـا بفم الجحيم ؛ ولكن جوندريت اتخذ في ذلك الوهج مظهر الشيطان اكثر مما اتخـــذ مظهر الحداد .

وكانت حرارة الجمرات قوية الى حد جعل الشمعة التي على الطـاولة تذوب من ناحية الكانون ، وتُستهلك على نحو منحرف . وكان مصباح نحامي عتيق مظلمٌ جديرٌ بديوجين وقد تحوّل الى كارتوش * ، ينهض فوق الموقد .

وأرسل الكانون ، الذي وُضع في الموقـــد نفسه ، قرب الجمرات الموشكة ان تخمد ، دخانَهُ الى مدخنة الموقد ، ولم ينشر رائحة ما .

وألقى القمر ، المضيء من خلال الواح النافذة الزجاجية الاربعة ، بياضَهُ على العلية الارجوانية المتوهجة : وبدا ذلك لعقـــل ماريوس الشاعريّ ، الحالم حتى في لحظة العمل ، مثل فكرة سماوية تمتزج بكوابيس أرضية شائهة .

ونفذ الى الغرفة ، من خلال اللوح الزجاجي المكسور ، نسيمٌ ساعد على تبديد الرائحة وإخفاء الكانون .

كانت مغارة جوندريت ، اذا ذكر القارىء ما قلناه عن بيت غوربو العتيق ، قد اختيرت اختياراً بارعاً لتكون مسرحاً لاعمال الظلمة والعنف ، ولاخفاء جريمة من الجرائم . كانت اكثر الغرف تقهقراً في اكثر البيوت انعزالاً في اكثر شوارع باريس إقفـــاراً . ولو ان الكمين لم يكن معروفاً ، اذن لكان خليقاً به أن يُخترَعَ هناك .

كان عمق بيت بكامله وجمهرة من الغرف غير المؤجرة تفصل هـــذا

---

* زعيم عصابة من اللصوص سبق التعريف به .

الوكر عن الجادة ، وكانت نافذته الوحيدة تطـل على اراض واسعة مهملة مطوّقة بالاسوار والاسيجة المؤلفة من أوتاد مغروزة .

وكان جوندريت قد اشعل غليونه ، وجلس على الكرسي المنزوع قشها ، وأنشأ يدخن . كانت زوجته تتحدث اليه في صوت خفيض .

ولو كان ماريوس كورفيراك ، يعني لو كان واحداً من اولئك الذين يضحكون لكل مناسبة من مناسبات الحياة اذن لانفجر ضاحكاً حين وقعت عينه على هذه المرأة . كانت تعتمر بقبعة سوداء مريشة تشبه الى حدٍّ ما قبعات الرسل الحاملين نبأ اعلان الحرب كما بدوا عند مسح الملك شارل العاشر ، وكانت قد ألقت على تنورتها المسرودة شالاً عريضاً جداً من نسيج صوفيّ مربع ، وانتعلت الحذاء الرجالي الذي ازدرته ابنتها ذلك الصباح . وكانت تلك الزينة هي التي انتزعت من جوندريت هذه الصيحة : « **حسن ! انت في أكمل حلة ! لقد أحسنت صنعاً ! يجب ان تكوني قادرةً على الايحاء بالثقة !** »

أما جوندريت فلم يكن قد نزع المعطف الجديد ، الواسع جداً بالنسبة اليه ، والذي كان مسيو لوبلان قد أعطاه اياه . وظل زيه يكشف عن ذلك التغاير بين السترة والبنطلون الذي ألّف في عيني كورفيراك المثلَ الأعلى للشاعر .

وفجأة رفع جوندريت صوته :

— « وبالمناسبة ! أنا افكر في ذلك . ما دامت حالة الجو هكذا ، فسوف يجيء في عربة اجرة . أضيئي المصباح ؛ خذيه ؛ واهبطي السلم . ولسوف تبقين هناك خلف الباب الادنى . ولحظةَ تسمعين العربةَ تقف ، فعندئذ تفتحين الباب في الحال ، فيصعد ، فتضيئين له السلم والرواق ، حتى اذا دخل الى هنا ترجعين في الحال ، فتدفعين الاجرة الى السائق ، وتسرّحين العربة . »

فسألته المرأة :

— « والمال ؟ »

فبحث جوندريت في جيوب بنطلونه ، وناولها خمسة فرنكات .

فصاحت :

— « ما هذا ؟ »

فأجابها جوندريت في وقار :

— « إنه الملك الذي اعطانا جارنا اياه ، هذا الصباح . »

ثم اضاف :

— « أتعرفين ؟ يجب أن نضع هنا كرسيين . »

— « لماذا ؟ »

— « لكي يُجلَس عليهما . »

واستشعر ماريوس رعدةً تسري في أوصاله حين سمع المرأة تجيب بهذا الجواب الهادىء :

— « وحق الأله ! سوف اجيء بكرسي جارنا . »

وفي حركة سريعة ، فتحت باب الوكر ، وخرجت الى الرواق .

وليس من ريب في أنه لم يكن لدى ماريوس متسع من الوقت للوثوب عن الخزانة والاختباء تحت السرير .

وصاح جوندريت :

— « خذي الشمعة . »

فقالت :

— « لا . ذلك يربكني . إن عليّ أن احمل كرسيين . والقمر بدرٌ على كل حال . »

وسمع ماريوس يد « جوندريت الأم » الثقيلة تتحسّس مفتاح غرفته في الظلام . وفُتح الباب . ووقف مسمَّراً في مكانه بالتوجّس والذهول .

ودخلت المرأة .

وأدخلت كوةُ العلية شعاعاً من اشعة القمر بين صفحتين صغيرتين من

الظلمة . وكانت احدى هاتين الصفحتين تحجب الجدار الذي استند اليه ماريوس حجباً كاملاً ، فاذا به – ماريوس – يختفي عن العيان .

ورفعت جوندريت الأم عينيها ، ولم ترَ ماريوس ، واخـــذت الكرسيين ، وكانا الكرسيين الوحيدين اللذين يملكهما ماريوس ، وخرجت ، مغلقةً الباب خلفها في صخب .

لقد رجعتْ الى الوكر :

– « ها قد جئتك بالكرسيين . »

فقال الزوج :

– « وهو ذا المصباح . إهبطي السلم في الحال . »

ونزلت عند أمره لتوّها ؛ وغودر جوندريت وحيداً .

ووضع كلًّا من الكرسيين عند جانب من الطاولة ، وقلب الازميل في النار ، ووضع ستاراً عتيقاً أمام الموقد فحجب الكانون ، ثم مضى الى الزاوية التي نهضت فيها كومة الحبال ، وانحنى وكأنما يريد ان يفحص شيئاً . وادرك ماريوس عندئذ ان ما حسبه كومة شائهـــة كان في الواقع سلّماً حبالية ، متقنة الصنع ، ذات درجات خشبية ، وكلاّبتين ضخمتين تُعَلَّق بهما .

هذه السلّم ، وبضع آلات ضخمة – هي كتلٌ حقيقية من الحديد مطروحة فوق ركام الحدائد العتيقة القائم خلف الباب – لم تكن في وكر جوندريت عند الصباح ، فليس من ريب في أنها حُملت الى هناك بعد الظهر ، خلال غيبة ماريوس .

وقال ماريوس في ما بينه وبين نفسه :

– « هذه هي ادوات الحداد . »

ولو ان ماريوس كان على علم اوسع بهذا الضرب من المعرفة إذن لتبيّن في ما حسبه ادوات حدّاد بعضَ الادوات القادرة على ان تخلع قفلًا او تفتح باباً بكلاّبة ، وأدوات اخرى قادرة على القطْع والاحتزاز ،

وهما نوعا الادوات المشؤومة اللذان يدعوهما اللصوص les cadets و les fauchants

كان الموقد ، والطاولة ، والكرسيان تجاه ماريوس مباشرةً . أما الكانون فكان محجوباً . وكانت الغرفة مضاءةً ، الآن ، بالشمعة ؛ فاذا بأتفه الاشياء التي على الطاولة او على الموقد يُلقي ظلاً كبيراً . كانت آنية ماء مكسورةٌ تقنّع نصف جدار من الجدران . وكان يرين على تلك الغرفة هدوء رهيب ينذر بالخطر على نحو لا سبيل الى وصفه . لقد كان في استطاعة المرء ان يستشعر اقتراب شيء مخيف .

وكان جوندريت قد ترك غليونه ينطفيء — وتلك علامة تؤذن ، من غير شك ، باستغراقه البالغ في التفكير — وكان قد رجع وجلس . وجعلت الشمعة طرفي وجهه وزواياه الضارية تبرز على نحو يلفت النظر . وكان ثمة تغضّن في حاجبيه وانفتاح مفاجيء في يده اليمنى ، وكأنما كان يجيب عن النصائح الاخيرة التي وجهها اليه حوار باطنيّ كالح . وفي احدى هذه الاجابات الغامضة التي كان يردّ بها على نفسه ، سحب درج الطاولة نحوه سحباً عنيفاً ، وأخرج مدية مطبخ طويلة كانت مخبوءة هناك ، وجرّب شفرتها على ظُفره . حتى اذا تمّ له ذلك ، أعاد المدية الى الدرج ، وأغلقه .

أما ماريوس فأمسك بالمسدس الصغير الذي كان في جيب صدرته الايمن ، وأخرجه منه ، وضغط على نابضه استعداداً لاطلاق النار .

واحدث المسدس ، عند ذلك ، صوتاً صغيراً واضحاً حاداً .

واجفل جوندريت ، ونهض عن كرسيه نصف نهضة .

وصاح :

— « مَنْ هناك ؟ »

وحبس ماريوس انفاسه . وأصغى جوندريت لحظة . ثم شرع يضحك ، قائلاً :

— « يا لي من مجنون ! ان الجدار الحاجز هو الذي قضقض على

تلك الشاكلة . »

وأبقى ماريوس المسدس الصغير في يده .

١٨
كرسيّا ماريوس يتواجهان

وفجأةً ، قلقلت ذبذبةُ ناقوس قصيّةٌ وحزونة زجاج النوافذ . لقد اعلنت « سان ميدار » الساعة السادسة .

وأتبع جوندريت كل دقة من تلك الدقات بإيماءة من رأسه . وعند الدقة السادسة ، اطفأ الشمعة بيديه .

ثم راح يذرع الغرفة ؛ وأصغى في الرواق ، ومشى ، ثم اصغى من جديد .

ودمدم :

— « شرطَ أن يجيء ! »

ثم انقلب الى كرسيه .

ولم يكد يعاود الجلوس حتى فُتح الباب .

كانت جوندريت الأم قد فتحته ، ووقفت في الرواق ، متكلفة ابتسامة تودّدية رهيبة أضيئت ، من ادني ، بأحد ثقوب المصباح القاتم . وقالت :

— « تفضل ، يا سيدي ! »

وكرر جوندريت ، وقد نهض في عجلة بالغة :

— « تفضل يا محسني ! »

وبرز مسيو لوبلان .

كانت تطفو على محياه طلاقة جعلته جليلاً على نحو فريد .

ووضع اربع ليرات ذهبية على الطاولة .

وقال :

- « مسيو فابانتو ، خذ هذه واستعن بها على دفع اجرة الغرفة وسدّ حاجاتك الملحّة . وفي المستقبل سأحاول ان اقدم اليك مبلغاً آخر . »

- « اثابك الله ، يا محسني الكريم ! » قال جوندريت ذلك ، واقترب من امرأته في سرعة وهمس :

- « سرّحي العربة ! »

وانسلّت من الغرفة ، فيما كان زوجها يُسرف في الانحناء احتراماً ، ويقدّم كرسياً الى مسيو لوبلان . وبعد لحظـــة ، رجعتْ وهمست في اذنه :

- « لقد تمّ ذلك . »

كان الثلج مـــا انفكّ يتساقط منذ الصباح عميقـــاً الى درجة جعلتهما لا يسمعان العربة حين وصلت ، ولا يسمعانها حين ولّت .

وفي غضون ذلك كان مسيو لوبلان قد جلس على الكرسي .

وكان جوندريت قد احتل الكرسي الآخر المقابل لمسيو لوبلان .

والآن ، يحسن بالقاريء ، لكي يكوّن فكرة عن المشهد الذي سوف يلي ، ان يتمثّل في مخيّلته ذلك الليل البـــارد ، وإقفارَ الـ « سالبيتريير » المغطى بالثلج ، الأبيض تحت ضياء القمر ، مثـــل كَفَنٍ هائل ، ومصـــابيحَ الشارع المضطربة الضوء ، ههنا وههناك ، المخضّبة هذه الجادّات الفاجعة ، وصفوفَ الدردار الاسود الطويلة ، وقد خلا الشارع أو كاد - على مدى ميل واحد - من عابر سبيل ، وغرِقَ بيت غوربو العتيق في أعمق ما اكتنفه من صمت وهول وظلمة ، وأضيئت علّية جوندريت الواسعة - في ذلك البيت ، روسطَ هذا الاقفار وتلك الدجنّة - بشمعة ليس غير ، وجلس في ذلك الوكر رجلان اثنان الى طاولة ، مسيو لوبلان هادئاً مطمئناً ، وجوندريت مبتسماً رهيبـــاً ،

وانزوت زوجته ، الذئبة الأمّ ، في زاوية ، وانتصب ماريوس خلفَ الجدار الحاجز ، محجوباً عن الانظار ، متيقظاً ، واعياً كل كلمة ، راصداً كل حركة ، مسدّداً عينيه الى الساعة ، قابضاً على المسدس الصغير بجمع كفّه .

والحق ان ماريوس لم يستشعر خوفاً ما . لقد أحسّ بالغيظ ليس غير . لقد شدّ على عقب المسدس ، فاستشعر الأمن والثقة . وقال في ذات نفسه : « سوف أوقف هذا النذل ساعةَ أشاء . »

وأحسّ ان البوليس كان يكمن ، غيرَ بعيد ، في مكانٍ ما ، في انتظار الاشارة المتفق عليها ، وأنه على اتمّ الاستعداد لأن يبسط ذراعه .

والى هذا ، فقد رجا أن يُلقي هذا الاجتماع الرهيب ، بين جوندريت ومسيو لوبلان ، بعض الضوء على كل ما كان تائقاً الى معرفته .

١٩
شواغل الأعماق المظلمة

لم يكد المقام يستقرّ بمسيو لوبلان حتى أدار عينيه نحو الفراشين الفارغين .

وتساءل :

— « كيف حال الجريح الصغيرة البائسة ؟ »

فأجاب جوندريت في ابتسامة محزنة ولكنها معترفة بالجميل :

— « سيئة . سيئة جداً ، يا سيدي الجليل . لقد اخذتها شقيقتها الكبرى الى الـ « بورب » لكي تضمدها . سوف تراهما . انهما ستعودان

بعد قليل .

— « إن مدام فابانتو تبدو لي أحسن جداً من ذي قبل ؟ » كذلك استأنف مسيو لوبلان كلامه ، مسدّداً بصره الى جوندريت الزوجة بزيّها المضحك ، وقد وقفت بينه وبين الباب ، وكأنما كانت تحرس المخرج ، وانشأت تحدّق اليه في وضعٍ مهدِّد ، وضعٍ يكاد يكون متحدّياً .

وقال جوندريت :

— « إنها تموت . ولكنك ترى ، يا سيدي ، ان تلك المرأة ذات شجاعة عظيمة . إنها ليست امرأة ؛ انها ثور . »

واذ تأثرت المرأة بهذا الاطراء ، اعترضته صائحةً في مثل دلال غولٍ أغدق عليه فيض من ثناء :

— « انت لطيف معي دائماً ، اكثر مما ينبغي ، يا مسيو جوندريت . »

فقال مسيو لوبلان :

— « جوندريت ! لقد حسبتُ ان اسمك فابانتو ؟ »

فسارع الزوج الى القول :

— « فابانتو أو جوندريت ! لقبُ فنّان ! »

وهزّ كتفيه لامرأته هزةً لم يرها مسيو لوبلان ، ثم اضاف في جرْس مفخّم ملاطِف :

— « آه ! لقد عشنا عمرَنا كله على وئام واتفاق ، أنا وهذه العزيزة المسكينة ! وايّ شيء يمكن أن يبقى لنا ، اذا فقدنا هذا ايضاً ؟ نحن منكودو الحظ جداً ، يا سيدي المحترم ! إنّ عندنا أذرعاً ، ولكنْ ليس عندنا عمل ! وإنّ عندنا شجاعة ، ولكن ليس عندنا شغل ! أنا لا ادري كيف تنظم الحكومة هذا ، ولكني أقسم بشرفي ، يا سيدي ، اني لست يعقوبياً ، يا سيدي ، ولست رجلاً محباً للشجار . أنا لا أضمر

لهم ايّ اذى ، ولكنْ لو كنتُ انا الوزراء لسارت الامور ، وأقسم لك بشرفي ، سيراً مختلفاً . خذ مثلاً اني اردت ان أُعلم ابنتيّ صناعة الصناديق الكرتونية . قد تقول لي : ماذا ؟ صناعة ؟ أجل ! صناعة ! صناعة بسيطة ! مورد رزق ! ايّ سقوط هو هذا ، يا محسني ! ايّ ذلّ ، بالنسبة الى من كان كما كنا نحن ! وا أسفاه ! لم يبقَ لنا من ايام الرخاء شيء ! لم يبق لنا غير شيء واحد : صورة زيتية أنا شديد التعلّق بها ، ومع ذلك فسوف اضطرّ الى التخلي عنها ، لأن علينا ان نعيش ! اجل ، ان علينا ان نعيش ! »

وفيما كان جوندريت يتحدث في اضطراب واضح لم يُنقص شيئاً من سيمائه الرصينة الذكية ، رفع ماريوس عينيه ، فلمح في مؤخرة الغرفة شخصاً لم يره من قبل . كان رجلٌ قد انسلّ الى هناك في خفة بالغة تعذّر معها على ايّ من الجماعة ان يسمع الباب يدور على رزّاته . وكان هذا الرجل يرتدي صدرةً صوفية بنفسجية مسرودة ، صدرة عتيقة ، بالية ، وسخة ، ممزقة ، فاغرة الفم عند كل ثنية من ثنياتها ، وبنطلوناً واسعاً من مخمل قطني ، وينتعل حذاء خشبياً . ولم يكن على جذعه قميص . كان عاريَ العنق ، عاريَ الذراعين مَوْشومهما ، وكان وجهه ملطّخاً بالسواد . وكان قد جلس في صمت ، طاوياً ذراعيه على السرير الاقرب . وإذ ظلّ خلف المرأة ، فلم يتبيّنْهُ ماريوس إلا في عسر .

وكان في ذلك الضرب من الغريزة المغناطيسية الذي يحذّر العين ما جعل مسيو لوبلان يلتفت لحظة التفت ماريوس تقريباً . ولم يتمالك ان يُبدي حركة تنمّ عن الدهش ، لم تَفُتْ جوندريت .

وصاح جوندريت ، وهو يزرّر سترته في لهجةٍ ملاطفة :

ـ « آه ، فهمتُ ! أنت تنظر الى معطفك . لكأنه مفصّل خصيصاً لي ، أُقسم لك ، لكأنه مفصّل خصيصاً لي ! »

فقال مسيو لوبلان :

– « مَن ذلك الرجل ؟ »

فأجاب جوندريت :

– « ذلك الرجل ؟ إنه جارنا . لا تُلقِ بالاً اليه . »

كانت لذلك الجار هيئة غريبة . وعلى اية حال ، فأن مصانع المنتجات الكيميائية تكثر في ضاحية سان مارسو . وان كثيراً من وجوه العمال الصناعيين لتتلطّخ بالسواد . وفوق ذلك ، فقد كان شخص مسيو لوبلان كله يُفصح عن ثقة ساذجة باسلة . واستأنف حديثه :

– « عفواً . ماذا كنت تقول لي ، يا مسيو فابانتو ؟ »

فأجابه جوندريت ، مسنداً مرفقيه الى الطاولة ، ومحدّقاً الى مسيو لوبلان بعينين ثابتتين رخصتين تشبهان عيني بُواء* ، قائلاً :

– « كنت أقول لك ، ياسيدي ، ويا نصيري العزيز ، كنت اقول لك ان عندي لوحة زيتية اودّ ان ابيعها . »

وسُمعت لدى الباب ضجة ضئيلة . ودخل رجلٌ ثان ، وجلس على السرير قرب جوندريت المرأة . كان عاريَ الذراعين ، مثل الرجل الأول ، وكان على وجهه قناع من الحبر أو من السُّخام

وعلى الرغم من ان ذلك الرجل انسلّ ، بالمعنى الحقيقي للكلمة ، الى الغرفة انسلالاً ، فان ذلك لم يمنع مسيو لوبلان من أن يلمحه :

وقال جوندريت :

– « لا تشغل نفسك بهم . إنهم من أهل المنزل . كنتُ أقول لك ، اذن ، انه قد بقيت عندي لوحة زيتية ذات قيمة . هي ذي ، ياسيدي ، انظر . »

ونهض ، ومضى الى الجدار الذي انتصبت في ادناه تلك اللوحة

* Boa وهي ضرب من الافاعي .

المؤطَّرة التي اشرنا اليها من قبل ، وادارها وجهاً لظهر ، مُبقياً اياها مستندةً الى الجدار . كانت في الواقع شيئاً يشبه لوحة فنية ، شيئاً اضاءته الشمعة على نحو باهت . ولم يستطع ماريوس ان يتبيّن شيئاً منها بعد ان حالت وقفة جوندريت ما بينه وبين اللوحة . غير انه لمح تصويراً غليظاً غير متقن ، وشبه شخصية رئيسية لوّنت بالاسلوب الفجّ الصخّاب الذي نألفه في ستائر المسرح المتجول ، والرسوم التي تُحلّى بها الحُجب الفاصلة (باروافان) .

وسأله مسيو لوبلان :

— « ما هذه ؟ »

فهتف جوندريت :

— « لوحة بريشة فنان كبير . صورة ذات ثمن غالٍ ، يا محسني ! أنا اتعلّق بها كتعلقي بابنتيّ ؛ إنها تذكّرني باشياء واشياء ! ولكني قلتُ لك ، ولستُ أناقض ذلك ، إنني من البؤس بحيث اجدني مضطراً الى التخلّي عنها ... »

وسواء أكان ذلك بحكم المصادفة أم بسبب من ان الارتياب بدأ يُداخله فيما كان يدرس الصورة ، اتجه بصر مسيو لوبلان نحو مؤخرة الغرفة . كان ثمة ، الآن ، اربعة رجال : ثلاثة جالسون على السرير ، وواحد واقف قرب إطار الباب . كان كلٌّ منهم عاري الذراعين ، جامداً لا يتحرك ، ملطّخ الوجه بالسواد . كان احد الذين جلسوا على السرير مستنداً الى الجدار ، مغمض العينين ، حتى ليحسب المرء أنه نائم . وكان هذا الرجل هرماً ، وكان شعره الأشيب رهيباً فوق وجهه الاسود . أما الاثنان الآخران فقد بدت عليهما أمارات الشباب . كان احدهما ذا لحية ، وكان الآخر ذا شعر طويل . ولم يكن أيٌّ منهما ينتعل حذاء . إن اولئك الذين لم يكن عندهم احذية من نسيج كانوا حفاة .

ولاحظ جوندريت ان عين مسيو لوبلان كانت مركزة على اولئك الرجال ، فقال :

— « إنهم اصدقائي . وهم يسكنون في جوارنا . إنهم سود الوجوه لأنهم يعملون في الفحم . إنهم دكاترة مداخن . لا تشغل بالك بهم ، يا محسني . واشترِ لوحتي الفنية . أشفِقْ على شقائي . انا لن ابيعك اياها بثمن غال . بكم تقدّرها ? »

فقال مسيو لوبلان ، محدقاً النظر الى وجه جوندريت مثل رجـــل يأخذ حِذره :

— « ولكنّ هذه اشبه بلافتة حانة . انها تساوي ثلاثة فرنكات تقريباً . »

فاجاب جوندريت في هدوء :

— « أتحمل حافظة نقودك ? إني اكتفي بألف ريال . »

فنهض مسيو لوبلان واقفاً ، واسند ظهره الى الجدار ، واجال بصره في الغرفة على نحو خاطف . كان جوندريت الى يساره ناحيةَ النافذة ، وزوجته والرجال الاربعة الى يمينه ناحيةَ الباب . ولم يتحرك الرجال الاربعة ، بل لم يبدُ عليهم ما يؤذن انهم رأوه . وكان جوندريت قد عاد يتحدث في لهجة شاكية وقد عصف الاهتياج بعينيه وغلبت على صوته نبرة فاجعة الى درجة كان خليقاً بها ان تجعل مسيو لوبلان يعتقد ان هذا الذي امامه ليس غير رجل ذهب الشقاء بصوابه .

وقال جوندريت :

— « اذا لم تشترِ لوحتي الفنية ، ايها المحسن العزيز ، بقيتُ من غير مورد ، ولكن يكون امامي إلا ان القي بنفسي في النهر . آه ، حين افكّر باني اردتُ ان اعلّم بنتيّ صنـــع الورق المقوّى نصف الرقيق ، الورق المقوى الذي تُعمل منه صناديق الهدايا ! حسناً ، يجب ان تكون عندهما طاولة في ادناها لوح خشبيّ لكي لا يسقط الزجاج

على الارض ؛ يجب ان يكون عندهما كانون مصنوع خصيصاً لهـذا الغرض ، وقدر ذات ثلاثة أقسام لمختلف درجات القوة التي ينبغي ان يكون الغراء عليها تبعاً لجهة استعماله : خشباً كانت أو ورقاً أو قماشاً . وكذلك ينبغي ان يكون عندهما سكين لقطع الكرتون ، وقالب لإحكامه ، ومطرقة لتسمير الصفائح الفولاذية ، وكلاّبات ، واشياء كثيرة اخرى لا أعلمها وحقّ الشيطان ! وذلك كله لكي تكسبا اربعة فلوس في اليوم ! اربعة فلوس بعد اربع عشرة ساعة من العمل ! وكل صندوق ينبغي ان يمرّ من خلال يدي البنت ثلاث عشرة مرة ! وعليهما فوق ذلك ان تبللا الورق ! وان لا توسّخا شيئاً ! وان تُبقيا الغراء ساخناً ! يا للشيطان ! اقول لك ! اربعة فلوس في اليوم ! كيف تريد من المرء ان يعيش ؟ »

وفيما كان جوندريت يتكلم لم ينظر الى مسيو لوبلان الذي راح يراقبه . كانت عين مسيو لوبلان مسمّرة على جوندريت ، وكانت عين جوندريت مسمّرةً على الباب . وكان انتباه ماريوس اللاهثُ ينتقل من احدهما الى الآخر . وبدا مسيو لوبلان وكأنه يسأل نفسه : « هل هذا الرجل معتوه ؟ » وكرّر جوندريت مرتين او ثلاثاً بمختلف ضروب النبرات المتفاوتة في الاسلوب السقيم المتوسّل : « ليس امامي إلا ان اقذف بنفسي في النهر ! لقد هبطتُ ذلك اليوم ثلاث خطوات لهـذا الغرض من ناحية جسر اوسترليتز ! »

وفجأة اضطرمت عينه الباهتة بتوهج فظيع ؛ وتصدّر هذا الرجل القميء وأمسى مروّعاً . ثم تقدّم خطوة نحو مسيو لوبلان ، وصاح في وجهه بصوت راعد :

— « ولكن هذا كله لا علاقة له بالمسألة ! هل عرفتني ؟ »

٢٠
الكمين

كان باب العلّية قد فُتح فجأةً ، متكشّفاً عن ثلاثة رجال يرتدون ثياباً عمالية زرقاء ويتقنّعون بأقنعة ورقية سوداء . كان أولهم مهزولاً يحمل هراوة طويلة معصوبة بالحديد . وأما ثانيهم ، وكان ضرباً من عملاق ، فقد حمل مطرقةً كالتي يصطنعهـــا الجزارون لقتل الثيران ، خافضاً فأسها ، ممسكاً بها من منتصف مقبضها . وأما ثالثهم ، فكان رجلاً عريض المنكبين ، ليس شديد الهزال كالأول ، وليس شديد الضخـامة كالثاني ، وكان يحمل في جُمع كفّـِهِ مفتاحاً هائلاً مسروقاً من باب سجن من السجون .

لقد بدا وكأن جوندريت إنما كان ينتظر وصول هؤلاء الرجـال . ودار حوار خاطف بينه وبين الرجل ذي الهراوة ، الرجـل المهزول :

قال جوندريت :

— « كل شيء جاهز ؟ »

فأجابه الرجل المهزول :

— « نعم . »

— « اين مونبارناس ، اذن ؟ »

— « لقد وقف « الفتى الأول » ليتجاذب الحديث مع ابنتك . »

— « مع ايّ منهما ؟ »

— « الكبرى . »

— « هل توجد عربة اجرة ، قرب البيت ؟ »

— « نعم . »

— « هل شدّت الخيل الى العربة الصغيرة ؟ »

— « شُدّت . »

— « وهل هما فرسان جيدان ؟ »

— « ممتازان . »

— « أهي تنتظر حيث قلت إن عليها ان تنتظر ؟ »

— « نعم . »

فقال جوندريت :

— « حسن . »

كان مسيو لوبلان شاحباً جداً . لقد اجال طرفه في ارجاء الغرفة مثل رجل يعرف أين وقع ؛ ودار رأسه فوق عنقه ، متجهاً على التعاقب نحو جميع الرؤوس المحيطة بـه ، في بطء متيقظ منشده ، ولكنْ لم يكن في سيماه ما يشبه الخوف . كان قد جعل من الطاولة متراساً مرتجلاً ، وكان هذا الرجل الذي بدا ، قبل لحظة ، وكأنه مجرد رجل ساذج عجوز ، قد تحوّل فجأةً الى ضرب من الجبار ، ووضع قبضة يده القوية على مؤخر كرسيه في ايماءة رهيبة مذهلة .

لقد بدا هذا الرجل — الثبت الجنان الى حد بعيد ، الشجاع الى حد بعيد ، أمام خطر كهذا — وكأنه من اصحاب تلك الطبائع التي تجمع البسالة الى الطيّبة ، في بساطة وطبَعيّة . إن أبا الفتاة التي نحبها لا يمكن ان يكون غريباً بالنسبة الينا ابداً . واستشعر ماريوس اعتزازاً بهذا الرجل المجهول .

وكان ثلاثة من الرجال الذين وصفهم جوندريت بقوله « **إنهم دكاترة مداخن** » قد فزعوا الى ركام الحدائد العتيقة . فأما احدهم فتناول مقصاً ضخماً من مقصّات المعادن ، وأما الثاني فتناول قضيباً حديدياً من قضبان القبابين ، وأما الثالث فتناول مطرقة ، ووقفوا معترضين الباب ، من غير ان ينبسوا بكلمة . كان الرجل العجوز لا يزال على السرير ، وكان قد اجتزأ بفتح عينيه . وكانت جوندريت المرأة قاعدة الى جانبه .

وخطر لماريوس أن لحظة التدخل سوف تحين بعد ثوانٍ ، فرفع يده اليمنى نحو السقف ، في اتجاه الرواق ، فهو على استعداد لاطلاق النار .

واذ أتمّ جوندريت محادثته مع الرجـــل ذي المراوة ، التفت الى مسيو لوبلان وكرر سؤاله ، مردفـــاً اياه بضحكته تلك ، الخفيضة ، المكبوحة ، الفظيعة :

– « انت لا تعرفني اذن ؟ »

ونظر اليه مسيو لوبلان في وجهه ، واجاب :

– « لا . »

ثم إن جوندريت تقدّم حتى الطاولة . وانحنى فوق الشمعة ، مصالباً ذراعيه ، دافعاً فكـّه الضاري ذا الزوايا نحو وجه مسيو لوبلان الهادىء اقرب ما استطاع ان يدفعه ، من غير ان يحمله على الارتداد الى وراء . وفي ذلك الوضع ، الخليق بوحش مفترس على وشك ان ينهش فريسته ، صرخَ :

– « إن اسمي ليس فابانتو ، إن اسمي ليس جوندريت ؛ إن اسمي تيناردييه ! انا صاحب فندق مونفيرماي ! هـل تفهمني ؟ تيناردييه ! والآن هل عرفتني ؟ »

وسرى في جبين مسيو لوبلان احمرار لا يكاد يُلحظ ، واجاب من غير ان يرتعش صوته ، او يرتفع ، وفي سكينته المألوفة :

– « لم ازدد معرفةً بك . »

ولم يسمع ماريوس الجواب . ولو انّ احداً رآه في هـــذه اللحظة وسط تلك الكلمة اذن لرآه شارد العين ، مشدوهـاً ، مروَّع القلب . فحين قال جوندريت : إن اسمي تيناردييه سرت الرعـــدة في اوصال ماريوس كلها ، واسند نفسه الى الجدار وكأنه قد استشعر بَرْدَ شفرة سيفٍ يخترق فؤاده . وعندئذ انخفضت ذراعه اليمنى ، وكانت على وشك ان تطلق الرصاصة المتفق عليها ، انخفاضاً بطيئاً ؛ حتى اذا كرّر جوندريت :

هل تفهمني ، تيناردييه ؟ كادت اصابع ماريوس الحائرة ان تُفلت المسدس الصغير . إن إماطة جوندريت اللثامَ عن هويّته لم تُحدث هزةً ما في نفس مسيو لوبلان ، ولكنها احدثت هزة مزلزلة في نفس ماريوس . وذلك الاسم ، تيناردييه ، الذي بدا وكأن مسيو لوبلان لم يعرفه ، قد عرفه ماريوس . فلنذكر ايَّ شيء كان ذلك الاسم عنده ! لقد حمل ذلك الاسم فوق فؤاده ، مكتوباً في وصية أبيه ! لقد حمله في أعمق أعماق تفكيره ، في اعمق اعماق ذاكرته ، في هذه الوصية المقدسة : « إن رجلاً يدعى تيناردييه انقذ حياتي . فاذا ما لقيهُ ولدي فلسوف يقدّم اليه كل خدمة يقدر عليها . » كان ذلك الاسم ، كما نذكر ، احدى صلوات روحه . لقد مزجه مع اسم ابيه في عبادته . ماذا ؟ اهذا هو تيناردييه ، اهذا هو فندقيّ مونفيرماي الذي بحث عنه على غير طائل ، تلك المدة الطويلة كلها ! لقد وجده آخر الامر ، وكيف ! إن منقذ ابيه هذا كان قاطع طريق ! إن هذا الرجل ، الذي كان هو ، ماريوس ، يتحرق لكي يقف نفسه لخدمته ، كان هُولة ! إن مخلّص الكولونيل بونميرسي هذا كان على وشك ان يرتكب جريمة حقيقية ، لمّا يتبيّنْ ماريوس حتى الآن شكلها على نحو واضح جداً ، ولكنها بدت وكأنها جريمة قتل ! وضدّ من ! يا الـّهي العظيم ! ايّ قدَر هذا ! ايّ سخرية مريرة من سخريات القضاء ! لقد امره أبوه من اعماق تابوته ان يقدّم الى تيناردييه كل خير يقدر عليه ؛ وطوالَ أربع سنوات لم تراود ذهنه فكرة غير سداد دَيْن أبيه هذا ؛ ولحظةَ اوشك ان يمكن العدالة من القاء القبض على قاطع طريق ، متلبّس بجريمة ، يصيح القدَر في وجهه : هذا تيناردييه ! وحياةُ ابيه ، التي أنقِذَتْ وسط وابل من القذائف المدفعية في ساحة واترلو البطولية ، كاد آخر الأمر ان يكافيء هذا الرجل على تخليصها ، وان يكافئه بالمشنقة ! كان قد وطّن النفس ، اذا ما وجد تيناردييه هذا ذات يوم ، ان لا يدنو منه إلا

منطرحاً على قدميه ، وها هو ذا قد وجده الآن فعلاً ، ولكن ليُسلمه الى الجلاد . لقد قال له ابوه : ساعِدْ تيناردييه ! وكان هو يجيب ذلك الصوت المقدّس المعبود بسحْق تيناردييه ! اذ يقدّم الى ابيه ، في تابوته ، مشهد الرجل الذي انتزعه من براثن الموت ، وقد أُعدم في ساحة سان جاك بفضل تدخّل ابنه ، ابنه ماريوس الذي اوصاه بهذا الرجل ! وأية سخرية اعظم من ان يكون قد حمل فوق صدره ، طوال هذه المدة كلها ، أمنيات ابيه الأخيرة ، مكتوبةً بخط يده ، لا لشيء إلا لكي يعمل بما يناقضها على هذا النحو المروّع الى هذا الحد ! ولكن من ناحية ثانية ، أيرى الى هذا الكمين ولا يحبطه ؟ ! أيدين الضحية ويشفق على السفاح ؟ ! وهل من الممكن ان يكون مديناً بجميلٍ يجب ان يردّه لمثل هذا النذل ؟ لكأن جميع الافكار التي راودت ماريوس في السنوات الاربع الاخيرة قد اخترقتها هذه الضربة المفاجئة اختراقاً . وارتعد . كان كل شيء رهناً به . كان يُمسك بيده ، على غير وعيٍ منهم ، هذه المخلوقات التي تحركت هناك تحت بصره . فاذا اطلق النار من مسدسه الصغير ، نجا مسيو لوبلان وهلك تيناردييه . واذا لم يطلق النار ذهب مسيو لوبلان ضحيةً ، ومن يدري ؟ فقد يفرّ تيناردييه . إنه بين واحد من أمرين : ان يُهلك أحدهما او يدع الاخر يقع في الهاوية ! وفي كلتا الحالين وخز ضمير ! ما الذي يتعين عليه ان يعمله ؟ ايّ الأمرين يجب ان يختار ؟ أيخون ذكرياته الأشدّ إلحاحاً ، والعهود الوثيقة التي اكثر من أخْذِها على نفسه ، وواجبه الأشدّ قداسة ، وتلك الوصية الممعنة في الجلال ! أيخون ارادة ابيه ، أم يغضّ الطرف عن جريمة تُرتكب ؟ لقد بدا له من ناحية ، وكأنه يسمع « أورسوله » تتوسل اليه ان ينقذ إباها ، ومن ناحية ثانية وكأنه يسمع الكولونيل يوصيه بتيناردييه . لقد استشعر انه فقدَ صوابه . وخذلته ركبتاه . ولم يجد حتى متسعاً من الوقت للتفكير وقد اندفع المشهد البادي امامه في مثل

هذا الغليان . كان ذلك اشبه باعصار حسِبَ ماريوس انه سيده ولكنه كان يعصف به . كان على وشك ان يغمى عليه .

وفي غضون ذلك ، كان تيناردييه – ولن ندعـــوه منـذ اليوم بغير هذا الاسم – يروح ويجيء امام الطاولة ، في ضربٍ من الانشداه وفي ضربٍ من الظفر المسعور .

وأخذ الشمعة بقوة ، ووضعها على الموقد في عنف اطفأ شعلتها ، او كاد ، ونثر شحمها على الجدار .

ثم إنه التفت الى مسيو لوبـــلان ، النفاثةً مروّعـة ، وبصق الكلمات التالية :

– « مُشيَّط ! مدخَّن ! محمَّص ! مشويّ ! »

وشرع يذرع الغرفة من جديد ، وقد انفجر انفجاراً كاملاً .

وصاح :

– « آه ، لقد عثرتُ عليك من جديـد ، يا سيدي المحسن ! يا سيدي المليونير البالي الثياب ! يا سيديْ واهب الدّمى ! يا سيـــدي الغبيّ المخدوع ! ها ! انت لا تعرفني ؟ لا ، لست انت ذلك الرجل الذي جاء الى مونفيرماي ، الى فندقي ، منذ ثماني سنوات ، ليلة عيد الميلاد عام ١٨٢٣ ! انت لم تكن ذلك الرجل الذي انتزع ابنة فانتين ، القبّرة ، من منزلي ! انت لم تكن ذلك الرجل اللابس سترة صفراء ! والحامل في يده صرّة من الثياب مثلما جئتَ الى هنا هذا الصباح تماماً ! قولي ، الآن ، يا زوجتي ! إنه مصاب ، على ما يظهر بمرض حمل الصرر الملأى بالجوارب الصوفية الى المنازل ! ايهـا المحسن العجوز ، اخرج ! أانت صانع جوارب ، يا سيدي المليونير ؟ اتعطي الفقراء كُناسة دكانك ، ايها الرجل القدسيّ ! يا لك من بهلوان ! ها ! انت لا تعرفـــني ؟ حسن ، انا اعرفك ، انا ! لقد عرفتك لحظةَ اقتحمتَ خطمـك هنا . آه ! سوف ترى آخر الامر ان الورود لا تغطي دائماً طريقَ الدخول

الى بيوت الناس على هذا الشكل ، بحجة انها فنادق ، بثياب ممزقة بالية ، وفي هيئة شحاذ يجدر بأي امرىء ان يمنحه فلساً ، لكي تخدع الناس ، وتمثّل دور الكريم الجواد ، وتسلب مُعيلهم منهم ، وتهددهم في الغابات ، ولسوف تجد ايضاً انك لا تستطيع ان تبرىء ذمتك من ذلك بان تعود بعد مدة ، حين يُصاب الناس بالافلاس ، وتقدّم اليهم سترة طويلة واسعة جداً ، وبطانيّتين خسيستين من بطانيات المستشفيات ، ايها الشحاذ العجوز ، السارق الاطفال ! »

وكفّ عن الكلام ، وبدا وكأنما راح يتحدث الى نفسه لحظةً . كان خليقاً بالمرء ان يقول ان ثورته قد سقطت مثل نهر « الرون » في حفرة من الحفر . ثم انه ضرب الطاولة بجمع كفه ، وصاح وكأنه يُنهي بصوت مرتفع شيئاً كان يقوله لنفسه :

— « بهيئته الهادئة ! »

ووجّه الخطاب الى مسيو لوبلان :

— « وحق الاله ! لقد سخرتَ مني مرةً ! انت علة مصائبي كلها ! لقد استوليتَ ، بالف وخمسمئة فرنك ، على فتاة كانت عندي ، وهي من اسرة غنية حتماً ، وكانت قد عادت عليّ قبل ذلك بمقدار كبير من المال ، وكان يتعيّن عليّ ان احصل منها على مبلغ اعيش عليه طوال حياتي ! فتاة كانت جديرة بأن تعوّضني من كل ما خسرته في ذلك المطعم حيث كان الناس يسكرون سكرة ملوكية ، وحيث التهمتُ كل ثروتي كالأبله . أوه ، اتمنى لو ان جميع الخمر التي شُربت عندي كانت سماً على شاربيها ! ولكنْ ما لنا ولهذا ! قل لي اذن ! لا ريب في انك حسبتني ساذجاً حين انطلقتَ مع القبّرة ! كان معك نبّوتك في الغابة ! كنت انت الرجل الاقوى ! الانتقام ! إن الورقة الرابحة هي اليوم في يدي ! انت هالكٌ ، ايها الرجل الساذج ! اوه ؛ ولكني اضحك ! انا اضحك حقاً ! هل وقع في الشرَك ؟ لقد قلت له اني ممثل ، وان اسمي فابانتو ، واني مثلت الادوار الكوميدية مع

مدموزيل مارس ، ومدموزيل موش ، وان عليّ ان ادفع الاجرة الى صاحب البيت غداً في الرابع من شباط ، ولم يخطر له حتى مجرد التفكير بأن موعد دفع القسط هو الثامن من كانون الثاني لا الرابع من شباط ! يا له من ابله مضحك ! وهذه القطع النقدية الاربع الخسيسة التي جاءني بها ! النذل ! إنه لم يؤانس من نفسه الشجاعة الكافية التي تمكّنه من جعلها مئة فرنك ! وكيف ابتلعَ عباراتي الركيكة ! إن هذا قد سلاّني . وقلت في نفسي : رجلٌ عديم الفهم ! هيّا ، لقد امسكتُ بك ! لقد لحستُ براثنك هذا الصباح ! ولسوف أقضم قلبك هـــذا المساء ! »

وسكت تيناردييه . لقد انقطع نفسه . ولهث صدره الصغير الضيق مثل منفاخ الحداد . كانت عينه تمور بمثل البهجة الدنيئة الـــتي تغمر حيواناً ضعيفاً وحشياً جباناً وُفّق آخر الامر الى ان يهزم ما كان يَرهبه من قبل ، ويُهين ما كان أطراه ، تلك البهجة التي تعصف بقلب قزم يضع عقِبَ قدمه على رأس جالوت ، والتي تستحوذ على ابن آوى شرع يمزّق ثوراً مريضاً ، هو من الموت بحيث يعجز عن الدفاع عن نفسه وهو من الحياة بحيث لا ينقطع عذابه .

ولم يقاطعه مسيو لوبلان ، بل قال حين كفّ عن الكلام :

— « لست ادري ما تريد ان تقوله . أنت مخطيء . أنا رجل فقير جداً ، ولست مليونيراً بحال من االاحوال . انا لا اعرفك . انت تخلط ما بيني وبين رجل آخر . »

فصاح تيناردييه :

— « ها ! ايها المخادع الغشاش ! انت لا تزال تتمسّك بهذه النكتة ! انت مُرتبكٌ ، يا صاحبي العجوز ! آه ! إنك لا تتذكر ! انك لا ترى من انا ! »

فأجاب مسيو لوبلان في نبرة من الكياسة كان لها في مثل تلـــك

اللحظة ، اثرٌ قويّ وغريب :

— « عفواً ، يا سيدي ، اني ارى انك قاطع طريق . »

إن الكائنات البغيضة سريعة التأثر ، وان الهُوَل سريعة الاغتباط . وهل ثمة من لم يلاحظ ذلك ؟ فما إن سمعتْ تيناردييه الزوجة عبارة قاطع طريق هذه حتى وثبت من السرير . وأمسك تيناردييه بكرسيّه وكأنما كان يعتزم ان يسحقها بيديه . وصاح في وجه زوجته :

— « لا تتحركي ! »

ثم التفت نحو مسيو لوبلان وقال :

— « قاطع طريق ! اجل ، انا اعلم انكم تدعوننا هكذا ، انتم الاغنياء ! اجل ! هذا صحيح ؛ لقد أفلَسْتُ ؛ أنا احيا في مخبأ ؛ انا لا أجد كسرة من الخبز ؛ انا لا املك فلساً ؛ فانا قاطع طريق ! ها قد انقضت ثلاثة ايام لم آكل فيها لقمة ؛ فانا قاطع طريــق ! آه ! انتم تدفئون اقدامكم ؛ انتم تنتعلون اخفافاً من نوع ساكوسكي ؛ انتم تلبسون سترات طويلة مبطّنة مثل رؤساء الاساقفة ؛ انتم تسكنون في الدور الاول من بيوت يحرسها بوّابون ؛ انتم تأكلون الكمأة ؛ انتم تأكلون حُزَماً من الهليون ثمن الحزمة اربعون فرنكاً في شهر كانون الثاني ، وتأكلون الجلبان ؛ انتم تعلفون انفسكم ، وحين تريدون ان تعرفوا ما اذا كان الجوُّ سوف يبرد تلقون نظرةً على الجريدة لتروا عند اية درجة سوف يقف ميزان الحرارة ، الذي اخترعــه شوفالييه ! أما نحن ! فأجسادنا هي موازين حرارتنا ! نحن لسنا في حاجة الى ان نذهب الى الرصيف عند زاوية « برج الساعة » لكي نرى كم درجة تحت الصفر بلغت الحرارة ! نحن نحسّ بالدم يتجمد في أوردتنا والثلج يصل الى قلوبنا ، فنقول : « ليس هناك ربّ ! » ثم تأتون انتم الى كهوفنا ، اجل الى كهوفنا ، وتسمّوننا قطاع طرق ! ولكنا سوف نأكلكم ! ولكنا سوف نفترسكم ، ايها الصغار المساكين ! سيدي المليونير ! إعلم هذا :

لقد كنتُ رجلاً ذا تجارة ناجحة ، كنتُ دافــع ضرائب ، كنتُ ناخباً ، أنا مواطن ! أنا ! وقد لا تكون أنت مواطناً ، انت ! »

وهنا خطا تيناردييه خطوة نحو الرجال الذين كانوا قرب البـاب ، واضاف في رعدة :

— « حين افكر انه يتجرأ على المجيء ليحدثني كما يتحدث إلى اسكاف ! »

ثم خاطب مسيو لوبلان في نكسة سعر :

— « واعلم هذا ايضاً ، يا سيدي المحسن ! أنا لست رجلاً مريباً ، أنا ! أنا لست رجلاً لا يعرف احدٌ اسمه ، رجلاً يأتي الى البيـــوت ليخطف الاولاد ! أنا جندي فرنسي قديم ، كان ينبغي ان أقلد وساماً ! لقد شهدتُ واترلو ، انا ! وفي اثناء المعركة انقذت جنرالاً يدعى الكونت لا أدري ماذا ! لقد قال لي اسمه ، ولكن صوته الكابيّ كان ضعيفاً الى درجة جعلتني لا أسمعه . أنا لم اسمع إلاّ كلمة ميرمي (شكراً) ولقد كنت افضّل ان اسمع اسمه لا أن اسمع شكره . * فقد كان ذلك الاسم خليقاً بأن يساعدني على العثور عليه في ما بعد . واللوحة التي تراها ، والتي رسمها دافيد ** في بروكسيل ، أتدري تمثّل مَنْ ؟ إنها تمثّلني . لقد أراد دافيد ان يخلّد هذه البسالة . إني احمـل ذلك الجنرال على ظهري ، واني انقله تحت وابل من القذائف المدفعيـة . ذلك هو التاريخ . وحتى هذا الجنرال لم يُسْدِ اليّ خدمة مـا في يوم من الايام . إنه ليس أحسن من سائر الناس . ومع ذلك ، فقد انقذت حياته مخاطراً بحياتي ، وإن جيبي مليء بالشهادات على ذلك . انا جندي

---

* كان الكولونيل بونميرسي قد قال لتيناردييه ، وقد توهم انه اقبل لانقــاذه ، « إن اسمي بونميرسي » كما رأينا من قبل . ويبدو انه لم يسمع من ذلك الاسم الا جزأه الاخير وهو الجزء الذي يؤدي معنى الشكر .

** رسام فرنسي مشهور ، ولد في باريس ، ومات منفياً في بروكسيل (١٧٤٨ – ١٨٢٥) وفي عهد الامبراطورية كان رسّام نابوليون الخاص .

من جنود واترلو ، اسم من الف اسم ! والآن ، وقد حملتني الطيبة على إخبارك بهذا كله ، دعنا نضع حداً للمسألة . يجب ان احصل على المال ؛ يجب ان احصل على مقدار هائل من المال ، وإلا قضيتُ على حياتك ، وحقّ رعود الله ! »

كان ماريوس قد سيطر ، بعض الشيء ، على قلقه البالغ ، وانشأ يصغي . كان آخر احتمال من احتمالات الشك قد تلاشى . كان من غير شك تيناردييه الوصية . وارتعد ماريوس لذلك التوبيخ الذي وُجّه الى أبيه بسبب من نكرانه للجميل ، والذي كان على وشك ان يقدّم تبريراً فاجعاً له منذ لحظات . وتعاظم ارتباكه ؛ والى هذا ، فقد كان في كلمات تيناردييه هذه كلها ، في جَرْسه ، في إيماءاته ، في عينيه اللتين أطلقتا اللهب مع كل كلمة — كان في انفجار هذه الطبيعة الشريرة الكاشفة عن حقيقتها كلها ، في هذا المزيج من الصلف والدناءة ، من الغرور والحقارة ، من الغيظ والحماقة ، في هذا الخليط المشوّش من الشكاوى الحقيقية والعواطف الزائفة ، في هذه الوقاحة التي تكشّف عنها رجلٌ شرير تذوّق حلاوة العنف ، في ذلك العري الذي تبدّت عليه نفسٌ شنيعة ، في ذلك الاضطرام الذي عصف بالآلام كلها وقد اتحدت بالبغض كله ؛ كان في هذه جميعاً شيء فظيعٌ كالشرّ ، موجع كالحقيقة .

ولم تكن اللوحة التي رسمها استاذ من اساتذة الفن ، الصورة التي ابدعها دافيد ، والتي عرض على مسيو لوبلان شراءها ، لم تكن — كما قد حزر القارىء — شيئاً غير لافتة مطعمه الحقير ، وقد رسمها هو كما نذكر بريشته ، وكانت الأثرَ الأوحدَ الذي استخلصه من افلاسه في مونفيرماي .

وإذْ لم يعد يعترض خطّ بصر ماريوس ، فقد صار في امكان ماريوس الآن ان يرى الى ذلك الشيء ؛ وفي طَلي الحيطان ذاك تبيّنَ معركةً ، فعلاً ، وخلفيةً من دخان ، ورجلاً يحمل رجلاً . لقد التقى فيها تيناردييه

وبونغيرسي ؛ الرقيب المنقِذ ، والكولونيل المنقَذ . وبدا ماريوس أشبه بالسكران . لقد أعادت هذه الصورة اباه ، بطريقة ما ، الى الحياة . إنها لم تعُدِ الآن لافتة فندق مونفيرماي ؛ كانت بعثاً . فيها انفتح تابوتٌ نصف فتحة ، ومنها انتصب طيف . وسمع ماريوس قلبه يدقّ بين صدغيه ، وسمع مدفع واترلو يدوّي في أذنيه . كانت صورة ابيه الدامية المرسومة على نحو باهت في هذا اللوح القاتم قد أذهلته ؛ ولقد بدا له وكأن هذا الظلّ المشوّه كان يحدّق اليه على نحو موصول .

وحين اخذ تيناردييه نَفَساً ركّز عينيه الداميتين على مسيو لوبلان ، وقال في صوت خفيض خاطف :

— « ما الذي تريد ان تقوله قبل ان نبدأ الرقص معك ؟ »

ولم يقل مسيو لوبلان شيئاً . وفي غمرة من هذا الصمت ، طرح صوتٌ أجشّ ، مقبل من ناحية الرواق ، هذه السخرية المأتمية :

— « إذا كان الأمر يستدعي تشقيف حطبٍ ما ، فأنا هنا ! »

كان الرجل الحامل مطرقة الجزار يتندّر .

وفي الوقت نفسه برز وجهٌ ضخم ، شائك ، قذر ، لدى الباب ، وهو يضحك ضحكاً لم يكشف عن اسنان ، ولكنْ عن كلاليب .

كان وجهَ الرجلِ حاملِ مطرقة الجزار .

وصاح تيناردييه في ضراوة :

— « لماذا نزعتَ القناع عن وجهك ؟ »

فأجابه الرجل :

— « لكي اضحك ! »

وطوال بضع لحظات ، بدا مسيو لوبلان وكأنه قد تتبّع وراقب جميع حركات تيناردييه الذي راح ، وقد أعماه غيظُهُ وأذهله ، يذرع الوكر جيئة وذهاباً ، في ثقة مستوحاة من الشعور بأن الباب كان

محروساً ، وانه يهيمن وهو متسلّح على رجل اعزل من السلاح ، وانه وجماعته يشكلون تسعة الى واحد ، حتى ولو اعتُبرت تيناردييه الزوجة بمثابة رجل واحد ليس غير . وفي حديثه ذاك مع الرجل ذي المطرقة التي يصطنعها الجزارون لقتل الثيران أدار ظهره لمسيو لوبلان .

واغتنم مسيو لوبلان الفرصة السانحة ، ودفع الكرسي بقدمه ، والطاولة بيده ؛ وبوثبة واحدة ، نور برشاقة اعجوبية ، قبلَ ان يتمكن تيناردييه من ان يستدير ، انتهى الى النافذة . ولم يستغرق فتحُها ، وتسلُّق دعامتها ، وتخطّيها غير ثانية واحدة . وما إن اصبحت احدى قدميه خارج الغرفة واحداهما داخلها ، حتى امسكت به ستّ أيدٍ قوية ، وردّته الى الغرفة في قوة . كان « دكاترة المداخن » الثلاثة قد وثبوا عليه . وفي الوقت نفسه ، كانت تيناردييه الزوجة قد انشبت اظفارها في شعره .

وفي غمرة الاضطراب الذي نشأ عن ذلك ، هرع قطاع الطرق الآخرون من الرواق . ونزل العجوز — الذي كان فوق السرير والذي بدا صريع الخمر — عن الفراش الحقير ، وتقدم متلمّساً سبيله ، حاملاً بيده مطرقة معبّد طرق .

ورفع واحد من « دكاترة المداخن » اضاءت الشمعة وجهه الاسود وعرف فيه ماريوس برغم هذا الطلاء ، بانشو المعروف بـ « برينتانييه » وبـ « بيغروناي » ايضاً — نقول رفع ذلك « الطبيب » نبّوتاً مصنوعاً من قضيب حديدي ذي كتلة رصاصية في كلّ من طرفيه فوق رأس مسيو لوبلان .

ولم يستطع ماريوس أن يحتمل هذا المشهد . وقال في ذات نفسه : « إغفر لي ، يا أبتِ ! » وتلمّسَ أصبعه زناد المسدس الصغير . وكانت الرصاصة على وشك ان تنطلق حين صاح صوت تيناردييه :

– « لا توقعوا به أيّ اذى ! »

كانت هذه المحاولة اليائسة التي قامت بها الضحية ، وقد عجزت عن إثارة سخط تيناردييه ، قد هدّأت من غلوائه . كان في ذات نفسه رجلان ، الرجل الضاري ، والرجل الداهية . وحتى تلك اللحظة ، في غمرة النصر ، وأمام فريسته المصعوقة غير المبدية حراكاً ، كان الرجل الضاري هو صاحب اليد العليا . فما إن قاومت الضحية ، وبدت راغبةً في النضال ، حتى برز الرجل الداهية من جديد واستعاد سلطانَهُ .

وكرّر :

– « لا توقعوا به ايّ اذى ! »

ومن غير ان يعي شيئاً من ذلك كانت أولى نتائج هذه الكلمة أن اوقفت المسدس الصغير الذي كان على وشك الانطلاق ، وشلّت ماريوس الذي بدا له ان الألحاح قد زال ، والذي لم يعد يرى حرجاً في الانتظار فترة اخرى . ومن يدري فقد تنشأ مصادفة تنقذه من هذا الخيار الرهيب بين أمرين : أن يدعَ والد أورسول يَهلك ، أو أن يُهلك منقذ الكولونيل !

كان صراع جبّار قد بدأ . وبضربة واحدة على أمّ الصدر ، طوح مسيو لوبلان الرجلَ العجوز متدحرجاً وسط الغرفة ، ثم بضربتين من ظاهر يده صرعَ معتديَيْن آخرين وأمسك بكل منهما تحت احدى ركبتيه ؛ وصرخ النذلان تحت ذلك الضغط وكأنما كانا تحت رحىً من الصوان . ولكن الاربعة الآخرين كانوا قد امسكوا بالعجوز الرهيب من ذراعيه ورقبته ، وأبقَوْه جالساً القرفصاء فوق « دكتوري المداخن » المذعورين . وهكذا فأن مسيو لوبلان – وكان مسيطراً على هذين الاخيرَين مسيطَراً عليه من اولئك الاوّلين ، ساحقاً اللذين كانا تحته ومختنقاً من اولئك الذين كانوا فوقه ، محاولاً على غير طائل ان يزعزع

جميع تلك الجهود التي تكدست عليه – نقول وهكذا فان مسيو لوبلان اختفى تحت تلك المجموعة الرهيبة من قطاع الطرق ، مثل خنزير بري تحت كومة عاويةٍ من الكلاب الكبيرة الرؤوس ، وكلاب القنص الضارية .

ووفقوا الى طرحه على السرير الأقرب الى النافذة وتشبثوا به هناك في تهيّب . كانت تيناردييه الزوجة لم تُفلت شعره بعد .

وقال تيناردييه :

– « أنتِ ! لا تتدخلي في هذه المسألة . سوف يتمزق شالكِ . »

وامتثلت تيناردييه الزوجة أمر بعلها ، كما تمتثل الذئبة أمر الذئب ، في زمجرة .

واستأنف تيناردييه كلامه :

« وانتم الباقون ... هيا فتشوا جيوبه ! »

وبدا مسيو لوبلان وكأنه اطّرح المقـاومة . وفتشوا جيوبه . فلم يجدوا فيهـا غير كيس نقود جـلديّ منطوٍ على ستة فرنكات ، ومنديله .

ووضع تيناردييه المنديل في جيبه .

وتساءل :

– « ماذا ؟ لا حافظة اوراق نقدية ؟ »

فأجابه احد « دكاترة المداخن » :

– « حتى ولا ساعة ! »

فغمغم الرجل المقنّع ذو المفتـاح الضخم ، وكأنمـا يخرج صوتـه من بطنه :

– « سيان . إنه شكسٌ عجوز ! »

ومضى تيناردييه الى الزاوية المجاورة للباب ، وتناول حزمة من الحبال قذف بها اليهم .

وقال :

– « اوثقوه الى مؤخر السرير . »

حتى اذا لمح الرجلَ العجوز المنطرح ، عبرَ الغرفة ، وقد صرعته الضربة التي سدّدها اليه مسيو لوبلان بجمع كفه ، تساءل :

– « هل مات بولاترووِيل ؟ »

فأجاب بيغروناي :

– « لا ، إنه سكران . »

فقال تيناردييه :

– « اكنسوه الى احدى الزوايا . »

ودفع رجلان من « دكاترة المداخن » بأقدامهما ، الرجلَ الثملَ حتى كومةِ الحدائد العتيقة .

وقال تيناردييه موجهاً الكلام ، في همس ، الى الرجل ذي الهراوة :

– « بابيه ! لماذا حشدتَ هؤلاء القوم كلهم ؟ لم يكن من حاجة الى ذلك . »

فأجاب الرجلُ ذو الهراوة :

– « ماذا تريد ان افعل ؟ لقد ارادوا كلهم ان يشتركوا في ذلك . الموسم رديء . ليس هناك أشغال . »

كانت الحشيّة التي ُقلبت على مسيو لوبلان شبهَ سريرٍ من ُسرر المستشفيات ذي أربع قوائم خشبية ضخمة تكاد ان تكون مربعة . ولم ُيبدِ مسيو لوبلان مقاومة ما . وأوثق قطاع الطرق رباطهُ ، وقد انتصب واقفاً ورجلاه فوق الارض ، الى قائمة السريرِ الاشدّ بعداً عن النافذة ، والأشد قرباً الى الموقد .

وحين أحكموا العقدة الاخيرة اخذ تيناردييه كرسياً ، وتقدّم فجلس تجاه مسيو لوبلان تقريباً . كانت سيماه قد تغيرت تغيراً كاملاً ؛ ففي بضع ثوانٍ تحولت اساريرِ وجهه من العنف الجامح الى الرقة الوادعة

الماكرة . وكاد ماريوس لا يتبين في تلك الابتسامة الكئيبة الجديرة برجل من رجال الدواوين ، ذلك الفمَ الوحشي او يكاد ، الذي كان يُرغي ويزبد قبل لحظة . لقد نظر في ذهول الى هذا التحوّل الغريب الموجع واستشعر ما يستشعره امرؤ يرى نمراً ينقلب الى وكيل دعاوى .

وقال تيناردييه .

– « سيدي . . »

وبأيماءة ، سرّحَ قطاعَ الطرق الذين كانوا ما يزالون متشبثين بمسيو لوبلان ، قائلاً :

– « ابتعدوا قليلاً ، ودعوني اتحدث الى السيّد . . »

وانسحبوا كلهم نحو الباب . واستأنف تيناردييه كلامه :

– « سيدي ، لقد اخطأتَ في محاولة الوثوب من النافذة . كان من الجائز ان تكسر رجلك . والان ، اذا شئت فسوف نتحدث في سكينة . وقبل كل شيء ، يجب عليّ ان انبهك الى هذه الحقيقة التي لاحظتُها ، وهي انك لم تطلق حتى الان اقلّ صيحة . . »

وكان تيناردييه على صواب . فقد كانت هذه الملاحظة صحيحة ، على الرغم من أنها فاتت ماريوس ، في غمرة من القلق الذي استحوذ عليه . كان مسيو لوبلان قد نطق ببضع كلمات من غير ان يرفع صوته . وحتى في صراعه ، قرب النافذة ، مع قطاع الطرق الستة ، كان قد التزم اعمق الصمت وأعجبه . وتابع تيناردييه :

– « يا الٰهي ! كان في ميسورك ان تصيح قليلاً : « اللص ! اللص ! » اذ ما كنت لاجد في ذلك شيئاً غير ملائم . او ان تصيح : « السفاح ! السفاح ! » فهذا يقال بين الفينة والفينة ، أما انا فما كنت لأفسرها تفسيراً رديئاً . فمن الطبيعيّ جداً ان يحدث الانسان ضجة صغيرة حين يجد نفسه مع اشخاص لا يوحون اليه بقدر كافٍ من الثقة .

كان في إمكانك ان تفعل ذلك ، فلا نحاول ان نزعجك . بل لا نحاول ان نكمّ فمك . وسأقول الك لماذا . لأن هذه الغرفة صماء جداً . هذا كل ما استطيع ان اقوله عنها ، ولكني استطيع ان اقول ذالك . إنها مغارة . في استطاعتنا ان نفجر قنبلة هنا ، فتُسمع عند اقرب مركز للحرس وكأنها غطيطُ سكران . هنا يعمل المدفع « بمّ » ويعمل الرعد « بفّ » . هذا مأوى مريح . ولكنك ، على الجملة ، لم تصرخ . هذا أحسن . إني اقدّم اليك تهنئتي على ذلك ، واسوف اقول لك ايّ شيء أستنتجه من هذا : يا سيدي العزيز ، حين يصرخ المرء مَن الذي يأتي ؟ البوليس . وبعد البوليس ؟ العدالة . حسن ! انت لم تصرخ . لانك لم تكن راغباً ، اكثر منا نحن ، في ان ترى العدالة والبوليس يأتيان . لأن الك – ولقد ارتبتُ في ذلك منذ زمن طويل – مصلحةً ما في إخفاء شيء ما . ونحن نشاركك هذه المصلحة . واذن ، ففي استطاعتنا ان نتفاهم . . »

وفيما هو يتحدث هكذا ، بدا وكأن تيناردييه ، المسمّر بصره على مسيو لوبلان ، كان يحاول ان يُنفذ الخناجرَ ، التي انطلقت من عينيه ، الى ضمير أسيره نفسه . والى هذا ، فقد كانت لغته ، المطبوعة بضرب من السفاهة المكظومة المرائية ، متحفظةً بل متخيّرة تقريباً . وفي هذا الوغد الذي لم يكن من قبلُ غير قاطع طريق ، كان في ميسور المرء الآن ان يلمح الرجل الذي يدرس لكي يصبح كاهناً .

وكان الصمت الذي لزمه الأسير ، وذلك الحذر الذي اصطنعه الى حدّ تعريض حياته للخطر ، وهذه المقاومة لاول حافز من حوافز الطبيعة ، وهو اطلاق صيحة ما – كان هذا كله ، كما يتعيّن علينا ان نقول ، بعد ان أبديت هذه الملاحظة ، قد أقلق ماريوس وادهشه على نحو أليم .

وكان في ملاحظة تيناردييه ، الخسة الاساس ، ما ضاعف في عيني ماريوس السُحبَ الخفية التي تغلّف هذا الوجه الرصين الغريب الذي اطلق عليه كورفيراك لقب مسيو لوبلان . ولكنْ أياً ما كانت حاله — موثقاً بالحبال ، مطوّقاً بالسفاحين ، نصف مدفونٍ ، اذا جاز التعبير ، في قبر كان يزداد تحته عمقاً في كل لحظة ، أمام هياج تيناردييه او امام رقته — فقد ظل هذا الرجل ممتنعاً على الألم ، ولم يستطع ماريوس ان يكبت في مثل تلك اللحظة اعجابه بذلك الوجه الكئيب على نحو بهيّ .

ههنا كانت ، من غير شك ، نفسٌ لا يتطرّق اليها الخوف ، ولا تعرف الذعر . ههنا كان واحد من اولئك الرجال الذي هم فوق الدهَش في المواقف اليائسة . فمهما تكن الأزمة حادة ، ومهما تكن الكارثة محتومة ، فلم يكن على وجهه شيء من نزع الرجل الغريق المحدّق بعينين مروّعتين فيما هو يغوص الى الاعماق .

ونهض تيناردييه في هدوء ، ومضى الى الموقد ، وازاح الستار الحاجز مسنداً اياه الى الحشيّة الاكثر قرباً ، كاشفاً القناع بذلك عن الكانون الطافح بالجمرات المتوهجة حيث كان في استطاعة الاسير ان يرى ، بوضوح ، الى الازميل حامياً حتى البياض ، تنقّطه ههنا وهناك نجوم قرمزية صغيرة .

ثم تراجع تيناردييه ، وجلس الى جانب مسيو لوبلان .

وقال :

— « أتابع الحديث . في استطاعتنا الان ان نصل الى تفاهم . دعنا نسوّي هذه المسألة ودّياً . لقد اخطأتُ عندما استسلمت للحظةَ الانفعال . انا لا ادري اين كان عقلي ؛ لقد ذهبتُ الى ابعد مما يجب ؛ لقد كنت أهذي . فمثلاً ، لأنك مليونير قلتُ لك إني محتاج الى مال ، الى مبلغ كبير من المال ، الى مبلغ هائل . فلعل هذا غير معقول .

يا الـهي ! فمهما تكن غنياً فان عندك نفقاتك . وايّ منا لا نفقات عنده . انا لا اريد ان أنزل الخراب بك ؛ وانا لست موظفاً مهمته القاء القبض على المتخلفين عن دفع الديون ، على كل حال . انا لستُ إلا واحداً من اولئك الذين اذا وجدوا انفسهم في وضع افضل من وضع الخصم افادوا من ذلك لكي يكونوا مضحكين . وها انا راغب في السير نصف الطريق ، والقيام ببعض التضحية من جانبي . انا لا اطلب غير مئتي الف فرنك . »

ولم ينبس مسيو لوبلان بكلمة واحدة . وتابع تيناردييه كلامه :

– « انت ترى اني اخفف من غلوائي كثيراً . أنـــا لا اعرف حقيقة ثروتك ، ولكني أعلم انك لا تبالي كثيراً بالمال ، ورجلٌ محبٌ للخير مثلك لن يبخل بمئتي الف فرنك على ربّ اسرة بائس فقير . وانت منطقيّ من غير شك ، فلست تتخيل اني تجشمت ما تجشمته اليوم من عناء ، ونظمت حادث هذا المساء ، وهو تدبير بارع في رأي هؤلاء السادة كلهم ، لكي اطلب منك ما يكفيني للذهـــاب واحتساء كأس بخمسة عشر « سو » من الخمر الحمراء ، وأكل لحم العجـــل بمطعم دينواوييه . إن مئتي الف فرنك تعويض كافٍ . ومتى خرج هـــذا المبلغ التافه من جيبك اؤكد لك ان كل شيء قد انتهى ، وانك لن تخشى بعد ذلك ضربةً بطرف السبابة . وستقول لي : ولكن ليس في جيبي مئتا الف فرنك ! اوه ! انا لا اتجاوز الحدّ . انـــا لا اطلب ذلك . إني لا اسألك غير شيء واحد . فتلطّف واكتب ما سأمليه عليك . »

وهنا تمهل تيناردييه ، ثم أضاف مؤكداً كل كلمة ، مرسلاً ابتسامة نحو الموقد :

– « احيطك علماً بأني لن أسلّم مطلقاً بانك لا تعرف الكتابة . »

كان خليقاً بمحقق قضائي كبير ان يحسده على تلك الابتسامة .

ودفع تيناردييه الطاولة حتى حاذت مسيو لوبلان ، واخرج من دوجها دواة ، وقلماً ، وورقة مبقياً الدرج مفتوحاً نصف فتحة ، وقد اومضت فيه شفرة المدية الطويلة .

ووضع الورقة امام مسيو لوبلان .

وقال :

— « اكتب ! »

وتكلم الأسير آخر الأمر :

— « وكيف تريد مني ان اكتب ؟ أنا مقيد . »

فقال تيناردييه :

— « هذا صحيح ، اعذرني ! أنت على حقّ ! »

والتفت الى بيغروناي وقال :

— « فُكّ ذراع السيد اليمنى . »

ونفذ بانشو ، المعروف بـ « برينتانييـــه » وبـ « بيغروناي » أمر تيناردييه . حتى اذا أطلقت يد الاسير اليمنى من وثاقها غمس تيناردييه الريشة في الحبر ، وقدّمها اليه ، قائلاً :

— « تذكّر ، يا سيدي ، انك في قبضتنا ، تحت تصرفنا المطلق ، وأنه ما من قوة بشرية تستطيع ان تنتزعك من هنا ، وانـــه سوف يسوءنا حقاً ان نضطرّ الى اللجوء الى بعض الاجراءات المتطرفة البغيضة الينا . أنا لا اعرف اسمك ، ولا اعرف عنوانك ، ولكني انبهك الى انك سوف تبقى موثقاً حتى يعود الشخص المكلف بنقل الرسالة الـتي نوشك ان تكتبها . والان تلطف واكتب . »

فتساءل الاسير :

— « ماذا ؟ »

— « سوف أملي عليك . »

وتناول مسيو لوبلان الريشة .

وبدأ تيناردييه يملي :

– « ابنتي ... »

وارتعد الأسير ، ورفع عينيه الى تيناردييه .

وقال تيناردييه :

– « ضع : ابنتي العزيزة . »

وامتثل مسيو لوبلان .

وتابع تيناردييه :

– « تعالي في الحال ... »

وقاطع نفسه متسائلاً :

– « انت تخاطبها بضمير المفرد ، اليس كذلك ؟ »

فساله مسيو لوبلان :

– « مَنْ ؟ »

فقال تيناردييه :

– « يا الـهي ! الفتاة الصغيرة ، القبّرة . »

واجاب مسيو لوبلان من غير ان يبدو عليه اقل أمارة من أمارات الانفعال :

« انا لا أدري ماذا تعني . »

فقال تيناردييه :

– « حسن ، تابع الكتابة . »

واستأنف الاملاء :

– « تعالي في الحال . انا في حاجة ماسة اليك . إن الشخص الذي سيقدّم اليك هذه المذكرة مكلّف بأن يقودكِ اليّ . أنا في انتظارك . تعالي في ثقة . »

وكان مسيو لوبلان قد كتب ذلك كله . واضاف تيناردييه :

– « آه ، اشطب تعالي في ثقة ، فقد يقودها هذا الى الاعتقاد بأن

المسألة ليست في غاية البساطة ، وأن عدم الثقة ممكن . »
ومحا مسيو لوبلان الكلمات الثلاث .
وتابع تيناردييه :
— « والآن ، وقّع . ما اسمك ؟ »
واطّرح الأسير الريشةَ ، وسأل :
— « الى مَنْ هذه الرسالة ؟ »
فأجاب تيناردييه :
— « انت تعرف ذلك جيداً . الى الفتاة الصغيرة . لقد قلتُ لك هذا منذ لحظة . »
كان واضحاً ان تيناردييه قد تجنب تسمية الفتاة الشابــــة موضوع السؤال . لقد قال : « القبّرة » ؛ وقال : الفتاة الصغيرة » ، ولكنه لم يلفظ الاسم . حَذَرُ رجلٍ ماكر يصون سره امام شركائه في الجريمة . فلو قد نطق بذلك الاسم اذن لأسلم « المسألة كلها » اليهم ، ولأخبرهم بأكثر مما ينبغي لهم ان يعرفوه .
واستأنف كلامه :
— « وقّعْ . ما اسمك ؟ »
فقال الأسير :
— « اوربان فابر . »
وبحركة مثل حركة الهرة اقحم تيناردييه يده في جيبـــه ، وأخرج منها المنديل الذي انتزعه من مسيو اوبلان . وبحث عن العلامـة التي يحملها ، وقرّبها من الشمعة .
— « أ . ف . U . F ذلك هو . أوربان فابر . حسناً ، وقّعْ : أ . ف . »
ووقّع الأسير .
— « ولما كان المرء يحتاج الى يديه الاثنتين لطيّ الرسالة ، فأعطني

اياها . سوف أطويها انا . »

حتى اذا تمّ له ذلك استأنف الحديث :

— « ضع العنوان . **الانسة فابر** ، في منزلك . أنا اعرف انك تسكن في مكان غير بعيد جداً من هنا ، في جوار « سان جاك دو هو با » ، ما دمت تذهب الى هناك لحضور القداس كل يوم ، ولكني لا أعرف في ايّ شارع . أنا ارى انك تفهم وضعك . واذ كنتَ لم تكذب في ما يتصل باسمك ، فلن تكذب في ما يتصل بعنوانك . ضعه انت نفسُك . »

واعتصم الأسير بالتأمل لحظةً ، ثم تناول الريشة وكتب :

— « الانسة فابر ، منزل مسيو اوربان فابر ، شارع سان دومينيك دانفير ، رقم ١٧ » .

وامسك تيناردييه بالرسالة في ضرب من التشنج المحموم .

وصاح :

— « ايتها الزوجة ! »

فاندفعت تيناردييه الزوجة نحوه .

— « هي ذي الرسالة . انت تعرفين ما يتعيّن عليك ان تفعليه . هناك عربة اجرة تحت . اذهبي في الحال ، وارجعي في الحال . »

ووجّه الخطاب الى الرجل ذي المطرقة الخاصة بقتل الثيران ، قائلاً :

— « إسمع ، ما دمتَ قد نزعت لثامك فاذهب مع المرأة . سوف تركب خلف عربة الاجرة . انت تعرف أين فارقت « العربة الصغيرة » .

فقال الرجل :

— « نعم » .

وألقى مطرقته في احدى الزوايا ، وتبع تيناردييه الزوجة .

وفيما هما يمضيان لسبيلهما ، أطلّ تيناردييه برأسه من خلال الباب نصف المفتوح ، وصاح في الرواق :

— « حذار قبل كل شيء ان تضيعا الرسالة ! تذكرا انكما تحملان مئتي الف فرنك . »

فأجابه صوت زوجته الأجشّ :

- « كن مطمئناً . لقد وضعتها في صدري . »

ولم تكد تنقضي دقيقة واحدة حتى سُمعت ضربة سوط ما لبثت ان ضعفت ثم تلاشت وشيكاً .

فغمغم تيناردييه :

— « حسن ! انهما منطلقان في سرعة صالحة . وبهذه السرعة سوف ترجع المرأة في ثلاثة ارباع الساعة . »

وقرّب كرسياً الى الموقد ، وجلس ، طاوياً ذراعيه ، رافعاً حذاءه الملطخ بالوحل الى الكانون .

وقال :

— « قدماي باردتان . . »

لم يكن قد بقي في الوكر ، الان ، غير خمسة قطاع طرق مع تيناردييه والأسير . وكان هؤلاء الرجال – بأقنعتهم او بالطلاء الأسود الذي غطى وجوههم وجعلهم ، وفقاً لما يوحيه الخوف ، فحامين او زنوجاً او أبالسة – ذوي مظهر خدِرٍ كالح ، وكان خليقاً بمن يراهم أن يعتقد أنهم يقدمون على ارتكاب جريمة كما يقدمون على القيام بأي عملٍ تافه من غير ما غضب ومن غير ما رحمة ، في ضرب من الضجر . كانوا مكدّسين في احدى الزوايا كالبهائم ، وكانوا صامتين . كان تيناردييه يدفىء قدميه . وكان الأسير قد اعتصم بالصمت من جديد . وكانت سكينةٌ مظلمة قد عقبت الجلبة التي ملأتِ العلية قبل بضع لحظات .

وكانت الشمعة التي تكوّنَ فيها ثؤلول ضخم لا تكاد تضيء الوكر الواسع الا بشقّ النفس ، وكانت النار قد خمدت ، والقت جميع تلك

الرؤوس الفظيعة ظلالاً هائلة على الجدران وعلى السقف .

ولم يكن في الامكان سماع أيما صوت غير صوت الانفاس الهادئة التي أطلقها العجوز السكران ، وكان مستسلماً للرقاد .

وانتظر ماريوس في قلق كان كل شيء يزيده حدّةً . كانت الاحجية ممتنعة على التفسير اكثر منها في ايما وقت مضى . من كانت هذه « الصغيرة » التي دعاها تيناردييه « القبرة » ايضاً ؟ اهي فتاته « أورسول » ؟ ولم يبدُ على وجه الأسير انفعال ما لدن سماعه هذه الكلمة ، القبّرة ، وأجاب باكثر ما يكون من الطبيعية : انا لا ادري ماذا تعني . ومن ناحية ثانية ، فقد فُسّر الحرفان أ . ف U . F . كانا يرمزان الى « أوربان فابر » ، ولم تكن أورسول تدعى أورسول . ذلك كان الشيء الذي رآه ماريوس باكثر ما يكون من الوضوح . وأبقاه ضربٌ من السحر المروّع مسمّراً في المكان الذي راقب منه هذا المشهد كله وهيمن عليه . كان عاجزاً ، تقريباً ، عن التفكير والحركة ، وكأنما قد محقتهُ هذه الاشياء الرهيبة التي كان يراها عن كثب . كان ينتظر ، مترقّباً ان يقع حادث من الحوادث ، كائناً ما كان ، غير قادر على ان يجمع شتات افكاره ، وغير عالمٍ ايّ مسلك ينبغي ان يسلك .

وقال :

– « وعلى اية حال ، اذا كانت **القبّرة** هي اياها ، فسوف أراها من غير شك ، لأن تيناردييه الزوجة سوف تجيء بها الى هنا . وعندئذ يصبح كل شيء واضحاً . إني مستعد لأن ابذل دمي وحياتي ، عند الحاجة ، ولكني سوف أنقذها ! لن يحول بيني وبين ذلك شيء على الاطلاق . »

وتصرّمت على هذا النحو ثلاثون دقيقة . وبدا تيناردييه مستغرقاً في تأمّل مظلم . ولم يتحرك الأسير . ومع ذلك ، فقد حسبَ ماريوس انه سمع ، بين الفينة والفينة ، وطوال بضع لحظات ، ضجةً صغيرة

بكاء مقبلةً من ناحية الأسير .

وفجأةً وجّه تيناردييه الخطاب الى الأسير :

— « مسيو فابر ، إنتبه الى ما سأقوله لك في الحال . »

ووجد ماريوس في هذه الكلمات القليلة بصيصاً من النور ، فأصغى في انتباه . وتابع تيناردييه حديثه :

— « إن زوجتي سوف ترجع وشيكاً ، فلا تكن عجولاً . وأنا اعتقد أن القبّرة هي ابنتك حقاً ، وأجد ان من الطبيعيّ جداً أن تحرص على الاحتفاظ بها . ولكن اسمع لحظة . برسالتك تلك ، سوف تعثر زوجتي عليها . ولقد قلت لزوجتي ان تكون حسنة البزة ، كما رأيت ، لكي تلحق بها آنستك الصغيرة من غير تردد . ولسوف تركبان معاً عربةَ الأجرة التي يتعلق رفيقي بمؤخرتها . وهناك في مكان ما خارج احد ابواب المدينة ، عربة شُدّ اليها فرسان أصيلان . سوف تقودان آنستك الصغيرة الى هناك . ولسوف تترجل من العربة . وعندئذ يركب رفيقي العربة الاخرى معها ، وتعود زوجتي الى هنا لكي تقول لنا « قُضي الأمر . » أما آنستك ، فلن يُنزَلَ بها اذىً ما . ان العربة سوف تسوقها الى مكان تنعم فيه بالهدوء ، وما إن تعطيني المئتي الف فرنك ، هذا المبلغ الصغير ، حتى تعاد الآنسة اليك واذا ما ابلغتَ الشرطة فاعتقلتني ، فعندئذ يقرص رفيقي القبّرة قرصةً ، هذا كل ما هناك . »

ولم ينبس الأسير ببنت شفة . وبعد تمهّل ، استأنف تيناردييه كلامه :

— « المسألة بسيطة ، كما ترى . لن يكون ثمة اذىً الا اذا شئت أنت ان يكون . هذه هي القصة كلها . لقد رويت لك كل شيء ، لكي يكون على بيّنة من امرك . »

وصمتَ . ولم يقطع الأسير حبل الصمت ، فأردف تيناردييه :

— « ما إن ترجع زوجتي وتقول : « القبّرة على الطريق » حتى

نطلق سراحك ، وعندئذ يكون في إمكانك ان تذهب الى بيتك وتنام . انت ترى أننا لا نضمر نياتٍ سيئة . »

وتعاقبتْ على عقل ماريوس صورٌ رهيبة . ماذا ؟ هذه الفتاة الشابة التي يعتزمون اختطافها ، لن يجيئوا بها الى هنا ؟ إن واحداً من هؤلاء الغيلان سوف يسوقها تحت جنح الظلام ؟ الى اين ؟... واذا كانت هي ! وكان واضحاً أنها هي . واستشعر ماريوس ان قلبه يكفّ عن الخفقان . ما الذي ينبغي ان يعمله ؟ ايطلق الرصاص من المسدس الصغير ؟ أيلقي بهؤلاء الأوغاد كلهم في يد العدالة ؟ ولكن الرجل الفظيع ذا المطرقة سوف يكون بعيداً عن متناول البوليس مع الفتاة الشابة . وتـــذكّر ماريوس كلمات تيناردييه هذه التي حزر ما انطوت عليه من مغزىً دمويّ : **اذا أبلغت الشرطة فاعتقلتني فعندئذ يقرص رفيقي القبرةَ قرصة .**

والان لم تعد وصية الكولونيل وحدها هي التي تغلّ يده . لقد غلّ يده فوق ذلك ، حبُه نفسُه ، والخطرُ المحدق بتلك التي احبّها .

وفي كل لحظة ، اتخذت هذه الحالة الرهيبة ، التي نشأت منذ ساعة او يزيد ، مظهراً جديداً . ووجد ماريوس القوةَ على استعراض مختلف الافتراضات الموجعة ، على التعاقب ملتمساً املًا ما ، غيرَ واجدٍ ذلك الأمل . وتغايرت جلبة أفكاره تغايراً غريباً مع صمت الوكر المأتمي .

وفي غمرة من هذا الصمت سُمع صوت باب السلم يُفتح ، ثم يُغلق .

وقام الأسير بحركة في قيوده .

وقال تيناردييه :

– « ها قد أقبلت السيدة . »

ولم يكد يقول ذلك حتى اندفعت تيناردييه الزوجة الى الغرفة ، حمراءَ ، مبهورةً ، لاهثةً ، ملتهبة العينين ، وصاحت لاطمةً مثقتيها بكلتا يديها في آنٍ معاً :

— « عنوانٌ كاذب ! »

ودخل قاطع الطريق الذي قادتهُ معها ، على اثرها ، وتناول مطرقته الخاصة بقتل الثيران ، من جديد .

وكرّر تيناردييه :

— « عنوان كاذب ؟ »

وتابعتْ :

— « لا أحد ! شارع سان دومينيك ، رقم سبعة عشر ، لا يوجد شخص اسمه اوربان فابر ! لم يعرف احد من هو هذا الرجل ! »

وصمتت وقد غصت بريقها . ثم استأنفت كلامها :

— « مسيو تيناردييه ! إن هذا الرجل العجوز قد خدعك ! انت ساذج اكثر مما ينبغي ، أرأيت ؟! لو كنت مكانك لبدأت بتمزيق فكه الى اربع قطع ! ولولا انه قبيح ، لكان جديراً بي أن أطبخه حياً ! وعندئذ كان يجد نفسه مضطراً الى الكلام ، والى ان يقول اين الفتاة ، واين المال المخبوء ! هكذا أتأتّى للأمر ! فلا عجب اذا ما قالوا ان الرجال اشدّ بلاهة من النساء ! لا أحد ! رقم سبعة عشر ! إنه باب كبير من ابواب العربات ! لا مسيو فابر في شارع سان دومينيك ! والفرّسان ينطلقان باقصى السرعة ، والرشوة الى السائق ، وكل شيء ! لقد تحدثت مع البواب والبوابة ، وهي امرأة جميلة قوية ، فلم يعرفا الرجل . »

وتنفس ماريوس الصعداء . كانت هي ، أورسول أو القبرة — تلك التي لم يَعُدْ يعرف بمَ يدعوها — قد نجتْ .

وفيما كانت زوجته الساخطة تصيح ، جلس تيناردييه على الطاولة . لقد جلس بضع ثوانٍ غيرَ ناطق بكلمة ، مؤرجحاً ساقه اليمنى المتدلّية ، محدّقاً الى الكانون وقد َطفَتْ على وجهه سيما وحشية من الاستغراق في التفكير .

وأخيراً قال للأسير مغيّراً نبرةَ صوته تغييراً بطيئاً وضارباً على نحو فريد :

– « عنوان كاذب ! ما الذي كنت ترجوه من وراء ذلك ؟ »

فصاح الأسير في صوت مجلجل :

– « ان اكسب الوقت ! »

وهزّ ، في الوقت نفسه ، القيود المكبَّل بها . كانت قد قُطِّعت . ولم يعد الأسير موثقاً الى السرير إلا برجلٍ واحدة .

وقبل ان يجد الرجال السبعة متسعاً من الوقت يَصْحون فيه من الدهش ، ويثبون على الأسير كان هو قد انحنى نحو الموقد ، وبسط يده في اتجاه الكانون ، ثم نهض ، فاذا بتيناردييه ، وتيناردييه الزوجة ، وقطاع الطرق ، وقد قذفت بهم الصدمة الى مؤخر الغرفة ، يحدقون اليه في انشداه ، رافعاً فوق رأسه الازميلَ المتّقد ، المرسل ضياءً مشؤوماً ، متمتعاً بحريته تقريباً في وضع رهيب .

وعند التحقيق القضائي الذي استتبعه كمين بيت غوربو العتيق ظهر أن قطعة نقدية كبيرة من فئة الـ « سو » ، مقطوعةً ومعالجةً على نحو فريد ، قد وُجدت في العلّية عندما داهمها البوليس . وكان هذا الـ « سو » الضخم احدى عجائب الصناعة التي ينتجها صبرُ الأشغاليين في الظلام ، ومن أجل الظلام ؛ عجائب ليست غير ادوات للهرب . وهذه الثمرات الدقيقة البشعة الناشئة عن فنّ رائع هي بالنسبة الى الصياغة كاستعارات اللهجة العامية بالنسبة الى الشعر . إن في سجون الأشغاليين عشرات من مثل بينفينيتو سيليني * كما ان في اللغة عشرات من مثل فييّون ** . فالرجل الشقيّ الطامع في الخلاص يجد الوسيلةَ ،

* Cellini نقاش ومثال وصائغ ايطالي شهير ، ولد وتوفي في فلورنسة (١٥٠٠ – ١٥٧١) .

** Villion شاعر فرنسي قديم يعتبر اول شعراء فرنسة الغنائيين الكبار ، وقد توفي حوالى ١٤٨٩ .

من غير ادوات في بعض الاحيان ، بسكين ، او بمدية قديمة ، الى شقّ قطعة نقدية من فئة الـ « سو » الى صفيحتين رقيقتين ، وتقعير هاتين الصفيحتين من غير ان تُمسّ السّمة النقدية بسوء ، وإحداث اسنان لولب على حافة الفلس بحيث يكون من اليسير إلصاق الصفيحتين من جديد . وإنما تُثبّت هاتان الصفيحتان وتُفكّان ساعةَ يشاء المرء ؛ إنها اشبه شيء بصندوق . وفي هذا الصندوق يُخفي الاشغاليون نابضاً من نوابض الساعات . وهذا النابض اذا ما اصطُنع اصطناعاً جيداً يقطع حلقاتٍ من حجم ما ، وقضباناً حديدية . إن البائس المحكوم عليه بالاشغال الشاقة يُفترض فيه ان لا يملك غير « سو » واحد . لا ؛ إنه يملك الحرية . وانما كان الـ « سو » الذي عثر عليه البوليس في الغرفة ، في ما بعد ، من هذا الضرب الكبير ؛ وكان مفتوحاً ذا شقّين مطروحين تحت الحشيّة ، قرب النافذة . ولقد اكتشف البوليس ايضاً منشاراً صغيراً من فولاذ ازرق كان ممكناً اخفاؤه في قطعة الـ « سو » النقدية الكبيرة . وأغلب الظن ان الاسير كان يحمل هذا الـ « سو » الكبير عندما فتش قطاع الطرق جيوبه ، وانه قد وُفق الى اخفائه في يده . حتى اذا أُطلقت يده اليمنى ، بعدُ ، من عقالها ، فكّه واصطنع المنشار في تقطيع الحبال التي شُدّ بها وثاقه ، وهو ما يفسر الضجة الضئيلة والحركات الخفية التي لاحظها ماريوس .

واذ لم يكن قادراً على الانحناء خشيةَ ان يفضح نفسه ، فأنه لم يقطع الحبال التي تقيّد رجله اليسرى .

وكان قطاع الطرق قد استفاقوا من ذهولهم الأول .

وقال بيغروناي لتيناردييه :

— « لا تجزع . ان احدى رجليه لا تزال موثوقةً بالحبال ، ولن يستطيع الافلات . انا واثق من ذلك . لقد ربطتُ انا ساقهُ هذه . »

وهنا رفع الاسير صوته :

— « انتم مساكين ، ولكني حياتي لا تستحق عناء دفاع طويل . اما تخيلكم انه كان في امكانكم ان تحملوني على الكلام ، انـه كان في امكانكم ان تحملوني على كتابة ما لا اريد كتابته ، انه كان في إمكانكم ان تقوّلوني ما لا اريد ان اقوله ... »

ورفع رُدْن ذراعه اليسرى ، وأضاف :

— « انظروا ! »

وفي الوقت نفسه ، بسط ذراعه ، ووضـع الازميل المضطرم على لحمه العاري ، وقد أمسك بذلك الازميل ، من مقبضه الخشبي ، بيـده اليمنى .

وسُمِع فحيح اللحم المحترق . وانتشرت في ارجاء الوكر الرائحـة الخاصة بغرف التعذيب . وترنح ماريوس وقـد ذهب الذعر بصوابه . ومرت الرعدة في أوصال قطاع الطرق أنفسهم . ولم ينقبض وجه الرجل العجوز الغريب الا قليلاً . وفيما كان الحديد الاحمر الحامي يغوص في الجرح الداخن ، الممتنع على الوجع ، والذي كاد ان يكون فخيماً ، ادار نحو تيناردييه وجهه الجميل حيث لم يكن ثمة كره ، وحيث كان الألم قد تلاشى في غمرة من الجلال المشرق .

فعند اصحاب النفوس الكبيرة الرفيعة تؤدي ثورة اللحم والحواس على غارات الألم الجسدي الى إطلاق الروح فتبدو على المحيّا ، كما تُكره ثورة الجنود قائدَ الجيش على البوح بما تُكنّه نفسه .

وقال :

— « ايها الاوغاد ، لا تخافوا مني اكثر مما خفتُ منكم . »

وسحب الازميل من الجرح ، وقذف به الى الخارج من خلال النافذة التي كانت لا تزال مفتوحة . واختفت الأداة الرهيبة المتوهجة ، مدوّمةً في الظلام ، وسقطت في المدى البعيد ، وخمدت وسط الثلج .

واستأنف الاسير كلامه :

– « افعلوا بي ما تشاءون ! »

كان أعزل .

وقال تيناردييه :

– « أمسكوا به ! »

ووضع اثنان من قطاع الطرق أيديهما على منكبيه ، ووقف الرجل المقنّع ذو الصوت البطنيّ تجاهه ، مستعداً لأن يُطيح رأسه بضربةٍ من المفتاح ، اذا ما قام بحركة ما .

وفي الوقت نفسه سمع ماريوس تحته ، عند أدنى الجدار الحاجز ، ولكن على قرب شديد جعل من المتعذر عليه ان يرى المتكلمين – سمع هذا الحوار يدور في صوت خفيض :

– « لم يبق علينا ما نعمله غير شيء واحد . »

– « ان نقتله ! »

– « هو ذاك . »

كان الزوج والزوجة يتشاوران .

وفي خطىً بطيئة تقدم تيناردييه نحو الطاولة ، وفتح الدرج ، وأخرج المدية .

ودغدغ ماريوس زناد المسدس الصغير . ارتباك لم يُسْمَع بمثله من قبل ! فطوال ساعة كان صوتان ينطلقان في ضميره ، الاول يدعوه الى احترام وصية أبيه ، والآخر يهيب به الى إنجاد الاسير . وواصل هذان الصوتان ، في غير انقطاع ، صراعهما الذي أورثه آلاماً نفسية مريرة . وكان قد رجا ، حتى تلك اللحظة ، أن يجد وسيلة الى التوفيق بين هذين الواجبين ، ولكن أيما طريقة ممكنة لم تنشأ . كان الخطر قد أمسى الآن ملحّاً ، وكان هو قد تخطّى آخر تخم من تخوم الرجاء . فعلى بضع خطىً من الأسير كان تيناردييه يفكر والمديةُ في يده .

وأجال ماريوس في ما حوله نظراً شارداً ، وذلك آخر سهم في كنانة اليأس .

وفجأة ارتعدت أوصاله .

فعند قدميه ، فوق الطاولة ، التمع شعاع مشرق من قمرٍ بَدرٍ ، وبدا وكأنما كان يدلّه على قصاصة من ورق . وعلى هذه الورقة قرأ هذا السطر ، مكتوباً بأحرف كبيرة ذلك الصباح نفسه ، بخطّ بنت تيناردييه الكبرى :

— « لقد اقبلت الشرطة . »

واخترقت عقلَ ماريوس فكرة ، او قُل ضياء . تلك كانت الوسيلة التي يبحث عنها ، الحلّ لهذه المشكلة الرهيبة التي كانت تعذبه تعذيباً : ان يُبقي على السفاح ويُنقذ الضحية . وركع على الخزانة ذات الأدراج ، ومدّ ذراعه ، والتقط قصـــاصة الورق . وفي سكون ، انتزع من الجدار الحاجز قطعة جصّ ، ولفّها بالورقة ، وطرحها من خلال الثغرة الى منتصف الوكر .

وكان ذلك في الوقت المناسب . ذلك ان تيناردييه كان قد قهر آخر مخاوفه ، او آخر وساوسه ، وتقدّم نحو الأسير .

وصاحت تيناردييه الزوجة :

— « لقد سقط شيء ! »

فقال الزوج :

— « وما هو ؟ »

كانت المرأة قد وثبت الى أمام والتقطت قطعة الجصّ المغلّفة بالورق .

وقدّمتها الى زوجها .

وسألها تيناردييه :

— « كيف جاءت هذه الى هنا ؟ »

فقالت المرأة :

— « يا الهي ! من أين تريدها ان تجيء ؟ لقد جاءت من النافذة . »

وقال بيغروناي :

— « لقد رأيتها في طريقها الى الغرفة . »

وسارع تيناردييه الى نشر الورقة ، ورفعها الى قريب من الشمعة .

— « إنها بخطّ إيبونين . يا للشيطان ! »

وأومأ الى زوجته ، فاقتربت على عجل ، وأراها السطر المكتوب على الورقة . ثم اضاف في صوت غائر :

— « عجلوا ! السلمّ ! دعوا اللحم في الشرَك ، وولّوا الادبار ! »

فسألته تيناردييه الزوجة :

— « من غير أن نحتزّ حنجرة الرجل ؟ »

— « ليس لدينا متسع من الوقت . »

وقال بيغروناي :

— « من اين ؟ »

فأجاب تيناردييه :

— « من خلال النافذة . لما كانت ايبونين قد ألقت الحجر من خلال النافذة فمعنى ذلك ان البيت غير مراقب من هذه الجهة . »

واطّرح الرجل المقنّع ذو الصوت البطنيّ مفتاحه الضخم ، ورفع كلتا ذراعيه في الهواء ، وفتح واغلق يديه على نحو خاطفٍ ثلاث مرات من غير ان يقول شيئاً . كان ذلك اشبه بصيحة الاستعداد للقتال على ظهر سفينة من السفن . وخلّى قطاعُ الطرق الممسكون بالاسير سبيله . وفي ومضة عين كانت السلم المصنوعة من حبال قد طُرح طرَفها الى خارج النافذة ، ثم أُحكم تثبيتها الى حافة تلك النافذة بالكُلاّبين الحديديين .

ولم يُلقِ الاسير بالاً الى ما كان يجري من حوله . لقد بدا وكأنه كان يحلم او يصلي .

وما إن ثُبّتت السلم حتى صاح تيناردييه :

– « تعالي ، ايتها الزوجة ! »

واندفع نحو النافذة .

وفيما كان يحاول القفز من النافذة ، أخذ بيغروناي بخناقِهِ أخذاً عنيفاً :

– « لا ، لا ، أيها الماجن العجوز ! بَعْدَنا ! »

وهرّ قطاع الطرق :

– « بَعْدَنا ! »

وقال تيناردييه :

– « انتم أطفال . إننا نضيع الوقت . إن البوليس يكاد يُدركنا . »

فقال احد قطاع الطرق :

– « حسن ، فلنسحب قُرعةً على من يخرج اولاً . »

فصاح تيناردييه :

– « هل أنتم مجانين ؟ هل انتم مختلّو العقـــل ؟ انتم مجموعة من السذّج ! ضياع للوقت ، أليس كذلك ؟ سحب قرعة ، أليس كذلك ؟ بأصبع مبلّلة ؟ وبواسطة قشّ متفاوت الطول ؟ نكتب اسماءنا ! نضعها في قلنسوة ...! »

وصاح صوت من عتبة الباب :

– « أتريدون قبعتي ؟ »

واستداروا جميعاً . كان جافير .

كانت قبعته في يده ، وكان يبسط ذراعه بها وهو يبتسم .

٢١

يجب ان ُيبدأ دائماً بألقاء القبض على الضحايا

كان جافير قد عهد الى رجاله في مراقبة المنزل ، واختبأ خلف اشجار شارع « لا باريير دو غوبلين » الذي يواجه بيت غوربو العتيق على الجانب الآخر من الجادة . لقد بدأ بأن فتح « جيبه » ليُدخل فيه الفتاتين الشابتين اللتين كُلفتا مراقبة المداخل المؤدية الى الوكر . ولكنه لم ُيلق القبض إلا على آزيلما . اما ايبونين ، فلم تكن في الموقف المعيّن لها . كانت قد اختفت ، فلم يتمكن من اعتقالها . ثم إن جافير اخلد الى الراحة ، وأصغى منتظراً الاشارة المتفق عليها . وأقلقه ذهاب عربة الأجرة وإيابها إقلاقاً عظيماً . واخيراً نفد صبره . واذ كان **واثقاً من انه كان ثمة وكر لصوص** ، واذ كان واثقاً من « **حسن حظه** » بعد ان تبين عدداً من قطاع الطرق الذين دخلوا الى هناك ، فقد عزم آخر الامر على ان يرتقي السلم من غير ان ينتظر إطلاق النار .

والقراء يذكرون انه كان يحمل مفتاح ماريوس العمومي .

كان قد أقبل في الوقت المناسب .

واندفع قطاع الطرق المروَّعون التماساً للاسلحة التي كانوا قد طرحوها كيفما اتفق حين حاولوا الفرار . وفي اقلّ من ثانية ، كان هؤلاء الرجال السبعة ، ذوو المنظر الرهيب ، قد تجمّعوا في موقف دفاع : احدهم يحمل مطرقة نيرانه ، والاخر يحمل مفتاحه ، والثالث يحمل هراوته ، وسائرهم يحملون المقصات ، والكلاليب ، والمطارق ، وتيناردييه يتشبّث بمديته . وامسكت

تيناردييه الزوجة بلاطة ضخمة كانت في زاوية النافذة ، وكانت ابنتاها تتخذان منها مقعداً منخفضاً .

واعتمر جافير بقبعته من جديد ، ودخل الغرفة ، طاوياً ذراعيه ، وعصاه تحت إبطه ، وسيفه في قرابه .

وقال :

– « قفوا مكانكم ! انكم لن تفروا من النافذة . إنكم لن تفروا من الباب . هذا اقل وخامة . انتم سبعة ، ونحن خمسة عشر . فلا تكرهونا على ان نمسك بخناقكم وكأنكم من سكان اوفيرنيْ . فلنكن لطافاً . »

واخرج بيغروناي مسدساً صغيراً كان قد خبأه تحت قميصه ، ووضعه في يد تيناردييه وهو يهمس في أذنه :

– « هذا جافير ! انا لا اجرؤ على تصويب النار الى هذا الرجل . اتجرؤ انت ؟ »

فأجابه تيناردييه :

– « وحق الالـه ! »

– « اذن أطلق النار ! »

واخذ تيناردييه المسدس ، وسدده الى جافير .

وحدق اليه جافير ، الذي كان على ثلاث خطوات منه ، تحديقاً موصولاً ، واجتزأ بالقول :

– « لا تطلق النار ! ان زند مسدسك سوف يكبو . »

وضغط تيناردييه على الزند ، فلم يُورِ .

فقال جافير :

– « لقد قلتُ لكَ ذلك ! »

وطرح بيغروناي عصاه القصيرة المغلّف طرفها بالرصاص على قدمي جافير .

-- « أنت امبراطور الابالسة ! إني أستسلم . »

وسأل جافير قطاع الطرق الآخرين :

- « وأنتم ؟ »

فأجابوا :

- « ونحن ايضاً . »

فأجاب جافير في هدوء :

- « هو ذاك ! هذا حسن ! لقد قلتُ ذاك ، انتم لطاف . »

فقال بيغروناي :

- « إني التمس شيئاً واحداً ليس غير ، وهو ان لا أحرم التدخين حين اوضع في الحجيرة المنفردة . »

فقال جافير :

- « لك ذاك . »

والتفت ، ونادى :

- « ادخلوا الآن ! »

واندفعت الى الغرفة ، تلبيةً لدعوة جافير ، شرذمة من شرطة المدينة الشاهري السيوف ، ومن رجـــال البوليس المسلّحين بالعصي القصيرة وبالهراوات . وأوثقوا قطاع الطرق . وملأت هذه الجمهرة من الرجـال الذين لم تُضئهم الشمعة إلا على نحو باهت - ملأت الوكر بالظلام .

وصاح جافير :

- « كبّلوا الجميع بالاغلال . »

وصاح صوتٌ لم يكن صوت رجل ، ولكنّ اياً من الناس ما كان ليقول انه صوت امرأة :

- « اقتربوا قليلًا إذن ! »

كانت تيناردييه الزوجة قد تحصّنت في احدى زوايا النافذة ، وكانت هي التي اطلقت تلك الزأرة .

وارتد شرطة المدينة ورجال البوليس .

كانت قد اطرحت شالها ، ولكنها ظلت معتمرةً بقبعتها . وكان زوجها ، الجالس القرفصاء خلفها ، قد احتجب او كاد تحت الشال الساقط ، وكانت قد غطّته بجسدها ، رافعةً البلاطة بكلتا يديها فوق رأسها في مثل توازن عملاقةٍ على وشك ان تقذف صخرةً ما .

وصاحت :

— « خذوا حذركم ! »

وارتدّوا كلهم الى الوراء في اتجاه الرواق . وترك ذلك فراغاً عريضاً في وسط العلّية .

والقت تيناردييه الزوجة نظرة على قطاع الطرق الذين ارتضوا ان يُشَدَّ وثاقهم ، وغمغمت في نبرة حلقية مبحوحة :

— « الجبناء ! »

وابتسم جافير ، وتقدّم الى الرقعة الفارغة التي كانت تيناردييه الزوجة تبتلعها بعينيها .

وصاحت :

— « حذار أن تقترب . وإلا سحقتك سحقاً ! »

فقال جافير :

— « ايّ رامية قنابل انتِ ! ايتها الأم ، إن لكِ لحية مثل رَجُل ، ولكنّ لي براثن مثل امرأة . »

وواصلَ تقدمه .

وباعدت تيناردييه الزوجة ، شعثاءَ فظيعةً ، ما بين رجليها ، وانحنت الى الوراء ، وقذفت بالبلاطة ، في ضراوة ، رأسَ جافير . وطأطأ جافير رأسه ، فمرّت البلاطة من فوقه واصابت الجدار خلفه ، مُسقطة منه قطعة كبيرة من الجص ، وارتجعت واثبةً من زاوية الى زاوية عبر الغرفة ، الفارغة تقريباً لحسن الحظ ، لتستقر آخر الأمر عند عقبَيْ

جافير .

وفي تلك اللحظة انتهى جافير الى تيناردييه وامرأته . وسقطت احدى يديه الضخمتين على كتف المرأة ، والاخرى على رأس زوجها .

وصاح :

— « الاغلال ! »

وعاود رجال البوليس الدخولَ زمرةً واحدةً ، ومـا هي الا بضع ثوانٍ حتى نُفـّذ امر جافير .

ونظرت تيناردييه الزوجة ، مهيضة الجناح ، الى يديهـــا المغلولتين والى يدي زوجهـا ، وخرّت على الارض ، وصـاحت والدموع في عينيها :

— « بنتاي ! »

فقال جافير :

— « لقد تدبرنا امرهما . »

وفي اثناء ذلك كان رجال الشرطة قد عثروا على السكران الذي كان نائماً خلف الباب ، وهزّوه . فاستيقظ متلجلجاً :

— « هل انتهى كل شيء ، يا جوندريت ؟ »

فأجابه جافير :

— « نعم . »

كان قطاع الطرق الستة المكبّلون واقفين على اقدامهم . بيد انهم ظلوا محتفظين بظهرهم الاشباحيّ : ثلاثة كانوا ملطخي الوجوه بالسواد ، وثلاثة كانوا مقنّعي الوجوه .

وقال جافير :

— « إحتفظوا بأقنعتكم . »

واستعرضهم بمثل عين فريدريك الثاني وهو يستعرض قـوات الجيش في بوتسدام ، وخاطب « دكاترة المداخن » الثلاثة قائلاً :

- « طاب نهارك ، يا بيغروناي ! طاب نهارك ، يا بروجون ! طاب نهارك ، يا دو ميّار ! »

ثم إنه التفت الى المقنّعين الثلاثة ، وقال للرجل ذي المطرقة الخاصة بقتل الثيران :

- « طاب نهارك ، يا غولوميه ! »

وقال للرجل ذي الهراوة :

- « طاب نهارك ، يا بابيه ! »

وقال لصاحب الصوت البطنيّ :

- « تحياتي ، يا كلاكسو ! »

وفي تلك اللحظة فقط لمح اسيرَ قطاع الطرق ، الذي كان قد اعتصم بالصمت منذ دخول البوليس ، وخفض رأسه .

وقال جافير :

- « فكّوا وثاق السيد ، ولا تدعوا احداً يخرج . »

نطق بذلك وجلس ، في سلطان ، أمام الطاولة التي كانت الشمعة وادوات الكتابة ما تزال فوقها ، وسحب من جيبه ورقة تحمل طابعاً وشرع يدوّن محضره .

حتى اذا خطّ الأسطر الاولى التي لا تعدو ان تكون صيغةً مألوفة لا تتغير ابداً ، رفعَ عينيه :

- « قرّبوا مني هذا السيد الذي كان هؤلاء السادة قد شدوا وثاقه . »

وأجال رجال الشرطة طرفهم في ما حولهم .

وسألهم جافير :

- « حسناً ، اين هو الان ؟ »

كان أسيرُ قطاع الطرق ، مسيو لوبلان ، مسيو أوربان فابر ، أبو أورسول ، أو القبّرة ، قد اختفى .

كان الباب محروساً ، ولكن النافذة لم تكن محروسة . فما ان رأى الى نفسه محاول الوثاق ، وفيما كان جافير يكتب ، حتى اغتنم فرصة الاضطراب والجلبة ، والاختلاط ، والظلمة ، ولحظةً كان انتباههم فيها غير مصوّب اليه ، لكي يثب من النافذة .

واندفع شرطيٌ الى النافذة ، والقى نظرةً منها . بيد ان عينه لم تقع على احد في الخارج .

كانت السلّم الحبالية لا تزال ترتعش .

وقال جافير ، من بين أسنانه :

— « يا للشيطان ! ينبغي ان يكون هذا هو احسنهم جميعاً ! »

٢٢

الصبي الصغير الذي صاح في القسم الثاني

وبعد اليوم الذي تلا وقوع هذه الاحداث في المنزل القائم عند « جادة المستشفى » ، صعّد طفلٌ ، بدا وكأنه قادم من ناحية جسر اوسترليتز ، في الزقاق الضيق الايمن ، باتجاه حاجز فونتانبلو . كان الليل قد اطبق على الكون . وكان هذا الطفل شاحب الوجه ، مهزول الجسم ، رث الثياب ، يرتدي بنطلوناً من نسيجٍ كتانيٍّ في شهر شباط ، وكان يغني بأقصى ما يستطيع من قوة .

وعند زاوية شارع الـ « بيتي بانكيه » ، كانت عجوز تنقّب في ركام من القاذورات على ضوء مصباح الشارع . واصطدم الطفل بها في طريقه ، ثم انقلب على عقبيه صائحاً :

— « عجيب ! لقد حسبتُ هذه كلباً هائلاً ، هائلاً ! »

ولفظ كلمة « هائل » ، في المرة الثانية ، بصوت منتفخ ساخر تعبّر عنه الاحرف الكبيرة احسنَ تعبير : كلباً هائلاً ، هائلاً ! »

ونهضت المرأة العجوز مغتاظة .

وغمغمت :

— « ايها المجرم الصغير ، لو لم اكن منحنية القامة لعرفتُ اين كان يجب ان اضع قدميّ ! »

كان الطفل قد أمسى الآن على بُعْد يسير .

وقال :

— « بخٍ ! بخٍ ! وعلى اية حال ، فلعلّي لم اكن مخطئاً . »

وغصت العجوز بالسخط ، وانتصبت اتوّها ، وقد اضاء وهجُ الفانوس الأحمرُ ، اضاءةً كاملة ، وجهها الشديد الشحوب ، المخدّدِ كله بالزوايا والتجاعيد ، وبدت أقدام الأوزّ عند طرفي فمها . كان جسدها محتجباً في غمرة الدجنة ، وكان رأسها وحده بادياً للعيان . وخليقٌ بالمرء أن يقول إنها قناع الهَرَم فصّله شعاعٌ في الظلام . وانعم الطفل النظر اليها .

وقال :

— « إن سيدتي ليس لها ذلك الطراز من الجمال الذي يلائمني . »

ومضى لسبيله ، وشرع يغني من جديد :

« الملك كو دو سابو
ذهب الى الصيد ،
الى صيد الغربان . »

وعند نهاية هذه الابيات الثلاثة كفّ عن الغناء . كان قد بلغ رقم ٥٠ — ٥٢ ، واذ وجد الباب موصداً ، انشأ يرفسه بقدمه رفساً مرناناً بطولياً كشف من الحذاء الرجالي الذي انتعله اكثر مما كشف عن

قدمي الطفل اللتين كانتا له .

وفي غضون ذلك كانت المرأة العجوز نفسها ، التي التقاها عند زاوية شارع الـ « بيتي بانكيبه » تعدو خلفه مرسـلةً صيحات استقباح ، ومُسرفة في الايماءات المخبولة .

— « ما المسألة ؟ ما المسألة ؟ يا الـهي الرحيم ! إنهم يخترقون الباب ! إنهم يقتحمون المنزل ! »

وتواصلت الرفسات .

واستبدّ اللهاث بالعجوز .

— « ابهذه الطريقة يستعملون البيوت في هذه الايام ؟ »

وفجأةً كفّتْ عن الكلام . كانت قد عرفت « المتشرّد » .

— « ماذا ! إنه ذلك الشيطان ! »

فقال الطفل :

— « ها ها ! إنها المرأة العجوز . طاب نهارك يا « بورغون موش » . لقد جئتُ لأرى اسلافي . »

واجابت العجوز في تكشيرة مركبة — ارتجال رائعٌ من البغض أفاد اقصى ما تكون الافادة من الهرم والبشاعة — ضاعت مع الأسف في الظلمة :

— « لا يوجد أحدٌ هنا ، ايها الولد الفظّ . »

فقال الطفل :

— « عجباً ! أين ابي ، اذن ؟ »

— « في لا فورس * . »

— « يا للشيطان ! وأمي ؟ »

— « في سان لازار * . »

— « حسن ، وشقيقتاي ؟ »

---

* « لا فورس » و « سان لازار » و « المادلونيت » سجون معروفة .

– « في المادلونيت . »

وحكّ الطفل مؤخر أذنه ، ونظر الى « مام بورغون » وقال :

– « آه ! »

ثم انقلب على عقبيه ؛ وما هي الا لحظة حتى سمعته العجوز ، التي وقفت على عتبة الباب ، يغني بصوته الواضح الناضر ، فيما هو يختفي تحت شجرات الدردار السوداء المرتعشة في وجه الرياح الشتوية :

« الملك كو دو سابو
ذهب الى الصيد ،
الى صيد الغربان ،
متباهياً متفاخراً .
وحين يمرّ الناس به
يدفعون اليه فلسين . »

فهرست القسم الثالث : « ماريوس »

الكتـاب الاول : باريس مدروسة من خلال ذرتها

الكتاب الثاني : البورجوازي الكبير

الكتاب الثالث : الجد والحفيد

الكتاب الرابع : اصدقاء الالفباء

الكتاب الخامس : فضل الشقاء

الكتاب السادس : التقاء نجمين

الكتاب السابع : المعلم مينيت

الكتاب الثامن : الفقير الشرير

انتهى المجلد الثالث
ويليه المجلد الرابع

مطبعة العلوم
حارة حريك - لبنان

